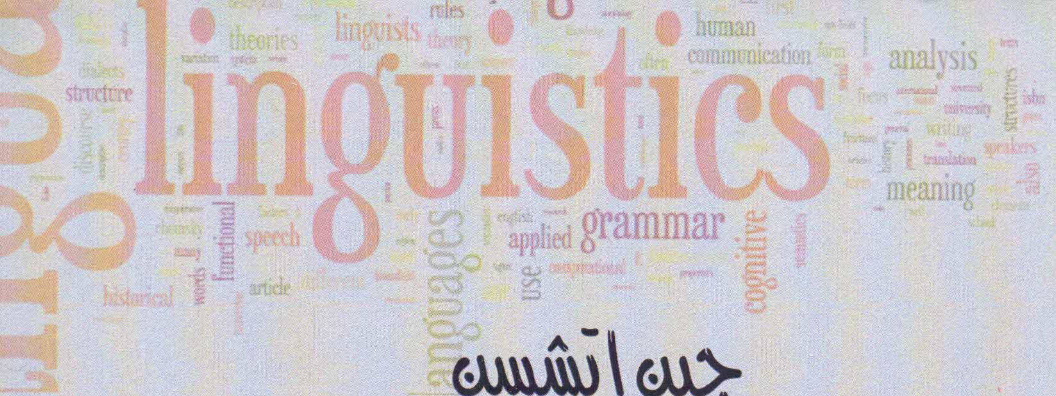


جين إتشسن

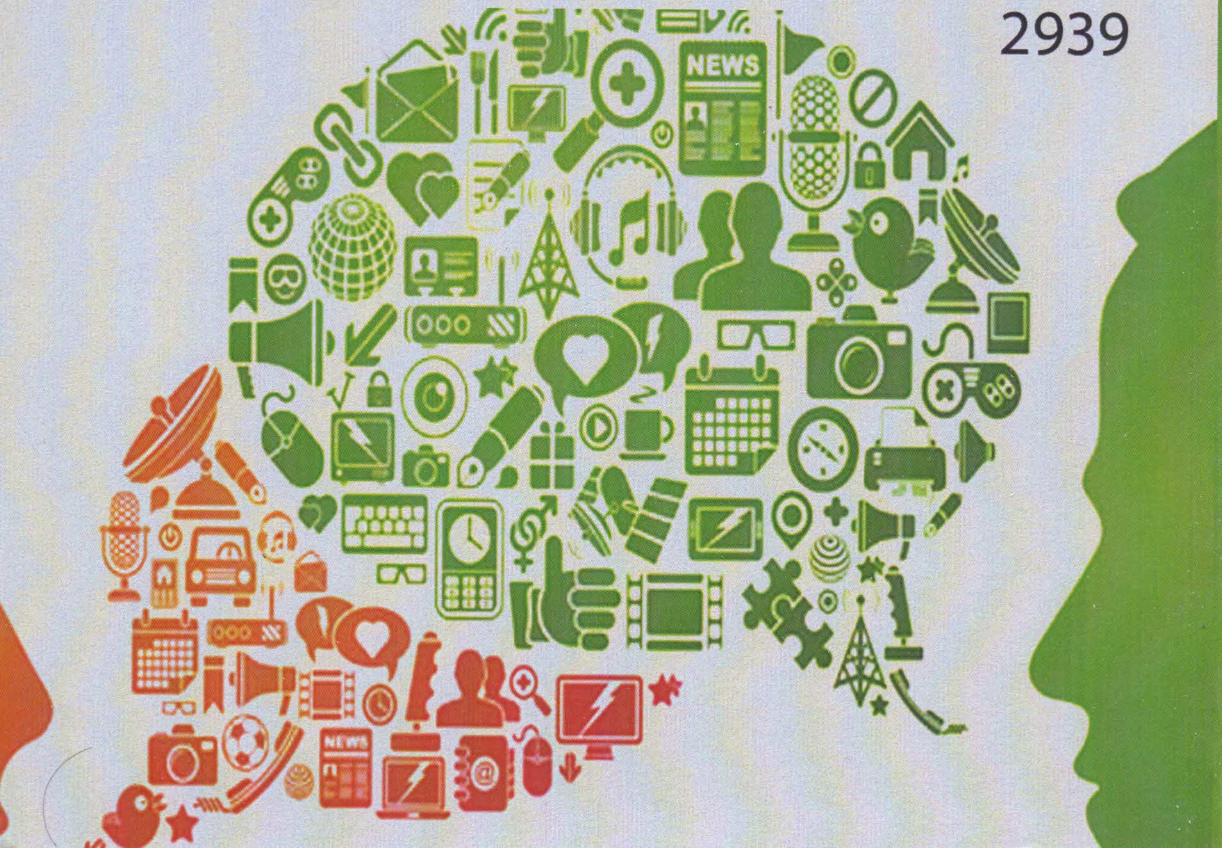
اللسانيات

مقدمة إلى المقدمات

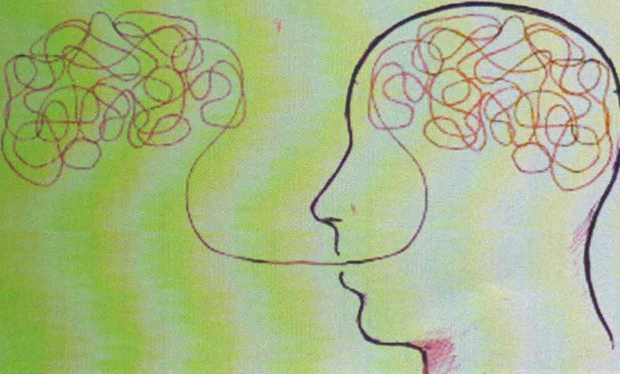
ترجمة وتعليق : عبد الكريم محمد جبل

2939

المركز القومي للترجمة



يمثّل هذا الكتابُ بطبعاته المتعاقبة وزياداتها المعتبرة، مقدمةً مثالية لعلم "اللسانيات"، أو لمقدماته المطوَّلة. حيث إنه يتناول بالدرس الموجز المقرّب جُلّ اتجاهات الدرس التي تعاقبت على هذا العلم منذ القرن التاسَع عشر، حتى سنوات العقد الأول من قرننا الحادي والعشرين. ويتناول - كذلك - بهذا الدرس الموجز المقرّب المسائل الرئيسية لجُل الموضوعات التي يُعنَى هذا العلم بالنظر فيهاَ، وذلك مثل: التعريف بعلم اللسانيات، وباللغة (موضوع هذا العلم)، وبمكوناتها (أصواتها- بنية كلماتها-القوالب التي تنتظم تراكيبها - معاني مفرداتها...). وعلاقتها بالمجتمع، والمخ البشري، والتغيرات المختلفة التي تطرأ عليها... إلخ. ويعرض هذا الكتاب عرضًا وافيًا لجهود "تشومسكي" المتعاقبة عبر عدة عقود؛ من أجل إنجاز إطار من القواعد يصلح لمعالجة كل اللغات، وكذا لاتجاهات الدرس اللسانيً المعاصرة التي تدعو إلى هجر جهوده الأخيرة، وتستبدل بها اتجاهًا آخر يصف ملكة اللغة، وآلية عملها، وصفًا أقل تجريدًا وتعقيدًا.



تصميم الغلاف: أيمن أمين

اللسانيات

مقدِّمة إلى المقدِّمات

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2939
- اللسانيات: مقدمة إلى المقدمات
- جين إتشسن
- عبد الكريم محمد جبل
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Aitchison's Linguistics
By: Jean Aitchison
Cobyright © 1999, 2003, 2010 Jean Aitchison.
First printed under the title General Linguistics 1972.
Second edition 1978 Third edition 1987 Fourth edition 1992 Fifth edition 1999 Sixth edition 2003 Seventh edition under the title Aitchison's Linguistics 2010.
First published in US 1999 by The McGraw-Hill Companies, Inc.
This edition published 2010
Previously published as Teach Yourself Linguistics
The Teach Yourself name is a registered trade mark of Hodder Headline.
All rights reserved.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

اللسانيات

مقدِّمة إلى المقدِّمات

تأليف: جين إتشسن

ترجمة وتعليق: عبد الكريم محمد جبل

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إتشسن، جين، ١٩٣٨
اللسانيات: مقدمة إلى المقدمات/ تأليف: جين إتشسن، ترجمة وتعليق:
عبد الكريم محمد جبل؛
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٥٠٤ ص، ٢٤ سم
١ - اللغة والعلم
٢ - اللغات
(أ) جبل، عبد الكريم محمد (مترجم ومعلق)
(ب) العنوان ٤٠١

رقم الإيداع: ٢٢٥٢٣ /٢٠١٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 92 - 0855 - 8

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

القسم الثاني

الدوائر الداخلية

القسم الثالث

الدوائر الخارجية

القسم الرابع

التغيرات والمقارنات

القسم الخامس

نَحْوَ نَحْوٍ كليّ

مقدمة المترجم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبي الخاتم: سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وجَدِّه أبي الأنبياء إبراهيم، وبعد...

فهذه ترجمة إلى العربية، للطبعة الأخيرة (٢٠١٠م) من كتاب **Linguistics** (اللسانيات)(١)، لـ"جِين إتْشِسُون" **Jean Aitchison** الأستاذة (المتفرغة) بجامعة "أكسفورد". وأما العنوان الفرعيُّ لهذا الكتاب – وهو "مقدّمة إلى المقدّمات" – فقد قَبَستُه من كلام المؤلِّفة، في صدر تقديمها له.

لقد طالعتُ هذا الكتاب من سنوات خَلَتْ، قبل صدور طبعته الأخيرة تلك. وراقني ما فيه من معالجات قريبة المُتناوَل، تجمع بين الشمول والإيجاز للمسائل الأساسية لهذا العلم، ولاتجاهات البحث المهمة التي تعاورتْ عليه منذ نشأته حتى العقد الأول من قرننا، هذا الحادي والعشرين.

وقد قرّ عزمي آنذاك على ترجمته؛ لما رجوتُه من النفع المتحصِّل من وراء ذلك. وعكفتُ على الاشتغال بترجمته حينًا، وهجرتُه حينًا، حتى أذن الله – تعالى – بالإتمام.

وأقدِّم بين يدي ترجمتي لهذا الكتاب تعريفًا بمؤلفته، وبيانًا لأهميته، ثم عرضًا لبعض الضوابط المنهجية التي التزمتُ بها في هذه الترجمة.

(١) آثرتُ استعمال كلمة "اللسانيات" ترجمة لكلمة linguistics التي هي اسم لهذا العِلْم في الإنجليزية؛ استجابةً لما انتهت إليه ندوة "الألسنية واللغة العربية"، التي عُقدت بـ"تونس"، في العام (١٩٧٨م)، من التوصية باستعمالها دون الترجمات الأخرى (علم اللغة/ الألسنية/ اللغويات.... إلخ) اسمًا لهذا العلم. وقد شهد هذه الندوة جَمْعٌ من كبار المتخصصين في هذا العلم، من بلدان عربية مختلفة. [المترجم].

التعريف بالمؤلفة[1]:

تعمــل "جِــين إتْشِــسُون" Jean Aitchison (١٩٣٨ - ....) حاليًّــا أســتاذة (متفرغــة) emeritus للغــة والاتــصال، بكليــة اللغــة الإنجليزيــة وآدابهــا، بجامعــة "أكسفورد"، وزميلة كلية "وِستر" Worcester College بالجامعة نفسها. وتشمل اهتماماتُها البحثية الفروعَ المعرفية الآتية:

- اللسانيات التاريخية الاجتماعية (وصف التغير اللغوى، والبحث في أسبابه، وكيفية حدوثه.... إلخ).
- اللغة والعقل (اكتساب اللغة، وفهم الكلام، وإنتاجه... إلخ).
- اللغة والإعلام (اللغة المستعملة في وسائل الإعلام، وتأثير تلك الوسائل في اللغة... إلخ).

ومن مؤلفاتها من الكتب – خلا كتابنا هذا:

- **The Articulate Mammal: An Introduction to Psycholinguistics (2011).**

(الثديي الناطق: مقدمة إلى اللسانيات النفسية).

- **Language Change: Progress or Decay? (2012).**

(تغير اللغة: ارتقاء أم اضمحلال؟).

- **Words in Mind: An Introduction to the Mental Lexicon (2003).**

(الكلمات في العقل: مقدمة إلى المعجم الذهني).

- **The Seeds of Speech: Language Origin and Evolution (2000).**

(بذور الكلام: أصل اللغة وتطورها)

- **New Media Language (edited with Diana. M. Lewis) (2003).**

(لغة ووسائل الإعلام الحديثة)

---

(١) رجعتُ في هذا التعريف بالمؤلفة إلى صفحتها الرئيسية home page على شبكة المعلومات، وكذا إلى صفحتها على موقع Amazon، وإلى:

http://en.wikipedia.org/wiki/Jean_Aitchison

هذا إلى عشرات البحوث والمقالات المتخصصة والعامة .

وأما كتابنا هذا، فقد صدر في طبعته الأولى في العام (١٩٧٢م) بعنوان: General Linguistics. ثم توالى صدور عدة طبعات له، بتصحيحات وزيادات معتبرة: فصدرت طبعته الثانية في العام (١٩٧٨م)، ثم الثالثة في (١٩٨٧م)، فالرابعة في (١٩٩٢م)، فالخامسة في (١٩٩٩م) بعنوان Linguistics: An Introduction، فالسادسة في (٢٠٠٣م) بعنوان Linguistics. ثم هذه الطبعة السابعة في العام (٢٠١٠م)، بعنوان Aitchison's Linguistics (الطبعتان الأخيرتان ضمن سلسلة Teach Yourself).

أهمية هذا الكتاب:

يمثّل هذا الكتابُ بطبعاته المتعاقبة، وزياداتها المعتبرة، طبعةً عن أخرى، مقدمةً مثالية لعلم "اللسانيات"، أو لمقدماته المطوَّلة. وذلك من حيث إنه يتناول بالدرس الموجز المقرِّب جُلّ اتجاهات الدرس التي تعاورتْ على هذا العلم. ويتناول – كذلك – بهذا الدرس الموجز المقرِّب المسائل الرئيسية لجُلّ الموضوعات التي يُعنَى هذا العلم بالنظر فيها.

وبيان ذلك: أن المؤلفة قد قسّمت كتابها هذا إلى خمسة أقسام، يندرج تحت قسم منها عدّة (فصول):

فأما فصول القسم الأول (استهلال)، فقد عرّفتْ فيها بعلم "اللسانيات"، وباللغة (= موضوع هذا العلم)، وبأشهر اتجاهات دراستها منذ القرن التاسع عشر حتى سنوات العقد الأول من قرننا الحادي والعشرين... إلخ.

وأما فصول القسم الثاني (الدوائر الداخلية)، فقد استأثرتْ بدراسة قِوَام اللغة: أصواتها، وبنية كلماتها، والقوالب التي تَنتظِم تراكيبَها، ومعاني مفرداتها، وجملها.

وأما فصول القسم الثالث (الدوائر الخارجية)، فقد كَسَرَتْها المؤلفةُ على دراسة توظيف اللغة في واقع الاستعمال اللغويّ، ودراسة علاقة اللغة بكل من: المجتمع، والعقل، والأسلوب.

وأما فصول القسم الرابع (التغيرات والمقارنات)، فقد استقلَّتْ بدراسة ضروب التغير التي تعرض لبعض مكونات اللغة، ودراسة جهود المقارنة بين اللغات، وتصنيفها وَفْق معايير مختلفة، ثم دراسة مواقف اللسانيين إزاء هذا التغير الذي قد يصيب اللغة.

وأما فصول القسم الخامس (نَحْوَ نَحْوٍ كليّ) - وهو القسم الأخير - فقد أفردَتْها المؤلفةُ لرصد جهود اللسانيين الدءوبة لإنجاز إطار من القواعد، يصلُح لمعالجة كل اللغات. وقد خَصّت المؤلفةُ جهودَ "تشومسكي" بالاهتمام الأكبر، دون سائر الجهود المبذولة فى هذا الصدد. فدرستْ نَحْوَه "التوليدي التحويلي" في صورته الأولى ، ثم في صُوَره المعدَّلة المنقَّحة، وصولا إلى أحدث أطروحاته المتمثلة في "برنامج الحدّ الأدنى " **Minimalist Program** .

وقد عَرَضَت المؤلفةُ في نهاية هذا القسم الأخير، عرضًا جِدّ موجز، لاتجاهات الدرس اللسانيّ في العَقْد الأول من قرننا الحادي والعشرين. وهى الاتجاهات التي تدعو إلى هَجْر جهود "تشومسكي" الأخيرة، وتستبدل بها اتجاهًا آخر، يَصِف ملكة اللغة، وآلية عملها، وصفًا أقلَّ تجريدًا وتعقيدًا.

ثم قفَّت المؤلفة على ذلك بمَسْرد وافٍ، مرتّب ترتيبًا موضوعيًا، لبعض المراجع الأساسية لمن يروم تحصيلَ معرفة إضافية ببعض موضوعات الكتاب.

ثم تلا ذلك المسردَ معالجةٌ جِدّ موجزة - كذلك - لبعض مسائل علم الأصوات؛ حيث كان للمؤلفة رأيٌ جِدٌّ خاص في عدم عَدّ هذا العلم جزءًا من علم "اللسانيات"؛ مما حدا بها إلى تأخير الحديث عنه إلى آخر الكتاب، في صورة الملحق له.

ثم أعقب ذلك - أخيرًا - مَسْرَدٌ هجائي **index** بمحتويات الكتاب.

فالمؤلفة - إذن - قد ضمنّتْ كتابها هذا، زادًا معرفيًا أوليًا، يجمع بين الشمول (النسبي) والتلخيص، لجمهرة مسائل علم "اللسانيات"، ولاتجاهات البحث الأساسية التي تعاورت عليه منذ نشأته حتى وقتنا هذا. وهذا ما يتيح لقارئ هذا الكتاب مِهادًا رائقًا لهذا العلم: يُجْزِئه إنْ اكتفى به، ويُعبِّد له سبيلَ التعمق فيه، إنْ رام ذلك.

ولعلّ في إعادة طبع هذا الكتاب سبع طبعات متعاقبة، بزيادات معتبرة، وفي ترجمته إلى لغات أخرى، كاليابانية والبرتغالية، ما يدلّ على قدر القبول الذي حَظِي به في بابه، عند المعنيين بهذا العلم.

من ضوابط الترجمة (ومصادرها):

حَرَصتُ في ترجمتي لهذا الكتاب على الالتزام بجملة من الضوابط. ومنها:

- إيراد جُلّ الأمثلة التطبيقية بنصها الإنجليزي، وبخاصة حين تكون تلك الأمثلة مرادةً بألفاظها، أو حين يتلوها تحليلٌ يتصل ببعض مفرداتها. ثم شَفْعها بترجماتها العربية؛ تعميمًا للنفع المرجوّ، وتنكُّبًا لما قد يجرّه الاجتزاءُ بالترجمة العربية – أحيانًا – من عدم تمثيل الظاهرة التي سيقت لأجلها الأمثلةُ الإنجليزية تمثيلا دقيقًا. وقد أفضى اعتبارُ الغرضِ الذي سيقتْ لأجله بعضُ هذه الأمثلة إلى إنشاء ترجمات عربية تُعْوِزها البلاغةُ، ولكنها صحيحة الصياغة.
- اختيار ترجمات عربية بعينها في متن الترجمة، للمصطلحات الفنية التي اشتمل عليها الكتابُ، مع التنويه أحيانًا في هوامش الترجمة ببعض الترجمات العربية الأخرى لهذه المصطلحات. وقد اعتمدتُ "معجم المصطلحات اللغوية" للدكتور رمزي منير بعلبكي، مصدرًا أساسيًّا لهذه الترجمات العربية. وبسبب من تعدد المقابلات العربية للمصطلح الإنجليزي الواحد أحيانًا، في النتاج اللساني العربي، فقد حَرَصتُ على إيراد كل من المصطلحين: العربي، والإنجليزي معًا، دون الاجتزاء بالعربي وحده؛ تأكيدًا للمقصود، ودَرْءًا للّبْس.

وأما ترجمة المفردات العامة للكتاب، وبيان بعض أصولها، فقد تأسست – في المقام الأول– على ثلاثة معاجم أحادية اللغة (إنجليزي- إنجليزي)، هي:

- **Macmillan English Dictionary for Advanced Learners.**
- **Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current English.**
- **The Oxford Dictionary of English Etymology.**

... وعلى معجم واحد ثنائيّ اللغة (إنجليزي- عربي)، هو: المورد، للعلّامة منير البعلبكي (١٩١٨- ١٩٩٩م).

- ذِكْر أمثلة من العربية لبعض الظواهر التي عرضتْ لها المؤلفة، ومثّلت لها بأمثلة من الإنجليزية، أو من لغات أخرى، ليست العربيةُ من بينها.
- التعليق على بعض القضايا التي تناولتها المؤلفةُ بالدرس؛ تبيانًا لموقف العربية- أو علمائها- منها.
- التنويه في هوامش الترجمة أحيانًا ببعض الكتب العربية: المؤلفة، والمترجمة، التي تناولت بعض مسائل الكتاب بالدرس المفصل؛ تتمة للفائدة، واعتبارًا للغرض الذي أُلّف الكتاب من أجله.
- إضافة بعض الكلمات، أو التواريخ، إلى متن الترجمة؛ بيانًا لمكان، أو زمان، أو غيرهما. وقد ميّزتُ هذه الإضافات – وهي جِدّ نادرة- بكتابتها بين قوسين مربعين هكذا: [ ].
- التعريف الموجز ببعض المصطلحات الفنية التي لم تعرّف بها المؤلفة؛ تتميمًا للفائدة، واعتبارًا لكون الكتاب مقدَّمًا لشُداة هذا العلم، في المقام الأول.
- التعريف الموجز ببعض الأعلام الواردة في الكتاب، وبخاصة أعلام الدرس اللساني عبر عصوره المختلفة. وقد رجعتُ في ذلك إلى مصدر – أو أكثر- من المصادر الثلاثة الأساسية الآتية:

- Chambers Biographical Dictionary (1993).

- The Encyclopedia Americana (1984).

- The New Encyclopedia Britannica (2003).

- التعريف الموجز ببعض ما جرى له ذكر من اللغات، والمدن، والجزر، والقبائل، والشعوب، والحيوانات، والطيور... إلخ؛ مما قد يكون من شأنه إعانة القارئ العربي على استحضار السياق الثقافي لكلام المؤلفة. وقد رجعتُ في جُلّ ذلك إلى دائرتي المعارف المذكورتين في الضابط السابق، وإلى المعاجم المذكورة آنفًا، وإلى بعض المواقع المعنيّة على شبكة المعلومات، وإلى غيرها مما هو مدوّن في هوامش الترجمة.

وأما صعوبات الترجمة – وبخاصة في هذا الفرع المعرفي بتطوراته المتلاحقة، ومصطلحاته المتنامية، ومقابلاتها العربية المتكاثرة- فهي أعرف من أن أعرّف بها.

وأنوّه – أخيرًا – بما قدّمه لي الزميل والأخ المفضال، الناقد الثَّبْت: الدكتور هاني حلمي حنفي (بقسم اللغة الإنجليزية بالكلية نفسها) من عون في فهم عدة تراكيب استغلقتْ عليَّ، وفي مراجعة ترجمتي للفصلين: الأول، والثاني عشر، مراجعة مفيدة.

وأشكر زوجتي (أم محمد، وأحمد، وخديجة) التي ما وَنَتْ تؤازرني على مواصلة الدرس والتأليف، مع ما اقتضاه هذا من تحيُّف لوقت كان من حقها، وحق أبنائنا.

هذا، وإني لأرجو – بعد- أن يكون في ترجمة هذا الكتاب، على هذا النحو الذي بين يديك – أيها القارئ الكريم- ما يعزِّز حاصلا، أو يُضيف جديدًا، أو يسُدّ نقصًا، في المكتبة اللسانية المترجمة إلى العربية.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

أ. د. عبد الكريم محمد حسن جبل

أستاذ علوم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة طنطا

طنطا في ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

Kariimgabal@hotmail.com.

مقدمة المؤلفة

يمثّل كتابُنا هذا "مقدمةً" لـ"مقدمات" علم "اللسانيات". وبيان ذلك: أن ثمة كتبًا متنوعة في أسواق الكتب، تُصنِّف نفسها "مقدماتٍ" لهذا العلم، بيد أنها – في الحقيقة– تناسب الطلاب في مرحلة متقدمة من مراحل دراستهم لهذا التخصص. ويأخذ كتابنا هذا بأيدي من يحاولون بأنفسهم اقتحامَ دائرة "اللسانيات"، تلك الدائرة المحظوظة المقصورة على عدد قليل من الدارسين. ويشرح المفاهيم، والمصطلحات الرئيسية، في هذا التخصص.

ولما كان علم "اللسانيات" يمثل فرعًا معرفيًا تخصصيًا، فلم أجد بُدًّا من استعمال المصطلحات الفنية الجارية في هذا العلم، مع التزامي بشرح كلٍّ من هذه المصطلحات شرحًا يُجلِّي مفهومه قدْر المستطاع.

وتتميز بعض مسائل "اللسانيات" بأنها مسائلُ خلافيةٌ، تتعدّد بشأنها وجهاتُ نظر اللسانيين. وقد تبنّيتُ في كتابي هذا وِجْهاتِ نظرٍ وسطية، كلما أمكن ذلك. ولم تكن وجهات النظر الوسطية هذه صائبةً بالضرورة، ولكنها كانت الأنسب لحديثي العهد بدراسة هذا العلم. وإني لآمل أن يجد القراء في هذا الكتاب زادًا معرفيًا يحفزهم إلى الاستزادة من المعرفة اللسانية، ويعينهم – في نهاية المطاف – على تبنّي وجهات نَظَرٍ بعينها، بشأن القضايا المفتاحية في هذا العلم.

إن علم "اللسانيات" فرع معرفيّ سريع التغير. وقد تطورتْ بعض مسائله تطورًا كبيرًا، منذ صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في العام (١٩٧٢م). وما زال هذا العلم يزداد توسُّعًا، وكأنه دَوْحة ما بَرِحَتْ تُنبت أغصانًا جديدة كثيفة كلَّ حين. وتشتمل هذه الطبعة الجديدة للكتاب على بعض التغييرات . ومنها: تحديث قائمة الكتب المقترحة للقراءات الإضافية في آخر الكتاب.

إنني ممتنَّة كلَّ الامتنان، لكل أولئك الذين رَفَدوني باقتراحاتهم، وتعليقاتهم، حول بعض مسائل الكتاب. وأخصّ كلَّ طالب، أو قارئ، اكتشف خطأً في الطبعات القديمة للكتاب، ونبّهني إليه. وإني لآمل أن تكون هذه الطبعة الجديدة قد برئتْ من أخطاء الطبعات السابقة. فإنْ وقف أحدٌ –بَعْدُ– على خطأ هنا أو هناك، فسأكون ممتنةً إذا نبهني إليه. قراءةً ممتعة!

جين إتْشِسُن (٢٠١٠م)

Jean Aitchison

دقيقة واحدة من فضلك

إن استعمال اللغة يمثل مقوّمًا أساسيًا، من مقومات استيفاء الوصف بـ"الإنسانية". وعلم "اللسانيات" هو الفرع المعرفي المعنيُّ بدراسة اللغة، والكيفية التي تشتغل بها. ويشرح كتابُنا هذا السماتِ الهيكلية الأساسية للغة. ويُظهر أوجه الاختلاف بين اللغة الإنسانية، ووسائل التواصل الحيواني.

إن اللغة نشاطٌ إنساني تحكمه ضوابط. وهو يتألف من ثلاثة أنواع أساسية من المقومات التنظيمية: القوالب التي تنتظم الأصوات (phonology : الفونولوجيا)، والقوالب التي تنتظم الكلمات (syntax and morphology: علم النحو والصرف)، والقوالب التي تنتظم المعنى (semantics: علم الدلالة). وتشكّل هذه المقوماتُ الثلاثة لُبَّ أية لغة. ويُطلَق عليها- مجتمعةً - مصطلح grammar (قواعد اللغة) في بعض الأحيان.

وفضلا عن دراسة "قواعد اللغة"، يُعنَى كتابنا بدراسة الموضوعات الآتية: توظيف اللغة في الاستعمال والتحاور (pragmatics: التداولية)، والتنوع الاجتماعي داخل اللغة (sociolinguistics: اللسانيات الاجتماعية)، وعلاقة اللغة بالعقل (psycholinguistics: اللسانيات النفسية)، ولغة الأدب (stylistics: علم الأسلوب)، وتغير اللغة (historical linguistics: اللسانيات التاريخية)، وأنواع اللغة (typological linguistics: اللسانيات النوعية).

ويوضّح كتابنا هذا - كذلك - الصلة بين "اللسانيات"، وبعض الفروع المعرفية الأخرى، مثل: تدريس اللغة (applied linguistics: اللسانيات التطبيقية)، والفلسفة (philosophical linguistcs: اللسانيات الفلسفية)، والأنثروبولوجيا (anthropological linguistics: اللسانيات الأنثروبولوجية)، والذكاء الاصطناعي (computational linguistics: اللسانيات الحاسوبية)، وصناعة المعجم (lexicography and terminology: علم صناعة المعجم وعلم المصطلحات).

خمس دقائق من فضلك

يكتسب كلُّ البشر الطبيعيين لغةً واحدة على الأقل، خلال السنوات الأولى من أعمارهم، ويستعملونها استعمالا جِدّ متكرر. وعلم "اللسانيات" هو العلم المعنيّ بإنشاء دراسة منهجية systematic للغة. وهو يهدف إلى تناول كل مكوناتها المختلفة بالدرس والتحليل .

اللسانيات الوصفية :

تتمثل إحدى المهام الرئيسية لعلم "اللسانيات" في تقديم "وصف" منهجي، مترابط منطقيًا، قريب إلى الأفهام، للغات العالم الذي نحيا فيه، بما فيها اللغاتُ التي كانت تفتقر إلى نظام كتابي، حين توجَّهتْ إليها عناية اللسانيين. ويُطلَق على مثل هذا الوصف مصطلح grammar (قواعد اللغة).

وتتناول "قواعد اللغة" بالدرس كلا من: القوالب التي تنتظم الأصوات (phonology: الفونولوجيا): والقوالب التي تنتظم بنية الكلمات (morphology: علم الصرف)، وتلك التي تنتظم تجاورها معًا (syntax: علم النحو/ التراكيب). وفي بعض الأحيان، يُجمع بين المصطلحين: syntax و morphology في مصطلح واحد، هو morphosyntax .

إن "قواعد اللغة" تعالج مكوناتِ اللغة الأسهلَ قابليةً للوصف؛ من حيث إن "القوالب" التي تنتظم هذه المكونات، تتسم بقابليتها - ولو جزئيًا - للعزل عن العالم الخارجي. ولكننا نلاحظ – في المقابل – أن اهتمامات اللسانيين في السنوات الأخيرة، تركّز على دراسة موضوعات تعالج الكيفية التي يوظِّف بها الناسُ اللغة للتفاعل مع العالم.

التفاعل بين اللغة والعالم الخارجي:

ثمة فروع متعددة، من فروع "اللسانيات"، تُعنَى باستكشاف الكيفية التي يتفاعل بها الناس مع العالم، من خلال استعمالهم للغة. وأشهر هذه الفروع هي: التداولية ، واللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية ، وعلم الأسلوب .

فأما "التداولية"، فهي فرع معرفي جِدّ متراحب، يُعنَى – في المقام الأول– بدراسة الكيفية التي يتفاعل بها الناسُ بعضُهم مع بعض. حيث يُلاحَظ أن الناس يجنحون إلى التعاون النموذجي فيما بينهم، وينظّمون كلامهم وَفقًا لترتيب وقوع الأحداث محلّ التحادث، ويتناوبون الحديث واحدًا تِلْو الآخر، ويحاولون الالتزام بمقوّمات السلوك المهذّب في تعاملاتهم بعضِهم مع بعض.

وأما "اللسانيات الاجتماعية"، فتستكشف العواملَ الاجتماعية التي تفضي إلى حصول التنوع اللغوي، داخل الجماعة اللغوية. وبخاصة الاختلاف في العوامل الآتية: الموقع الجغرافي، والطبقة الاجتماعية، والجنس. وتُعنَى "اللسانيات الاجتماعية" – كذلك– بإعادة فحص الأساطير القديمة، بما قد يفضي أحيانًا إلى رفضها، أو نبذها. ومن تلك الأساطير: ذلك المعتقد الذي شاع زمنًا طويلا، بالرغم من عدم صحته. وهو أن النساء يتحدَّثْن أكثر من الرجال.

وأما "اللسانيات النفسية"– وهى الفرع المعنيّ بدراسة اللغة والعقل– فتفحص الكلام في عقول الأفراد. ومن ذلك أنها تستكشف الكيفيةَ التي يكتسب بها الأطفالُ اللغة، والكيفية التي يفهم بها البشرُ بعضُهم بعضًا، وكذا الكيفية التي ينظّمون بها الكلام؛ استعدادًا لإنتاجه. ويبحث هذا الفرع– كذلك– في علاقة اللغة بالمخ، مركزًا على مناطق المخ الأكثر ارتباطًا بالنشاط اللغوي. ويلخّص ما يحدث حين يصيب المخ خَلَلٌ يعوقه عن إنجاز مهامه اللغوية على نحو طبيعي، كما يحدث حين يصاب الإنسان بـ"جلطة" فيه.

وأما "علم الأسلوب"– وهو الفرع المعنيّ بدراسة اللغة الأدبية– فيتضمن – فيما يتضمن– البحث في لغة الإعلام، وبخاصة: لغة الصحف، والإعلانات.

تغير اللغة:

تمثّل الاهتمامُ الأساسي لعلم "اللسانيات التاريخية" خلال القرن التاسع عشر، في الاشتغال بمحاولة إعادة تشكيل اللغة الأم، كاللغة الهندية الأوربية الأم. وهى اللغة التي تفرَّعتْ – وكذا تطورتْ – عنها لغاتٌ مشهورة جِدُّ كثيرة من لغات عالمنا المعاصر. وما يزال هذا البحث في اللغة الأم من الموضوعات الشائقة، بيد أنه قد فقد غَلَبته على اهتمامات اللسانيات في القرن الحادي والعشرين.

وفى القرن العشرين، غلب على "اللسانيات" الاهتمامُ بـ(عملية) "تغير اللغـة" حال حدوثها داخل اللغة الواحدة. لقد كان يُظنّ – في وقت مضي – أن التنوع الحاصل داخل اللغة، إنما يقع عشوائيًا كيفما اتّفق. ثم تبين الدارسون لاحقًا أن هذا التنوع يمثل إرهاصًا بأن ثمة "تغيرًا" في طور الحدوث. وقد أدرك اللسانيون أن ضروب "التغـير" تسرى في أوصال اللغة بطريقتها الخاصة، منتقلةً من جماعة إلى أخرى، ومـن كلمـة إلى أخرى، انتقالا تدريجيًا.

وكذا أصبحتْ مسبِّبات حصول "التغير اللغوي" أوضح للسانيين. فقد تبين – مثلا – أن ثمّة بعضَ الميول الطبيعية التي تقف من وراء حصول هذا التغير. كالميـل إلى إهمال النطق بأواخر الكلمات، أو "كَسْر" بعض القوالب التي تَنـتظم مكونـات اللغـة المختلفة. ثم إن "التغيرات العلاجيـة" therapeutic changes لا تلبـث أن "تـرمّم" تلك "الكسور". وذلك لأن اللغات الإنسانية تظل دائمًا محكومةً بـ"قوالـب" تنـتظم مكوناتِها المختلفة، مهما اعتراها من تغير، وإلا لتقـوَّض تواصـلُ النـاس بعـضهم مـع بعض.

"تشومسكي" والنحو التحويلي:

يتميـز "تشومـسكي" بأنـه اللـسانيُّ الـذي تجـاوز تـأثيره، وشـهرتُه، حـدودَ "اللسانيات". وما زالت جهوده تـستقطب اهتمامًـا جِـدًّ كبـير. ومـن المهـم أن نفهـم الأسباب التي جعلتْ أعماله تتمتع بهذا التأثير البـالغ، وأن نقـف عـلى الأفكـار التـي تضمنتها تلك الأعمال. وتشهد السنواتُ الأخـيرة تغـيرًا في ضروب المعالجـاتِ التـي تطرحها "اللسانيات" لبعض مسائله. وتتميز هذه المعالجاتُ بابتعادهـا عـن التجريـد الشديد الذي وَسَمَ أعمال "تشومسكي" الأخيرة، وبتبنِّيها رؤًى أكثرَ واقعيـة، وخُلـوًّا من التعقيد.

إن اللغة مقوِّم أساسيّ من مقومـات الـسلوك الإنـساني. والمـأمول – في ضـوء ذلك – أن يستمتع كلٌّ منا باستكشاف الكيفية التي تعمل بها.

قراءةً ممتعة!

القسم الأول
استهلال

فلتهتمَّ بشأنِ الكلمات يا بُنيّ.. جِدّتك على حق؛ لأنك ستستعمل الكلمات دائمًا، مَهْما كان ما تفعله. وحتى لو كنتَ تعيش في عزلة تامة، ولا أحدَ تُحادثه سوى نفسك، فالكلمات جِدّ مُهِمّة، كذلك؛ لأنها هي وسيلة التفكير...

أ. ب. هربرت[1]

A. P. Herbert

(١) "آلان باتريك هربرت" Allan Patrick Herbert (١٨٩٠ - ١٩٧١م): كاتب وسياسي بريطاني. اشتهر بكتاباته المتنوعة (شعر - رواية - مسرحية..) التي اتسم بعضها بروح الفكاهة. [المترجم].

١

ما اللسانيـــات[١]؟

يوضح هذا الفصلُ أوجه الاختلاف بين كلٍّ من: "اللـسانيات" linguistics، والـدرس اللغـوي التقليـدي. وكـذا يلخـص القـولَ في التقـسيمات الفرعيـة لهـذا الفرع المعرفي.

يقضي جمهرةُ الناس شطرًا كبيرًا من أعمارهم في التحدث، والاستماع. وتـضاف إليهما القراءة، والكتابة، في الأمـم المتقدمـة. وتـستهلك المحادثـةُ العاديـة عـددًا مـن الكلمات يتراوح ما بين أربعة آلاف كلمة إلى خمـسة آلاف، في الـساعة الواحـدة. وفي الأحاديث الإذاعية، حيث يقلّ عدد مرات التوقف عن الحديث، يُستعمل عـدد أكـبر من الكلمات، يتراوح ما بين ثمانيـة آلاف كلمـة إلى تـسعة آلاف في الـساعة الواحـدة. وحين يشرع أحدُنا في القراءة بالسرعة المعتادة، فإنه يأتي على عدد من الكلمات يتراوح ما بين أربعةَ عَشَرَ ألف كلمة إلى خمسة عَشَرَ ألف في الـساعة الواحـدة كـذلك. وعـلى ذلك، فإذا تحادث أحدُنا مع غيره لمدة ساعة، واستمع إلى حديث إذاعي لساعة أخرى، وقرأ لساعة ثالثة، فربما يتاح له بكل ذلك أن يتواصل مع نحـو مـن خمـسة وعـشرين ألف كلمة في تلك الساعات الثلاث. ويزداد هذا العدد ليـصل إلى زُهـاء المائـة ألـف كلمة[٢]، إذا اعتبرنا اليوم كلَّه .

---

(١) وعن صحة جواز دخول ضمير الفصل بين "ما" الاستفهامية والاسم المعرف بعدها، ينظر: د. أحمد مختار عمر: العربية الصحيحة ص ١٩٨. [المترجم].

(٢) آثرت الأخذ برأي مجمع اللغة العربية المصري، الذي يجيز دخول "ال" على العدد (المضاف) دون المعدود (المضاف إليه)؛ نظرًا لشيوعه في الاستعمال اللغوي المعاصر، بحيث صار استعمال الأسـلوب الأفـصح – وهو إدخال "ال" على المعدود دون العدد (= مائة ألف الكلمة) – ملبسًا، أو كالملبس، لغير المتخصـصين، على الأقل. (وينظر: خالد العـصيمي: القـرارات النحويـة والتـصريفية لمجمـع اللغـة العربيـة بالقـاهرة ص٣١٩، ود. أحمد مختار عمر: العربية الصحيحة ص١٨٥). [المترجم].

إن استعمال اللغة يمثل مقوّمًا أساسيًا لابد للإنسان من أن يتحلّى به؛ حتى يَستوفي وَصْفَ الإنسانية. وانظر إلى الأطفال في كل أنحاء العالم، تجدْهم يبدأون في صفّ الكلمات معًا في العمر نفسه تقريبًا. وكذا تجد أنهم يسلكون في نموّهم اللغوي مساراتٍ تتشابه تشابهًا جِدّ ملحوظ. ثم انظر إلى اللغات الإنسانية، تجدْها كذلك متشابهةً في بنيتها الأساسية تشابهًا مدهشًا. يستوي في ذلك أن تكون تلك اللغات مستعملة في أمريكا الجنوبية، أو في أستراليا، أو حتى بالقرب من القطب الشمالي. وللغة – من جهة أخرى – ارتباط جِدّ وثيق بالفكر المجرد. وهاتان الخصيصتان – أعني: اللغة، والفكر المجرد – هما أهم ما يميز البشر عن سائر الحيوانات، على ما يعتقد كثير من الباحثين .

خلاصة:

يَستعمل عمومُ البشر اللغة استعمالا متواصلا لا يكاد ينقطع: تحدثًا، واستماعًا، وقراءة، وكتابة. وهم – بذلك – يتواصلون مع عشرات الآلاف من الكلمات كلّ يوم.

إنّ عدم قدرة أحدنا على استعمال اللغة استعمالا مقبولا، قد يؤثّر على مكانته بالمجتمع. بل ربما يفضي إلى إحداث تغيير في سمات شخصيته. وبسبب من تلك الأهمية الجوهرية للغة في الحياة الإنسانية، يتزايد سنويًا عددُ الراغبين في دراستها دراسةً أعمق؛ ليفيدوا من ذلك في تخصصاتهم المختلفة. ومن أمثلة هؤلاء: علماء علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا. وكذا: المدرسون، وعلماء الحاسوب، وكاتبو النصوص المختلفة بهدف الإعلان والتسويق ونحوهما . وغيرهم جِدّ كثير. فلا عجب – إذن – والحال على ما وصفتُ لك، حين نعلم أن علم "اللسانيات" – أي: الدراسة المنهجية للغة – يمثّل واحدًا من أسرع الفروع المعرفية انتشارًا في السنوات الأخيرة.

يسعى علم "اللسانيات" إلى الإجابة عن عدد من الأسئلة الأساسية، من مثل: "ما اللغة؟"، و"كيف تعمل اللغة؟" . وهو – في سعيه هذا – يحاول أن يستقصي النظر في جوانبَ متعددةٍ تتعلق بهذه القضايا، وغيرها. وذلك من مثل: "ما السمات التي تتقاسمها كلّ اللغات؟"، و"ما مدى التنوع الحاصل بينها"، و"ما أوجه

الاختلاف بين اللغة الإنسانية ووسائل التواصل الحيواني؟، و"كيف يتعلّم الطفلُ الكلام؟"، و"كيف يمكن للدارس أن يدوّن ويحلّل لغةً غير مكتوبة؟"، و"لماذا تتغير اللغات؟"، و"إلى أي مدى ينعكس اختلاف الطبقة الاجتماعية في اللغة؟"، وهَلُمّ جَرّا.

من عالم "اللسانيات"؟

يوصف الشخص الذي يُعنَى بدراسة " اللسانيات" عادةً بأنه **linguist** (لساني). وأما المصطلح الأصح منه- أعني: **linguistician**- فقد حال ما في التلفظ به من تعمُّل وتكلُّف كبيرين، دون حصول قَبول عام له بين الدارسين. وفي المقابل، تبدو كلمة **linguist** غير مناسبة؛ لأنها مُلْبسة. وذلك لأنها تُستعمل -كذلك- للدلالة على الشخص الذي يتكلم بعدد كثير من اللغات. في حين أن علماء "اللسانيات" لا يلزمهم أن يتقنوا عددًا كثيرًا من اللغات. بل يلزمهم -بدلا من ذلك- أن يُحصّلوا خبرةً واسعة بالأنماط المختلفة للغات الإنسانية. فتوفُّرهم على تحليل بعض الظواهر اللغوية، وتفسيرها- من مثل: نظام الحركات في اللغة التركية، والأفعال في اللغة الألمانية- يفوق أهمية توفُّرهم على إتقان التحدث بهاتين اللغتين، إتقانًا يتيح لأهل "استانبول،" و"برلين"، أن يفهموا عنهم بسهولة. إنهم كالمراقبين الحياديين المَهَرَة لحدث ما، لا المشاركين فيه. فهم يستهلكون اللغات الإنسانية، ولا ينتجونها، على حَدّ التعليق الساخر لأحد الباحثين في العلوم الاجتماعية .

> **خلاصة:**
> لا يحتاج عالم "اللسانيات"- إذا سلّمنا بأنه الشخص المعنيّ بمهمة تحليل اللغات الإنسانية- إلى أن يكون من المتحدثين -فعلا- باللغات التي ينهض بدراستها.

إن أقرب شبيه لعالم علم "اللسانيات" الذي نعنيه هنا، هو عالم الموسيقى. فهذا الأخير يستطيع أن يحلل القطع الموسيقية التي تُعزف بـ"البيانو"، عن طريق تحديد ما تشتمل عليه من جمل موسيقية رئيسية،

وألحان، وإيقاعات، وألحان مصاحبة، وتوضيح كل ذلك. وليس يَلزم عالِم الموسيقى هذا، أن يكون ممن يمارسون عزف تلك القطع الموسيقية ممارسة فعلية؛ فذلك شأن عازف "البيانو". إن هذه العلاقة التي تربط بين كل من النظرية الموسيقية، والموسيقى الفعلية، تُشبه تلك التي تربط بين علم اللسانيات، واللغة.

أوجه الاختلاف بين "اللسانيات" والقواعد التقليدية:

كثيرًا ما نقابل أناسًا يظنون أن علم "اللسانيات" ما هو إلا القواعد المدرسية القديمة، وقد بُثَّتْ فيها الحيوية، عبر استعمال عددٍ قليل من المصطلحات الجديدة. بيد أن بينهما – في حقيقة الأمر – فروقًا أساسية متنوعة.

فأول هذه الفروق – وأهمها كذلك – أن علم "اللسانيات" يتميز بأنه علم وصفيّ **descriptive**، لا معياريّ **prescriptive**. فعلماء "اللسانيات" يعنون بدراسة "ما يقال"، لا بما يحسَبون أنه "يجب" أن يقال. إنهم يصفون اللغة من كل جوانبها، دون أن يفرضوا قواعد لـ" الصواب اللغوي" **correctness** .

خلاصة:

المشتغلون بـ"اللسانيات" لا يُملون على الناس الكيفيةَ التي يستعملون بها اللغات الإنسانية، بل ينهضون بمهمة تقديم "وصف" لهذه اللغات فحسْب.

إن من المغالطات الشائعة القولَ بأن هناك مستوًى مطلقًا للصواب اللغوي. وهو المستوى الذي تقع مسئوليةُ حمايته على عاتق المدرسين، وكتب تعليم القواعد، والمعاجم. وقد استَحرّ جدلٌ عنيف بين المعنيين بالشأن اللغويّ في الولايات المتحدة الأمريكية، حين صدر معجم "وبستر" الثالث الدولي الجديد للغة الإنجليزية **Webester's Third New International Dictionary of The English Language**، في العام (١٩٦١م)، متضمّنًا كلماتٍ مثل: **ain't**"⁽¹⁾، وعباراتٍ مثل: **ants in one's**

---

(١) في Oxford Advanced Learner's Dictionary أن ain't هي صيغة سوقية (vulgar) مختصرة لـ are/is/am not و have/has not. [المترجم].

pants"(١). فقد ذهب بعض منتقدي هذا المعجم إلى القول بأن محرِّريه: إما أنهم كانوا – بفَعْلتهم تلك– يتعمدون إفساد اللغة، وإما أنهم كانوا غير مؤهَّلين للنهوض بمهمة تحرير هذا المعجم. وقال أحد المعنيين بتقديم مراجعات للكتب المنشورة – وقد استبدّ به الغضب: "لقد فرض علينا معجم (وبستر) الثالث تشكيلةً صادمة من الكلمات والعبارات المشكوك فيها، والخاطئة، والتافهة، والبالغة الإسفاف". ولكن إذا كان واقع الحال يشهد بأن الناس يقولون: ain't، ويقولون: ants in one's pants، فإن علماء اللسانيات يرون في تسجيل ذلك الواقع أمرًا مهمًّا لا مَعْدَى عنه؛ فهم يلاحظون، ويسجّلون، ولا يقيّمون.

وقد ورد في خطاب نشر بإحدى الصحف اليومية ما نصُّه: "إنني مَغِيظ من الاستعمال المتكرر لعبارة different to، في البرامج الإذاعية والتلفازية. لقد تعلمنا في سِني التعلم بالمدارس، منذ قرابة خمسةَ عَشَرَ عامًا، أن الأشياء كانت alike to (مشابهة لـ) و different from (مختلفة عن)، فهل كان مدرسونا على قدر بالغ من الجهل، إذن؟". لقد غاب عن صاحب هذه الرسالة أن اللغاتِ الإنسانية تخضع للتغير المستمر. كما أن تعليقه على استعمال different to بأنه استعمال "متكرر"، يشهد بأن هذا الاستعمال قد حاز قدرًا من الصحة، يجعله أهلا للوصف بها، مثله مثل استعمال different from .

إن القول بوجود مستوى مطلقٍ وغير متغير من "الصواب اللغوي"، هو قول بعيد كلَّ البعد عن فكر علماء اللسانيات. إن هؤلاء العلماء قد يدركون أن ثمة ضربًا معينًا من الكلام يبدو – وَفْق ما هو سائد من الأساليب– أكثر قبولا من غيره من الحيثية الاجتماعية. ولكن هذا لا يفضي بهم إلى أن يُولُوا هذا الكلام الأكثر قبولا أيَّ قَدْر زائد من الاهتمام عن نظيره الأقل قبولا. كما أن هذا لا يعني – كذلك – أنهم يعُدّون الكلمات القديمةَ أفصحَ من نظائرها المستحدثة. إنهم لا يرون في لغة مُغني موسيقى الـ"بوب" pop سمةً ذاتية تجعلها أسوأ – أو أفضل – من لغة الـ"دوق"(٢)

(١) في Macmillan English Dictionary أن العبارة المذكورة عبارة عامية، تستعمل للتعبير عن عدم القدرة على التزام السكون؛ بسبب القلق الشديد، أو الامتلاء بالطاقة. [المترجم].

(٢) الـ"دوق"– كما هو معروف: رجل يتمتع برتبة اجتماعية جِدّ رفيعة، تلي في رفعتها مباشرة درجة الأمير prince. وكذلك "الدوقة" duchess: هي المرأة التي تتمتع بنفس الرتبة الاجتماعية، أو المرأة زوجة الـ"دوق". [المترجم].

duke. ولابد أنهم سيختلفون اختلافًا كبيرًا، مع أحد كتّاب صحيفة الـ"ديلي تليجراف" Daily Telegraph [اللندنية] الذي شكا من: "أن استماعنا لأحد مقدمي الاسطوانات الغنائية (DJ) متحدثًا عن آخر مشاهير أغاني (البوب) المحدودي الثقافة، لهو خبرة جِدّ صادمة من العفن اللفظي". وكذا لا يُثرِّب علماءُ اللسانيات على (عمليات) سَكّ الكلمات المستحدثة، ولا يرون فيها أمارةً على انحطاط السلوك وانهيار اللغة، بل يرونها (عمليات) بَدَهية ولازمة التجدد؛ لملاحقة ما يُستحدث من الأشياء والمعاني. ولن يفزعوا -إذن- إذا سمعوا أنك قد غسلتَ شعرك، وصفّفته، في glamorama[1]، بولاية "نورث كارولينا" North Carolina [الأمريكية]، أو أنك قد زوّدت سيارتك بالوقود في lubritorium[2]، بمدينة "سيدني" Sydney، أو أن بوسعك أن تشتري تفاحًا من fruitique[3]، بإحدى الضواحي المولعة بأحدث الصيحات، في مدينة "لندن". لن يفزعهم أبدًا سماعُ هذه المفردات الجديدة، وغيرها. وسوف يُعْنَوْن بها عنايتَهم بالكلمات القديمة.

وأما الوجه الثاني المهم، من أوجه الاختلاف بين "اللسانيات" والقواعد المدرسية التقليدية، فهو أن علماء اللسانيات يُعْنَوْن- في المقام الأول- باللغة المنطوقة، لا المكتوبة. لقد أفرط علماء القواعد في الماضي، في تأكيد أهمية اللغة المكتوبة. وذلك لأسباب متعددة. منها: ما تتميز به هذه اللغةُ المكتوبة من ثبات وديمومة. لقد شَقّ عليهم أن يعالجوا بنجاح تلك المنطوقات اللغوية الوقتية، قبل اختراع أجهزة تسجيل

---

(١) من كلمة glamour (أو glamor) بمعنى: فتنة، أو سحر. ولعل مبتكر كلمة glamorama قد قاسها على مثل كلمة panorama (منظر شامل...). وهي ترجع إلى أصل يوناني مؤلف من السابقة (-pan): بمعنى: كلّ (أو شامل)، و horama بمعنى: view (منظر). فتكون كلمة glamorama بمعنى: منظر فاتن، أو نحو ذلك. [المترجم]. وينظر في الأصل المذكور لكلمة panorama: The Oxford Dictionary of English Language. [المترجم].

(٢) من كلمة lubricate بمعنى: يزيّت (محرك السيارة...). ولعل مبتكر كلمة lubritorium قد قاسها على مثل كلمة auditorium بمعنى: قاعة الاستماع (في كنيسة أو مدرسة...)، أو قاعة الاجتماعات العامة؛ فتكون كلمة lubritorium بمعنى: مكان تزييت محركات السيارات (أو تزويدها بالوقود كما ذكرت المؤلفة). [المترجم]. وينظر في أصل مكونات بنية كلمة auditorium: The Oxford Dictionary of English Etymology [المترجم].

(٣) من كلمة fruit (فاكهة). ولعل مبتكر كلمة fruitique قد قاسها على مثل الكلمة الفرنسية boutique بمعنى: محَلّ أو متجر.... إلخ. فتكون كلمة fruitique بمعنى: محل لبيع الفاكهة (الغالية الثمن)، أو نحو ذلك. [المترجم].

الصوت. ويقع جانب من اللوم في التكريس لهذا الاتجاه على عاتق مناهج التعليم الكلاسيكية التقليدية. فقد أصر المسئولون على قَوْلبة اللغة وَفقًا لاستعمال "مشاهير الكتاب" لها، في العالم القديم[1] ancient world. وهى الاستعمالات التي تجسّدت في أعمال مكتوبة فحسب. وقد بدأ هذا الاتجاه – أعنى الذي يُقَوْلب اللغة وَفق كتابات مشاهير الكتّاب في العالم القديم – منذ زمن جِدّ سحيق، يصل إلى القرن الثاني قبل الميلاد، حين اتخذ علماء الاسكندرية من كتّاب القرن الخامس اليونانيين، نماذج يحتذونها في كتاباتهم. وقد استمر هذا الاعتقاد في تفوق اللغة المكتوبة لما يزيد عن الألفي عام.

وفى المقابل، يُعنَى علماء اللسانيات – في المقام الأول – باللغة المنطوقة. وهى اللغة التي سبقتْ نظيرتها المكتوبة في كل أرجاء العالم، على حَسَب ما نعلم. أضف إلى ذلك أن معظم أنظمة الكتابة مستمدّة من الأصوات الصادرة من الجهاز الصوتي الإنساني. وعلى الرغم من أن الكلام المنطوق، والجمل المكتوبة، يتقاسمان كثيرًا من الخصائص، فإن بينهما – كذلك – اختلافاتٍ مهمةً. وقد دفعتْ هذه الاختلافاتُ علماءَ اللسانيات إلى النظر إلى الشكلين: المنطوق، والمكتوب للغة، على أنهما ينتميان إلى نظامين مختلفين، وإنْ كانا متداخلين. وعلى ذلك، يجب أن يُحَلَّلا تحليلا منفصلا: فنبدأ بالمنطوق، ونُثَنِّي بالمكتوب.

خلاصة:

يَلزم علماءَ اللسانيات أن يحللوا اللغة المنطوقة، واللغة المكتوبة: كلا على حِدَة. وكلاهما مهم. ولا أفضلية لإحداهما على الأخرى.

وأما الوجه الثالث من أوجه الاختلاف بين "اللسانيات"، والقواعد التقليدية، فهو أن اللسانيات لا تعالج اللغاتِ الإنسانية معالجةً تدخلها قَسْرًا في إطار القواعد المؤسسة على بنية اللغة اللاتينية. ففي زمان مضى، كان ثمة افتراض تُسلّم به جمهرة الكتب الدراسية التقليدية، وتراه غير قابل لأدنى تشكيك. وهو أن مكونات بنية اللغة اللاتينية تزودنا بإطار عالميٍ، يصلُح لدراسة كل اللغات الأخرى. وقد عانى عدد

(١) أي العالم إبان غلبة الحضارتين: اليونانية، ثم الرومانية (نحو ٢٦٠٠ ق. م حتى ٤٧٦م). [المترجم].

لا يُحصَى من طلاب المدارس، من آفات اللبس والاضطراب، جرّاء تلك المحاولات غير الموفقة لمعالجة بنية اللغة الإنجليزية معالجةً قسرية، في إطار قوالبَ غريبةٍ عنها. ففي هذا الزمان البعيد، ادّعى بعضهم أن عبارة مثل **for John** ، هي عبارة في حالة المفعولية غير المباشرة[(١)] **dative case**. ولكن هذا الادّعاء هو خطأ صُرَاح؛ لأن اللغة الإنجليزية لا تتسم بنظام الحالة الإعرابية الذي تتسم به اللغة اللاتينية. وفى أحيان أخرى، كان لإطار قواعد اللغة اللاتينية تأثيراتٌ أدقّ مما سبق؛ فكانت لذلك أكثر تضليلا. بل لقد بلغ الحال بكثير من الدارسين أن يعتقد خطأً أن بعض الفصائل النحوية الموجودة في اللغة اللاتينية، هي فصائل بَدَهية أو طبيعية **natural**. فمثلا: شاع فى هذا الصدد افتراضٌ يقول بأن تقسيم زمن الفعل في اللغة اللاتينية إلى: ماض، ومضارع، ومستقبل، هو تقسيم حتمي لا يتخلّف. ولكن واقع الحال يشهد بوجود كثير من اللغات التي لا تتبنّى هذا التقسيمَ الثلاثيّ المحكم. وكذا تتميز لغات أخرى بأنها تهتم بالتعبير عن مدة الحدث المعنيّ: أهو حَدَثٌ منقطع، أم حدث مستمر، أكثر من اهتمامها بتسكين الحدث في أحد الأزمنة.

وفضلا عن ذلك، فكثيرة هي الحالات التي تكشَّفَ فيها أن الحكم على بعض التراكيب اللغوية بالتصويب، أو التخطئة، قد تأسس - كذلك - على اعتبار قواعد اللغة اللاتينية. فمثلا: يتكرر دفاع بعض الدارسين عن الرأي القائل بأن "اللغة الإنجليزية الفصيحة" **good English** تتجنب ما يُسمَّى بـ"المصادر المشطورة" **split infinitives**، كما في عبارة: **to humply apologize** (يعتذر ذليلا منكسرًا)،

---

(١) المفعولية غير المباشرة: هي إحدى الحالات (الإعرابية) التي تشتمل عليها بعض اللغات المتصرفة inflected (= اللغات التي تستعين بالزوائد التصريفية inflectional affixes للتعبير عن الوظائف النحوية من فاعلية، أو مفعولية... كاللغة اللاتينية). وتوسم الكلمات الواقعة في موقع المفعول به غير المباشر بصيغة خاصة، في تلك اللغات المتصرفة. والمعنى النحوي للمفعولية غير المباشرة هو الإشارة إلى أن الشيء (أو الشخص) الواقع في هذا الموقع قد صُنع الحدث من أجله، أو باسمه. وذلك كما يقال - في اللاتينية: Tibi librum damus (نعطيك الكتاب). ويعبر عن هذا المعنى النحوي في الإنجليزية- وهى لغة غير متصرفة - إما باستعمال حرفي الجر to و for، أو بالتزام ترتيب بعينه في الجملة؛ حيث يقع المفعول به غير المباشر قبل المفعول المباشر:

He gave a book to the boy.

He gave the boy a book.

ينظر:

- Hartman, Dictionary of Language and Linguistics, p. 58, pp. 155- 156.

- Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, p. 103.[المترجم]

حيث شَطَر (الحال) humply المصدر to apologize. ومن النماذج التي تجسّد هذا الدفاع عن هذا الرأى – وما أكثرها – تلك الرسالة التي خاطب صاحبُها أحد محرري الصحيفة "اللندنية": Evenning Standard بقوله: "هل تَغيظ المصادرُ المشطورة قُرّاءك بالقدر الكبير الذي تَغيظني به؟" وبقوله: "هل يسعني أن أطالب القضاة، ومحرري الصحف، أن يبذلوا – هم على الأقل – جهدًا، في سبيل المحافظة على سلامة لغتنا". لقد تأسس هذا الرأيُ القائل بتخطئة المصدر المشطور على قواعد اللغة اللاتينية. حيث يذهب دعاة الالتزام بالصواب اللغوي إلى القول بأنه لما كان المصدر في اللغة اللاتينية كلمةً واحدة، فإن نظيره في اللغة الإنجليزية يجب أن يكون أقربَ ما يكون إلى الكلمة الواحدة كذلك. وأما علماء اللسانيات، فلا يقبلون الحكم على أية لغة تأسيسًا على مقاييس لغة أخرى. وحيث إن المصادر المشطورة وافرة التردد في اللغة الإنجليزية، فإنها تتمتع بـ"الصواب اللغوي" كنظيراتها غير المشطورة، ولا فَرْق.

خلاصة:

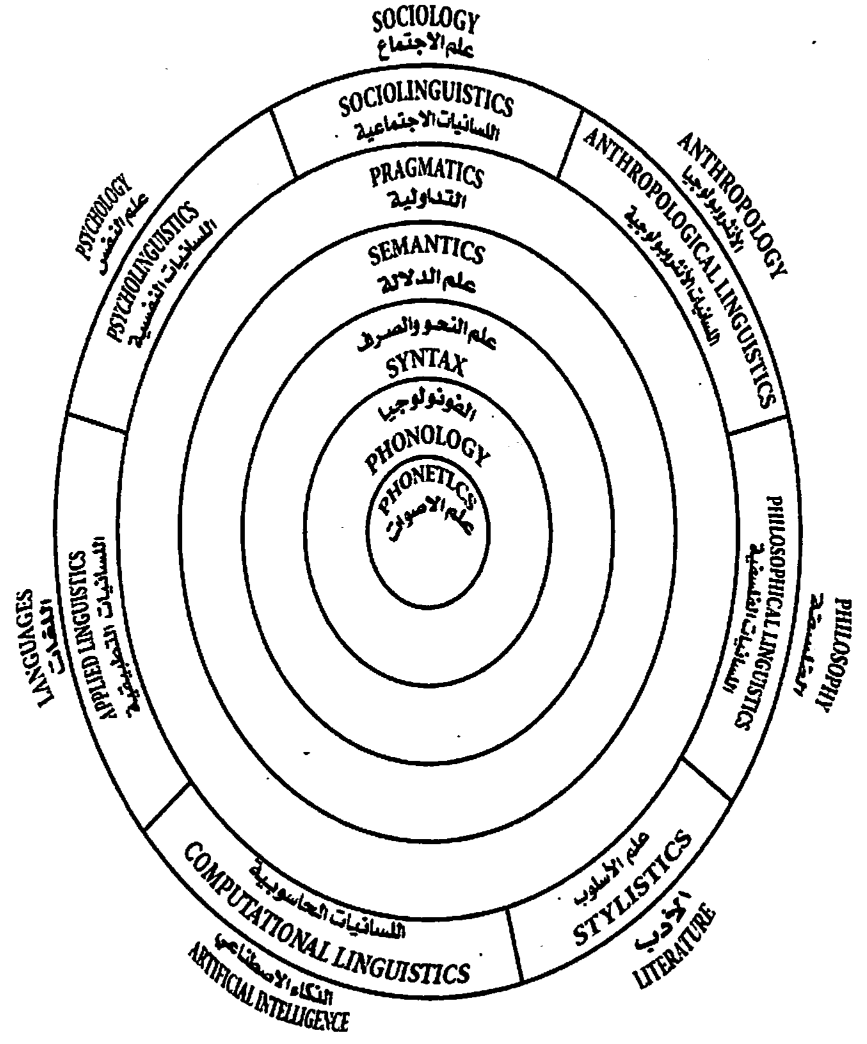
لا يلزم علماءَ اللسانيات ألْبَتَّةَ أن يقدّموا وصفًا لأية لغة، في ضوء إطار من القواعد جَرَى استنباطُه من دراسة لغة أخرى. بل يلزمهم أن يُفردوا كل لغة بوصف مستقل، يُستنبط من بنيتها الخاصة.

وعلى سبيل الإجمال، يمكننا أن نقرر أن علماء اللسانيات يعارضون القول بأن لغة ما، أيًّا كانت، يمكن أن تزوّدنا بنيتُها بإطار من القواعد يلائم كلَّ اللغات الأخرى. وإذا كان علماء اللسانيات يسعون إلى تأسيس إطار عالمي من القواعد، فلا مبرر يحتم أن يكون هذا الإطار مشابهًا لقواعد اللغة اللاتينية، أو لقواعد أية لغة أخرى، تُختار اختيارًا عشوائيًا من بين آلاف اللغات التي يتكلم بها البشر.

مجالات البحث في اللسانيات

تعالج اللسانيات عددًا كبيرًا من الموضوعات المتداخلة، بحيث يَصْعُب ترسيم حدودٍ فاصلة قاطعة بينها.

ودونك رسمًا توضيحيًا دائريًا، يشتمل على بيان تقريبي بهذه الموضوعات (الرسم التوضيحي ١-١).



(الرسم التوضيحي ١-١)

ففي منتصف هذه الدائرة، يقع "علم الأصوات" phonetics . وهو العلم المعنيّ بدراسة أصوات الكلام الإنساني. ولا شك في أن تحصيل قَدْر صالح من المعرفة بعلم الأصوات تفيد عالم اللسانيات. ولكن ثمة من ينظر إلى هذه المعرفة الصوتية على أنها مجرد خلفيةٍ معرفية أساسية للساني، لا على أنها فرع من اللسانيات، في حدّ ذاتها. ويُعنَى علماء الأصوات بدراسة الأصوات المادية الفعلية- وهي المادة الخام التي تتشكل منها اللغة- فيدرسون وضع اللسان، والأسنان، والوترين الصوتيين، أثناء إصدار الأصوات. وكذا يسجلون الموجات الصوتية، ويحللونها. وأما اللسانيون، فيُعنَوْن – في المقام الأول- بدراسة القوالب patterns التي تنتظم مكونات اللغة، وَفْق كيفيات خاصة. وجهودهم تتركز على تحليل أشكال forms هذه القوالب، لا على تحليل المادة الطبيعية التي تصنَّعتْ منها وحداتُ اللغة المختلفة.

وقد أجاد اللسانيُّ السويسريّ المشهور "فردينان دي سوسير"(١) Ferdinad de Saussure [١٨٥٧- ١٩١٣م] التعبير عن هذا الاختلاف، حين شبّه اللغة بلعبة "الشَّطْرَنْج"(٢). فاللساني يعنيه أن يقف على التحركات المتنوعة التي تؤديها قِطَع "الشطرنج"، وكذا على الكيفية التي تصطفّ بها تلك القطعُ على رقعة اللعبة. ولا يعنيه – بعد- أن تكون تلك القطع مصنوعةً من الخشب، أو من العاج؛ فأيًّا ما كانت مادة الصنع هذه، فلن تغير شيئًا في قواعد هذه اللعبة.

خلاصة:

دراسة القوالب المختلفة التي تنتظم بنية اللغة، أهم من دراسة المادة الطبيعية التي تخلَّقتْ منها هذه البنية.

وعلى الرغم من أن "علم الأصوات"، و"اللسانيات" ربما يوصفان مجتمعيْن بأنهما يمثلان "العلوم اللسانية" linguistic sciences، فإن علم الأصوات لا يقع في

---

(١) أفرد د. محمد حسن عبد العزيز "سوسير" بكتاب مستقل عنوانه "سوسير رائد علم اللغة الحديث". وينظر كذلك: إفيتش: اتجاهات البحث اللساني ص٢١١- ٢٢٠، ومونان: تاريخ علم اللغة في القرن العشرين ص٤٧- ٦٥. وغيرها جدّ كثير وافر. [المترجم].

(٢) تُضبط كلمة الشطرنج بكسر الشين – أو فتحها – مع سكون الطاء. ويشيع في مصر الآن نطقها بفتح الشين والطاء معًا. وهي معرّبة عن الفارسية. ينظر: الجواليقي: المعرّب ص٤١٥- ٤١٦، وأدي شير: الألفاظ الفارسية المعربة ص١٠٠- ١٠١. [المترجم].

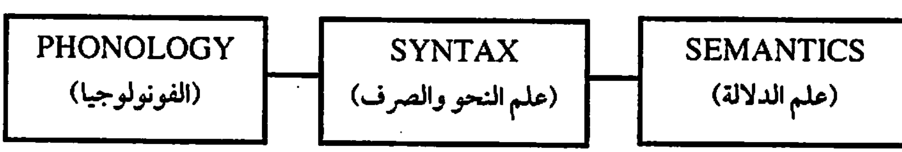
صميم اهتمامات "اللسانيات العامة"، كما يقع البحثُ في القوالب التي تنتظم مكونات اللغة. وعلى ذلك، فقد أخّرتُ المعلومات المتعلقة بعلم الأصوات، لتتذيل الكتاب في منزلة الملحق له.

ويحيط بعلم الأصوات في الرسم التوضيحي (١-١) "الفونولوجيا" **phonology** . وهو العلم المعنيّ بدراسة الكيفية التي تنتظم بها أصواتُ اللغة، بعضها إلى جوار بعض، في قوالبَ صوتيةٍ معينة. ثم يحيط بهذا الأخير "علم النحو (والصرف)" **syntax**. ويشير مصطلح **syntax** هذا، في مفهومه الأوسع، إلى نظام ترتيب الكلمات في الجمل، وإلى بنيةِ هذه الكلمات كذلك. إنه يمثّل ذلك الجزء من اللغة الذي يربط بين القوالب الصوتية والمعنى. ثم يحيط بـ"علم النحو (والصرف)" "علم الدلالة" **semantics**. وهو العلم المعنيّ بدراسة قضايا المعنى المختلفة.

وتمثّل "الفونولوجيا"، و"علم النحو (والصرف)"، و"علم الدلالة" قوام "اللسانيات". وهي متوجِّه الاهتمام الرئيسي لهذا الكتاب. كما أنها مجتمعةً تُشكّل "قواعد اللغة" **grammar** (الرسم التوضيحي ١-٢).

Grammar

(قواعد اللغة)



(الرسم التوضيحي ١-٢)

وتبقى – بعد – مسألةٌ مهمة تتصل بالفروق بين بعض المصطلحات، وينبغي التنويه بها هاهنا. وتلكم أنه قد جَرَتْ بعض الكتب الدراسية – وبخاصة القديمة – على تضييق نطاق ما يصدق عليه مصطلح **grammar**، بحيث لم يكن يشير في هذه الكتب إلا إلى ما أسميناه هنا بـ **syntax** فقط. ففي هذه الكتب، نجد أن مصطلح

syntax قد استأثر بالدلالة على الفرع اللسانيّ المعنيّ بدراسة المسائل المعلقة بصفّ الكلمات في الجمل. وأما دراسة بنية الكلمات فقد استأثر بها في هذه الكتب مصطلحٌ آخر يتفق عليه جمهرة الدارسين. وهو مصطلح morphology. وليس يَعْني هذا الاختلافُ في توظيف هذه المصطلحات اللسانية في حالتنا هذه، أن مجموعة من اللسانين كانوا على صواب فيما ذهبوا إليه، وأن الآخرين كانوا على خطأ. بل إن الأمر يتعلق هاهنا بمسألة خضوع بعض الكلمات لتغير تدريجي في دلالاتها. فكل ما هنالك -إذن- هو أن دلالة كلٍّ من المصطلحين syntax، وgrammar، قد حدث لها توسيعٌ في نطاق ما تصدُق عليه من فروع الدرس اللسانيّ، بحيث صارت تشمل ما لم تكن تشملُه من قبل.

خلاصة:

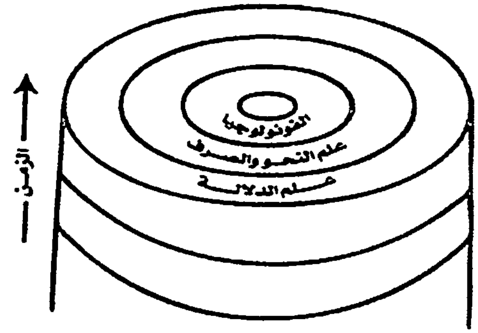
لا يشير مصطلح grammar – كما كان الشأن في المؤلفات القديمة – إلى دراسة ترتيب الكلمات في الجمل، ودراسة نهايات تلك الكلمات فحسْب. بل يشير إلى دراسة القوالب التي تنتظم كُلا من: الأصوات، والكلمات، والمعاني، جميعها.

وحول محور الدائرة الذي تتجمع فيه "القواعد" ، يقع الفرع المعرفي الذي يُسمّى بـ pragmatics (التداولية). وهو الفرع المعنيّ بدراسة الكيفية التي يستعمل بها المتحادثون اللغة، استعمالا لايمكن الوقوفُ على المراد منه، بالاعتماد على المعرفة اللغوية فقط. ويتميز هذا الضربُ من الدرس بحداثته النسبية، وبسرعة تناميه. كما أن له ارتباطًا بـ"علم الدلالة"، وكذا بفروع "اللسانيات" المتنوعة التي تربط بين اللسانيات من جهة، والعالم الخارجي من جهة أخرى، من مثل: "اللسانيات النفسية" psycholinguistics المعنية بدراسة العلاقة بين اللغة والعقل. و"اللسانيات الاجتماعية" sociolinguistics المعنية بدراسة العلاقة بين اللغة والمجتمع، و"اللسانيات التطبيقية" applied linguistics المعنية بتطبيق مستخلصات اللسانيات في مجال تعليم اللغات، و"اللسانيات الحاسوبية" computational linguistics المعنية بتوظيف الحاسوب في مجال محاكاة اللغة والطرق التي تعمل بها، و"علم الأسلوب" stylistics المعنيّ بدراسة العلاقة بين اللغة والأدب، و "اللسانيات الأنثروبولوجية" anthropological linguistics المعنية بدراسة اللغة في البيئات ذات الثقافات المتعددة،

و"اللسانيات الفلسفية" **philosophical linguistics** المعنية بدراسة الصلة بين اللغة، والتفكير المنطقي.

وتتداخل هذه الأفرعُ المتنوعة للسانيات بعض التداخل؛ مما يُصعّب مهمة تعيين الحدود الفاصلة بينها تعيينًا واضحًا قاطعًا. ومن بين هذه الأفرع، نجد أن "اللسانيات النفسية"، و"اللسانيات الاجتماعية"، و"علم الأسلوب"، تمثل – دون غيرها- الأفرع الأسرع تناميًا في السنوات الأخيرة. وهذا ما حدا بنا إلى إفراد كلّ منها بفصل مستقل في هذا الكتاب.

ونلاحظ – أخيرًا – أن ثمة فرعين مهمين من فروع اللسانيات، قد أُسقطا من الرسم التوضيحي الذي تضمن سائر الفروع الأخرى. فأما أولهما، فهو "اللسانيات التاريخية" **historical linguistics**. وهو الفرع المعنيّ بدراسة التغير اللغوي. وقد كان هذا الإسقاط أمرًا لا مَعْدَى عنه، في رسم تخطيطي ذي بعدين فقط. فإذا نظرنا إلى هذا الرسم التوضيحي الدائري الشكل على أنه ثلاثي الأبعاد، كما لو أنه مقطع مستعرض في شجرة، إذن لأمكننا أن نُضمّنه ذلك الفرعَ من فروع اللسانيات. إن بوسعنا أن نَدْرس قواعد اللغة وَفْقَ منهجين متمايزين: أولهما: المنهج الوصفي الآني الذي يدرس تلك القواعدَ في نقطة زمنية معينة (قطع واحد بعرض الشجرة). وثانيهما: المنهج التاريخي الذي يدرس تغير تلك القواعد خلال عدد من السنوات، عبر المقارنة بين أكثر من قَطْع مستعرض، يتم إحداثه في أماكن مختلفة من ساق تلك الشجرة (الرسم التوضيحي ١-٣).



(الرسم التوضيحي ١-٣)

ولما كان طبيعيًا أن يبدأ اللسانيون – أولا – بدراسة الكيفية التي يعمل بها نظام لغويٌ ما، في وقت ما؛ حتى يستطيعوا تبيُّن ما طرأ على ذلك النظام من تغيرات مختلفة، فإن تحليل اللغة، أية لغة، يبدأ عادةً بالدرس الوصفي الآني synchronic في مدى زمني معين، ثم يتلوه الدرس التاريخي diachronic لها.

وأما الفرع الثاني الذي أسقطه الرسم التوضيحي (١-١)، فهو **"علم التصنيف النوعي اللغوي" linguistic typology**. وهو الفرع المعنيّ بدراسة الأنواع المختلفة للغات. والسبب في إسقاطه هو عدم ملاءمته لهذا الرسم التوضيحي؛ من حيث إن مسائل هذا الفرع من فروع اللسانيات لا تستأثر به طبقةٌ بعينها من طبقات هذا الفرع، بل تَتَوزَّعُه طبقاتٌ عديدة منه، تشمل: "الفونولوجيا" **phonology**، و"علم النحو (والصرف)" **syntax**، و"علم الدلالة" **semantics** .

لقد أوضح هذا الفصل – إذن – أوجه الاختلاف بين علم اللسانيات، والدرس اللغوي التقليدي. وكذا أوجز القولَ في الفروع الرئيسية لهذا العلم. وأما فصلنا الآتي، فسيُعنَى بالنظر في الظاهرة التي يدرسها علم اللسانيات، أعني: اللغة.

فلنتذكر:

- قد يتواصل الشخصُ العادي مع عشرات الآلاف من الكلمات كلَّ يوم.
- يوصف الشخص الذي يدرس اللسانيات **linguistics** بأنه: لسانيّ **linguist**.
- يُحلل اللساني اللغاتِ الإنسانية، ولكنه لا يتحدث بها بالضرورة.
- يقدم اللسانيّ "وصفًا" للغات الإنسانية، و"لا يفرض" على الناس كيفية استعمالها.
- تتمتع كل اللغات – وكذا كلُّ ظواهرها – بقدر من الطرافة.
- تتغير اللغات الإنسانية تغيرًا مستمرًا.
- يلزم اللسانيين أن يحللوا اللغة المنطوقة، واللغة المكتوبة: كلا على حِدَة.
- يجب ألا تعالج بنية أية لغة قَسْرًا في إطار قواعد لغة أخرى.
- يمكن للسانيّ أن يحلل الظاهرة اللغوية في وقت بعينه (= اللسانيات الوصفية)، أو أن يدرس تغيرها عَبْر عدد من السنوات (= اللسانيات التاريخية).

٢

ما اللغة؟

يلخص هذا الفصلُ القول في بعض السمات الأساسية المهمة التي تتسم بها اللغةُ الإنسانية، ويحاول تبيين حظّ وسائل التواصل الحيواني منها. ويبحث فصلُنا هذا -كذلك- في الأغراض الأساسية التي يتغيّاها الناسُ باستعمال اللغة.

يمكننا أن نعرّف علم اللسانيات بأنه "الدراسة المنهجية للغة". أي أنه هو الفرع المعرفي المعنيّ بوصف اللغة من كل جوانبها، وبصياغة نظريات تكشف لنا عن "الكيفية" التي تعمل بها.

ولكن: ما المعنى الدقيق لكلمة"لغة" ؟ فما أكثر ما يتوسع الناس في استعمال تلك الكلمة؛ فيقولون: "لغة الورود"، و"لغة الموسيقى"، و "لغة الجسد". وهَلُمّ جرًا.فأما كتابنا هذا، فيشارك جمهرة مصنفات علم اللسانيات، في استعمال كلمة "اللغة" لتدل على ذلك النظام من الرموز الصوتية الخاصة، الذي يبدو أنه قد جَرَتْ برمجته جينيًا؛ ليتطور في جنس البشر. ولا شك في أن لدى البشر قدرةً على التواصل بوسائلَ أخرى جِدّ كثيرة: من غمز بالأعين، وتلويح بالأيدي، إلى نَبْس بالشفاه، ورَبْت على الأكتاف، وغيرها كثير. ولكن كتابنا هذا غير معنيّ بدراسة وسائل التواصل الإنساني غير اللفظية تلك. وأما الفرع المعرفيّ المعنيّ بدراستها، ودراسة غيرها من ضروب التواصل الإنساني، فهو الفرع المعروف بـ"علم نفس التواصل" psychology of communication.

وهو يتداخل مع اللسانيات، ولكننا لم نتناوله بالدرس في هذا الكتاب .

وجليّ -كذلك- أن في وُسْع البشر تحويلَ اللغة إلى وسائل اتصال أخرى متعددة، مثل: الرموز الكتابية، ونظام "بريل" الطباعي، ولغة الإشارة، وغيرها.

وتتميز لغة الإشارة خاصة بخصائص شائقة، ربما يُعْوِز اللغةَ المنطوقة الاتـصافُ بهـا. ولكن اللغةُ المعتمدة على الأصوات تتميز بأنها الأكثر انتشارًا، وربما تكون – كـذلك – الأكثر أهميةً وضرورية للتواصل الإنساني؛ مما سوّغ إفرادها بالقدر الأكبر من الاهتمام في هذا الكتاب.

ولكن: أيمكن للغة أن تُعرَّف تعريفًا جامعًا مانعًـا؟ وهـل يمكـن تمييزهـا عـن سائر أنظمة التواصل الأخـرى الخاصـة بالحيوانـات؟ لقـد تبنّـى اللـسانيّ الأمريكـيّ "تشارلز هوكيت"(١) **Charles Hocket** منهجيةً رائدة، ومفيدة، في هذا الصدد. وتلكم أن نضع قائمةً **بالسمات الهيكلية الأساسية design features** للغة الإنسانية، ثـم ننظـر بعد ذلك: أتوجد تلك السماتُ في أنظمة التواصـل الحيـواني الأخـرى، أم لا توجـد؟ وسوف نناقش قدرًا مهمًا من تلك السمات في الصفحات القليلة الآتية.

استعمال الإشارات الصوتية

تستعين الحيوانات – في تواصل بعضها مع بعض – بعدد من الوسائل المختلفة: فحيوانات "السَّلْطَعون"(٢) crabs – مـثلا – تتواصـل بتحريـك مخالبهـا بعـضها تجـاه بعض. ولدى النحل سلسلةٌ معقَّدة من الرقصات التي تشير إلى المكان الذي يوجد فيه مصدر الرحيق.

ولكن هذه الوسائل تفتقر إلى ما تتسم به الأصواتُ من انـتشار في الاسـتعمال؛ حيث يـستعمل تلـك الأخـيرةَ كـلٌّ مـن البـشر، والجنـادب، والطيـور، والـدلافين، والأبقار، والقرود، ومخلوقات أخرى كثيرة. فلا تفرُّدَ ألبتَّـةَ لنـا – نحـن البـشر – في استعمال الأصوات؛ لإنجاز التواصل.

---

(١) "تشارلز فرانسيس هوكيت" Charles Francis Hocket (١٩١٦– ٢٠٠٠م) هـو أحـد رواد اللـسانيات البنيوية الأمريكية. من أشهر مؤلفاتـه: A Course in Modern Linguisitcs (محـاضرات في اللـسانيات الحديثة) (١٩٥٨م). ينظر فيما سبق – وفى المزيد إن شئت:

Gair, Charles Francis Hocket: A Biographical Memoir . [المترجم].

(٢) وهى المعروفة لدينا – نحن عمـوم المـصريين – باسـم "الكابوريـه"، ولـدى إخوانـا الخليجيـين باسـم "القبقب" (بضم القافين). [المترجم].

خلاصة:

للإشارات الصوتية مزايا عديدة. منها: أنه يمكن استعمالها في الظلام، وكذا على قدر من البعد المكاني. وكذا تمكّن من نقل رسائل جِدّ متنوعة، وتترك البدن حرًّا يمارس أنشطة أخرى.

ربما يكون الإنسانُ قد اكتسب نظامه الإشاريّ الصوتيّ، في مرحلة جِدّ متأخرة من مراحل تطوره. ويَدعم منطقية تلك الفرضية أن لكل أعضاء الجسم المستعملة في الكلام وظائفَ أخرى أكثر أهميةً وحيوية. فالوظيفة الأساسية للرئتين هي إنجاز (عملية) التنفس. والوظيفة الأساسية للأسنان، والشفتين، واللسان، هي إنجاز (عملية) تناول الطعام. والوظيفة الأساسية للوترين الصوتيين **vocal cords**- وهما وتران رقيقان من الأنسجة العضلية المرنة يقعان في داخل الحنجرة- كانت إغلاق الرئتين؛ لتثبيت القفص الصدري، ومنْعه من التحرك، لدى إنجاز الأعمال الشاقة التي تتطلب جهدًا كبيرًا. فالإنسان حين يحمل شيئًا ثقيلا يوقف نَفَسَه آليًا. وهذا الإيقاف ناتج عن إغلاق الوترين الصوتيين. والصوت الذي يصدره الإنسانُ حين يطرح هذا الشيء الثقيل إنما يسبِّبه خروجُ هواء النفس مندفعًا؛ جرّاء انفتاح الوترين الصوتيين. ويبدو أننا قد كنا – منذ ملايين خلت من السنين- في حاجة إلى قفص صدري ثابت؛ حتى نستطيع أن نتسلّق الأشجار، ونتدلّى من أغصانها، وننتقل بينها[1]. وما زلنا نحتاج- في عصرنا هذا – إلى مثل هذه الآلية؛ لإنجاز أعمال أخرى، مثل: حمل الأثقال، والتبرز، والولادة.

خلاصة:

لكل الأعضاء المستعملة في إصدار الكلام وظائف أخرى أكثر أساسية، مثل: تناول الطعام، أو التنفس. وعلى ذلك، فربما يكون الإنسان قد اكتسب اللغة في مرحلة متأخرة نسبيًا من مراحل تطوره.

الاعتباطيـــة:

يسهل علينا عادةً أن نتبين وجود علاقة بين الإشارة التي تصدر من الحيوان، والرسالة التي يتغيّا توصيلها بهذه الإشارة. فمثلا: إذا أراد حيوان ما أن يحذّر

(١) يبدو من هذا الكلام، ومن كلام آخر سيأتي (ص٦٦) أن المؤلفة تتبنى نظرية "تشارلز داروِن" في أصل الإنسان. وأمر سقوط هذه النظرية متعالَم مشهور. [المترجم].

خصمه، فربما يتخذ في سبيل توصيل رسالة التحذير تلك وَضْعَ الهجوم. فإن كان ذلك الحيوان هِرًّا- مثلا- فسوف يقوّس ظهره، ويمُوء مُواء المتوعِّد؛ فيبدو بذلك متأهبًا للانقضاض.

وأما الشأن في اللغة الإنسانية، فالعكس فيها هو الصواب. وهذا لأنه يُعْوزنا في الكثرة الكاثرة من الحالات أن نقف على علاقة، أيًّا كان نوعها، بين "الإشارة"، و"الرسالة". فالرموز اللغوية التي يوظِّفها البشرُ في تواصلهم هي رموز اعتباطية arbitrary. فمثلا: لا توجد علاقة ذاتية بين كلمة elephant، والحيوان الذي ترمز إليه في العالم الخارجي. وكذا لا ترتبط عبارة: these bananas are bad ارتباطًا ذاتيًا بالطعام. وأما كلمات المحاكاة الصوتية onomatopoeic، من مثل: (1)quack- quack، و(2)bang، فهي استثناء من خصيصة الاعتباطية. ولكن هذا النوع من الكلمات لا يمثل إلا عددًا قليلا نسبيًا من العدد الإجمالي لكلمات اللغة.

---

(١) حكاية لصوت البط. [المترجم].

(٢) حكاية لصوت الضجة أو الخبطة. ومن ألفاظ المحاكاة الصوتية في العربية: "القهقهة" حكاية لصياح الضاحك: "قَهْ قَهْ"، و"التنحنح" حكاية لما يقال عند الاستئذان، و"غقّ الغراب": إذا صاح "غاق غاق" (ينظر: الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية ١/ ٣٤٦، ٣٦٥)، و"الحمحمة" حكاية لصوت الفرس دون صهيله (ينظر: لسان العرب "ح م م" ٢/ ١٠١٢). و"الطقطقة" حكاية لصوت وقوع حجر على حجر، أو نحوه (المصدر السابق "ط ق ق" ٤/ ٢٦٨٤).[المترجم].

خلاصة:

يُعْزِز معظمَ كلمات اللغة وجودُ صلة بين أصواتها من جهة، ودلالاتها من جهة أخرى[1].

الحاجة إلى التعلم:

---

(١) تتحقق في العربية بعض الخصائص الدلالية التي ربما يفضي القول بها، والتأمل فيها، إلى إعادة النظر في وصف اللغة الإنسانية بسمة الاعتباطية شبه المطلقة هذه، ولو فيما يخص العربية وحدها. ومن هذه الخصائص:

(أ) أن لاستعمالات كل "جذر" root من جذور العربية معنى محوريًا تدور حوله كلُّ هذه الاستعمالات (كلما وُجد الجذر وُجد معناه المحوري). فمثلا: المعنى المحوري لاستعمالات الجذر (ج ن ن) هو "الستر أو الاستتار"، فـ"الجنين" مستتر في رحم أمه، و"الجنة: الحديقة ذات الشجر الكثيف" (تُظِل ما تحتها وتستره)، و"جنة الآخرة" مستورة عنا لم يرها أحد، و"المِجَنّ: التُرس" (يستر حامله ستر حماية)، و"الجَنَن: القبر" (يوارى جثمان الميت)، و"الجِنّ" مستورون عنا، و"المجنون" كأن عقله مستتر أو غائب... إلخ.

[ينظر: ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): مقاييس اللغة (ج ن ن) ١/ ٤٢١، ود. محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم ١/ ٣٤٢- ٣٤٤].

(ب) أن "جذور" العربية التي تتماثل في حرفيها الأول والثاني، بترتيبهما- وهو ما يُسمَّى بـ"الفصل المعجمي"- تتقارب معاني استعمالاتها كذلك. ومن هذا: أن الفصل المعجمي (ب ت) يدل على ضرب من "القطع أو الانقطاع": ففي (ب ت ت) قطع يمنع امتداد الشيء: (بت الحبل: قطعه). ثم نجد أن استعمالات الجذر (ب ت ر) تدل على "قطع الشيء الممتد المسترسل"، كما في "الأبتر": المقطوع الذنب من الدواب. وأن استعمالات (ب ت ك) تدل على "القطع بدقة وحدّة"، كما في "البتك": القبض على الشعر ثم جذبه حتى ينتتف من أصله. وأن استعمالات (ب ت ل) تدل على "انفصال الشيء عن أصله مع قيامه بذاته"، كما في "البَتُول": فَسِيلة النخل المنقطعة عن أمها المستغنية بنفسها، و"تبتّل لله تعالى": انقطع وأخلص نفسه له تعبدًا... وهكذا. [ينظر: د. محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (ب ت ت – ب ت ر – ب ت ك – ب ت ل) ١/ ٦٤- ٧١].

(ج) "جذور" العربية إذا تماثلت – أو تقاربت – مخارج الحروف المكونة لها، كلها أو بعضها، بترتيبها نفسه، تقاربت معانيها كذلك. وهي الخصيصة الدلالية التي أسماها العلامة ابن جني (ت ٣٩٢هـ) بـ"تصاقب الألفاظ [أي: تقاربها] لتصاقب المعاني". فمثلا: الجذران (ف ر خ) و(ف ر غ) يتماثلان في الحرفين الأولين، والخاء والغين من مخرج واحد. ومعاني استعمالاتهما متقاربة؛ ففي كل دلالة على نوع من "خلوّ أصل الشيء أو مقرّه منه": ففي (ف ر خ) خلوّ لإطار البيضة من ولد الطائر بعد انفلاقها عنه (الإفراخ). وفي (ف ر غ) نوع من الخلو التام (أفرغ الدلو: صبَّ ما فيه). (ينظر: د. عبد الكريم محمد جبل: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ١/ ٢٣٨).

(د) هذا إلى ما انتهى إليه أبي وشيخي العلامة د. محمد حسن جبل- بارك الله في عمره وعلمه – من تحديد معانٍ لغوية، تحديدًا علميًا، لحروف العربية، تأسيسًا على ملاحظة معاني الجذور التي تتألف كل حروفها- أو جُلها- من حرف بعينه، وعلى ملاحظة هيئة تكوّن الحرف في جهاز النطق الإنساني. فمثلا: تعبّر الباء عن "تجمع تراكمي رخو مع تلاصق ما"؛ أخذًا من "البَبَّة": الطفل السمين الممتلئ البدن، مع تكون صوت الباء بانطباق الشفتين، انطباقًا تامًا، وهما كتلتا لحم رِخو. (ينظر: د. محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم ١/ ٢٦).

فكل هذا- إذن- يدفعنا إلى إعادة النظر في التسليم بـ"الاعتباطية" سمةً من السمات المميزة للغة الإنسانية عامة، أو للغة العربية وحدها، على الأقل. [المترجم].

تَعرف كثير من الحيوانات الكيفية التي تتواصل بها معرفةً غريزيةً، أي دونما تعلم. وهذا لأن أنظمة التواصل لديها مركَّبة في جيناتها. فمثلا: نجد أن رقص النحل في أي مكان، يكاد يتطابق مع نظيره في أي مكان آخر، مع قدر طفيف من التنوع. وحتى في حالات التواصل التي تتضمن عنصرًا تعليميًا، فإن هذا العنصر يكون ثانويَّ التأثير. ففي إحدى التجارب رُبِّي أحد طيور "الصَّغْنَج"[1] chaffinch في حجرة عازلة، بعيدًا عن نظرائه، فعُثِر على أنه قد طوَّر ضربًا غير مألوف من الغناء. ولكن حين تعرض هذا الطائر تعرضًا مؤقتًا لتسجيلات صوتية لطيور "الصغنج" الأخرى، عاد غناؤه ليتطور تطوره الطبيعي المعتاد.

ويختلف هذا التواصلُ الحيواني الغريزي كلَّ الاختلاف عن (عملية) التعلم الطويلة الأمد، التي يتطلبها اكتسابُ اللغة الإنسانية. حيث لا يُنجَز ذلك الاكتساب غريزيًا، بل يتم عبر (عملية) نقل ثقافي culturally transmitted من جيل إلى جيل. إن تنشئة إنسان ما في معزل عن سائر الناس، لا شك مانعتُه من اكتساب اللغة. وهذا ما تكشَّفتْ عنه الدراساتُ القليلة جدًا، التي قامت على ملاحظة بعض الأطفال، ممن قام على شأن تربيتهم بعضُ الحيوانات، بعيدًا عن أي تواصل إنساني. إن اكتساب اللغة الإنسانية مُرْتَهن كلَّ الارتهان بتوافر بيئة مجتمعية تواصلية. وثمة ما يشبه الإجماع بين جمهرة الدارسين على أن الطفل يولد مزوَّدًا بنوع من المقدرة الفطرية على اكتساب اللغة. ولكن هذه المقدرة الفطرية الكامنة لا تُستثار؛ فتنشَط من عِقالها، إلا إذا تعرَّض الطفلُ زمنًا طويلا للتواصل اللغوي. وهو ما يتطلب الاهتمام بعملية التعلم.

ثنائيـــة التأليـــف:

تمتلك الحيواناتُ التي تتواصل باستعمال عدد من الإشارات الصوتية مخزونًا من الأصوات الأساسية، يتنوع بتنوع هذه الحيوانات. فللبقر نَحْوٌ من عشر إشارات، وللدجاج نحو من عشرين، وللثعلب ما يربو على الثلاثين، ولـ"الدولفين" – وكذا "الغوريلا" و"الشمبانزي" – ما بين العشرين إلى الثلاثين. بيد أن معظم هذه الحيوانات لا تستطيع أن تستعمل كلَّ صوت أساسي من أصواتها تلك، إلا لمرة واحدة

---

(١) هو طائر أوربي، مغرد، صغير الحجم. [المترجم].

فقط. أي أن عدد الرسائل التي يمكن أن يرسلها أحدُ هذه الحيوانات، مقيَّدٌ بعدد الأصوات الأساسية التي يمتلكها فقط. وقليلة هي الحالات التي عُثر فيها على أن بعض هذه الحيوانات قد يوظّف تركيباتٍ صوتيةً بسيطة من أصواته الأساسية؛ ليتواصل بها كذلك.

وتختلف اللغة الإنسانية فى هذا الصدد بعضَ الاختلاف عن (اللغة) الحيوانية. وبيان ذلك: أن لدى كل لغة إنسانية ذخيرةً من الوحدات الصوتية، أو الفونيمات phonemes ، التي تماثل في متوسط عددها متوسط عدد الأصوات الأساسية التي تمتلكها هذه الحيوانات، أي ما بين الثلاثين إلى الأربعين فونيمًا. بيد أن هذه الفونيمات تُعْوِزها غالبًا الدلالةُ على معنًى مفيد حين تُستعمل منفردة. ولا تدل على هذا المعنى المفيد إلا حين يتركّب بعضها مع بعض. وهذا بخلاف ما عليه أصوات الحيوانات، كما مر. فالأصوات **f**، و **g**، و **d**، و **o**- مثلا- لا تدل على شيء حين تستعمل منفردة، ولكنها تتغير إلى حال الإفادة ، حين يتركّب بعضها مع بعض، بطرق متنوعة، مثل: **fog** (ضباب)، و**dog**، و**god** .

فاللغة الإنسانية تتألف – إذن – من طبقتين: طبقةٍ تشمل الأصوات المفردة، ثم طبقةٍ أخرى تشمل وحداتٍ لغوية أكبر، تكونت بدورها من تركّب الأصوات المفردة بعضها مع بعض. ويُطلَق على هذه الخصيصة من خصائص اللغة مصطلح **duality** (ثنائية التأليف)، أو **double articulation**. ولا شك أن نظامًا للتواصل يتميز بهذه الخصيصة الثنائية، سيكون أكثر مرونة – بكثير- من نظام آخر تُعْوِزه هذه الخصيصة؛ إذ سيتاح للأول منهما أن ينقل عددًا من الرسائل أكثر- بكثير جدًا- من تلك التي سيتاح للنظام الثاني إرسالها .

خلاصة:

إن انتظام بنية اللغة في طبقتين: طبقة من الأصوات تُعْوِزها فى معظم الحالات الدلالةُ على معنى، ثم طبقة أخرى من وحدات أكبر تتجمع فيها هذه الأصوات - يُكسب اللغةَ فاعليةً ومرونة. وهذه الخصيصة يندُر وجودها في وسائل التواصل الحيواني.

هذا، وقد كان يظن في وقت مضى أن "ثنائية التأليف" هذه، تمثل سمةً تنفرد بها اللغةُ الإنسانية. بيد أن هناك من الدارسين من يدّعي الآن أن هذه الخصيصة

تتحقق كذلك في غناء الطير . ففي هذا الغناء، لا يتحصَّل معنًى من كل نغمة مفردة، بل إن تركّب هذه النغمات في تتابعات أطول، هو الذي يفضي إلى تكوين لحن ذي معنى.

الإزاحــــة:

تقتصر القدرةُ التواصلية لمعظم الحيوانات على التواصل بشأن أشياء توجد في البيئة المباشرة المحيطة بها: مكانًا، أو زمانًا. فالطير لا يطلق صيحة الخطر؛ إلا حين يكون الخطر ماثلا بالفعل. ولا يستطيع – في المقابل – أن يعطى معلوماتٍ تتعلق بخطر مضى زمانه، أو وقع في مكان آخر. وهذا الضرب من الصياح اللحظي المقيَّد: زمانًا، ومكانًا، هو أقرب إلى الصيحات الانفعالية التي تصدر عن الطفل الإنساني؛ جرّاء إحساس بالألم، أو بالجوع، أو بالرِّضَى، منه إلى اللغة التامة التطور.

خلاصة:

يمكن للبشر – بخلاف سائر المخلوقات الأخرى – أن يتواصلوا بشأن أشياءَ، وأحداثٍ، ليست في زمان التواصل، ولا مكانه.

وفى المقابل، نجد أن اللغة الإنسانية تمكّننا من أن نتواصل بشأن أشياءَ لا وجود لها في مكان التواصل، أو أشياء وقعت في غير زمانه، وبنفس القدر من السهولة الذي تمكّننا به من التواصل بشأن الأشياء الماثلة. ويعبَّر عن هذه الظاهرة في مصنفات علم اللسانيات بمصطلح **displacement** (الإزاحة). وهى ظاهرة واضحة الندرة في وسائل التوصل الحيواني. ومن أمثلتها: تواصُل النحل بشأن مكان الرحيق: فحين تعثُر النحلة الشغّالة على مصدر للرحيق، ترجع أدراجَها إلى الخلية، وتأخذ في أداء رقصة معقدة؛ حتى تدُلّ سائر النحل على الموقع الدقيق لهذا الرحيق، الذي قد يكون على بعد عدّة أميال من مكان الخلية. ولكنْ حتى قدرة النحل هذه على التواصل بشأن ما هو "غائب"، هي قدرة محدودة المجال. فقد تبين للباحثين اقتصارُها على التواصل بشأن الرحيق فقط. وأما اللغة الإنسانية، فتتيح لنا أن نعبّر بدقة عن أى موضع، وبغض النظر عن مدى بعده، أو قربه: في المكان، أو في الزمان.

الإبداعيـــة (أو الإنتاجيــة):

تمتلك معظم الحيوانات عددًا جِدّ محدود مـن "الرسـائل" التـي يمكـن لهـا أن ترسلها، أو تستقبلها. فمثلا يمتلك ذكـر الجنـادب- في جـنس خـاص منهـا- سـتّ رسائل فقط. وهاكم ترجمات بعضها:

١- إنني سعيد، الحياة حلوة.

٢- أرغب في ممارسة الحب.

٣- أنت تتعدّى على منطقتي.

٤- إنها تَخُصّني.

٥- فلنمارس الحب.

٦- ما أمتع ممارسةَ الحب!

ولا تتمثل مظاهر محدودية القدرة التواصلية للجنادب في ثبات عدد "الرسائل" التي يمكن أن ترسلها، أو تستقبلها، فحسْب. بل تتمثل كذلك في ثبـات الظـروف – أو المناسبات – التي يمكن أن تُستعملِ فيها كلٌ مـن هـذه الرسـائل. وتتَّسِم القـدرةُ التواصلية لكل الحيوانات بهذه المحدودية حَسَبَ ما نعلم. فالنحل لا يمكنه التواصلُ إلا بشأن الرحيق. وكذا الدلافين- عـلى ذكائهـا، وكثـرة عـدد صـيحاتها، وتنوعهـا- لا تتواصل إلا بشأن أشياء بعينها، تتكرر مراتٍ بعد مرات. وحتى قرود الـ"فرفت"(١) vervet الذكية، لا تملك إلا أن تكرر صيحاتها الستَّ والثلاثين المدعاة، مرارًا وتكرارًا.

خلاصة:

تتسم معظم الحيوانات بمحدودية ما يمكنها التواصل بشأنه. وأما البشر، فيمكنهم أن يتحدثوا عن أي شيء، وأن يظل كلامهم مفهومًا، بالرغم من ذلك.

ولا تتحقق هذه المحدوديةُ في اللغة الإنسانية، بل تتميز – على النقـيض- بأنهـا لغة إبداعية creative- أو إنتاجية productive ففـي وُسْـع عمـوم البـشر أن ينتجـوا

(١) هو قرد أفريقي، صغير الحجم. [المترجم].

ألفاظًا - أو عباراتٍ - جديدةً، متى أرادوا ذلك. ويستطيع أحدنا أن ينتج جملة لم تُقَلْ من قبل قطّ، في ظروف أبعد ما تكون عن حسبانه، ثم تكون جملته تلك - بالرغم من ذلك- مفهومةً لمن حوله. فإذا قال شخص ما، في إحدى الحفلات: "ثمة طائر من طيور منقار البطة[1] platypus أرجواني اللون، يحبو على السقف"، فربما يظن الحضور أن قائل هذه الجملة مغيَّب العقل؛ جرّاء إفراطه في احتساء الشراب، أو تعاطي المخدرات، ولكن كلماته تظلّ - بالرغم من ذلك- مفهومةً لهم.

وفى المقابل، نجد أنه لا شيء يجبر الإنسان في مواقفه الحياتية اليومية المتكررة، على أن يقول الكلام نفسه دائمًا. فمثلا: قد يقول أحدنا لدى تناول وجبة الإفطار: "هذه قهوة ممتازة". ويقول في يوم تال: "هل هذه قهوة أم شاي؟"، ثم يقول في يوم ثالث: "ربما يكون الأرخص أن أشرب قدرًا من البترول".

القولبـــة:

لا تشتمل كثير من أنظمة التواصل الحيواني إلا على قائمة محدودة من العناصر، أو المكونات. وكذا لا تتضمن هذه الأنظمةُ بنيةً تنظيمية داخلية (أو باطنية)، تتأسس عليها بنيتُها الظاهرة (أو السطحية).

وأما اللغة الإنسانية - في المقابل- فلا يمكن القول ألبتَّةَ بأنها تتألف من ركام عشوائي من الوحدات- أو المكونات - المنعزلة. كما أن البشر لا يصُفُّون الأصوات والكلمات، بعضها إلى جوار بعض، كيفما اتَّفق. بل هم - على العكس من ذلك- يسبكون هذه الوحدات في قوالب patterns قليلة العدد، واضحة التحديد.

ودونك- مثلا- الأصوات: a، و b، و s، وt. فمن بين تقاليبها - أو تجمعاتها- الممكنة نظريًا، لا توجد إلا أربعة تقاليب فقط تقبلها اللغة الإنجليزية. وهي: bats (خفافيش)، أو tabs (عُرَى)، أو stab (طعنة)، أو bast (تعني الكلمة الأخيرة: اللحاء الداخلي لشجر الزيزفون، وَفْق معجم Oxford English Dictionary). وأما كل التقاليب الأخرى المحتملة نظريًا، من مثل: sbat، وabts، وstba، فتقاليب

(١) الـ"بلاتبوس": حيوان أسترالي، صغير الحجم، مكسوّ بالفراء، ذو منقار منبسط كمنقار البط، وقدم ذات أوتار بين الأصابع، تساعده في السباحة. [المترجم].

مستبعدة من معجم هذه اللغة. (تشير النجمة إلى استحالة الكلمة أو العبارة المنجمة). ولم تُستبعد هذه الكلمات المنجَّمة- في حالتنا هذه- بسبب من تعذّر النطق بتتابعها الصوتي المكون لها بل لأن "القواعد" التي يتّبعها لا شعوريًا من يعرفون اللغة الإنجليزية، لا تسمح بهذه التتابعات الصوتية، ولو في الكلمات الجديدة المستحدثة. هَبْ - مثلا- أن إحدى الشركات قد طرحت نوعًا جديدًا من مساحيق غسل الملابس، باسم sbat، أفتُراه يَرُوج بين الناس؟ الراجح أنه لن يروج. وذلك لأن اللغة الإنجليزية لا تسمح بالتتابع الصوتي الاستهلالي (sb)، وإن كانت هناك لغاتٌ أخرى تسمح به، مثل اللغة اليونانية القديمة.

وبالمثل: انظر في الكلمات الآتية: burglar (لص)، و loudly (بصوت عال)، و sneezed (عطس)، وthe، فستجد - تارةً أخرى- أن من بين الاحتمالات الممكنة نظريًا لتركب هذه الكلمات معًا، لا توجد إلا ثلاثة تراكيب فقط، تجيزها اللغةُ الإنجليزية. وهي:

- The burglar sneezed loudly. (اللص عطس بصوت عالٍ)

- loudly sneezed the burglar. و(بصوت عالٍ عطس اللص)

- The burglar loudly sneezed. وربما (اللص بصوت عالٍ عطس)

وأما كل الاحتمالات الأخرى فغير جائزة، من مثل:

*** The loudly burglar sneezed**

أو: *** Sneezed burglar loudly the**

ولاحظ - كذلك - أن هذه الكلمات الأربع لو كانت: burglars، و a ، و sneezes، وloudly، لما كان ثمة سبيلٌ إلى الجمع بينها في جملة صحيحة الصياغة؛ لأن التركيبين a burglars ، و burglars sneezes غير جائزين. وخلاصة القول: تضع اللغة الإنجليزية قيودًا صارمة بشأن الوحدات اللغوية التي يمكن أن يقع بعضُها إلى جوار بعض، وكذا بشأن "الترتيب" الذي يمكن لهذه الوحدات أن تنتظم وَفْقه(1).

---

(١) وكذا الشأن في العربية. فمثلا: حروف الجر (في - مِن- على...) لا تجاورها إلا أسماء. والحروف (كي - لن - لم...) لا تجاورها إلا أفعال مضارعة... إلخ. هذا، مع ملاحظة أن مكونات الجملة العربية تتمتع بقدر وافر من المرونة في الحركة داخل الجملة، على ما سيأتي التنويه به في الفصل السابع (القوالب التي تنتظم جمل اللغة)، (ص١٥٣)، (الهامش رقم ١). [المترجم].

ويترتب على ما سبق، القولُ بأن هناك – كذلك – عددًا ثابتًا من الاحتمالات لحلول الوحدات اللغوية، بعضها محل بعض. ففي كلمة bats – مثلا – نجد أن a يمكن أن يحلّ محلَّها e أو i؛ بيد أنه لا يمكن أن يحلّ محلَّها h، أو z؛ حيث سيفضيان إلى تكوين كلمتين غير جائزتين، هما: bhts*، أو bzts*. وكذا في الجملة:

The burglar sneezed loudly.

يمكننا أن نستبدل بكلمة burglar كلماتٍ أخرى، من مثل: cat، و butcher (جزار)، و robber (لص)، أو حتى كلمة engine (محرك)، أو shoe (حذاء)، كما نرى في بعض قصص الأطفال. ولكنها – في المقابل – لا يمكن أن تُستبدل بكلمات أخرى، من مثل: into (داخل)، أو amazingly (بدهشة)، أو they؛ إذ سيفضي ذلك إلى تكوين تتابعات غير مقبولة الصياغة، من مثل:

*** The into sneezed loudly.**

أو: *** The amazingly sneezed loudly.**

إن لكلّ وحدة لغوية – إذن – موقعيتَها المميِّزة لها داخل البنية العامة للغة. ويتأسس على هذه الموقعية جوازُ تركُّب هذه الوحدة مع وحدات أخرى، وكذا جواز استبدال وحدات أخرى بها (الرسم التوضيحي رقم ٢–١).

The	**- burglar**	**- sneezed**	**- loudly**
A	**- robber**	**- coughed**	**- softly.(1)**
That	**- cat**	**- hissed**	**- noisily.(2)**

(الرسم التوضيحي ٢-١)

وعلى ذلك، يمكننا النظرُ إلى اللغة على أنها تتألف من شبكة متداخلة معقَّدة من العناصر المترابطة. وداخل هذه الشبكة تكتسب كلُّ وحدة لغوية موقعيتها، وتُعطَى

(١) ثمة لص كحَّ برفق. [المترجم].
(٢) تلك القطة ماءت بصوت مزعج. [المترجم].

هُوِيَّتها؛ تبعًا لعلاقتها بكل الوحدات اللغوية الأخرى. فلا سبيل- إذن- إلى تمتع أي من هذه الوحدات اللغوية- اللهم إلا أسماء بعض الأشياء- بشرعية، أو كينونة مستقلة، خارج تلك الشبكة، أو البنية اللغوية العامة. وما أشبه العناصرَ التي تتألف منها اللغة باللاعبين في مباراة لكرة القدم! فلا قيمة، أو فائدة، لأي من هؤلاء اللاعبين: من مهاجم، أو حارس مرمى، أو غيرهما، خارج المباراة. ولكن حين ينزل أحدهم -كاللاعب المهاجم- إلى أرض الملعب مشاركًا في المباراة، ومنضمًا إلى سائر اللاعبين، فسَرْعانَ ما يكتسب هُوِيَّةً وقيمة. وكذا الشأن في اللغة: فلا قيمة، أو أهمية، لأي من وحداتها المختلفة- من مثل: **the**، و **been**، و **very**- إلا بوصفها جزءًا من الشبكة الكلية للغة.

الاعتماد على بنية [باطنية]:

دعونا الآن ننظر ثانية في شبكة الوحدات، أو المكونات، التي تتألف منها اللغة. إن النظر المدقق يجلِّي لنا وجهًا آخر أساسيًا، من أوجه الاختلاف بين اللغة الإنسانية والتواصل الحيواني.

انظر معي في الجمل الآتية: **The penguin squawked** (طائر البطريق صاح)، و **It squawked**، ثم **The penguin which slipped on the ice squawked** (طائر البطريق الذي تزحلق على الجليد صاح). فلعلك قد تبينت أن كل هذه الجمل تتقاسم تركيبًا أساسيًا متماثلا، يتألف من مسند إليه[1] **subject**، وفعل (الرسم التوضيحي ٢-٢).

---

(١) أو: فاعل (نحوى)/ مبتدأ/ موضوع. هذا، ويستعمل مصطلح subject في الدرس اللساني الغربي، عند تحديد الوظائف النحوية لمكونات الجمل؛ للإشارة إلى الوظيفة النحوية لأحد مكوني الجملة الأساسيين. وهو المكوّن الذي ينهض غالبًا بدور "صانع الحدث" . وأما المكون الأساسي الآخر، فيطلق على وظيفته النحوية مصطلح predicate (المسند/ الخبر/ المحمول)، كما في الأمثلة التي ذكرتها المؤلفة (ينظر: Crystal. A Dictionary of Linguistics. p. 369.). وبهذا يتضح أن مصطلح subject- بالمفهوم السابق- يشمل الوظيفتين النحويتين: المبتدأ والفاعل، في التحليل النحوي العربي للجملة العربية. وعلى ذلك، تُصنَّف كلمة "الطالب" في الجملتين: "جاء الطالب" و"الطالب جاء"- في الدرس النحوي الغربي- على أنها subject. في حين أنها تصنف في الجملة الأولى "فاعلا"، وفى الثانية "مبتدأ"، في الدرس النحوي العربي. ووراء كل ذلك حديث طويل. [المترجم].

The penguin **It** **The penguin which slipped on the ice**	**squawked**

(الرسم التوضيحي ٢-٢)

إن عدد الكلمات في كل جملة، لا يمثّل أيّ دليل يرشد إلى هيكلها التركيبي الأساسي. ومنهجية التحليل المؤسسة على (عمليات) الإحصاء البسيطة، تتنافى والطبيعةَ المعقدة للغة كلَّ المنافاة. فمثلا: هَبْ أن باحثًا كان يروم الوقوفَ على الكيفية التي يتم التعبير بها عن الزمن الماضي في اللغة الإنجليزية. فلا شك أنه سيخفق في محاولته تلك، إذا جرب الطريقة الآتية: "أضف (-ed) إلى نهاية الكلمة الثالثة في الجملة". إن هذه الطريقة ربما تفضي مصادفةً إلى تكوين عدد قليل من الجمل الصحيحة، مثل:

Uncle Herbert toasted seventeen crumpets.

(العم "هربرت" حمص سبع عشرة قطعة من الخبز)

بيد أن الاحتمال الأرجح هو أن يفضي تطبيق تلك المنهجية إلى نتائج جِدّ هزلية، من مثل:

*** Clarissa hate frogs- ed.**

*** The girl who-ed hate frogs scream.**

ولا شك في أن كُلا منا يستحيل عليه استحالةً تامة أن يكوّن جملا، ويفهمها، إلا إذا أدرك أن كلا من تلك الجمل يمتلك بنيةً تركيبية غير مرئية، ولا مسموعة. بنيةً يتعذّر اكتشافها عبر وسائل تحليل آلية، كالإحصاء العددي. وفور أن يتبيّن المرءُ تلك الحقيقة، فإنه يستطيع أن يعيّن الموضع الدقيق للعنصر الذي يجب أن تضاف إليه لاحقةُ الزمن الماضي (-ed)، ولو لم يكن قد سبق له قطّ أن سمع الجملة المعنية، أو تفوّه بها. بل حتى لو كانت تحتوى على فعل جديد تمامًا، كما في قولنا:

The penguin shramped the albatross[1].

وبعبارة أخرى: تتميز (عمليات) اللغة بما يمكن أن نسميه بـ"الاعتماد على بنية [باطنية]" **structure dependent**. بمعنى أن تلك (العمليات) تعتمد على تفهُّم التركيب الباطني لجمل اللغة، لا على معرفة عدد العناصر المكونة لتلك الجمل. وربما تتبدى تلك الخصيصةُ لأهل اللغة الإنجليزية، على نحو أوضح من غيرهم. ولكن نُدْرة هذه الخصيصة في التواصل الحيواني، أو ربما غيابها، يدل على أنها تمثل إحدى السمات البالغة الأهمية والمميزة للغة الإنسانية. ولم يستطع البحث في هذه السمة - بعد- أن يثبت تحقُّقها في أي نظام من أنظمة التواصل الحيواني، وإن كان بعض الباحثين يرى أن النظر في غناء الطير، ربما يتكشّف عن اتصافه بهذه السمة كذلك.

وفضلا عن ذلك، تتميز أنماط (عمليات) "الاعتماد على بنية (باطنية)" التي تتضمنها اللغة، بغلبة التعقيد البالغ عليها. كما أنها تنتظم ما هو أعقد بكثير من مجرد إضافة بعض الوحدات، أو اللواحق، كما كان الشأن في حالة تكوين الزمن الماضي. فالعناصر المكونة لتراكيب اللغة قد تتبادل مواقعها، بل ربما يُحذف بعضها تمامًا. فمثلا: نجد في أحد أنماط التركيب الاستفهامي، أن العنصر الفعليّ الأول، والمسند إليه، يتبادلان موقعيهما. فالجملة:

1 2

[That dirty child] [must] wash,

(ذلك الطفل المتسخ يجب أن يستحمّ)

يتصل بها السؤال الآتي: **2 1**

[must] [That dirty child] wash?

وكذا ثمة اتفاق على أن جملة: **Billy swims faster than Henrietta.**

("بِلي" يسبح أسرع من "هِنْرِيَتا")

تعني: **Billy swims faster than Henrietta swims.**

وأن الوجود الثاني للفعل **swims** أمر يفهمه أهل اللغة.

---

(١) الفعل الجديد (المرتجل) هو shrambed، كما هو واضح. وأما albatross (القَطْرس)، فهو طائر بحري، أبيض اللون، كبير الحجم، ذو جناحين طويلين. [المترجم].

إن مثل هذا التعقد الذي تتَّسِم به تراكيبُ اللغة، لتحار في تصوره العقولُ، خاصة حين نقارنه بالصيحات الست والثلاثين التي لدى قرود الـ"فرفت" ، أو حتى بالرقصات المعقدة نسبيًا التي تؤديها نحلة؛ لتدلّ رفقاءها على مصدر للرحيق.

اللغة الإنسانية في مقابل التواصل الحيواني:

نستطيع - في ضوء ما سبق- أن نلخّص أوجه الشبه والاختلاف بين التواصل الإنساني ونظيره الحيواني، على النحو الآتي:

اللغة الإنسانية نظام إشاريّ يستعمل الأصوات. وهذه سمة تتوزَّعها - كذلك- كثير من أنظمة التواصل الحيواني. ويغلب في التواصل الحيواني أن يكون ثمَّة ارتباطٌ بين "الإشارة" و"الرسالة" التي تحملها تلك الإشارة. ويكاد هذا النظام يكون نظامًا غريزيًا، تشتمل عليه جيناتُ الحيوانات المختلفة. وأما اللغة الإنسانية، فتغلب على رموزها سمةُ "الاعتباطية". كما أنها ليست غريزية، بل لابد لاكتسابها من نقل واعٍ مثابر من جيل إلى آخر. وأما سمة "ثنائية التأليف" - أي انتظام اللغة في طبقتين- وكذا سمة "الإزاحة" - أي القدرة على الحديث عن أشياءَ وأحداثٍ غائبة- فهما سمتان بالغتا النُّدرة في عالم الحيوان؛ فلا يوجد نظام تواصل حيواني يشتمل عليهما معًا. وأما سمة "الإبداعية" - أي القدرة على إنتاج منطوقات مستحدثة- فتبدو غير متوافرة في أي نظام تواصل طبيعي تمتلكه الحيوانات. وأما السمتان الأخيرتان الباقيتان: "القولبة التركيبية"، و"الاعتماد على بنية [باطنية]"، فربما تستأثر بهما اللغة الإنسانية وحدها كذلك.

> **وخلاصة القول: اللغة نظام ذو قوالبَ تنتظم مكوناتِه المختلفة، يتألف من إشارات صوتية اعتباطية، ويتميز بالاعتماد على بنية (باطنية)، وبالإبداعية، وثنائية التأليف، والنقل الثقافي.**

وتصدُق هذه الخلاصة على كل لغات العالم، التي تتشابه في سماتها الهيكلية الرئيسية، تشابهًا جِدَّ لافت للنظر. هذا، وتُعْوِزنا الأدلةُ التي تجعلنا نقرر أن ثمة لغةً، أية لغة، هي أكثر بدائيةً من أية لغة أخرى. ولكن ثمة بالطبع ثقافات بدائية. وتنعكس هذه البدائية في مفردات لغات تلك الحضارات، بحيث قد تخلو هذه اللغاتُ من

مفردات كثيرة تشيع في لغات الحضارات المتقدمة. ولكن حتى القبائل التي توصف بأنها الأكثر بدائيةً في عالمنا، يتبين بالبحث أنها تمتلك لغاتٍ لا تقلّ في تعقد أبنيتها العميقة عن لغات أخرى، لحضارات متقدمة، كاللغات: الإنجليزية، والروسية، والصينية.

تبقّى – بعد – وجه شبه آخر يجمع بين اللغة الإنسانية، والتواصل الحيواني. وذلكم هو حتمية الظهور: فكما أنه لا مَعْدَى للضفادع عن أن تَنِقّ، ولا للبقر عن أن تَخُور، فكذا البشر: يولدون مزوَّدين بما يؤهلهم للتكلم.

إن اللغة الإنسانية تُوجِّهها الفطرة **innately guided**. وإذا كان أطفال البشر لا يولدون وهم يتكلمون بالفعل، فإنهم يولدون مبرمجين على اكتساب أية لغة يجرى تعريضهم لها. إنهم ينجذبون إلى تلك "الضوضاء" التي تصدر من أفواه البشر، ثم هم يعرفون بالفطرة الكيفية التي يحللون بها أصواتَ الكلام الإنساني. ويمثّل النحل حالةً مشابهة لحالة البشر في هذا الصدد. فصغار النحل لا تولد مزودةً بموسوعة فطرية تشتمل على كل الأزهار. ولكنها تولد مبرمجةً بما يمكّنها من التنبه إلى السمات المهمة للأزهار، ولا سيما عبقها. وعلى ذلك، فسَرْعانَ ما تتعلم الكيفية التي تميّز بها الأزهار الملأى بالرحيق؛ فلا تضيع وقتًا في مطاردة الطائرات الورقية، أو في تحرِّي أماكن الوقوف المؤقت للحافلات.

أصـــل اللغـــة:

اللغة شكل جِدّ متطور من الإشارات التي تستعملها الحيوانات. ولكنْ ثمَّة حلْقةٌ مفقودة في سلسلة التطور هذه: فكيف بدأنا نتحدث؟ ومتى؟

كان معظم علماء اللسانيات – حتى وقت قريب – يعُدّون ذلك الموضوع الشائق خارجًا عن نطاق البحث في "اللسانيات". واتفق جمهرتهم مع "وليم دويت ويتني(١)"

---

(١) "وليام دويت ويتني" (١٨٢٧ – ١٨٩٤م). لساني أمريكي معروف. عيّن أستاذًا للغة السنسكريتية والدراسات المقارنة بجامعة "ييل" Yale، من العام ١٨٥٤م حتى وفاته. من مؤلفاته: Sanskrit Grammar (قواعد اللغة السنسكريتية). (للمزيد ينظر: جورج مونان: علم اللغة في القرن العشرين ص١٣ – ٢٣). [المترجم].

William Dwight Whitney - أحد لسانيي القرن التاسع عشر - في قوله: "إن الشطر الأكبر مما قيل، وكُتب، بشأن هذا الموضوع، هو مجرد كلام فارغ".

وبالرغم من ذلك، فقد غدا موضوع أصل اللغة فجأة صَرْعَة البحث اللساني المعاصر. وإذا جاز لنا أن نشبه الجهود المبذولة بهذا الصدد، بلعبة الصور المقطعة الخشبية jigsaw puzzle، فلابد أننا سنلحظ أن ثمة صورةً كبيرة عملاقة قد شرعتْ تتخلّق رويدًا رويدًا، بالوقوف على "قِطَع" من المعلومات، يجرى تسكينها في مواضعها اللائقة من تلك الصورة العملاقة.

ربما تكون اللغة قد شرعتْ في الظهور في منطقة شرق أفريقيا، منذ نحو من مائة ألف سنة خلت. ولا بد أن ثلاثة أسباب قد توافرت؛ فأفضت إلى تلك النشأة. **الأول**: أنه لابد أن البشر قد رأوا العالم من حولهم، على نحو خاص، ومتشابه. فأدركوا - مثلا - اشتماله على أشياء، وأحداث. **الثاني**: أن هؤلاء البشر كانت لديهم القدرةُ على إصدار عدد من الأصوات. وهي القدرة التي انبثقت - حَسَبَ ما ترى إحدى وجهات النظر - بوصفها نتيجةً ثانوية مفيدة، جرّاء السير بقامة منتصبة(١). **الثالث**: أنه لابد أن هؤلاء البشر قد استبصروا بعد لأْي (عملية) "التسمية"، أي إمكانية استعمال التتابعات الصوتية؛ لتكون رموزًا تدل على الناس، والأشياء.

وقد مكّنت هذه الأسبابُ أسلافنا الأوائل من تنمية مخزون من الكلمات. ولكنْ ما الذي يمكن قوله بشأن "القواعد اللغوية"؛ أعني: بشأن ترتيب الكلمات على هذا النحو المتفق عليه؟ يترجح لدى جمهرة الباحثين أن الكيفية التي نشأت بها "القواعد" بين أسلافنا الأوائل، تشبه جُلّ الشبه الكيفيةَ التي تنشأ بها القواعد الجديدة في أية لغة، في أيامنا هذه. وخلاصة هذه الكيفية: أن السلوكيات اللغوية التي يفضّلها البشر، تجنح إلى أن تصير عاداتٍ لغويةً، ثم تتحول تلك العادات بدورها إلى "قواعد".

وربما تكون تلك السلوكيات اللغوية الأولى المفضلة، قد عَكَسَت الكيفياتِ المختلفة التي كان أسلافنا الأوائل يرون العالم بها من حولهم. إن معظم اللغات تضع الكلماتِ المعبّرةَ عن الأحداث، في موقع تركيبي قريب من الأشياء التي تقع عليها تلك الأحداث. فمثلا: يقول أهل الإنجليزية:

---

(١) سبق التنويه في الفصل السابق (ما هي اللسانيات)، (هامش ص٥١)، بأن المؤلفة ربما تكون متبنية لنظرية "دارون" في أصل الإنسان، وأن أمر سقوط هذه النظرية متعالم مشهور. [المترجم].

The fisherman caught a fish. (الصياد اصطاد سمكة)

ويقول أهل اللغة التركية مقتفين ترتيبًا آخر:

The fisherman a fish caught. (الصياد سمكةً اصطاد)

وعلى ذلك، تبدو لنا فَرَضِية تحول ما هو "مفضَّل"، إلى "عادة"، ثم إلى "قاعدة"، بشأن تفسير نشأة القواعد اللغوية، فرضيةً منطقية تعتمد تسلسلا مرحليًا مقبولا. ولابد أن هذا التحول – بتفصيلاته الكثيرة- قد جرى بقدر من المرونة، سمح بحصول قدر من التباين بين لغات العالم، وحال دون تماثلها كلَّ التماثل. وأخيرًا: يبدو أن وجود نزعة فطرية لدى البشر، للحفاظ على "القوالب" التي تنتظم مكوناتِ اللغة المختلفة، قد قوّض أيَّ تَوْقٍ لديهم للمحافظة على وجود رابطة ثابتة صارمة بين العالم من حولهم، من ناحية، واللغة المعبّرة عنه، من ناحية أخرى.

وظيفة اللغة:

يتبقّى – بعد- سؤال مهم: لماذا نشأت اللغة؟ ربما كان للأحاديث الاجتماعية الودية- أعنى تلك العبارات القصيرة، الفارغة من المعنى، المتداولة في الحياة اليومية – دورٌ رئيسي في تلك النشأة، مشابه للدور المهم الذي تؤديه في أيامنا هذه. وذلك مثل:

'Hallo, how nice to see you'. (مرحبًا، سعدت بلقائك)، و'?How are you' (كيف حالك؟)، و?Isn't the weather' 'terrible (أليس الجو فظيعًا؟)

وقد ذهبت إحدى وجهات النظر في هذا الصدد، إلى أن توظيف اللغة في شكل المحادثات اللفظية؛ بهدف استبقاء التواصل واستمرار حميميته، ربما تكون قد حلَّت محلَّ توظيف الملاعبات والمداعبات الودية (غير اللفظية)، التي كانت تستمتع بها الحيوانات الرئيسية primates ؛ لإنجاز نفس هذا الهدف. وقد حدا هذا التصور بالدارسين إلى تلقيب وجهة النظر هذه بـ"الأحاديث الودية" grooming talking.

ويترجح لدينا أن وظيفة إقناع الآخرين، والتأثير فيهم، كانت من الوظائف الأساسية المهمة التي تغيّاها الناسُ في استعمالهم للغة. ولكننا – في المقابل- لا نظن أن وظيفة تبادل الأخبار، وتبليغ الأوامر الأساسية، كانت على ذلك القدر من الأهمية

الذي قال به بعضُ الباحثين ذات يوم. وذلك لأن المجال الأهم الذي تتجسّد فيه هذه الوظيفةُ المعلوماتية للغة، هو مجال التعاملات الرسمية، وليس مجال الأحاديث الودية الخاصة، التي تمثّل الشطر الأكبر من تعاملات الناس اليومية.

وفضلا عن ذلك، لا يشكّ أحد في أن اللغة يمكن أن تُستعمل - كذلك - في توصيل المشاعر والعواطف. ولكننا نرى أن هذا الجانب من اللغة تحديدًا لم يتطور كثيرًا لدى البشر؛ إذ إنهم يستطيعون – مثلهم مثل سائر الحيوانات الرئيسية – أن يفصحوا عن عواطفهم عبر الصراخ، والهمهمة، والنَّحيب، والإيماء، وغير ذلك. فحاجتهم إلى اللغة – إذن- للتعبير عن عواطفهم، لا يعدو أن يكون مجرد تأكيد وتطوير لهذه الإشارات التعبيرية الأكثر بدائية.

وفي عصرنا هذا، تُستعمل اللغة لإنجاز وظائفَ أخرى متنوعة، تقِلّ في أهميتها "البيولوجية" عن سائر الوظائف الأخرى.

فقد يستعمل الناسُ اللغة لأغراض فنية خالصة. ففي نظم الشعر – مثلا- يتلاعب الشعراء بالكلمات، على نحو يشبه حالهم وهم يشكّلون طين الصَّلصال، أو يرسمون الصور الزيتية. وكذا: ربما يتكلم الناس؛ حتى يُفرّجوا عن أنفسهم الضغوط العصبية. وهي الوظيفة التي نعاينها حين نرى بعض الناس يُتَمْتِمون مع أنفسهم مُغضَبين، ومحبطين.

لقد عُني فصلنا هذا – إذن- بتناول بعض السمات الهيكلية المميزة للغة الإنسانية، ثم بالنظر في مدى توافرها في أنظمة التواصل الحيواني الأخرى. وكذا عَرَضَ لبعض الأغراض الرئيسية التي تُستعمل اللغة من أجلها .

وأما فصلنا الآتي، فسيلخص القول في اتجاهات الدرس التي اعتمدها علماءُ اللسانيات خلال القرنين الماضيين، في سعيهم لاكتشاف "أدغال" اللغة الإنسانية.

فلنتذكر:

- تتميز السلاسل الصوتية المستعملة في اللغة بـ"الاعتباطية". بمعنى أننا لم نقف- في جُلّ الحالات- على علاقة بين الأصوات والرسائل التي تحملها.
- اللغة ذات بنية مؤلَّفة من طبقتين: ذخيرة من أصوات أساسية، انتظمتْ في وِحْدات لغوية أكبر.
- تألُّف بنية اللغة من طبقتين أكسبها مرونةً وفاعلية.
- تُمكّن اللغةُ البشر من أن يتواصلوا بشأن أناس، وأحداث، لا وجود لهم في زمان التواصل، ومكانه.
- تتميز اللغة الإنسانية – فيما تتميز – بخصيصة "الإبداعية" . بمعنى: أن في وُسْع البشر ابتكارَ ألفاظ جديدة، لم تكن موجودة من قبل.
- تشتمل كل لغة من اللغات الإنسانية، على عدد محدود من القوالب **patterns** التي تنتظم مكوناتها المختلفة. وتخضع هذه القوالبُ لضروب شائقة من التصرف على الأوجه الممكنة.
- تتميز اللغة الإنسانية – فيما تتميز- بخصيصة "الاعتماد على بنية [باطنية]" **structure- dependent** . بمعنى أن الناس- حال تواصلهم بها- يستنبطون قوالب غير مرئية، ولا مسموعة.
- ربما تكون الأحاديث الاجتماعية السببَ الرئيسيَّ من وراء نشأة اللغة.
- الوظيفة الأساسية للغة ليست هي نقل المعلومات، بل ربما كان التحدث بهدف الإقناع والتفاعل أكثر أهمية.

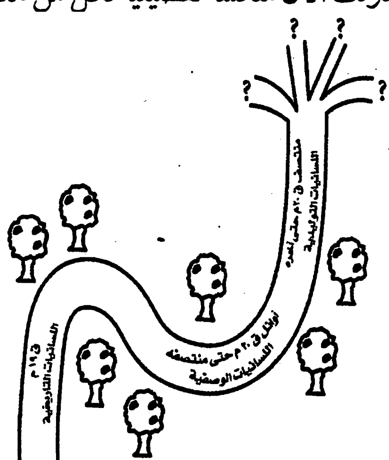
٣

[اتجاهات] دراسة اللغة

يوجز هذا الفصلُ القولَ في الملامح العامة للاتجاهات الرئيسية لعلم "اللسانيات" خلال القرنين الماضيين. كما يطرح بعض التوقعات بشأن الاتجاهات المستقبلية المحتملة لهذا العلم.

يمكن تشبيه علم "اللسانيات"- بوصفه فرعًا معرفيًا مستقلا- في مسيرته التاريخية، بطريق طويل يخترق غابةَ اللغة المظلمة الغامضة. وقد أمكن اكتشاف أجزاءٍ مختلفة من هذه الغابة، في أزمان مختلفة، عبر تاريخ هذا العلم. وعلى ذلك، يصح لنا أن نمثّل لهذه المسيرة بطريق ملتوٍ، يحاكي في التوائه اختلاف هذه الأزمان، وتلك الأجزاء، على النحو الذي يجسّده الرسم التوضيحي (٣-١).

ويُظهر هذا الرسم أنه كانت هناك ثلاثةُ اتجاهات رئيسية، في مسيرة علم اللسانيات، خلال القرنين الماضيين. ودونك الآن مناقشةً تفصيلية لكلّ من هذه الاتجاهات.



(الرسم التوضيحي رقم٣-١).

القرن التاسع عشر: اللسانيات التاريخية:

كانت اللغة في العالم الغربيّ، قبل القرن التاسع عشر، محلّ اهتمام الفلاسفة في المقام الأول. ولابد لنا أن ننوّه في هذا الصدد، بما كان للفيلسوفين اليونانيين: "أفلاطون" [٤٢٧- ٣٤٧ق.م]، و"أرسطو" [٣٨٤- ٣٢٢ق.م]، من إسهامات مهمة في دراسة اللغة. ومن ذلك ما قال به بعض الباحثين، من أن "أفلاطون" هو أول من ميَّز بين "الأسماء"، و"الأفعال".

وينظر كثير من الدارسين إلى العام (١٧٨٦م)، على أنه العام الذي شهد مَوْلد علم اللسانيات. ففي ذلك العام ألقى السير "وليام جونز"[1] Sir William Jones بحثًا، أمام "الجمعية الآسيوية الملكية" Royal Asiatic Society، في "كَلْكُتّا"[2] "Calcutta"، أوضح فيه أن اللغة السَّنْسكريتية[3] Sanskrit- وهي لغة الهند القديمة- واللغة اليونانية، واللغة اللاتينية، واللغة السِّلتية Celtic، واللغة الجرمانية، كلها تتشابه في أبنيتها تشابهًا جِدّ لافت للنظر. وقد ختم بحثه هذا مستنتجًا أن هذه اللغات قد تحدّرتْ -ولابد- من مصدر واحد؛ بسبب من أوجه التشابه البالغة الوضوح بينها جميعًا. وعلى الرغم من أن "جونز" قد حاز فضل الوقوف على هذا الاكتشاف، فقد كانت هذه الفكرة – أعني وجودَ تشابهٍ شديد بين بعض اللغات، وترجُّحَ تحدّرها من مصدر واحد لذلك – مما تبين لعلماء آخرين في نفس الوقت، دون أن يتأثر أحدُهم بالآخر.

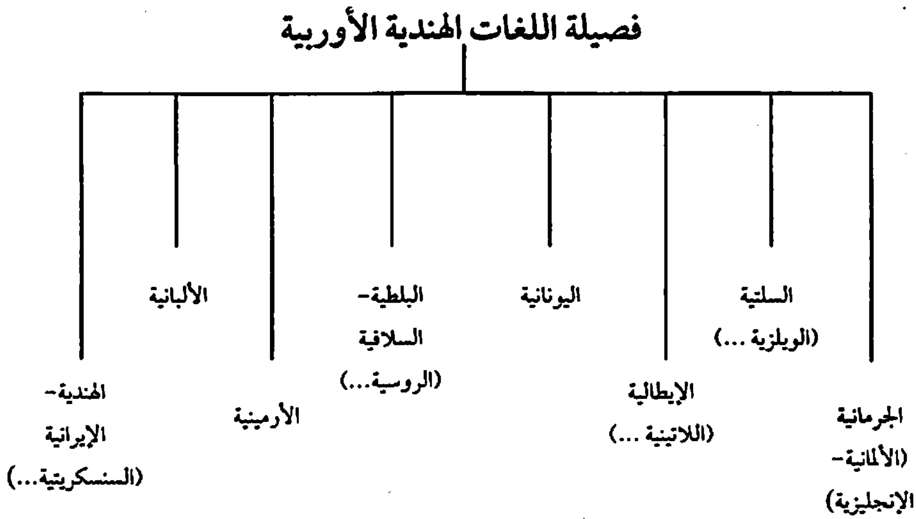
---

(١) ولد "وليام جونز" (١٧٤٦ – ١٧٩٤م) في "لندن". وتخرج في جامعة "أكسفورد"، وهو يتقن اللغة العربية، والفارسية، والتركية. ثم دَرَسَ القانون، وصار محاميًا في العام (١٧٧٤م). ثم سافر إلى "كلكتا" [عاصمة ولاية البنغال الغربي بالهند]؛ ليعمل قاضيًا بها. وهناك تعلم السنسكريتية؛ بغية إعداد مدونة كبيرة في القانون الهندي. وقد قاده هذا إلى تبين العلاقة بينها وبين بعض اللغات الأوربية. وكان من أهم ثمار معرفته بالعربية ترجمته للمعلقات السبع (ينظر: د. عبد الرحمن بدوى: موسوعة المستشرقين ص٢٠٧- ٢٠٩). [المترجم].

(٢) عاصمة ولاية "البنغال الغربي" بالهند، كما مر في الحاشية السابقة. [المترجم].

(٣) اللغة السنسكريتية هي أهم اللغات الهندية الآرية القديمة. ترجع أقدم وثائقها المعروفة إلى الألف الأولى قبل الميلاد. وقد عُني بها، ووضع قواعدها، اللغويُّ الهندي "بانيني" Panini، في القرن الخامس قبل الميلاد، حيث كانت تُعرف بالسنسكريتية الكلاسيكية، وكانت قد أصبحت بالفعل لغة أدبية مهجورة. ينظر: Trask, The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, p. 269 [المترجم].

لقد أذْكى اكتشافُ السير "وليام جونز" خيالَ العلماء الذين عاصروه، أو أتوا من بعده. ففي المائة سنة التالية لاكتشافه هذا، أفَلَتْ كلُّ الجهود اللغوية الأخرى، وحلَّ محلَّها اشتغالُ جمهرة الدارسين بوضع مجموعة من القواعد المقارنة، التي عُنيت – أولا – بالمقارنة بين الصيغ اللغوية **forms** المختلفة، التي تشتمل عليها لغات مختلفة، تنتمي إلى فصيلة اللغات الهندية الأوربية. ثم عُنيت –ثانيًا– بتشكيل الملامح اللغوية لجَدّ هذه الفصيلة المتخيَّل، أي: اللغة الهندية الأوربية الأم **Proto-Indo-European** التي تحدَّرتْ منها كلّ تلك اللغات (ينظر الرسم التوضيحي ٣-٢. ويُلاحَظ استبعاد اللغة الحيثية(١) **Hittite**، واللغة التوكارية(٢) **Tocharian** ؛ حيث لم يتبين انتماؤهما للغات الهندية الأوربية إلا في القرن العشرين).



(الرسم التوضيحي ٣-٢)

---

(١) اللغة الحيثية هي إحدى اللغات البائدة. وكانت اللغة الأساسية للإمبراطورية الحيثية. وترجع أقدم شواهدها إلى نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. وهي أشهر لغات الفرع الأناضولي Anatolian المتمي إلى فصيلة اللغات الهندية الأوربية. ينظر: Trask, The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, pp. 151- 152. [المترجم].

(٢) التوكارية: هي إحدى اللغات المنقرضة. كان يتكلم بها في الجزء الشمالي من "تركستان الصينية"، خلال الألف الأول الميلادي. ينظر: Crystal, The Cambridge Encyclopedia of Language,p. 301. [المترجم].

إن اهتمام علماء القرن التاسع عشر بإعادة تشكيل اللغة الهندية الأوربية الأم، وبطرح فرضيات بشأن الكيفية التي تفرعتْ بها هذه اللغةُ إلى لغات حديثة متنوعة - قد تعزز بالمناخ العقلاني العام الذي لَفّ هذه الحقبة الزمنية. ففي منتصف القرن التاسع عشر، نشر "داروين" Darwin [١٨٠٩ - ١٨٨٢م] كتابه الأشهر Origin of Species (أصل الأنواع)، الذي قدَّم فيه نظريته عن النشوء والارتقاء. فلا عَجَبَ- إذن- أن يترافق هذان الضربان من السعي: السعي لوضع تصوُّر مفصَّل بشان تطور اللغة، إلى جوار السعي للوقوف على مراحل تطور "الأنواع".

وقد أفضى هذا الاهتمامُ بمسألة التغير اللغوي في نهاية المطاف، إلى حصول تقدُّم نظري مهم في الدرس اللساني. ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، زعمتْ جماعة من العلماء- تمركزت حول "ليبزج" Leipzig، وتسمَّت بـ "النحويين الشبان" Young Grammarians-أن التغير اللغوي لا يقع عشوائيًا كيفما اتَّفق، بل يجرى على نحو مطّرد . وقد احتجوا لزعمهم هذا، بأنه حين يتغير صوت ما إلى صوت آخر في أية كلمة، في إحدى اللهجات، فإن هذا التغير يصيب- كذلك - هذا الصوت في كل مواضع وروده بتلك اللهجة، إذا ما توافر له نفسُ السياق الصوتي الأول. فمثلا: نجد في اللغة الإنجليزية القديمة(١) Old English أن كلمة chin (ذقن) كانت تنطق "kin"- وهجاؤها cinn- فتغيُّر الصوت k إلى الصوت ch قد أثرّ في كل أصوات الـ k التي تقع في بداية أية كلمة، قبل الصوتين e، أو i. وعلى ذلك، فقد تكونتْ لدينا - كذلك - الكلمات الآتية: chicken (دجاجة)، و child (طفل)، و chide (يوبّخ)، و chip (شَظْية)، و chill (برد معتدل لكنه غير مستحب)، و cheese (جُبْن)، و cheek (خَدّ)، و chest (صدر)، و chew (يمضغ)، وغيرها. وكل هذه الكلمات كانت في أصلها تبدأ بالصوت k .

وعلى الرغم من أن هذه المزاعم التي قال بها "النحويون الشبان"، قد خضعتْ لقدر من التعديل والتنقيح في عصرنا هذا- على ما سيجرى مناقشته في الفصل الثالث

---

(١) يُستعمل مصطلح Old English (الإنجليزية القديمة) للدلالة على الصورة التي كانت عليها اللغة الإنجليزية، في إحدى مراحلها التاريخية. وهى المرحلة التي امتدت زهاء سبعة قرون تقريبًا، من العام (٤٥٠م) حتى (١١٥٠م). ينظر:
Mugglestone, The Oxford History of English, p. 33. [المترجم].

عشر – فلا شك أن البحث اللساني قد خطا للأمام خطوةً مهمة، حين أدرك اللسانيون أن (عمليات) التغير اللغوي لم تكن تقع وَفْق ميول بشرية اختيارية، بل كانت تجرى وفق "قوانين" حازمة وجيدة الصياغة. وإن كنا نرى أن تسمية "النحويين الشبان" لضروب هذا التغير اللغوي بـ"القوانين"، كانت تسميةً مضللة موهمة.

خلاصة:

تتسم اهتمامات علم "اللسانيات" بالتنوع من قرن إلى قرن.

لقد أحدثتْ جهود اللسانيين في هذا القرن التاسع عشر تأثيرًا كبيرًا في الدرس اللساني، عبر مسيرته التاريخية التالية. فحتى يومنا هذا، مازلنا نقابل أناسًا من العوام يظنون أن الاهتمام الرئيسي للسانيات المعاصرة هو رَصْد التغيرات اللغوية، وتصنيفها، وإعادة تشكيل اللغة الهندية الأوربية الأم.

من أوائل القرن العشرين حتى منتصفه: اللسانيات الوصفية:

تحوَّل اتجاه اللسانيات في القرن العشرين، من الاهتمام بدراسة مظاهر تغير اللغة، إلى الاهتمام بإنجاز وَصْف لها. وبدلا من البحث في الكيفية التي تغيرتْ بها وِحْداتٌ لغوية معينة، في عدد منٍ اللغات المختلفة، جَعَلَ اللسانيون يركّزون على إنجاز وصف للغات البشرية، كلٍّ على حِدَة، في مرحلة زمنية بعينها.

وإذا كان ثمَّةَ من يستأهل أن يُعزى إليه فضلُ إحداث هذا التحول، في اهتمامات علم "اللسانيات"، فهو العالم السويسري "فردينان دى سوسير" Ferdinand de Saussure [١٨٥٧ - ١٩١٣م] الذي يلقَّب أحيانًا بـ "مؤسس علم اللسانيات الحديث" . ومما يثير العَجَبَ بشأن هذا العالم، أنه قد تُوفِّى دون أن يُعْقب أي مؤلَّف مكتوب مهم في اللسانيات العامة. ولكنّ طلابه نجحوا في تجميع مُسَوَّدات محاضراته، ثم نَشْرها بعد وفاته، بعنوان Course in General Linguistics (محاضرات في اللسانيات العامة)، في العام (١٩١٥م). وقد أثَّر هذا (الكتاب) تأثيرًا كبيرًا في مسار علم "اللسانيات"، وتطوره، وخاصة في أوروبا.

وتتمثل الإضافة الأهم لـ"دي سوسير"، فيما قرره -على نحو واضح ومتكرر- من وجود ارتباط جوهري بين كل الوحدات المؤلِّفة لبنية اللغة. ولم يسبق لأحد قبل "دي سوسير" أن أكّد اتسامَ اللغة بهذه الظاهرة. وكذا لم يُعْنَ الدارسون قبله بإنجاز دراسات جادة، تستكشف العلاقاتِ التي تربط بين كل وحدة لغوية، وسائر الوحدات الأخرى، داخل بنية اللغة. وقد سبق لنا أن نوَّهْنا بأن "دى سوسير" كان أول من شبَّه اللغة بلعبة "الشَّطْرَنْج"، من حيث إن كلا منهما يمثّل نظامًا يتألف من وحدات مختلفة، تكتسب هُوِيّتها ودورَها من خلال علاقة كلٍّ منها بالأخرى. وقد أفضى إصرار "دي سوسير" على تقرير أن اللغة نظام - أو بنية structure - مُحْكَمة التشييد من العناصر المتواشجة، إلى استهلال عصر ما يعرف بـ"اللسانيات البنيوية" structural liguistics .

> **خلاصة:**
>
> ربما يكون اللساني السويسري "فرديناند دي سوسير" أوّلَ من وَقَفَ على وجود ترابط وثيق بين كلّ الوحدات اللغوية.

هذا، وقد يساء فهم مفهوم مصطلح "اللسانيات البنيوية" أحيانًا. فهو لا يشير بالضرورة إلى فرع مستقلّ، أو مدرسة بعينها، في علم اللسانيات؛ فكلّ اتجاهات هذا العلم منذ جهود "دي سوسير"، توصف بأنها "بنيوية"؛ من حيث إن البنيوية لا تدل- في هذا التوظيف العام لها- إلا على مجرد النظر للغة على أنها نظام مسبوك في قوالبَ معينة، ومؤلَّف من عناصر جِدّ مترابطة، لا على أنها ركام من الوحدات المستقلة غير المترابطة. وتنجُم بعض حالات سوء الفهم هذا – أحيانًا – من كثرة مجيئ لقب structural (بنيوي) مصاحبًا لعلماء اللسانيات الوصفيين، الذين اشتغلوا بهذا العلم في الولايات المتحدة الأمريكية، خلال المدة ما بين العامين ١٩٣٠ و ١٩٦٠م. ودونك الآن طرفًا من شأنهم.

لقد نشأ علم اللسانيات في الولايات المتحدة الأمريكية، بوصفه فرعًا من الـ"أنثروبولوجيا". ففي نحو أوائل القرن العشرين، تملّك علماء "الأنثروبولوجيا" حماسٌ شديد لتدوين ثقافة القبائل الهندية الأوربية الآخذة في الاندثار. وكانت لغات تلك القبائل طرفًا مما شمله هذا التدوين. وعلى الرغم من أن عمل هؤلاء العلماء

الرواد، كان في كثير من جوانبه عملا مشوقًا، إلا أنـه قـد اتـسم في كثـير مـن جوانبـه كذلك بالعشوائية والاضطراب. فلم يكن ثمة ضوابطُ علمية ثابتة يتهدّي بها أولئـك اللسانيون، حين حاولوا أن ينجزوا وصفًا لتلك اللغات الغريبة والطريفة. ولكن هذه الحال السائدة قد تغيَّرتْ، حـين نـشر "ليونـارد بلومفيلـد"(١) Leonard Bloomfield مؤلَّفه الجامع الذي اكتفى بكلمة language وحدها عنوانًا لـه. ففـي هـذا الكتـاب، حاول "بلومفيلد" أن يضع منهجيةً علمية جِدّ دقيقة لوصف أية لغة.

لقد اعتقد "بلومفيلد" أن علم اللسانيات يجـب أن يتعامـل تعـاملا موضـوعيًا ومنهجيًا، مع مادة علمية – أو بيانات – تقبـل الملاحظـة. وتأسيـسًا عـلى ذلـك، كـان اهتمامه بالكيفية التي تنتظم بها الكلماتُ في بنية اللغة أكثـر مـن اهتمامـه بــ"المعنـى". فمسائل المعنى – في رأيه – كانت لا تقبل الانقيادَ لمناهج التحليل البالغة الدقـة. وعـلى ذلك، اختتم "بلومفيلد" كلامه بشأن دراسة المعنى مقررًا أنها "أضعف نقطة في دراسة اللغة. وسوف تظل كذلك، حتى تتقدَّم المعرفةُ الإنسانية إلى حَدٍّ أبعد – بكثـير جـدًا – مما هي عليه الآن".

خلاصة:

وضع اللساني الأمريكي "ليونارد بلومفيلد" إطارًا من الضوابط العلمية المعتمـدة، للسانيين الذين يشتغلون بدراسة اللغات المكتوبة.

لقد كان لإسهامات "بلومفيلد" في اللسانيات تأثير جدُّ كبـير، تجـاوز في قـدره ذلك التأثير الذي كان لنظرائه من اللسانيين الأوربيين، في تلك الحقبة الزمنية. واستمر ما سُمي بـ"عصر بلومفيلد" لما يربو على العشرين عامًا. وخلال هذه الفـترة الزمنيـة، أكَبَّ عدد كبير من اللسانيين على وضع منظومة القواعـد التـي تـصف اللغـات غـير المكتوبة. وقد اقتفوا في سبيل إنجاز ذلك عدّة خطوات: أولها: العثـور عـلى مـن تمثّـل اللغةُ المعنيَّة لغةً أمًّا لهم، ثم تجميع كلامهم، وتصنيفه، في مجموعات متمايزة. وثانيتهـا:

---

(١) "ليونارد بلومفيلد" (١٨٨٧ – ١٩٤٩م): لساني أمريكي معـروف. عُنـي بالدراسـات اللغويـة المقارنـة. وكان لكتابه المعنون بـ Language تأثير جِدّ كبير في الدرس اللساني في عـصره. (للمزيـد ينظـر: جـورج مونان: علم اللغة في القرن العشرين ص١١١ – ١٢٦، وإفيـتش: اتجاهـات البحـث اللـساني ص٢٧٧ – ٢٧٩. وغيرهما جدّ كثير وافر). [المترجم].

تحليل تلك المادة المجمَّعة، من خلال دراسة القوالب الصوتية (الفونولوجية)، والتركيبية، لتلك اللغة المعنيّة، دونما استعانة بالمعنى قدر المستطاع. أعنى أن الوحدات المكوّنة لهذه اللغة، قد جرى نظريًا تعيينُها، وتصنيفُها، وَفْق معيار واحد فقط، هو السمة التوزيعية لكلّ من هذه الوحدات، داخل تلك المادة المجمَّعة.

وقد حدث في أثناء وضع منظومة القواعد تلك، أن تكشَّفتْ بعضُ المشكلات التي لم تُفلح منهجياتُ البحث التي اقترحها "بلومفيلد" في حلّها. وقد حدا هذا بعلماء اللسانيات أن يخصصوا قدرًا وافرًا من اهتماماتهم لمحاولة تطوير آليات تحليل جديدة، تستدرك النقص الذي شاب جهد "بلومفيلد" في هذا الصدد. وعزَّز ذلك أن كثيرًا من هؤلاء العلماء كان يرى أن الغاية النهائية لعلم "اللسانيات"، هي أن ينجح في وضع ما يمكن تسميته بـ"منهجيات الاكتشاف" **discovery procedures** وضعًا متقنًا. أعنى: مجموعة المبادئ – أو الأسس – التي ستمكّن اللساني من أن "يكتشف" – أو بتعبير أدق: "يكشف النقاب" – عن الوحدات اللغوية التي تشتمل عليها اللغة المكتوبة، وعلى نحو لا يحتمل الخطأ. وقد أفضى شدّةُ اهتمام هؤلاء العلماء بدراسة القوالب الداخلية للغة المدروسة، أو "بِنْيتها" '**structure**'، إلى تلقيبهم أحيانًا بـ"البنيويين" '**structuralists**'.

لقد أرسى اتباع "بلومفيلد" أسسًا منهجية لغوية قيمة للأجيال التالية لهم. ولكن علم اللسانيات– في المقابل– قد غدا على أيديهم علمًا جِدَّ محدود، ومنغلقًا على نفسه. وأصبحت المشكلات اليسيرة المتعلقة بآليات التحليل اللغوي قضايا مهمّة ومثيرة للجدل. واستغلقتْ كثير من هذه القضايا، بحيث لم يَعُد في وُسْع أحد أن يستوعبها سوى علماء "اللسانيات". وفى نحو العام (١٩٥٠م)، كان علم "اللسانيات" قد فقد صلته بالفروع المعرفية الأخرى، وغدا علمًا غامضًا، لا يكاد يلقى عنايةً تُذكر من غير المتخصصين فيه. وبدا أن هذا العلم قد استنفد إحدى مراحله التاريخية، وأنه قد بات مهيئًا لثورة تَبُثُّ فيه الحيوية من جديد.

من منتصف القرن العشرين إلى قرب نهايته: اللسانيات التوليدية والبحث عن كليات

في العام (١٩٥٧م) سلك علم "اللسانيات" منعطفًا جديدًا، حين نشر "نعوم تشومسكي" **Noam Chomsky**– وكان عمره وقتذاك تسعة وعشرين عامًا، ويعمل

مدرسًا في معهد "ماسَتْشيوسِتْس" للتقنية Massachusetts Institute of Technology – كتابًا بعنوان: Syntactic Structures (البِنَى التركيبية). فقد استهل هذا الكتابُ ثورةً جديدة في اللسانيات، على الرغم من صغر حجمه؛ إذ لم يبلغ المائة والعشرين صفحة. وإذا كان ثمة خلاف حول عَدّ "تشومسكي" أكثر اللسانيين تأثيرًا في الدرس اللساني، في القرن العشرين، فلا يشك أحد في أنه اللساني الأشهر الذي تجاوزت شهرتُه حدود "اللسانيات" تجاوزًا جِدَّ بعيد. لقد استطاع "تشومسكي"- كما يعتقد كثيرون- أن يحوّل اللسانيات من فرع معرفي يكتنفه قَدْر من الغموض، ويكاد يقتصر الاهتمام به على طلاب الدكتوراه، ومن يُعَدُّون للعمل مبشِّرين، إلى علم اجتماعي مهم، تربطه صلاتٌ مباشرة ووثيقة باهتمامات علماء علم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وكذا باهتمامات الفلاسفة، وغيرهم.

لقد غير "تشومسكي" دَفَّةَ اهتمامات اللسانيات، فوجّهها بعيدًا عن الاشتغال بإنجاز وصف مفصَّل للكلام الذي يجرى على ألسنة الناس بالفعل. وشرع في طرح أسئلة تتعلق بطبيعة ذلك النظام الذي يُنتج تلك المُخرَجات **output** اللفظية.

وقد ذهب "تشومسكي" إلى أن اللسانيات "البلومفيلدية" قد شابها أمران: الأول: الطموح المفرط، والآخر: المحدودية المُخِلّة لنطاق اهتماماته. فأما طموحه المفرط، فتمثّل في عدم واقعيته حين ظنَّ أن بوسعه أن يُرسى قواعدَ لا تحتمل الخطأ، يعتمدها الباحثون أساسًا لإنجاز وصف كامل لأية لغة، عبر قدر كبير من البيانات. وأما المحدودية المُخِلّة، فقد أفضى إليها تركيزُه على وصف مجموعات من الكلمات والعبارات "تصادف" أن جرتْ بها ألسنة أهل اللغة محلّ الدرس.

لقد ذهب "تشومسكي" إلى أن "النحو" الموضوع لأية لغة، لا ينبغي أن يكون مجرد وصف لما يجرى بالفعل على ألسنة أهل هذه اللغة فحسب، بل يجب – كذلك– أن يضع في الحسبان ما قد يجرى على هذه الألسنة. وخلاصة ما يذهب إليه "تشومسكي": أن وجهة النظر التقليدية القائلة بأن المهمة الرئيسية لعلماء اللسانيات، تتمثل في تقديم وصف لـ"مادة" مما جرى التلفظُ به فعلا منَ الكلام، هي وجهة نظر لا تستطيع أن تطرح لنا تفسيرًا بشأن ما تتسم به اللغة من "إنتاجية" **productivity**، أو "إبداعية" **creativity**، وَفق التسمية التي يفضلها "تشومسكي" . وتشير هذه

السمة- على ما ذكرنا في الفصل الثاني- إلى قدرة البشر على إنتاج وفهم(١) عدد غير محدود من الألفاظ والعبارات المبتكرة.

لقد لفت "تشومسكي" الانتباه إلى أن أي شخص يتحدث لغة ما، لابد أن يكون عقله قد ضُمّن مجموعة من "القواعد" rules التي تحدِّد التتابعاتِ الجائزةَ من الوحدات اللغوية في تلك اللغة. ويرى تشومسكي أن مهمة اللساني هي أن يكتشف تلك القواعد، التي تؤلف - بدورها- "نحو" grammar اللغة محل الدرس. وعلى ذلك، يكون "تشومسكي" قد استعمل كلمة grammar استعمالا بدليًا مزدوجًا، لتدل - من جهة - على منظومة "القواعد" التي تتضمنها عقول أهل اللغة، ولتدل - من جهة أخرى- على تخمين اللساني بشأن ماهية هذه القواعد. وربما تفضي هذه الازدواجية إلى قدر من اللبس والاضطراب؛ إذ يبعُد أن تكون القواعد الفعلية التي تنتظمها عقولُ أهل اللغة، مطابقةً لتلك التي افترضها اللسانيون، وإن كان الأمر لا يخلو من حصول قدر من التماثل بينهما.

ويوصف "النحو" الذي يتألف من مقررات statments - أو قواعد rules - تحدِّد التتابعاتِ الجائزةَ من الوحدات اللغوية، وغير الجائزة منها، بأنه نحو" توليدي" generative.

خلاصة:

استعمل "تشومسكى" مصطلح grammar استعمالا مزدوجًا: للدلالة على "القواعد" التي يختزنها البشر في أدمغتهم، وتحدد التتابعات التي تشتمل عليها لغاتهم، من جهة، وللدلالة على محاولات اللسانيين للتعبير عن هذه القواعد التي تؤلف ماأسماه "تشومسكى" بـ "النحو التوليدي" generative grammar ، من جهة أخرى.

ومن أجل ذلك، يُنظر إلى "تشومسكي" على أنه هو الذي استهل عصر "اللسانيات التوليدية". لقد نص "تشومسكي" على أن "نحو" أية لغة يمثّل "وسيلة

(١) ينظر في تحقيق القول بإجازة الفصل بين المتضايفين (= المضاف والمضاف إليه) بالعطف (أي بالعطف على المضاف قبل ذكر المضاف إليه): د. محمد حسن عبدالعزيز: في تطور اللغة العربية ص١٣١ - ١٣٣. [قلت: ولا سيما إذا طال الفاصل مابين المعطوف عليه والمعطوف؛ بسبب من وصف المضاف إليه،أو تعلقه بشبه جملة أو ... إلخ]. [المترجم].

تسمح بتوليد كل التتابعات الموافقة للقواعد، ولا تسمح أبدًا بتوليد أية تتابعات مجافية لها". ويتميز هذا "النحو" التوليدي بشموله ووضوحه التامين. بمعنى أنه لا يترك مجالًا للتخيل، أو التخمين. إن القواعد - في رأى "تشومسكي"- يجب أن تستوفى حظًا وافرًا من دقة الصوغ، بحيث تتحصّل لأي شخص يُلمّ بها القدرةُ على فرز الجمل الصحيحة التركيب، من تلك غير الصحيحة، ولو لم تتوافر له سابقُ معرفة بكلمة واحدة من هذه اللغة محلِّ الدرس.

هذا، وقد لُقّب هذا النموذج الخاص من "النحو" التوليدي الذي اقترحه "تشومسكي" بالنحو "التحويلي" **transformational**. وسوف نلخّص القولَ في السمات الرئيسية للنحو التحويلي- التوليدي **transformational generative grammar**- ويُعرف اختصارًا بـ(TGG)- بأَخَرة في كتابنا هذا.

خلاصة: لم يطرح "تشومسكى" فكرة النحو التوليدي فحسب، بل اقترح -كذلك- نمطًا خاصًا لمثل هذا النحو، أعني: النحو التحويلي - التوليدي .

إن "تشومسكي" لم يستهلّ عصر القواعد التوليدية فحسب، بل لقد وجَّه دفة اهتمامات البحث اللسانيّ وِجْهةً جديدة كذلك. أعني: وجهة البحث في الكليات اللغوية(١) **language univiersals**. وأوضح "تشومسكي" أنه إذا كان البشر يتقاسمون قدرًا من التماثل، فإن الآليات اللغوية التي تتضمنها عقولُهم قد تتقاسم سماتٍ مشتركةً مهمة كذلك. وكذا ذهب "تشومسكي" إلى أن على اللسانين أن يركزوا على اكتشاف العناصر والتراكيب المتاحة لكل اللغات، بغضّ النظر عن كونها متوافرةً بالفعل، أو غير متوافرة في لغات بعينها. ثم إن عليهم - وهو الأهم- أن يحاولوا تعيين القيود **constraints** العامة التي لا تشتغل اللغةُ الإنسانية إلا في إطارها.

وتتميز هذه "القيود" التي تتحكم في اللغة الإنسانية- في رأى "تشومسكي" - بأنها قيود موروثة متأصلة. بمعنى أن البشر - في أصل خِلْقتهم- ربما جَرى برمجتُهم مسبقًا بقدر من المعرفة الأساسية عن ماهية اللغة، وعن الآلية التي تعمل بها.

---

(١) أو: العالميات اللغوية/ العموميات اللغوية. [المترجم].

وقد لقَّب "تشومسكي" هـذا المكـون الجـوهري بــ Universal Grammar (النحـو الكلي)[1] (UG). وعدَّ "تشومسكي" السعي لاكتشاف مكونات هـذا "النحـو الكـلي" واحدًا من الواجبات الشاقة والمهمة التي على علم اللسانيات أن ينهض بها.

إن العمل الأخير لـ"تشومسكي" - وهو المـسمَّى بــ Minimalist Program (برنامج الحد الأدنى)[2] - يتسم بزيادة قدر التجريد فيه، عـن أعمالـه الـسابقة، زيـادةً مفرطة. لقد كرَّ "تشومسكي" شيئًا فشيئًا إلى تعيين المبـادئ العامـة الفـضفاضة للغـة الإنسانية، أو الهيكل العظمى الخاص لها، غير مُولٍ كبير اهـتمام بالتفاصـيل الأساسـية المميزة لكل لغة على حدة. وقد شبَّه نفسَه بعالم لا يكتفي بمجرد مراقبـة التفـاح وهـو يتساقط على الأرض، بل يحاول أن يفهم قانون الجاذبية. وهو – بهـذا المنحـى – يقفـو اتجاهًا حديثًا يشيع بين جمهرة من العلماء، ممن يُعنَى كثير منهم نفسَه بـ"التنقير الدءوب عن (نظرية لكـل شيء) Theory of Everything تلخِّص الكـونَ برمتـه، في صـورة معادلة بسيطة تكتبها على قميصك"، على حدّ تعبير أحد علماء الرياضيات .

خلاصة: تنامى في أعمال "تشومسكي" الأخيرة التوجُّهُ نحو قدر أكبر مـن التجريـد، حيـث حاول فيها أن يحدد مبادئ عامة فَضْفاضة، تتأسس عليها كلُّ اللغات الإنسانية.

ولكن: ماذا يحدث الآن؟ لقـد كـان "تشومـسكي" صـاحب التـأثير اللغـوي الأهمّ، خلال النصف الثاني من القرن العشرين. ومـا زال يواليـه كثـير مـن الأتبـاع المتحمسين. ولكن ثمة من ينتقده كذلك. ويرى هؤلاء المتقدون أن "تشومسكي" قد أفرط في تأكيد القول بوجود قيود - أو حدود- تشتغل اللغةُ في نطاقها. لقد تكـشَّف الدرسُ عن أن الوقوف على حدود ثابتة صارمة تعمـل اللغـةُ في نطاقها، هـو غايـة مراوغة عسيرة المنال. وآية ذلك أنه قد تكرر كثيرًا أن يقترح أحدهم قيدًا بعينه، فيُعقب ذلك سريعًا اكتشافُ وجود لغة تكسِر هذا القيد المقترح. وكذا لم يفلح "تشومـسكي"

(١) أو: النحو العالمي/ النحو الكوني/ الكليات النحوية/ الكليات اللغوية... إلخ. [المترجم].

(٢) أو "البرنامج الأدنوي" [ينظر مثلا: د. مرتضى جواد باقر: مقدمة في نظرية القواعد التوليدية (ص١٨٩)، ود. مصطفى غلفان: اللسانيات التوليدية (من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوى...) ص٣٦٥ (وغيرها)، ود. منصف عاشور: البرنامج الأدنوي (المقدمة)، ضمن: إطلالات على النظريـات اللـسانية والدلالية (مختارات معربة) ١/ ٢٠٣]. [المترجم].

- في رأى منتقديه- في تقديم نظرية لغوية كاملة تصلُح أن تكون "نظرية لكل شيء". فترُى: هل سيستمر الجيلُ التالي في تتبع خطى "تشومسكي"، أم سيظهر مِنْ بينهم مَنْ يبدع جديدًا؟

القرن الحادي والعشرون: اتجاهات البحث المستقبلية:

تميز التأثير الذي أحدثه "تشومسكي" في مسيرة الدرس اللساني بطول أمده واستمراريته. وكان من النتائج القيمة غير المتغيّاة لجهوده تلك، أن ازداد الاهتمام باللغة بين غير علماء اللسانيات ازديادًا جِدَّ متسارع. لقد وجّه "تشومسكي" دفة اهتمام الباحثين تجاه مسألة القدرة اللغوية الكامنة لدى البشر، بدلا من الاشتغال بإنشاء وصف مفصَّل للتفاصيل اللغوية الدقيقة. وبسبب من ذلك التغير الذي أحدثه "تشومسكي" في اهتمامات "اللسانيات"، شرع عدد كبير من علماء علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأعصاب، والأنثروبولوجيا - وكذا الفلاسفة وغيرهم- في الاهتمام باللغة واللسانيات. وقد أفضى التعاونُ معهم إلى حصول تطور جِدّ سريع في فروع معرفية كانت تُعَدّ ذات يوم فروعًا ثانوية، من مثل: اللسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية. حيث أصبحت الآن- عن جدارة واستحقاق- فروعًا معرفية مهمة. ومازالت - بعد- تنمو، وتتسع.

وإلى جوار هذه التطورات- في المقابل- تتلاحق جهود كثيفة أخرى؛ بحثًا عن إطارٍ من القواعد أقلَّ تجريدًا مما سبق. فمثلا: ذهب عددٌ من أعلام الدرس اللساني المؤثِّريــن في مسيرته، إلى أن اللسانيين لا يلزمهم أن يُعنُّوا أنفسهم كثيرًا بالوقوف على نظرية عامة شاملة للغة الإنسانية، بل يلزمهم - بدلا- أن يكتشفوا المكوناتِ المختلفة التي تشكِّل القدرةَ اللغوية لدى الإنسان. ومن ذلك ما وضّحه "را ى جاكِنْدوف" **Ray Jackendoff**- الأستاذ بجامعة "بَنْدَيس"(1) **Brandeis**- في كتابه ذى التأثير

(١) بمدينة "وُلْثم" Waltham بولاية "ماسَتْشيوستس" Massachusetts. وقد حصل "جاكندوف" (١٩٤٥- ...) على درجة الدكتوراه (بإشراف "تشومسكي" من معهد "ماستشيوستس" للتقنية، في العام (١٩٦٩م). وعمل بجامعة "بنديس" بدءًا من العام (١٩٧١م) حتى (٢٠٠٦م)، ثم انتقل إلى جامعة "تَفْتِس" Tufts (مركز الدراسات المعرفية). وهو معنيّ بالدراسات الدلالية، والمعرفية، والمعجمية. و من أعماله الأخيرة: Meaning and the Lexicon (المعنى والمعجم) (٢٠١٠م). ينظر: http://ase.tufts.edu/cogstud/jackendof/index.html

هذا، وسوف تعيد المؤلفة إيراد النصر المقتبس هنا من كتاب "جاكندوف"، في الفصل الثامن عشر (العودة إلى الأساسيات)، (ص٤٤٦). [المترجم].

الكبير Foundations of Language (أسس اللغة)، بقوله: "قواعد اللغة ليست نظامًا واحدًا أحاديَّ البنية، بل هي مجموعة من أنظمة أبسط... و(عملية) تطور القدرة اللغوية يمكن النظر إليها... على أنها إضافةٌ للمزيد والمزيد من الحيل البسيطة إلى ذخيرة القدرات المعرفية cogntive المتاحة للطفل، أثناء عملية اكتسابه للغة" (كتابه الصادر سنة ٢٠٠٢م، ص٢٦٤). وكذا يقرر "مايكل توماسللو" Michael Tomasello- وهو نائب مدير "معهد الأنثروبولوجيا التطورية" Institute for Evolutionary Anthorpology الواقع في "ليبزج[1]" Leipzig- أن "أفضل سبيل لتصور قدرة الإنسان اللغوية هو أن ننظر إليها على أنها تحالفٌ لعدد كبير من القدرات المعرفية cognitive المختلفة، كالقدرة المعرفية الاجتماعية، ومعالجة البيانات، ومهارات التعلم. وهي القدرات التي يتقاسم الإنسانُ بعضَها مع سائر الحيوانات الرئيسية primates، ويستأثر وحده ببعضها الآخر جرّاء تطوُّره" (كتابه الصادر في العام ٢٠٠٣م، ص٣٢١).

خلاصة: بدأت الجهود اللسانية المعاصرة تستكشف قدرة الإنسان اللغوية بوسائل أكثر واقعية وعملية.

ولا شك- بعد- في أن عموم اللغات لا تتنوع فيما بينها تنوعًا مفرطًا، بل هي تتجمع حول عدد من المعايير الإحصائية statistical norms. وقد شرع خبراء الإحصاء اللغويون – وكذا علماء التصنيف النوعي للغات – في حَزْر الدرجة التي يمكننا الحكمُ في ضوئها على أحد التراكيب اللغوية بأنه معتاد – أو "طبيعي" natural- قياسًا إلى كل لغة على حدة، وقياسًا إلى اللغة الإنسانية في عموم حالها كذلك. وإنا لنأمل – خلال القرن الحادي والعشرين- أن تتحصّل لدينا معرفة أرسخ بـ"المعايير" اللغوية، وإلى أي مدى يمكننا أن نزيد فيها؛ حتى تشمل ما يُجِدّه الدرس. ويَلْقى هذا الضربُ من البحث المضني الآن عونًا من "لسانيات المدوَّنات"

---

(١) بشرق ألمانيا. هذا، وقد حصل "توماسللو" [١٩٥٠م-...] على الدكتوراه من جامعة "جورجيا" Georgia في العام (١٩٨٠م)، في علم النفس التجريبي. ومن أعماله الحديثة: A Natural History of Human Thinking (التاريخ الطبيعي للتفكير الإنساني) (٢٠١٤م). ينظر: http://email.eva.mpg.de/~tomas/cv.html، وكذا موقع http:www.amazon.com. [المترجم].

corpus linguistics. وهو الفرع المعرفي المعنيّ بدراسة قواعد البيانات المحوسبة، وتوظيفها لخدمة البحث اللساني.

لقد نهض فصلُنا هذا- إذن- بوضع مخطط مختصر للاتجاهات الأساسية التي تبنّاها علماءُ اللسانيات في دراستهم للغة، خلال المائتي سنة الأخيرة. وكذا قدّم بعضَ المؤشرات للاتجاهات المستقبلية في هذا العلم. وأما فصلنا الآتي، فسوف ينظر في الكيفية التي يتجهّز بها اللسانيون اليوم لدراسة اللغة.

فلنتذكر:

- تتباين اهتمامات اللسانيين من قرن إلى قرن.
- تركز اهتمام اللسانيين في القرن التاسع عشر، على محاولة المقارنة بين اللغات المنتمية إلى عائلة لغوية واحدة.
- كان هدفهم من تلك المقارنة أن يشكّلوا الأصلَ المفترض للغات الهندية الأوربية، أو ما يُعرف بـ"اللغة الهندية الأوربية الأم".
- أدرك اللساني السويسري "فردينان دى سوسير" أن ثمة ترابطًا وثيقًا بين الوحدات اللغوية التي تشتمل عليها أية لغة.
- أوضح اللساني الأمريكي "ليونارد بلومفيلد" المنهجية العلمية المناسبة لتحليل اللغات غير المكتوبة.
- استهل اللساني الأمريكي "تشومسكى" عصر اللسانيات التوليدية.
- اقترح تشومسكي – في البداية – نحوًا أسماه بـ"النحو التحويلي التوليدي ".
- ثم أصبحت أعماله أكثر تجريدًا، حين حاول أن يضع معالم ما أسماه **Universal Grammar** (النحو الكلي).
- عُنى "تشومسكي " عنايةً خاصة بدراسة "القيود" الحاكمة للغة.
- تغيرت بأَخَرة رؤيةُ علماء اللسانيات للغة، فصاروا ينظرون إليها على أنها مجموعة من القدرات المختلفة.

٤

من أين نبدأ؟

يُظهر هذا الفصلُ أن هناك منهجياتٍ مختلفةً يتبناها علماء اللسانيات؛ لاستكشاف بنية اللغة. ويلخص القولَ في الكيفية التي يمكن بها إنجاز هذا الاستكشاف.

اللغة ظاهرة جِدّ متراحبة، وجِدّ معقّدة كذلك. فإذا أراد أحد الباحثين أن يشرع في دراستها، فترى: من أين يجب عليه أن يبدأ؟ لا يتفق اللسانيون على إجابة واحدة عن هذا السؤال. ولكلٍّ حجته. فدعونا -إذن- ننظر في الاحتمالات المتعددة في هذا الصدد. ولكننا نرى أن نقدّم بين يديْ ذلك - أولا - مناقشةً للأسباب التي تقف من وراء اختلاف اللسانيين حول الطريقة المثلى التي ينبغي اعتمادها لدراسة اللغة؛ فهذا مما قد يفيد لدى دراسة تلك الاحتمالات المتعددة.

النظر إلى اللغة على أنها "لعبة":

يشهد واقع الحال بأن التعبيرات المجازية الموحية تعيننا في كثير من الحالات، على معالجة بعض الظواهر المعقدة. فما أتيح لنا - مثلا - أن نفهم الدورة الدموية، إلا حين شُبِّه لنا القلب بالمِضَخّة.

> **خلاصة:**
>
> ربما تُكسبنا التعبيراتُ المجازية وعيًا بالظواهر التي تتسم بأنها: إما معقدة، أو عسيرة على الفهم.

يمكن النظر إلى اللغة على أنها نوع معقّد من اللعبات، إذا سلّمنا بأن "اللعبة" هي "نوع خاص من الأنشطة تحكمه بعضُ القوانين". وتكشِف لنا الجوانب المتعددة

المعتبرة التي تتضمنها إحدى اللعبات، عن بعض الأسباب التي تفضي إلى حصول خلاف بين اللسانيين، حين يحاولون تعيين نقطة البدء في دراسة اللغة.

فحين يحاول أحدُنا أن يكتشف الكيفية التي تمارَس بها إحدى اللعبات المستوفية للتصور المذكور آنفًا- كلعبة "الشَّطْرَنْج"، أو لعبة كرة القدم- فلا مَعْدَى له عن أن يتعامل مع ثلاث مسائلَ عامة، هي: أهداف اللعبة، والمبادئ الأساسية العامة التي تضبط التعامل بين عناصرها، والتحركات الجائزة لتلك العناصر.

فأما مسألة "أهداف اللغة"، فتتضمن السؤال الأساسي الآتي: ماذا يحاول اللاعبون أن يفعلوا حين يمارسون تلك اللعبة؟ والإجابة- لو كانت لعبة كرة القدم هي المعنية- أن اللاعبين يحاولون أن يسدّدوا الكرة بحيث تدخل المرمى؛ فيُحْتسب لهم تسجيل هدف. وأما "أهداف اللغة"، فهي لا تتضمن الوظائف العامة التي لخصناها في الفصل الثاني (نقل المعلومات، والتعبير عن العواطف، واستبقاء التواصل الاجتماعي، وغيرها) فحسْب، بل تتضمن – كذلك- أهدافًا أقلّ عمومية، يجرى توظيفُ اللغة من أجل إنجازها. وذلك مثل:

- الحصول على معلومات. كقولك – مثلا: أين البَبْغاء؟
- جَعْل شخص ما يؤدى شيئًا ما. كقولك- مثلا: أغلق الباب!
- إنشاء وعد. كقولك – مثلا: سأدفع لك في الأسبوع القادم.

وأما مسألة "المبادئ الأساسية العامة التي تضبط التعامل بين عناصر اللعبة"، فتتضمن عدة أسئلة، من مثل: كم عدد اللاعبين في هذه اللعبة؟ وهل يلعبون جميعًا في نفس الوقت؟ أم يلعبون تباعًا: واحدًا تلو الآخر؟ وإذا كان الحال على هذا النحو الأخير، فكيف يعلم أحدهم أن دور الآخر قد انتهى؟ إن الشأن في اللغة هو أن الناس يتحدثون تباعًا: واحدًا ثم الآخر. ثم إن كل لغة تجنح إلى اعتماد تعاقب خاص بين ترتيب هذه الأدوار، من جهة، وبين محتوى الردود المقبولة لكلّ دور، من جهة أخرى. ففي اللغة الإنجليزية- مثلا- تُتْبع التحية عادة بتحية أخرى مباينة لها. من مثل:

John: Good morning, Felicity. (صباح الخير "فلِيستي")

Felicity: Why hello there, John. (مرحبًا "جون")

وأما المسألة الأخيرة، أعني: مسألة "التحركات الجائزة"، فتتضمن سَعْى اللسانيين لاستكشاف أيّ التحركات تجيزه اللغة، وأيها لا تجيزه. وفى لعبة "الشَّطْرنج"، نجد أن بعض القطع لا يمكنها التحرك إلا في خطوط مستقيمة، في حين لا يمكن لقطع أخرى أن تتحرك إلا على نحو قُطْريّ. وأما الشأن في اللغة في هذا الصدد، فيتمثل في وجود قواعدَ تحدد التتابعات الصحيحة الصياغة في كل لغة على حِدَة. فمثلا: نجد في اللغة الإنجليزية أن الأفعال تسبق مفاعيلها، فيقال- مثلا:

(القطة أكلت طائر "الكناري") **The cat ate the canary.**

بدلاً من: **The cat the canary ate.**

وهو – حَسَبَ ما يقال- الترتيب الصحيح المقبول في اللغة التركية.

إن لكلٍّ من هذه الجوانب السابقة أهميتَها المعتبرة، بحيث لا يستطيع أحدُنا أن يمارس أية لعبة، دون أن يكون لديه قَدْر من المعرفة بها. وكذا تقبل هذه الجوانبُ التطبيق لدى ممارسة (لعبة) اللغة. ولابد أن لأهل كل لغة فهمًا متأصلا لها.

وحين يشرع أحدُنا – بعد- في التعامل مع بنية اللغة، فقد يتراءى له- لأول وَهْلة- أن يعالج الجوانب السابقة، على الترتيب الذي مرّ ذِكْره. ولكنه سيواجَه لدى التطبيق بمشكلة قد تدفعه إلى تغيير ما تراءى له في البدء. وتلكم أن مهمة تحديد التحركات الجائزة للوحدات المكونة للغة، أيسر من مهمة إنجاز وَصْف مناسب لأهداف التفاعل اللغوي الإنساني وقوانينه؛ إذ يتميز هذا التفاعل بامتزاجه الشديد بالبناء الاجتماعي[1] **social structure** للمجتمع الذي تخضع لغته للدراسة. ومن أجل ذلك، يُؤْثر جمهرة اللسانيين الحاذقين البدءَ بدراسة الجوانب اللغوية التي يسهُل عليهم – أكثر من غيرها – فصلُها عن الخلفية الاجتماعية. وهم –لذلك- يبدأون بدراسة "التحركات الجائزة لعناصر اللغة"، أو – إذا استعملنا المصطلح اللساني- بـ"نحو اللغة". ولا شك في أنه لا مَعْدَى لنا عن تحصيل معرفة مناسبة بالعناصر

---

(١) يستعمل علماء علم الاجتماع مصطلح "البناء الاجتماعي" للدلالة على "علاقات التفاعل المنظم بين مختلف عناصر النسق الاجتماعي أو المجتمع. وهكذا يقال – على سبيل المثال – إن النظم القرابية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها من النظم الموجودة في مجتمع معين، تمثّل البناء الاجتماعي لذلك المجتمع، بما يحويه من المعايير، والقيم، والأدوار الاجتماعية". [مارشال (جوردن): موسوعة علم الاجتماع (المجلد الأول) ص٢٨٩]. [المترجم].

اللغوية المؤلَّفة للغة، قبل الشروع في إنجاز معالجة عقلانية للكيفية التي يجرى بها توظيفُ هذه العناصر في المجتمع.

خلاصة:

يحسن – حين ندرس اللغة على أنها لعبة – أن نبدأ بدراسة التحركات الجائزة لعناصرها؛ لأن هذه التحركات ليست شديدة الارتباط بالبناء الاجتماعي للمجتمع.

وعلى هَدْى مما سبق، ستجرى خُطَّة كتابنا هذا، على البدء بدراسة "لُبّ" اللغة الأساسي، ثم التحرك – بعد- نحو "الخارج". وبعبارة أخرى، سنبدأ من "مركز" الرسم التوضيحي الدائري الذي عرضناه في الفصل الأول (الرسم التوضيحي ١-١). بيد أن تقريرنا للموضوعات التي يجب البدءُ بها أولا لدى دراسة اللغة، لا يعكس بالضرورة رؤيتنا لأهمية كلٍّ منها. إننا – مثلا – نرتدي الجوارب قبل الأحذية، ثم لا يَعنِى هذا بالضرورة أننا ننظر إلى الجوارب على أنها أهم وأثمن من الأحذية. ولكننا – في خطوتنا الآتية-سننظر في بعض الأسباب التي تقف من وراء دراسة اللغة.

المتخصصون في دراسة لغة واحدة في مواجهة دعاة الكلية:

تختلف الأسبابُ التي تقف من وراء رغبة بعض الدارسين في دراسة اللغة. وبوجه عام، ينقسم الدارسون فيما نحن بصدده إلى فريقين. فأما الفريق الأول، فيضم أولئك الراغبين في دراسة اللغة؛ لأنهم معنيون بتحصيل قَدْر إضافي من المعرفة عن لغة واحدة بعينها. وممن قد ينضوي تحت هذا الفريق: مدرس للغة الفرنسية، أو مبشِّر اكتشف لغةً أمريكية جنوبية جديدة، أو امرؤ كانت أم جِدَّته امرأةً أمريكية من أصل هندي، وأراد أن تزداد معارفه بشأن هنود الـ"نوتكا"(١) Notka .

(١) الـ"نوتكا" هي إحدى اللغات الهندية الأمريكية. وهي تنتمي إلى مجموعة لغوية صغيرة تسمى wakashan تتألف من ست لغات. وكان الناس يتكلمون بهذه اللغات في منطقة تقع على ساحل المقاطعة الكندية "كولومبيا البريطانية". ينظر:

Trask, The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, p. 365. [المترجم]

وأما الفريق الآخر- في المقابل – فيشمل أولئك الراغبين في تبين المزيد من المعرفة بشأن اللغة في حَدّ ذاتها، بوصفها قدرةً إنسانية مثيرة للاهتمام والعَجَب. وينضوي تحت هذا الفريق جمهرةُ المشتغلين باللسانيات: تدريسًا، وتأليفًا. وكذا علماء العلوم الاجتماعية الأخرى، من مثل: علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، الذين تلزمهم خلفيةٌ معرفية مناسبة بشأن ظاهرة اللغة في عموم حالها .

خلاصة:

يُعنَى بعض الباحثين بدراسة اللغة؛ لأنهم معنيّون بدراسة لغة واحدة بعينها. في حين يُعنَى آخرون بدراستها؛ لينظروا في ظاهرة اللغة في عموم حالها. ويترجح لدينا - في ظِلّ ما سبق- أن يكتب هذان الفريقان نمطين جِدَّ مختلفين من "القواعد"، وأن تكون رؤيتهما لعلم"اللسانيات" رؤيةً جِدَّ مختلفة كذلك.

فأما أولئك المهتمون بلغة بعينها، فسيحاولون وضع "قواعد" شاملة ومتقنة لتلك اللغة المختارة، أو لجزء بعينه منها. ويُنجَز ذلك عادة بكتابة دراسات تفصيلية للقوالب التي تَنتظم المكوناتِ المختلفة لهذه اللغة وحدها. فمثلا: ربما يشتغل بعضُهم بدراسة العلاقة بين الصوائت vowels التي تشتمل عليها اللغة الفرنسية؛ رغبةً في صَقْل طريقة نطقهم؛ استعدادًا لرحلة إلى فرنسا. وذلك دون أن يشغلوا بالهم بالنظر في السبب من وراء حصول تطابق بين نظام الحركات في هذه اللغة، ونظيره في أية لغة أخرى؛ فتلك مسألة يرونها مُنْبتَّة الصلة- أو تكاد تكون كذلك- بما يصنعون. ثم إنهم قد يلتقطون جوانبَ بعينها من "اللسانيات"، يرونها وثيقة الصلة بظاهرة يدرسونها، ويمكن الإفادةُ منها، وتوظيفُها، في تلك الدراسة، ولو أفضى ذلك إلى اختيار نموذج تقليدي عتيق- أو غير معروف- من القواعد. بل ربما ظن هؤلاء أن المهمة الرئيسية لـ"اللسانيات" هي أن تطوِّر آليات تحليل لغوية مختلفة، تساعدهم في إنجاز دراساتهم المتعلقة بلغات بعينها، أو ظواهر بعينها في تلك اللغات.

وفى المقابل، سيكون من شأن ممثلي الفريق الثاني المعنيّ بظاهرة اللغة، في عموم حالها، السعيُ نحو وضع إطار من القواعد، يُراعَى فيه أن يكون صالحًا لمعالجة كل اللغات. وعلى الرغم من أنهم قد يجيدون وضع القواعد الخاصة بلغة بعينها، فإنهم – إنْ صنعوا ذلك- فإنما يستهدفون به اختبار نظريةٍ ما ذات تطبيقات أرحب تشمل هذه

اللغةَ، وغيرها. وذلك أن من الوسائل المعروفة للوقوف على كفاءة إطار عالمي من القواعد اقترحه لسانيٌّ ما، أن ننظر في مدى صلاحيته للتطبيق على أية لغة يُواجَه بها. فإذا تبين لنا عدمُ صلاحيته لذلك، وجب علينا أن ننقّحه، أو أن نهجره. إن هذا الضرب من اللسانيين قد يُشغَل - كذلك - بدراسة الصوائت في اللغة الفرنسية. ولكن قَدْر اهتمامهم بهذه الصوائت في حَدّ ذاتها، لن يكون بقدر اهتمامهم بالعثور على إطار صوتي عام، يمكنه أن يلتقط السمات المميزة لهذه الصوائت، جنبًا إلى جنب مع السمات المميزة لصوائت لغات أخرى كذلك. إن ذلك الإطار من القواعد الذي نتبين تمام صلاحيته لمعالجة بنية اللغة الفرنسية، ثم نتبين - في المقابل - عدم صلاحيته للتطبيق على أبنية لغات أخرى، كاليونانية، والسواحلية(١) **Swahili**، والأيسلندية - مثلا - لحريّ بأن يهجره الباحثون.

ومما يؤسف له خلال السنوات الأخيرة، أن المتطرفين من كلا الفريقين السابقين، قد استنفدوا قدرًا لا ضرورة له من الوقت، في مهاجمة الفريق الآخر. فأما أولئك المهتمون بدراسة لغاتٍ بعينها، فقد نعتوا نظراءهم الباحثين عن نظام كليّ من القواعد، بالإفراط في التنظير، وبالاشتغال بما لا يعود بالنفع على مستعملي اللغة في شئونهم المعتادة، وحياتهم اليومية. وقد يسمع أحدُنا منهم تعليقاتٍ ناقدةً، من مثل: "اللسانيات الحديثة لا تقدم لي كبير عون في قاعة الدرس، حيث أدرِّس اللغة الأسبانية"، و"إنني أشتغل الآن بإنجاز بحث عن التصوير المجازى للسمك في أعمال (شكسبير)، ولا أكاد أتبين وجهًا لتوظيف اللسانيات في ذلك". ويردّ "دعاة الكلية" **universalists** على هذا النقد بنبز "دعاة التخصيصية" بأنهم قوم ضيقو الأفق، لا همَّ لهم إلا ركم المعلومات المعروفة المقررة. وكذا قد يسمع أحدُنا منهم تعليقاتٍ ناقدةً، من مثل: "وددتُ لو تتوقف عن صنع قوائم للأفعال الشاذة في لغة الـ"أرواك"(٢) **Arawak**، وأن تشرع في تناول موضوع آخر مفيد".

---

(١) اللغة السواحلية: هي إحدي لغات الـ"بانتو" Bantu الأفريقية. وهى اللغات المستعملة في وسط أفريقيا وجنوبها. والسواحلية هي اللغة الرسمية لـ"تنزانيا". وكذا يشيع استعمالها، شيوعًا كبيرًا، في "كينيا" و"أوغندا". وللعربية فيها تأثير جد كبير.

ينظر: .Dalby. Dictionary of Languages,p. 591. [المترجم].

(٢) "الأرواكية": مجموعة لغوية كبيرة بعينها، من مجموعات اللغات الهندية الأمريكية. وكان يتكلم بلغات هذه المجموعة اللغوية تجمعات بشرية، عاشت في مناطق تمتد من "بليز" Belize إلى "باراجواي".

ينظر: Dalby. Dictionary of Languages. p. 21 . [المترجم].

وكما اتضح من الفصل الثالث من كتابنا هذا، تبدو الأسبابُ التي تقف من وراء هذا الخلاف- في جانب منها- أسبابًا تاريخية. فقد ثبت بالشواهد الكثيرة أن مما يَسِمُ أيَّ فرع معرفي أكاديمي حين يتخذ منعطفًا جديدًا في مساره، أن ينقسم إلى مدرستين أكاديميتين: قديمة، وجديدة. فأما المدرسة "القديمة"، فستنظر إلى المدرسة "الجديدة" بقدر من الريبة والنفور. وفى المقابل، ستنبذ "الجديدة" مقابلتها "القديمة" بأنها قد تأسستْ على أفكار خاطئة، من جهة، وبأن الزمن قد تجاوزها، من جهة أخرى. ونظرًا لوجود تشابه جِدّ كبير بين أولئك المهتمين بدراسة اللغات الإنسانية، كلٍّ على حِدَة، من جهة، وبين الوصفيين من أتباع مدرسة "بلومفيلد"، من جهة أخرى، فإن "دعاة الكلية" يُسمُّونهم عادة بـ"التقليديين". ثم إن "دعاة الكلية" هؤلاء لعلى قناعة بأنهم هم الذين على صواب؛ لا لشيء، إلا لمجرد أن نموذج "اللسانيات" الذي يتبنونه، يبدو- في عصرنا هذا- أكثر جِدّةً ومواكبة لروح العصر.

وحقيقة الأمر – بعد- أن وجهتي نظر "دعاة الكلية"، و"دعاة التخصيصية"، هما وجهتا نظر متكاملتان، لا متناقضتان. وبيان ذلك: أنه لا يمكن لعدد من اللسانيين أن يشتغلوا جادّين بوضع إطار علمي من القواعد الصالحة لكل اللغات، إلا إذا كان طَوْعَ أيديهم قَدْرٌ جِدّ وافر من المعلومات، مستقىً من دراسة عدد من اللغات، كلٍّ على حِدَة؛ حتى يختبروا في ضوئه مدى صلاحية نظرياتهم العالمية للتطبيق على اللغات المختلفة. وفى المقابل، لا يسوغ أن يقتصر وُكْد بعض اللسانيين على مجرد تكديس ركام من المعلومات، جرى استقاؤها من دراسة عدد من اللغات المتباينة. فإن من شأن درس كهذا أن يهبط بـ"اللسانيات" من مستوى "العلوم" إلى مستوى "الهوايات"، كهواية "لملمة" الطوابع. ولا ينجيه من وَهْدته تلك إلا بَذْلُ قدر من الجهد، يربط بين هذه المعلومات المتباينة، ويسلكها في إطار أوسع من القواعد.

وفضلا عن ذلك، فربما نكون واهمين لو افترضنا أن أي شخص معنيّ بـ"اللسانيات" يجب أ ن يكون منتميًا لأحد الفريقين: "دعاة الكلية"، أو "دعاة التخصيصية". ففي عصرنا هذا، نلاحظ حصول تزايد في عدد اللسانيين الذين يشتغلون بإنجاز مؤلفات تشمل هذين الضربين من الدرس معًا. كما أن واقع الحال يشهد بأن كثيرًا من اللسانيين، ممن يستهلون جهودهم بالاهتمام بلغة بعينها، ينتقلون – بعد- انتقالا محمودًا إلى الاهتمام باللغة في عموم حالها.وهذا التطور من مرحلة

الانهماك التام في دراسة طريقة تكوين الكلمة، في اللغة الألمانية – مثلا– أو دراسة صوائت اللغة الفرنسية، إلى مرحلة الاهتمام الشديد بتطوير إطار عالمي من القواعد، يمكن تشبيهه بالتطور الذي قد يحدث لميكانيكي سيارات ذكي، حين ينتقل من مرحلة الاهتمام بصيانة سيارته الخاصة، إلى مرحلة الاهتمام بالكيفية التي تشتغل بها السيارات في عمومها. إنّ أحدنا قد تقتصر رغبته بدءًا في تعلم الكيفية التي يركّب بها سَيْر مروحة جديدًا في سيارة "رولزرويس" **Rolls- Royce** قديمة جدًا. ثم ربما يقوده ذلك إلى الاهتمام بتحديد المكونات المختلفة لمحرك السيارة، وتصنيفها، وإلى فهم الكيفية التي تتركّب بها هذه المكونات، وتعمل معًا. ثم قد يشوّقه ذلك – أخيرًا– إلى الوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين السيارة الـ"رولزرويس"، وسائر السيارات الأخرى، ثم إلى الشروع في النظر الدقيق في نظرية الاحتراق الداخلي للمحرك برُمّتها.

إن هذا التطور من الخاص إلى العام، ربما يكون أهم لعالم اللسانيات منه لميكانيكي السيارات. واشتغال أي لساني بدراسة لغة بعينها دراسةً جادة، سيقوده غالبًا إلى معرفة مدى انتشار الظواهر التي يواجهها في دراسة تلك اللغة، أي: هل تنفرد هذه اللغة بها؟ أم أنها ظواهر تتوزعها سائرُ اللغات؟ ودونك مثالا بسيطًا على ذلك: تقسِّم اللغة الإنجليزية الأسماء إلى نوعين: أسماء تقبل العدّ، كما في قولنا: **sex hens** (ست دجاجات) و **three cabbages** (ثلاث كرنبات)[1]، وأسماء أخرى لا تقبل هذا العد. فنحن عادة لا نقول: **six butters**، ولا **three soaps**، إلا إذا كنا نقصد ثلاثة أنواع من الزبد، أو الصابون. ولا مَعْدَى لنا عن أن نقول: **some butter**، و **some soap**، أو أن نستعمل كلمة تعبر عن الكمية، فنقول– مثلا: **six pounds of butter** (ستة أرطال من الزبد)، أو **three bars of soap** (ثلاث قطع من الصابون). فهذه الظاهرة قد تحفز بعض المشتغلين باللغة الإنجليزية على إثارة التساؤلات الآتية: ما مدى انتشار هذه الظاهرة بين لغات العالم؟ هل تمثل اللغة

---

(١) ضبط الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ) كلمة "كرنب" في معجمه "تاج العروس" بضم الكاف وسكون الراء وضم النون (كُرْنُب)، ثم ذكر أن العامة تضمه– أي تضم الراء– كما هو سائر على الألسنة حتى الآن في مصر. ينظر: تاج العروس (ك ر ن ب) ٤/ ١٤٢– ١٤٣. والكلمة معرَّبة عن اليونانية (ينظر: رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية ص٢٧٦). [المترجم].

الإنجليزية استثناءً فيما يتعلق بهذه الظاهرة؟ أم أن لغة الـ"إجبو"(١) "Igbo" – مثلاً – هي التي تمثل استثناءً بعدم اشتمالها على هذه التفرقة؟ ثم إذا كانت هناك لغةٌ تشتمل بالفعل على هذه التفرقة، فهل ترتَّب عليها وجودُ سمات أخرى ذاتِ صلة بهذه التفرقة، في تلك اللغة؟ فهذا الضرب من التساؤلات ، ونحوها، هو ما قد يقود أحد اللسانيين – على المدى القصير – إلى دراسة اللغة على نحو أشمل.

خلاصة:

قد يرغب أولئك المهتمون بدراسة لغة بعينها في أن ينتقلوا عن ذلك؛ حتى يقفوا على أوجه التشابه والاختلاف بين لغتهم المفضلة وسائر اللغات الأخرى، وحتى يتبينوا: هل خصائص لغتهم تلك خصائص عادية، أم أنها غير عادية؟

وعلى المدى البعيد، قد يكون لـ"نحو كليّ" – لو قُدِّر له أن يوضع – نتائج جِدّ ثمينة، تتعلق بما لدينا من معرفة عن الجنس البشرى. فمثل هذا النحو ربما يعكس جيدًا سماتٍ فطريةً للعقل الإنساني، أو على حَدّ نص "تشومسكي: "إن ثمة مبادئ عامّةً أساسية، جِدّ متأصلة، وضابطة، تحدد طبيعة اللغة الإنسانية، وتتميز بتجذرها في الطبيعة الخاصة للعقل الإنساني".

ولكننا – في المقابل – نلاحظ أن فكرة تلمس "نَحْو كليّ" ثابت، يصلح لكل اللغات، قد جعلت تخبو رويدًا رويدًا، على ما سنذكر في الفصل الأخير. إن محاولة الوقوف على قيود **constraints** مطلقة، لا تعمل اللغةُ الإنسانية إلا في نطاقها، تُشبه في قلة جدواها محاولةَ الوقوف على إجابة للسؤال التالي: هل توجد قيود على طول قامة الإنسان؟ فنحن لا يعنينا العثورُ على رجل طوله عشرة أقدام –إن عُثر– وإنما يعنينا أن نعرف المعدَّل الطبيعي، أو المعتاد، لذلك الطول. وكذا الشأن في "اللسانيات"، فالاشتغال بالتنقير عن الظواهر اللغوية الشاذة، ربما لا تكون له فائدة الاشتغال بالوقوف على الكيفية التي تعمل بها معظم اللغات. ولكنني ألفت النظر – بعد – إلى أنه يلزم أيَّ شخص يدرس "اللسانيات" أن تتوافر له خلفيةٌ معرفية أساسية

(١) الـ"إجبو": هي واحدة من أربع لغات وطنية، يتكلم بها الناس في دولة "نيجيريا". وهى تنتمي إلى اللغات "النيجرية الكنغولية". ينظر: Dalby. Dictionary of Languages, p. 260. [المترجم].

بمنهجيات اللسانيات الوصفية، وبخاصة "الإجراءات"، والمصطلحات التي يوظفها هذا العلم؛ من أجل تحديد الوحدات اللغوية. ولا يجد اللساني مناصًا من توظيف مثل هذه المنهجيات، إذا تعرض بالدرس لإحدى اللغات غير المكتوبة، ولا المعروفة، حتى وقتنا هذا؛ إذ سيلزمه- في حال كتلك- أن يحلل سلاسل الكلام (المتكتلة)، إلى وحداتها الصغرى المكونة لها. وكذا قد يكون لهذه المنهجيات قيمةٌ معتبرة في سياقات أخرى. فمثلا: قد يكتسب مدرسو اللغات معرفةً متعمِّقة جديدة بأسرار اللغات التي يدرسونها، إذا عالجوا هذه اللغات على أنها لغات غير مكتوبة، وغير معروفة بالمرة. ويحتاج أمثال هؤلاء اللسانيين إلى الوقوف على إجابة لأسئلة عديدة، من مثل: "كيف يمكننا أن نحدد الكلمات؟"، و"ما الكلمة؟"، و"هل يمكن للكلمة أن تتجزأ إلى وِحْدات لغوية أصغر؟ وإن أمكن ذلك، فعلى هَدْى من أي معيار يمكننا أن ننجز تلك التجزئة؟"، و"كيف يمكننا أن نحدد الأصوات الأساسية التي تشتمل عليها أية لغة"، وهَلُمّ جَرًّا. إنّ الإجابة على هذه الأسئلة، وأمثالها، تمثل شطرًا من الموضوعات التي سيعالجها كتابنا هذا، في فصوله القليلة الآتية.

فلنتذكر:

- تساعدنا التعبيراتُ المجازية الموحية في فهم الظواهر المعقدة، في كثير من الأحيان.
- من المفيد للدارسين أن ينظروا إلى اللغة على أنها "لعبة".
- يلزم المشاركين في ممارسة أية لعبة أن يقفوا على أهداف هذه اللعبة، وضوابط التعامل بين عناصرها، والتحركات الجائزة فيها.
- يفضَّل – لدى التعامل مع اللغة على أنها "لعبة" – البدء بدراسة "التحركات الجائزة" للعناصر المكونة لها؛ من حيث إن هذه التحركات أقل التحامًا وارتباطًا بالأبنية الاجتماعية التي يشتمل عليها أيُّ مجتمع.
- ربما يَعزِل أولئك المهتمون بدراسة لغة واحدة بعينها أنفسَهم – في البداية – عن "دعاة الكلية"، أعني أولئك المعنيين بدراسة اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية عامة.
- يشهد واقع الحال بأن أولئك المهتمين بدراسة لغة واحدة بعينها، يغلب عليهم أن يجاوزوا اهتمامهم هذا، إلى الاهتمام باللغة الإنسانية في عموم حالها كذلك.

القسم الثاني
الدوائر الداخلية

تملكت الحَيرةُ من "آليس" Alice؛ فلم تستطع التفوُّه بكلمة واحدة. وهذا ما دعا "هامتي دامتي"[1] Humpty Dumpty إلى أن يستأنف كلامه. "بعض الكلمات مزاجيةُ الطبع، عَصِيّة على الانقياد، ولا سيما الأفعال. وأما الصفات، فيمكنك أن تتصرَّفَ فيها كيف شئت. وليس كذلك شأنُ الأفعال. ولكنني - على الرغم من ذلك- أستطيع أن أتحكّم فيها جميعًا"

لويس كارول[2] (خلال المرآة)

Lewis Carroll (Through the Looking- Glass)

---

(١) "هامتي دامتي" : شخصية على شكل بيضة، اشتملت عليها إحدى أغنيات الأطفال المشهورة. حيث وقعت من فوق حائط؛ فانكسرت، وتعذّر لأم أجزائها تارة أخرى. ثم صار اللفظ يستعمل لنبز الشخص القصير البدين، وللتعبير عن المواقف التي تشتمل على أشياء تقوّضت، واستحال إرجاعها إلى سيرتها الأولى. ينظر:

Oxford Dictionary of English Etymology.

Macmillan English Dictionary.

وقد جرى توظيف هذه الشخصية في أعمال أدبية أخرى، كما هو الشأن هنا.[المترجم].

(٢) "لويس كارول" (١٨٣٢ - ١٨٩٨م): كاتب وعالم رياضيات بريطاني. اشتهر بقصته: Alice's Adventures in Wonderland (مغامرات آليس في بلاد العجائب). [المترجم].

٥

القوالـــب الصوتيـــة

يشرح هذا الفصلُ الكيفية التي يمثّل بها علماء اللغة سلاسلَ الكـلام المتواليـة. ويلخّص القـول في الرمـوز الكتابيـة الأساسـية المـستعملة في تمثيـل أصـوات اللغـة الإنجليزية. ثم يعرض – أخيرًا – للطرق المستعملة في وصف كلٍّ من النبر، والتنغيم.

There was a young man of Dunlaoghaire,
Who propounded an interesting theoghaire,
That the language of Erse.
Has a shortage of verse.
As the spelling makes poets so weoghaire.(1)

ج. ب. سيرل
(J. B. Searle)

---

(١) محل الشاهد – كما ستنوه المؤلفة بعد قليل – هو اشتمال اللغة "الغالية الأيرلندية " Erse على أمثلة شاذة في نظامها الهجائي. ومنها أن الحزمة الهجائية "oghaire" تنطق 'eery"! وقد اشتملت هذه الـ"لمريكية" على ثلاثة أمثلة لذلك:

- Dunlaoghaire. وتنطق Dun- laeery (دُن لَرى). وهى بلدة شاطئية جنوب "دبلن" بـ"أيرلندا".
- Theoghaire. وهي تساوى theory (نظرية/ فرضية...).
- Weoghaire. وهي تساوى weary (جد مرهق/ سَئِم).

وينظر : http://igottawritel.blogespot.com/2011/02/quotes-about-language-port-i.html.

وعلى هذا، يصبح المعنى الإجمالي لهذه الـ"لمريكية" هو:
كان ثمة شاب من "دُن لَرِي".
اقترح نظرية شائقة:
أن اللغة الغالية الأيرلندية
ذات شعر تنقصه الجودة
لأن هجاءها يصيب الشعراء ببالغ الرهَق [المترجم].

يُعنَى علم اللسانيات- في المقام الأول- بالكلمة المنطوقة. ولذا نجد أن من المهام المقدمة لأي لساني يرغب في وصف أصوات لغة ما، أن يقرر الكيفية التي سيمثّل بها لسلاسل الكلام المتتابعة في تلك اللغة. ولا شك في أن التمثيل الكتابي المتعارف عليه ينطوي على عيوب جَمّة؛ من حيث إنه لا يهدى إلى النطق الصحيح الهداية الكافية. والـ"لِمريكية"(١) limrick المقتبسة آنفًا تشير إلى اشتمال اللغة الغالية الإيرلندية Irish Gaelic على أمثلة شاذة في هجائها. وكذا أوضح "برناردشو"(٢) Bernard Shaw بعضَ خصائص التمثيل الكتابي للغة الإنجليزية، حين زعم مبالغًا أن كلمة ghoti يمكن أن يكون هجاؤها هو fish. وذلك بأن يُنطَق الصوتان gh كنطقهما في كلمة rough، وينطق الصوت o كنطقه في كلمة women، والصوتان ti كنطقهما في كلمة station . وقد سبق أن لفت "دي سوسير" [١٨٥٧- ١٩١٣م] لنحو ذلك بقوله: "إن الرموز الكتابية تُضبّب رؤيتنا للغة. إنها ليست كساءً بقدر ما هي تمويه".

وعلى ذلك، يتنكّب اللسانيون لدى دراستهم للأصوات النظام الكتابي التقليدي؛ حتى يمثّلوا الكلام المنطوقَ تمثيلا أمينًا مطابقًا. وفى سبيل إنجاز هذا الهدف، يستعمل اللسانيون أحد أنظمة التدوين الكتابي البالغة التخصص، حيث يكون لكلّ صوت بعينه، رمزٌ كتابي واحد بعينه يدلّ عليه. ولعلّ أفضل أنظمة التدوين تلك، هو ذلك المعروف بـ "الألفبائية الصوتية العالمية" International Phonetic Alphabet، ويُرمز له بـ (IPA) . وقد اقترضت "الألفبائية الصوتية العالمية" بعض رموزها من رموز الألفبائية الكتابية المعروفة. وذلك مثل:

[b]، كما في كلمة bird.

[d]، كما في كلمة dog.

---

(١) الـ"لمريكية" limerick نوع من القصائد الترفيهية القصيرة التي شاعت في اللغة الإنجليزية، منذ قرنين تقريبًا. وتتألف كل قصيدة من خمسة أسطر شعرية فقط (ينظر.د. مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب ص٢٨٧). وسيأتي للمؤلفة فضل كلام عنها في الفصل الثاني عشر (علم الأسلوب). [المترجم].

(٢) "جورج برناردشو" (١٨٥٦- ١٩٥٠م): كاتب روائي ، ومسرحي، وناقد أيرلندي معروف. حصل على جائزة نوبل في الأدب في العام ١٩٢٥م. ولكنه تبرع بقيمتها المالية لإنشاء إحدى المؤسسات الأدبية. ألف مايربو عن خمسين مسرحية. منها: Man and Superman (الرجل والـ"سوبرمان") و Pygmalion ("بيجماليون"). [المترجم].

(يلاحظ أن الرموز التي تمثل الأصوات توضع بين أقواس مربعة).

وثمة رموز أخرى في تلك الألفبائية الصوتية، هي – في أصلها – رموز كتابية تقليدية، وقد جرى عليها شيء من التغيير. ومن ذلك:

- [ɒ]، كما في كلمة "hot'..وهو عبارة عن الحرف ɑ معكوسًا.
- [ŋ]، كما في كلمة 'bang'. وهو رمز منحوت من الحرفين n ، و g.
- [ɪ]، كما في كلمة 'hit'. وهو عبارة عن الحرف الاستهلالي I، ولكن في حجم صغير.

وفي أحيان أخرى، تستعمل رموز كتابية قديمة مهجورة، مثل:

- [ʃ]، كما في كلمة **dish**.

وهناك رموز أخرى مقتبسة من الألفبائية اليونانية، مثل:

- [θ]، كما في كلمة **thin** .

وثمة – أخيرًا – بعض الرموز القليلة المبتكرة، مثل:

- [ɬ] وهو يرمز لصوت **ll** في اللغة الويلزية **Welsh**، كما في كلمة **Llanelli**.

وفي بعض الأحيان، تضاف علاماتٌ – أو إشارات – خطية مميزة للرموز الصوتية. ومن تلك العلامات: النقطتان الدالتان على الطول. فالرمز [u:] يدل على الصوت **u** حالة كونه طويلا، كما في كلمة **boot**. وقد أمكن للألفبائية الصوتية العالمية (**IPA**) بهذه الوسائل، ونحوها، أن تنمّي ذخيرةً من الرموز يمكنها نظريًا أن تمثّل أيَّ صوت في أية لغة.

خلاصة: تزودنا "الألفبائية الصوتية العالمية" (**IPA**) برموز كتابية، يمكن استعمالها لتمثيل أصوات أية لغة. أي أنها مصدر يتسم بالعالمية.

وكتابنا هذا لا يستعمل رموز الألفبائية الصوتية العالمية، إلا حين يكون التدوين الصوتي ضرورةً لا مَعْدَى عنها. ولكنني ألفت – في المقابل – إلى أن الإلمام بـ"علم

الأصوات" يُعَدّ من المتطلبات الأساسية والضرورية لدراسة علم "اللسانيات"، ولا يمثل جزءًا أساسيًا من هذا العلم في حَدّ نفسه، على نحو ما أوضحتُ في الفصل الأول.

وعلى ذلك، فقد آثرتُ - في فصلنا هذا - أن أجتزئ بتناول مسائل بعينها من علم الأصوات، وأن أستودع ملحقَ الكتاب (بدءًا من الصفحة رقم ٤٨١) باقي هذه المسائل. وكذا فقد اعتبرتُ ما في هذه الرموز الصوتية من غرابة، قد تزيد من صعوبة قراءة النص؛ فاستبدلتُ بها - كسائر ما يصنع مؤلفو الكتب الدراسية في "اللسانيات" - الرموزَ الكتابية المعتادة ما أمكن ذلك، ولو كانت المسألة المدروسة تتعلق بالصيغة المنطوقة لصوت، أو كلمة، أو عبارة.

تصنيف الأصوات الأساسية:

دعونا نفترض أن أحد اللسانيين قد قرر الاشتغال بدراسة إحدى اللغات غير المكتوبة، ولا المعروفة، حتى وقتنا هذا. فأول خطوة يلزم هذا اللسانيَّ إنجازُها، هي أن يجد راويًا لغويًا **informant** مناسبًا. أعني: متحدثًا أصليًا بهذه اللغة، ثِقَةً؛ ليكون مصدرًا تُستقى منه "عينات" - أو نماذج - كلامية من هذه اللغة. فإذا تيسَّر ذلك، جاءت الخطوة التالية. وهي تنظيم جلسات معه. وستركز الجلسات الأولى على التدوين الصوتي الدقيق **transcription** للأصوات، مع البدء بدراسة الكلمات المفردة. ويستنجز اللسانيُّ هذه المهمة، بأن يطلب من الراوي أن يُسمِّي له الأشياء المألوفة، مثل: الأنف، والفم، والبيت، والشجرة، والشمس. ثم يشرع - بعد - في التدوين الصوتي لكلٍّ من هذه الكلمات تدوينًا يستقصي كلَّ التفاصيل الممكنة. وفي بداية (عملية) التدوين، يجب على اللساني أن يدوِّن كلَّ شيء، حتى العطس، والفُواق[1] **hiccup**؛ فربما يتضح - فيما بعد - أن لها دلالة ما. ومن ذلك: أن اللسانيين قد عثروا على أن لغة "الزولو"[2] **Zulu** - مثلا - تشتمل على أصوات تسمى بأصوات

---

(١) جاء في المعجم الوسيط (ف و ق) ٢/ ٧٣٢: "الفواق: تقلُّص فجائي للحجاب الحاجز يُحدث شهقة قصيرة [متكررة] يقطعها تقلُّص المزمار". وهو ما يسمَّى في العامية المصرية بـ"الزَّغْطَّة". [المترجم].

(٢) الـ"زولو": هي إحدى لغات الـ"بانتو" Bantu. وهي اللغات المستعملة في مناطق كثيرة من وسط أفريقيا، وجنوبها. والـ"زولو" هي لغة أكبر الجماعات اللغوية في دولة "جنوب أفريقيا". وهي إحدى لغاتها الرسمية كذلك. ينظر: Dalby, Dictionary of Languages, p. 700. [المترجم].

"الطَّقْطقة"[1] clicks. ويستطيع أهل اللغة الإنجليزية أن يلاحظوا هذه الأصوات بوضوح؛ إذ إنها تختلف اختلافًا تامًا عن كل أصوات اللغة الإنجليزية. وأقرب أصوات لها في الإنجليزية أصوات الطقطقة التي يُتلفَّظ بها للحصان: gee-up، وتلك التي يُتلفَّظ بها للتعبير عن الاستهجان وعدم الرضا: tut-tut .

وبمرور الوقت، وحصول الألفة بين اللساني وأصوات اللغة محلِّ الدرس، ستتزايد درجة الدقة في التدوين شيئًا فشيئًا. وفي الوقت ذاته، سيتكشَّف للساني تدريجيًا أن تلك الأصوات الغريبة المتنوعة ليست فوق طَوْق الحصر؛ إذ سيتبين له أن أصوات كلمات الراوي تدور – مهما تعددت – حول عدد قليل نسبيًا من الأصوات الأساسية، أو الفونيمات phonemes، التي لكلٍّ منها تنوعاتٌ فرعية.

ويتفاوت عدد الفونيمات من لغة إلى أخرى. ويبلُغ متوسطُها نحوًا من خمسة وثلاثين فونيمًا. فاللغة الإنجليزية- مثلا- تشتمل على أربعة وأربعين فونيمًا[2]، وفقًا للتحليل الشهير الذي صنعه "جيمسون"[3] Gimson لإحدى اللهجات الواسعة الانتشار للإنجليزية البريطانية (ينظر الجزء الخاص بالقراءات الإضافية المقترحة ص ٤٦٢). ولكنني ألفت هاهنا إلى أن استعمالَ مناهج تحليل مخالفة لتلك التي اقتفاها ذلك التحليلُ الشهير، وتطبيقَها على لهجات أخرى للغة الإنجليزية، ربما يفضي

---

(١) الطقطقة: "صوت انفجاري تُحدثه آلية الجريان الطَّبَقي. وذلك أن مؤخَّر اللسان يرتفع ليضغط على الطَّبَق، وفي الوقت نفسه تتم عملية إغلاق في الجزء الأمامي من الفم؛ فتتشكل فجوة داخل الفم منقطعة عن الهواء من حولها، ثم يُخفض اللسان قليلا ليُحدِث فراغًا داخل تلك الفجوة، وأخيرًا يُخفض اللسان فجأة فيندفع الهواء إلى الداخل؛ ولذلك يُسمَّى هذا الصوت شهيقيًا أيضًا". د. رمزي منير بعلبكي: معجم المصطلحات اللغوية ص٩٢. [المترجم].

(٢) والعربية تشتمل على أربعة وثلاثين فونيمًا أساسيًا: ثمان وعشرين صامتًا، وستة صوائت: ثلاث قصار، وثلاث طوال (مع تفصيل يتعلق بصوتي الواو والياء). [المترجم].

(٣) "ألفرد تشارلز جيمسون" Alfred Charles Gimson (١٩١٧- ١٩٨٥م): عالم أصوات بريطاني مشهور. عاصر عالم الأصوات البريطاني الأشهر "دانيال جونز" (١٨٨١- ١٩٦٧م)، وحدّث جهوده في وصف نطق أصوات الإنجليزية، وخلفه في رئاسة "الجمعية الصوتية الدولية". من مؤلفاته: Introduction to the Pronunciation of English (مقدمة إلى نطق الإنجليزية) (١٩٦٢م). وقد غدا – فور صدوره- المرجع المعتمد لوصف النطق النموذجي بأصوات الإنجليزية. ينظر: http://www.phon.ucl.ac.uk/home/wells/gim-obit.htm [المترجم].

إلى عدد أقلّ – بقليل – من ذلك العدد. وفي مثال آخر، نجد أن اللغة الهاوية[1] Hawaiian تشتمل – فيما زعموا – على ثلاثة عشر فونيمًا فقط. وفي المقابل، تقرر إحدى الدراسات أن إحدى لغات شمال القوقاز[2] Northern Caucasus تشتمل على تسعة وثمانين فونيمًا. بيد أنه يجب النظر إلى هذا العدد المبالغ فيه من الفونيمات – إن بالنقص أو الزيادة الشديدين – على أنه من باية الشذوذ. وربما يكون القول به قد تأسّس على معلومات ظنية.

خلاصة:

تشتمل كل لغة على بضع عشرات من الوحدات الصوتية الأساسية: تُعرَف بـ"الفونيمات"، وتُفرِّق بين كلمة وأخرى.

والفونيم **phoneme** هو أصغر وحدة صوتية يمكنها أن تميز بين كلمتين. ودونك – مثلا – الكلمتين: **pit** (حفرة كبيرة) و **bit** (مقدار ضئيل). فهما لا يختلفان إلا في الصوت الأول، حيث تبدأ كلمة **pit** بالصوت **/p/**، في حين تبدأ كلمة **bit** بالصوت **/b/**. وهذا هو أقل كَمّ صوتيّ يمكن لهاتين الكلمتين أن تختلفا بسببه، مع بقائهما كلمتين متمايزتين. وأي تقسيمات فرعية أصغر من ذلك ستكون غير ممكنة؛ إذ إن اللغة الإنجليزية لا تقسّم صوت الـ **/p/**، ولا صوت الـ **/b/**، إلى أي تقسيمات فرعية أصغر. ثم دونك مثالا آخر: الكلمتين: **pet** (حيوان أليف مدلل)، و **pit** (حفرة كبيرة). فهما لا تختلفان إلا في الحركة التي تتوسط كلا منهما. ومرة أخرى نجد أن هذا الكَمّ الصوتي هو أقل كَمّ يمكن لهاتين الكلمتين أن تتمايزا بسبب منه؛ إذ لا تشتمل اللغة الإنجليزية على صوت بيني يقع بين صوتي الـ **/e/** و الـ **/I/**. وعلى ذلك، يُعَدّ

---

(١) تنتمي الـ"هاوية" إلى مجموعة اللغات البولينيزية Polynesian. ويتحدث بالـ"هاويّة" بعض سكان جزيرتي "هاواي" و"نيهاو" Niihau. وهي تتآكل على الألسنة تدريجيًا لصالح اللغة الإنجليزية. ينظر: Dalby, Dictionary of Languages, p. 244. [المترجم].

(٢) تضم مجموعة اللغات القوقازية نحوًا من ثمان وثلاثين لغة، يتحدث بها الناس في جبال القوقاز، وبالقرب منه. وهي تنقسم إلى ثلاثة أفرع رئيسية: لغات شمال غرب القوقاز، ولغات شمال شرق القوقاز (حوالي ثلاثين لغة)، ولغات جنوب القوقاز. ينظر: Tarsk. The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, p. 51. [المترجم].

كلٌّ من الأصـوات /p/، و /b/، و /e/، و /I/ فـونيمًا مـستقلا في اللغـة الإنجليزيـة (يلاحظ أن الرموز الدالة على الفونيمات توضع عادة بين أقواس مائلـة). وأمـا أزواج الكلمات التي لا تختلف إلا في فونيم واحد، فتسمَّى بـ"**الثنائيات اللغوية الصغرى**"[1] **minimal pairs** . ويعد البحث عن مثل هذه "الثنائيات" وسيلةً مهمة مـن الوسـائل التي يمكن الاستعانة بها؛ لتعيين فونيمات أية لغة.

فونيمات اللغة الإنجليزية:

دعونا الآن نضع قائمة بفونيمات إحـدى اللهجـات الواسـعة الانتـشار، للغـة الإنجليزية البريطانية. وهي اللهجة التي توصف سماتها النطقية أحيانًـا ، بــ"**الـتلفظ النموذجي**" **Received Pronunciation** ، ويُرمز لها بـ (RP). وألفتُ – بعد – إلى أن هذه اللهجة هي واحدة من لهجـات أخـرى كثـيرة، توجـد في "بريطانيـا العظمـى"، ولكنها قد تكون الأكثر انتشارًا. وقد سبق أن ذكرنا آنفًا أن هذه اللهجـة تـشتمل عـلى أربعة وأربعين فونيمًا، وَفْقًا لنتائج أحد التحليلات المشهورة بهذا الصدد. وتقسَّم هـذه الفونيمات إلى نوعين أساسين: صـوامت **consonants**، وصـوائت **vowels** . ثـم إن هذه الصوائت يمكن تقسيمها إلى صوائت محضة **pure** – أو ثابتة – نسبيًا، كالصوائت التي تشتمل عليها الكلماتُ الآتية: **bit**، و **bet**، و **bat**، و **but**. وإلى صوائت مزدوجة **diphthongs** – أو انزلاقية **gliding** – يحدث عند النطـق بهـا أن ينزلـق الـصوتُ مـن صائت إلى صائت آخر. وذلك كالصوائت التي تشتمل عليها الكلمات الآتية: **boat**، و **buy**، و **bay**. وهاكم – بعد – بيانًا بصوامت الإنجليزية البريطانيـة، وصـوائتها [مـن اليمين إلى اليسار]:

(١) ومن أمثلتها في العربية: سيف/ صيف، قلب/ كلب، دزب/ ضرب، ذلَّ/ ظلَّ، برَّ/ بلَّ، خضَّ/ غـضَّ، حدَّ/ عدَّ ... وغيرها جِدّ كثير [المترجم].

مثال	الصائت	مثال	الصامت
pat	/æ /	pill	/p/
part	/ɑ:/	bill	/b/
pet	/e/	tin	/t/
pit	/ɪ /	ind	/d/
peat	/i:/	cot	/k/
pot	/ ɒ /	otg	/g/
port	/ ɔ :/	meat	/m/
put	/ ʊ /	neat	/n/
boot	/u:/	sing	/ ŋ/
but	/ ʌ /	lake	/1/
bird	/3:/	rake	/r/
ago	/ə /	fast	/f/
bay	/eɪ/	vast	/V/
buy	/aɪ/	thin	/θ /
boy	/ɔɪ/	then	/ ð /
bout	/aʊ/	sink	/ s /
boat	/əʊ/	zink	/ z /
beer	/ɪ ə /	ship	/ ʃ /
bare	/eə/	beige	/ ʒ /
doer,dour	/ʊə/	hat	/ h /
		chin	/ tʃ/
		gin	/dʒ/
		wet	/w/
		yet	/j/

الصـور النطقيـة للفونيمات:

لا تقتصر مهمةُ من يـشتغل بلغـة غـير مكتوبـة، عـلى وضـع قائمـة بفونيماتهـا فحسْب. بل يلزمه – كذلك- أن يستكشف الصور النطقية المتنوعـة لهـذه الفـونيمات كذلك. ولا شك في أن اكتشاف هذه التنوعات النطقيـة الخاصـة بكـل فـونيم، يمثّـل مرتكزًا أساسيًا من مرتكزات تعيين هُوِيّة هذا الفونيم.

خلاصة: **"الألوفونات" allophones** هي صور نطقية متنوعة لـ"الفونيمات" (= الوحدات الصوتية الأساسية). ويحتاج كل من يتعلم إحدى اللغات أن يكون على وعى بهـذه الصور النطقية.

ويتفاوت قَدْرُ الاختلاف بين الصور النطقية لكلٍّ من فونيمات اللغـة المتعـددة. فمثلا: نجد أن الفروق التي بين الصور النطقية لفونيم الـ/ s/ في اللغـة الإنجليزيـة، هي فروق جِدّ طفيفة لا تكاد تُدرَك، ولا أهمية لها كذلك. وفى المقابل، نجد أن الصور النطقية لفونيم الـ /l/ في اللغة الإنجليزية، تدركها الأذنُ جيدًا، ولو كانـت أذنًـا غـير مدرَّبة.

وفى بعض الأحيان، يستعمل أهلُ اللغة الصور النطقيـة للفـونيم الواحـد عـلى نحو عشوائي؛ فيحل أيٌّ محلَّ أيٍّ دونـما ضـابط. وهـذا أمـر يكـاد يكـون طبيعيًـا؛ إذ يستحيل أن يتطابق النطق بصوتين تطابقًا تامًا، مهما بذل المتكلم مـن جهـد في سـبيل ذلك. وحين تتناوب الصورُ النطقية للفونيم الواحـد عـلى ألـسنة أهـل اللغـة تناوبًـا عشوائيًا، على مثل هذا النحو، فإن علماء اللسانيات يصفون هذه الصور النطقية بأنها في حالة من التنوع – أو التغير – الحر(1) **free variation**.

---

(1) من أمثلة هذا التغير – أو الإبدال – الحرّ (= غير المشروط بـسياق صـوتي معـين) في العربيـة التراثيـة، مما اشتمل عليه كتاب "الإبدال" لابن السِّكِّيت (ت ٢٢٤هـ):

- (ب، م) : "العَجْم"، و"العَجْب": أصل الذَّنَب (ص٧٤).
- (ث، ف) : "الحثالة"، و"الحُفالة": قُشارة التمر والشعير (ص١٢٥).
- (ث، ذ) : "جثا" على ركبتيه، و"جذا" (ص١٠٨).
- (م، ن) : "الغيم"، والغين": السحاب (ص٧٧). =

وفى أحيان أخرى، نجد أن بعض الصور النطقية تتحقق على نحو يمكن التنبؤ به. أعنى أن الطريقة التي تُنطق بها بعض الفونيمات قد يتحكم فيها: إما الأصوات التي تحيط بها، أو موقعيتها داخل كلمات اللغة. ودونك -مثلا - فونيم الـ/p/ في اللغة الإنجليزية. فحين يقع هذا الفونيم في بداية الكلمة، يُنطق مصحوبًا بما يسمَّى بـ"الهائية" aspiration (= نفخة نَفَس). ولكنه حين يقع بعد فونيم الـ/s/، تختفي نفخة النَّفَس هذه. ويمكنك - أيها القارئ- أن تتحقق ذاتيًا من هذه الملاحظة، بأن تضع لوحًا من الورق أمام فمك، ثم تتلفظ بالكلمات الآتية: **spot** (نقطة ذات لون مخالف)، و **spill** (يريق)، و **pot** (يتقشر)، و **pill** (قِدْر معدنية أو فخارية). وستجد أنك حين تتلفظ بالكلمتين الأوليين، يظل لوح الورق على حاله ساكنًا. ولكنك حين تتلفظ بالكلمتين الأخريين (**pot** ،**pill**)، فإن نفخة النَّفَس المصاحبة لهذا التلفظ، ستحيل لوح الورق من حال السكون إلى حال الاهتزاز والتموج. وعلى ذلك، يمكننا أن نقرر باختصار أن هذا النطق الهائي $[p^h]$، ونظيره غير الهائي [p]، يمثلان صورتين نطقيتين لفونيم الـ/p/، وأن كلا منهما يقع في سياقات صوتية مختلفة ومتوقعة(1). فإذا رمنا توصيف ذلك بالمصطلحات اللسانية، فإننا نقول إن هاتين الصورتين النطقيتين هما في حالة **"توزيع تكاملي" complementary distribution**؛ من حيث إن مجموعة السياقات التي تقع فيها إحداهما تتكامل مع مجموعة السياقات التي تقع فيها الأخرى، ولا تحلّ محلّها.

= - (ت، ط) : "الأقطار"، و"الأقتار": النواحي (ص١٢٩).
- (ت، د) : "مدّ" في سيره، و"متّ" (ص١٠٣).
- (ر، ل) : سهم "أمْلط"، و"أمرط": لا ريش له (ص١١٧).
- (ل، ن) : "عنوان" الكتاب، و"علوانه" (ص٦٧).
- (ز، س) : "نَزَغَه" بسهم، و"نَسَغَه": طعنه به (١٣١).
- (ق، ك) : "امتكّ" الفصيل ما في ضرع أمه، و"امتقّه": شربه كله (ص١١٣).
- (ع، هـ) : "أَرَقْت" الماء، و"هَرَقْته" (ص٨٨).

ويلاحظ الاتحاد – أو التقارب – المخرجي بين الأصوات التي يقع بينها الإبدال. وهو الرأي المعتبر لدى القول بحصول هذه الظاهرة الصوتية. [المترجم].

(١) من الصور النطقية المطّردة في العربية: نطق بعض القبائل العربية لصوت الصاد زايًا مفخمة (كالظاء المصرية)، إذا وقعت الصاد ساكنةً وسابقة لصوت الدال (مثلا: يصْدُق ← يزْدق). وقد جاءت بها بعض القراءات القرآنية. فالزاي المفخمة تمثل- هاهنا -صورة نطقية لفونيم الصاد. ولكنها صورة نطقية مقيدة بسياق صوتي معين، فإن تخلّف، تخلّفتْ.ينظر: د. عبد الكريم جبل: الأصوات الصفيرية في القراءات القرآنية ص٥٣- ٥٥. [المترجم].

وأنوّه – بعد – بأن كثيرًا من اللسانيين في عصرنا هذا، يعتمدون وسيلةً مختصرة ودقيقة للتعبير عما سبق. وتلكم أن نَعُدّ إحدى الصور النطقية للفونيم المعنيّ هي الصورة الآصل والأهم، ثم نذكر السياقات التي يفضي توافرها في حيِّز هذه الصورة النطقية الأساسية، إلى تحولها إلى صورة نطقية أخرى. فإذا نظرنا إلى الصورة النطقية [p] على أنها الصورة الأساسية، أمكننا أن نقرر أنها تتحول إلى [p^h] في بداية الكلمة . وهذا ما يمكن التعبير عنه تعبيرًا مختصرًا، كما يلي:

$$P \longrightarrow P^h \ / \ \# \ ____ .$$

بالمعنى الآتي [من اليسار إلى اليمين]:

$P \longrightarrow P^h$ أي أن P تتغير إلى P^h	/ أي: في السياقات التالية	# ____ أي: بعد حدود كلمة ما (#) (أي في بداية الكلمة)

(الرسم التوضيحي ٥ – ١).

فإن شئت مثالا آخر، فانظر في فونيم الـ /l/ في اللغة الإنجليزية. إن لهذا الفونيم صورتين نطقيتين: إحداهما في بداية الكلمة، والأخرى في نهايتها. ففي كلمة مثل **lip** (شفة)، يوصف الصامت الأول فيها بأنه لام "مرققة" [l] **clear**. وهو ينطق بوضع طرف اللسان وراء الأسنان مباشرة، مع بقاء مؤخَّر اللسان منخفضًا إلى حد ما. وأما لدى نطق كلمة أخرى مثل **pill** (حبة دواء)، فإن طرف اللسان يظل في موضعه السابق نفسه، بيد أن وضعية مؤخَّر اللسان تتغير إلى حال الارتفاع، فينتج لنا ما يسمَّى باللام المفخمة [ɫ] **dark**. وعلى ذلك، يمثل كلٌّ من النطق المرقق [l]، ومقابله المفخم [ɫ] صورةً نطقية لفونيم الـ /l/ (١). فإذا عددنا الصورة النطقية المرققة هي الصورة الأساسية، أمكننا أن نقرر أن [l] تتحول إلى [ɫ] في نهايات الكلمات:

---

(١) "والأصل في اللام [العربية] الترقيق... [ولكن] لها حالات من التفخيم والترقيق في لفظ الجلالة (الله- اللهم). فهي تفخَّم إذا وقعت بعد فتح، أو ضم. مثل: (قال الله)، (قالوا اللهُمّ). ولكنها ترقَّق=

1 ——→ ɫ / —— #

بالمعنى الآتي [من اليسار إلى اليمين]:

1 ——→ ɫ	/	—— #
أي تتغير 1 إلى ɫ	أي: في السياقات الآتية	حين تقع قبل نهاية كلمة (#) (أي في نهاية الكلمات)

(الرسم التوضيحي ٥ – ٢).

(لاحظ أن لتوزيع هذه الصور النطقية تفاصيلَ أعقد مما اجتزأت الفقرةُ السابقة بذكره. فإذا رغبتَ في الوقوف على معلومات إضافية فى هذا الصدد، فراجع "الكتب المقترحة" بشأنه، في نهاية هذا الكتاب).

تجمعـات الأصـوات:

لا تقتصر مهمة اللساني عند حَدّ تعيين فونيمات اللغة، وتحليلها. بل يلزمه – كذلك– أن يحصُر الكيفيات التي تتجمع بها تلك الفونيمات. فلكلّ لغة تتابعاتٌ صوتية تسمح بها، وتتابعات أخرى غير جائزة.

خلاصة:
تسمح كلُّ لغة بتجمعات مختلفة من "الفونيمات".

ففي اللغة الإنجليزية – مثلا– نجد أن الكلمة التي تبدأ بثلاثة فونيمات، من نوع الصوامت، تخضع باطّراد لثلاث قواعد صارمة:

= إذا جاءت بعد كسرة، سواء أكانت الكسرة أصلية أم عارضة، كما في نحو: (بسمِ الله)... (قلِ اللهُـمّ). والكسرة في المثال الأخير كسرة عارضة؛ للتخلص من التقاء الساكنين" (د. كمال بشر: علم الأصوات ص٤٠٨). فاللام المفخمة والمرققة في نطق لفظ الجلالة، هما – إذن– في "توزيع تكاملي"؛ من حيث إن لكلٍّ سياقاتها الصوتية. [المترجم].

الأولى: أن الفونيم الأول منها يجب أن يكون الـ /s/.

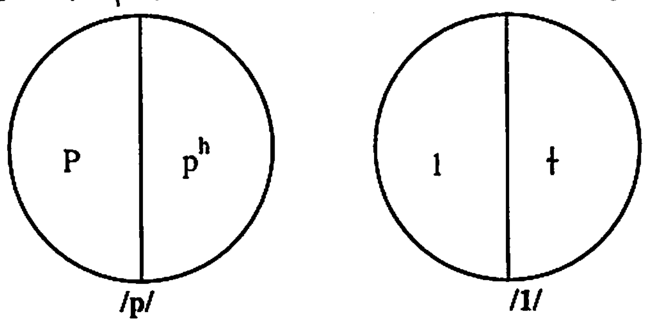
الثانية: أن الفونيم الثاني يجب أن يكون واحدًا من الفونيمات الآتيـة: /p/، أو /t/ أو /k/.

الثالثة: أن الفونيم الثالث يجـب أن يكـون - كـذلك- واحـدًا مـن الفـونيمات الآتية: /l/ ، أو /r/، أو /w/ ، أو /j/ .

وقد تحصّل من ذلك أنْ جاءت كل الكلمات التي تبـدأ بثلاثـة صـوامت، عـلى نحـو مـن **spring** (الربيـع)، أو **string** (خـيط/ وتـر)، أو **squeal** (صرخـة طويلـة حـادة)، أو **splendid** (رائـع)، أو **stew** (طعـام مطهـو بـالغلي البطـئ)، أو غيرهـا. وفى المقابل، لا نجد في اللغة الإنجليزية ألبتَّة كلماتٍ مـن مثـل: **bdling***، أو **sgtell***، أو **sbtendid***، أو نحوها [1].

السمات المشتركة للفونيمات:

اقتصر تناولنا للفونيمات -حتى موضعنا هـذا- عـلى عـدّها وحـداتٍ مـستقلةً ومنفصلة، لكل منها صورها النطقية الخاصة بها (ينظر: الرسم التوضيحى ٥- ٣).



(الرسم التوضيحي ٥ - ٣)

(١) من التتابعات الصوتية التي تخلو منها جذور اللغة العربيـة: (ث + ظ)، و(ث + ذ)، و(ث+ س)، و(ح+ غ)، و(خ+ غ)، و(س+ ص)، و (ش+ ض)، و(ق + ك)... إلخ. وذلك وفقًا للإحصاء الحاسوبي لجذور معجم "تاج العروس" للزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ). وهو أكبر معاجم اللغة العربية. وقد بلغ عـدد جـذوره وفقًا لهذا الإحصاء (١١٩٧٨) جذرًا. ينظر: د. على حلمي موسـى، ود. عبـد الـصبور شـاهين: دراسـة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام "الكمبيوتر" ص٥٣. [المترجم].

ولكننا نخطئ لو نظرنا إلى فونيمات اللغة الإنجليزية على أنها وِحْداتٌ يباين بعضُها بعضًا كلَّ المباينة، مثلما نخطئ لو نظرنا إلى أفراد أسرة ما على أنهم مختلفون كلَّ الاختلاف. فعلى الرغم من أن كل فرد في الأسرة هو شخص منفصل، يتمتع بحق أصيل في الاستقلالية، فقد يتوزَّع – في المقابل – "جيناتٍ" معينة، يشارك فيها إخوته وأخواته. وكذلك الفونيمات: تتقاسم سماتٍ مشتركة.

ودونك – مثلا: الفونيمات الإنجليزية الآتية: /p/، و /t/ ، و /b/، و /d/، و /m/، و/n/. فهي: أولا – تشترك في كونها صوامت consonatnts. ثم تشترك الفونيمات: /b/، و/d/ ، و/m/، و /n/– ثانيًا – في كونها مجهورة(١) voiced، بمعنى أن الوترين الصوتيين vocal cords يتذبذبان حال النطق بها. فإذا وضعت يدك على ما يسمَّى بـ"تفاحة آدم "، ثم تلفَّظْتَ بالكلمات bet، و dept، و met، و net، أمكنك أن تُحسّ بهذا التذبذب. وكذا تستطيع أن تشعر بتوقف هذا التذبذب، حين تصل إلى النطق بفونيم الـ /t/ الواقع في نهايات الكلمات السابقة. ثم إن الفونيمات /p/ ، و/b/، و/m/ تُوسم – ثالثًا – بأنها فونيمات شفوية labials (من الكلمة اللاتينية الدالة على الشفة 'lip')؛ من حيث اشتراكُ الشفتين في النطق بكلٍّ منها. ثم إن الفونيمين /m/ ، و/n/ يوصفان – رابعًا – بأنهما فونيمان أنفيان nasals (من الكلمة اللاتينية الدالة على الأنف 'nose')؛ لخروج هواء النفس حال التلفظ بهما من الأنف. وثمة سمات صوتية أخرى معروفة. وإذا كنا نستطيع أن نستغرق مزيدًا من الوقت في تَعداد قائمة السمات التي تتقاسمها الفونيمات، فلابد أن نلفت الانتباه – في المقابل – إلى أن اللسانيين يختلفون فيما بينهم اختلافًا جِدَّ كبير، في تقرير أى هذه السمات هو الأهم. فسمة "الشفوية" – مثلا – قد تحذف، ويستعاض عنها بمجموعة من السمات الأخرى.

ونستطيع – بعد – أن نرسم جدولا يُظهر لنا السماتِ الصوتيةَ التي يمتلكها كلُّ فونيم من هذه الفونيمات السابقة (الرسم التوضيحي ٥ – ٤)، حيث تدل العلامة (+) على وجود السمة الصوتية المعنية، وتدل العلامة (–) على غيابها:

---

(١) سيأتي للمؤلفة فضل كلام عن هذه السمات الصوتية (مجهور – مهموس...)، وعن مخارج الأصوات في آخر الكتاب، في الجزء المخصص لـ"علم الأصوات" phonetics. وكذا سيكون هنالك تعليق على حظ أصوات العربية من هذه السمات، والمخارج. [المترجم].

		/p/	/t/	/b/	/d/	/m/	/n/
consonantal	(صامت)	+	+	+	+	+	+
voiced	(مجهور)	–	–	+	+	+	+
labial	(شفوى)	+	–	+	–	+	–
nasal	(أنفـى)	–	–	–	–	+	+

(الرسم التوضيحي ٥ – ٤)

هذا، والمصطلح اللساني الأشيع توظيفًا في الدلالة على خصائص الفونيم، أو مكوناته، هو كلمة feature (سمة مميزة). وعلى ذلك، قد نقول في وصف الفونيم /n/ إنه يمتلك السمات الصوتية المميزة الآتية: صامت، مجهور، أنفي. ويلاحظ- بمقارنة الفونيمين /m/، و /n/- أن آخرهما تُعْوزه سمة "الشفوية"، وإلا لتطابقا تمام المطابقة. فسمة "الشفوية"- إذن- هي السمة التي تُفرِّق - من حيث وجودها وعدمه- بين هذين الفونيمين.

وتُسمَّى مثل هذه السمة الصوتية التي تفرق بين فونيم وآخر، بـ"السمة (الصوتية) الفارقة" distinctive feature. وحيث إن اللغات الإنسانية تتفاوت – بوجه عام– في عدد فونيماتها، فلابد أن نجد بينها تفاوتًا –كذلك– في مجموعة السمات الصوتية الفارقة. وإن كنا نلاحظ أحيانًا أن بعض اللغات المختلفة تتقاسم سماتٍ صوتيةً فارقة بعينها، ولكن في تجمعات مختلفة.

إنّ من شأن هذا الضرب من تحليل السمات الصوتية أن ييسِّر التعبير عن قواعد أية لغة.هَبْ – مثلا–أن بين يديك لغةً تُسقط الفونيمات /m/ ، و /n/ ، و / ŋ / من نهايات الكلمات في سياقات معينة. فلا شك أن صوغ القاعدة المعبرة عن ذلك كما يلي: "الأصوات الأنفية تسقُط من نهايات الكلمات" سيكون أوضح، وأخصر، من تسمية كل فونيم على حِدَة، والنصّ على أنه يسقط من نهايات الكلمات.

خلاصة:

توصف الأصوات التي تتقاسم سماتٍ صوتيةً مهمة – كمجموعة الأصوات الأنفيـة – بأنها فئة من الأصوات ذات صفات طبيعية مشتركة **natural class of sounds**.

الفونيمـات اللاقِطْعيـــة:

تتألف فونيمات اللغة الإنجليزية من كُتَل – أو قِطَع – صوتية، كفونيم الـ /b/، أو الـ /t/، أو الـ /e/. وتُعرف هذه الفونيمات، وأمثالها، بالفونيمات **القِطْعيــة segmental**. وتشتمل بعضُ اللغات الأخرى على نـوع آخـر مـن الفـونيمات، يُعـرَف بـالفونيمات **اللاقطعية non- segmental**، فضلا عن اشتمالها على النوع الأول منها.

فاللغة الصينية المندرينيــة الـشمالية[1] **Northern Mandarin Chinese**- مـثلا- تشتمل على عدد كبير مـن الكلـمات التـي لا تتمايـز إلا بـالاختلاف في النغمـة **tone**، صعودًا وهبوطًا، كما في الثنائيات الصغرى الآتية (الرسم التوضيحي ٥- ٥).



ma	(نغمة مستوية) المعنى: أُمّ.
ma	(نغمة صاعدة) المعنى: نبات القِنَّب **(hemp)**
ma	(نغمة صاعدة هابطة) المعنى: حصان.
ma	(نغمة هابطة) المعنى: سليط اللسان.

(الرسم التوضيحي ٥ – ٥)

وللغات النغمية مزية قد تأتَّتْ لها اتفاقًا. وتلكم هي قدرة الآلات الموسيقية على محاكاة نغمات كلامها، وإيقاعاته، دون أن تحاكي الصوت الإنساني نفسه. وهـذا هـو

(١) المندرينية هي أهم اللغات الصينية – وعددها سبع لغات أو مجموعات لهجية – وعدد المتكلمين بها يفوق عدد المتكلمين باللغات الصينية الأخرى، وبخاصة في شمال الصين.
ينظر: Dalby. Dictionary of Languages, pp. 126- 129. [المترجم].

أساس ما يُعرَف بالطبول الناطقة الأفريقية[1] African talking drums- أو على نحو أدقّ: الأجراس القرصية الشكل talking gongs- حيث تحاكي دقاتُ الطبول نغماتِ اللغة، وإيقاعاتها. ولكن عدم قدرة هذه الطبول - في المقابل- على محاكاة الفونيمات القِطْعية، قد جعل آليتها في إرسال الرسائل، تختلف جزئيًا عن نظيرتها المتّبعة لدى إرسال الرسائلِ عبر اللغة العادية. والرسالة الواحدة التي قد تستغرق في نقلها عبر هذه الطبول عدّة دقائق، ربما لا تستغرق سوى ثوانٍ معدودة إذا أُرسلت عبر ألفاظ اللغة. والسبب في هذا التباين أن رسائل هذه الطبول توظّف عباراتٍ برمّتها، في الموضع الذي لا توظّف فيه اللغةُ إلا كلماتٍ مفردةً. واقتفاء مثل هذه الآلية في نقل الرسائل عبر هذه الطبول، هو اختيار لا مناص منه؛ لتنكُّب الوقوع في اللبس. ففي لغة الـ" لوكال"Lokele - بدولة "الكونغو العليا"- تُستعمل كلمة ngwa للدلالة على "الكلب". والكلمة – كما ترى – تتألف من مقطع واحد، ينطق بنغمة خفيضة. ولما كانت هذه اللغة تشتمل على كثير من الكلمات التي يتألف كلٌ منها من مقطع واحد، وتُلفظ بنغمة خفيضة – كذلك- فلم يكن بُدٌّ من دقّ هذه الطبول عدة دقات، لا دقّةً واحدة أو اثنتين، بحيث تحاكي هذه الدقاتُ عبارةً برمتها، لا كلمة واحدة. وترجمتها: "كلب ضخم الجثة، حديث السن، ينبح kpei kpei". حيث يبعُد أن يكون لحن هذه العبارة مشابهًا للحن أية عبارة أخرى تدقّها هذه الطبول؛ مما يسوّغ توظيفها "عَلَمًا" على معنى "الكلب" في رسائل هذه الطبول.

الفونولوجيا العروضية:

إذا كانت اللغة الإنجليزية لا تشتمل على نغمات tones تميز بها بين معاني الكلمات، فإنها تشتمل – في المقابل – على سمات لا قِطْعية مهمة. أعني: تلك السمات التي تصحب الفونيماتِ حالَ النطق بها. وبيان ذلك: أن لكل فونيم – وكذا لكل مجموعة من الكلمات- إيقاعها[2] rhythm الخاص بها، متمثلا في تفاعل المقاطع المنبورة بنظائرها غير المنبورة. ويتميز هذا المبحث من مباحث "الفونولوجيا" بجِدّته النسبية، ويُطلَق عليه مصطلح "الفونولوجيا العروضية" metrical phonology .

---

(١) الطبول الأفريقية الناطقة: هي طبول تأخذ شكل الساعة الرملية، يجرى توظيفها لمحاكاة نغمة الكلام الإنساني. وهي تتألف من رأسين مستديرتين تربط بينهما أوتار جلدية مشدودة، تتيح للاعب عليها أن يعدّل طبقة الصوت؛ وَفق المراد. [المترجم].

(٢) سيأتي للمؤلفة فضل كلام عن "الإيقاع" rhythm في الفصل الثاني عشر (علم الأسلوب)، (ص ٣٠٥). [المترجم].

ودونك – مثالا على ذلك: الكلمات التي في الرسم التوضيحي (٥ – ٦)، حيث أُعطيت الكلمات الأكثر حظًا من النبر عددًا أكبر من النجوم، وتلك الأقل حظًا منه عددًا أقل منها (يُلاحَظ أن بعض الدارسين يترك المقاطع الأقل نبرًا عارية من النجوم؛ مما من شأنه تقليل عدد النجوم):

```
happy        happiness        unhappiness
 *   *        *   *   *        *   *   *   *
 *            *       *        *   *       *
              *                    *       *

reform        reformation
 *  *          *  *   *   *
    *          *      *   *
    *          *      *
                      *
```

(الرسم التوضيحي ٥ – ٦).

خلاصة:

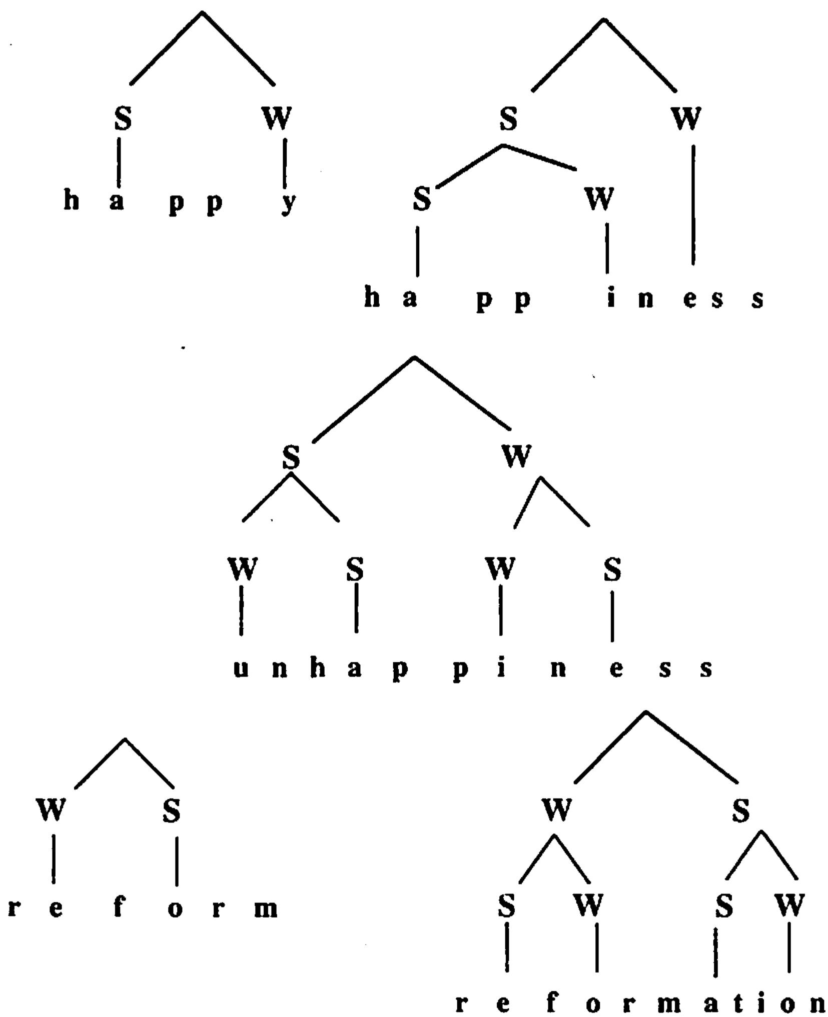
تشتمل اللغة الإنجليزية – شأنها في ذلك شأن كثير من اللغات الأخرى– على قالب عروضي يتفاعل مع الأصوات.

وليس يُهمنا هاهنا كميةُ النبر الفعلية الدقيقة المعطاة للمقاطع. وإنما يُهمنا الكمية النسبية المعطاة لكل منها. ففي كلمة **happiness** – مثلا– يلزمنا أن نُوقع القدر الأكبر من النبر على (**–hap**)، وأن نوقع القدر الأقل على (**-pi-**).

ولكن هذا الإيقاع ليس مجرد تتابع لمستويات مختلفة من النبر، بل يبدو أن له بنيةً داخلية، يمكن تمثيلها في رسم تخطيطي شجري، يُظهر البنية الكلية للإيقاع، على نحو أفضل مما تظهره تلك الشبكة المتعامدة من النجوم (وُصِف هذا الرسم بالشجري؛ لأن فروعه تشبه الشجرة المقلوبة). إن هذا الرسم الشجري يُظهر لنا (عملية) تناوب المقاطع القوية، والأخرى الضعيفة، على بنية الكلمة. ويُظهر لنا – كذلك– أن كل مقطع يمكن أن يُعَدّ قسمًا فرعيًا من وحدة أكبر، تُسمَّى أحيانًا بـ"التفعيلة" [1] **foot**.

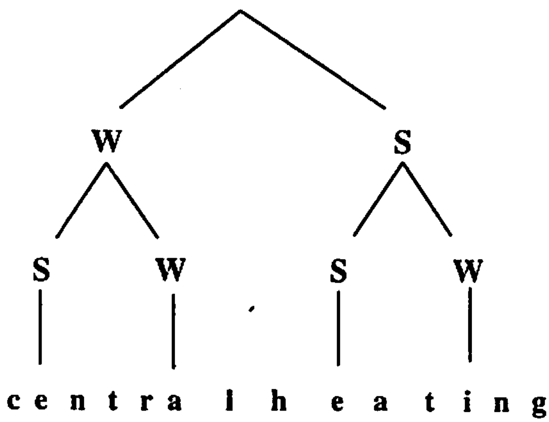
(١) سيأتي للمؤلفة فضل كلام عن "التفعيلة" foot، في الفصل الثاني عشر (علم الأسلوب) (ص٣٠٥). [المترجم].

لقد قُسّمت الكلمات في الرسم التوضيحي (٥ – ٧) إلى قسم قويّ يرمز له بالرمز (s)، أخذًا من كلمة srtong، وقسم آخر ضعيف يرمز له بالرمز (w)، أخذًا من كلمة weak. كما يُظهر الرسم- أخيرًا- أن كلا من هذين القسمين قد يتفرع بدوره إلى أقسام أخرى إضافية.



(الرسم التوضيحي ٥ - ٧)

وليس يتصف إيقاعُ الكلمات الذي لخصناه آنفًا بالثبات. أعني أنـه قـد يتغـير حـين تتحول الكلمات من حال الانفراد، إلى حال التركيـب بعـضها مـع بعـض. فمـثلا: تبـدو الكلمتان **central** و **heating** متشابهتين إلى حدّ ما، حـين ننطـق بكـل مـنهما عـلى حِـدَة. ولكننا حين ننطق بهما متجاورتين- كما في عبارة **central heating** (تدفئة مركزية)- يتغير الإيقاع، حيث يقع النبر الأقوى على كلمة **heating** (الرسم التوضيحي ٥ – ٨).



(الرسم التوضيحي ٥ – ٨).

إن الـدرس الفونولـوجي المعـاصر لا يُعنَـى بدراسـة التفاعـل بـين الكلـمات فحسْب، بل يُعنَى – كذلك – بدراسة التفاعل بـين الوحـدات الـصوتية، والإيقـاع. فمثلا: نجد – كما عليه الحال في الشعر – أن الحركات الطويلة ترتبط بالمقاطع القويـة. وكذا الحركات القصيرة المتبوعة بصامتين ترتبط بتلك المقـاطع القويـة. ويأمـل علـماء "الفونولوجيا" على المدى البعيـد، أن يـصلوا إلى إطـار عـالمي يـصلُح لمعالجـة البنيـة الإيقاعية لأية لغة.

لقد بحث هذا الفصلُ – إذن- في الكيفية التي يعالج بها علماءُ اللسانيات البنيةَ الصوتية للغة. وهذه البنية هي الجانب الأول الذي يواجه أيَّ لسانيّ يـشتغل بدراسـة لغة غير مكتوبة. وقد كشفتْ ممارسة هذا الضرب من الدرس عن أن (عملية) تصنيف مكونات البنية الصوتية للغة، تتداخل مع (عملية) تحليل وحدات لغويـة أكـبر، مثـل الكلمات. وهذه الكلمات بأجزائها هي موضوع فصلنا الآتي.

فلنتذكـر:

- تزوّدنا الألفبائية الصوتية العالمية (**IPA**) برموز تمثّل أصوات أية لغة.
- تشتمل كلُّ لغة على مجموعة من الأصوات الأساسية، تُعرَف بـ"الفونيمات".
- تُعرَف أزواج الكلمات التي لا تختلف إلا في "فونيم" واحد بـ"الثنائيات (اللغوية) الصغرى".
- لبعض "الفونيمات" صورٌ نطقية متنوعة، تُعرَف بـ"الألوفونات".
- تسمح كلُّ لغة بتجمعات مختلفة من "الفونيمات".
- تشترك بعض "الفونيمات" في بعض السمات النطقية.
- تُعرَف السمة النطقية التي تفرّق بين فونيم وآخر، بأنها "سمة نطقية مميزة" **distinctive feature.**
- تتألف "الفونيمات" عادة من "قِطَع" صوتية. ولكن بعض اللغات تشتمل على فونيمات غير قِطْعية.
- للكلمات في اللغة الإنجليزية إيقاعها الخاص. وهذا الإيقاع هو محصّلة تفاعل المقاطع المنبورة، والمقاطع غير المنبورة.
- تعيين هذه "الإيقاعات"، وتخطيطها، هو ما يُعرَف بـ"الفونولوجيا العروضية".

٦

الكلمات وأجزاء الكلمات

يبحث هذا الفصلُ في المشكلات التي واجهتْ علماء "اللسانيات"، لدى محاولاتهم تعريف المصطلح الغائم 'word' (الكلمة)، وتعيين هُوِيَّته. ثم يناقش مسألة تحديد "المورفيمات" morphemes (أجزاء الكلمات)، ووَصْفها، وتصنيفها. ثم يبحث - أخيرًا- في الكيفية التي يمكن بواسطتها تسكين الكلمات في أنواع "word classes' (= أقسام الكلام parts of speech).

يتميز مفهوم "الكلمة" بأنه من المفاهيم المعروفة الذائعة بين الناس. فقد وقف اللسانيون على أن بمقدور الرواة اللغويين informants- حتى في الحضارات البدائية - أن يتعرفوا على الكلمات. ويثير هذا الأمر قدرًا من الدهشة، والإحساس بالمفارقة، حين نعلم أنه لم يسبق لأحد قطّ أن اقترح تعريفًا عالميًا مرضيًا لمفهوم "الكلمة"، أو قدَّم منهجًا صائبًا مطّردًا للتعرف عليها، وتعيين حدودها، بحيث لا يوجد ما ينقُضه من الأمثلة في اللغات المختلفة. ويفترض بعضُ الناس خطأً أنه يمكن إدراك الكلمات - أو تمييزها- على هَدْى من فرضية أن الكلمة تمثل "قِطْعة واحدة مستقلّة من المعنى". ويمكنك البرهنة بسهولة على خطأ وجهة النظر هذه، حين تلفت إلى عدم وجود تطابق بين الكلمات في اللغات المختلفة. فمثلا: نجد أن الكلمات الإنجليزية الثلاث cycle repair outfit (شركة إصلاح دراجات هوائية/ بخارية) تطابق كلمةً ألمانية واحدة: fahrradreparaturwerkzeuge. وكذا تُترجَم الكلمات الإنجليزية الست التالية: He used to live in Rome (تعود على أن يعيش في "روما")، إلى كلمتين اثنتين فقط في اللغة اللاتينية، هما: Romae habitabat. بل حتى في اللغة الإنجليزية وحدها، نجد أن كلمة مثل walked تتضمن قطعتين مستقلتين من المعنى على الأقل، هما: walk، والزمن الماضي.

خلاصة:

على الرغم من ذيوع مصطلح "الكلمة"، فثمة صعوبة جِدٌّ كبيرة في تعريفه تعريفًا جامعًا مانعًا.

وفصلنا هذا معنيّ بمعالجة هذه المسألة. وهو يبحث – أولا – في مشكلات تعريف "الكلمة"، والتعــرف عليها، أو تعيين حدودها. ثم يدرس –ثانيًا– أجزاء الكلمات، أو "المورفيمات" **morphemes** .

تعريف الكلمة:

ثمة تعريفات كثيرة لـ"الكلمة". ولعل أشهرها هو ذلك التعريفُ الذي اقترحه اللساني الأمريكي "بلومفيلد"[١٨٧٨ – ١٩٤٩م]. ونصُّه: "الكلمة هي الوحدة اللغوية الصغرى الحرة". أي أنها أصغر وحدة لغوية يمكن أن توجد مستقلّةً بنفسها. ولا شك – بعد– في أن هذا تعريف غير مرضٍ؛ إذ إن الكلمات لا تأتى عادة مستقلّةً بنفسها في الكلام المنطوق. وحتّى حين تَسأل سُؤالا بسيطًا، ستجد الردَّ الصوتي عليه يتطلب غالبًا ما هو أكثر من كلمة واحدة، من مثل:

Who did that? John did.

What's that? An oak tree. (شجرة بلوط)

وفضلا عن ذلك، نجد أن الكلمات التي ينطبق على كلٍّ منها وَصْفُ "الكلمة" انطباقًا جليًا، لا تأتى مستقلة بنفسها إلا في سياقات نـادرة، من مثل إجابة السؤال التالي: **'what does a-n-d spell?'**.

إن تعريف "بلومفيلد" للكلمة يبدو أكثر أليقية باللغة الإنجليزية المكتوبة، حيث نترك مسافة على كل من جانبي الكلمة المكتوبة، حَسَبَ ما هو مقرر معروف. ولكن اللسانيين يُعْنَوْن في المقام الأول بالكلمة المنطوقة، لا المكتوبة. وهما لايتطابقان بالضرورة. فمثلا: نجد أن اسم نوع بعينه من الثعابين – وهو **boa constractor**

(الأَصَلة العاصرة)(1) - يُكتب على أنه كلمتان، لا كلمة واحدة. وكذا نجد أن **seaside** (شاطئ البحر) تبدو كلمة واحدة، في حين تُكتب **sea shore** - بالمعنى نفسه - في صورة كلمتين. ولا تفسير لهذا، أو ذاك، إلا المصادفة المحضة.

والسؤال - بعد: لماذا وجد اللسانيون أن ثمة صعوبةً كبيرة تحول دون الوصول إلى تعريف مرضٍ لمفهوم "الكلمة"؟ ربما تكون الإجابة على هذا السؤال أن ثمة عدة أنواع من الكلمات، لا نوعًا واحدًا. وتأمل معي المقطوعة الشعرية المقفاة الآتية:

A flea and fly in a flue

(بَرْغوث وذبابة في مِدْخَنة)

Were imprisoned, so what could they do?

(حُبسا، فماذا يفعلان؟)

Said the flea: 'let us fly'.

(قال البرغوث: "فلنطِرْ")

Said the fly: 'let us flee'.

(وقالت الذبابة: "فلنهرب").

So they flew through a flaw in the flue

(وعلى ذلك، فقد طارا من خلال شَقّ في المدخنة).

فهذه المقطوعة الشعرية المقفّاة تشتمل - في المستوى الأبسط - على ثلاث وستين كلمة مكتوبة. ولكن بعض هذه الكلمات مكرر. فإذا قررنا أن نتجاوز عن تلك الكلمات المكررة، وأن نحصي عدد الكلمات المختلفة (أو بالمصطلحات الفنية: أن نحصي أنواع الكلمة **word types**، لا أمثلتها **word tokens**)، فستواجهنا مشكلاتٌ متنوعة. فمثلا: هل ستُعامَل الكلمتان **fly** (ذبابة) (حال كونها اسمًا)، و **fly** (يطير)

---

(1) هي نوع من ثعابين أمريكا الجنوبية، يتميز بطوله البالغ، وقوامه المتكتنز، وبقتله للحيوانات بالالتفاف عليها، ثم الضغط عليها ضغطًا شديدًا كالعصر. [المترجم].

(حال كونها فعلا) في هذا الإحصاء على أنهما كلمة واحدة؛ من حيث إنهما يبدوان متماثلين، أم هل سيعاملان على أنهما كلمتان مختلفتان؛ لأن لهما معنيين مختلفين؟ وهل سننظر إلى الكلمتين **fly** (يطير) و **flew** (طار) على أنهما كلمة واحدة؛ لأنهما يتعلقان بنفس الفعل، أم هل سنعُدّهما كلمتين مختلفتين؛ لأن لهما صيغتين مختلفتين؟ إن هذه المشكلات، وأمثالها، لا يمكن أن نقف لها على حلّ مناسب، إلا إذا حددنا نوع الكلمة الذي نقصده، من بين أنواعها المتعددة. وفى هذا الصدد يلزم أن نفرّق بين كلٍّ من: الوحدات المعجمية **lexical items**، والصيغ الصرفية والنحوية (أو الإعرابية) للكلمات **syntactic words**، والأشكال الفونولوجية لها **phonlogical words**.

فإذا كان مقصودنا بالكلمة هو الوحدة المعجمية - وهو المصطلح الفني للمدخل المعجمي **dictionary entry**- فإن التابع الصوتي **/flaɪ/ 'fly'** يمثل كلمتين، من حيث إن معظم المعاجم تشتمل على مدخلين منفصلين لكلمة **fly** حالة كونها اسمًا **noun** (ويرمز له بـ **N**)، وكلمة **fly** حالة كونها فعلا **verb** (ويرمز له بـ **V**)، على النحو الآتي:

fly N : حشرة ذات جناحين

fly V : يتحرك في الهواء بطريقة منظمة

وربما يكون هذا هو الاستعمال الأساسي – وكذا الأكثر تجريدًا - لكلمة **'word'**. ولكننا نجد –كذلك– أن لكلٍّ من هاتين الوحدتين المعجميتين صيغًا صرفية ونحوية متعددة. فاللفظ الدال على "الحشرة" يمكن أن يتجسد في هيئة **fly** (أي صيغة الإفراد)، أو في هيئة **flies** (أي في صيغة الجمع). كما يمكن للفعل الدال على "الطيران" أن يتجسد في صيغ (نحوية) متعددة كذلك، مثل: **fly**، و **flying**، و **flies**، و **flew**، و **flown** . وعلى ذلك، فإذا تعاملنا في الإحصاء مع الصيغ الصرفية والنحوية للكلمة الواحدة على أنها كلمات مختلفة، فسوف يتزايد العددُ الإجمالي تزايدًا ملحوظًا (الرسم التوضيحي ٦-١).

Lexical items (الوحدات المعجمية)	Syntactic words (الصيغ الصرفية والنحوية)
fly N (اسم)	fly flies
fly V (فعل)	fly flying flies flew flown

وثمة مشكلة إضافية تجابهنا لدى التعامل مع وحدات معجمية مثل **flaw** (شَقّ/ صدْع). وبيان تلك المشكلة أن لهذه الوحدة المعجمية صيغتين صرفيتين، هما: **flaw** في حال الإفراد، و **flaws** في حال الجمع. ولكن صيغة الإفراد هذه تتحقق بدورها في تتابعين صوتيين مختلفين، هما: / **flɔ:** / قبل الصوامت، و / **flɔ:r** / قبل الحركات (الرسم التوضيحي ٦ - ٢)، كما في المثالين الآتيين:

The flue had a flaw/flɔ:/ which allowed the fly to escape.

There was a flaw/flɔ:r/in the flue.

الوحدة المعجمية	صيغها الصرفية	صيغها الفونولوجية
flaw N (اسم)	flaw	/flɔ:/
		/flɔ:r/
	flaws	/flɔ:z/

(الرسم التوضيحي ٦-٢)

إن هذه الأمثلة ، ونحوها، تظهر لنا أننا لا يجب أن نتوقع وجود تطابق تام بين الأنواع المختلفة للكلمة. بل إننا نجد الحال في لغات أخرى أعقدَ بكثير مما هو عليه في اللغة الإنجليزية. ففي اللغة اللاتينية – مثلا- نجد أن للوحدة المعجمية **rosa** (='**rose**') اثنتي عَشْرةَ صيغةً صرفية ونحوية (أو إعرابية) مختلفة. وفي اللغة "الويلزية" **Welsh**، نجد أن الصامت الاستهلالي في كل كلمة يتنوع تنوعًا منضبطًا مطّردًا، يعتمد – في المقام الأول- على الصوت السابق له.فالكلمة الدالة على "الأب" **father** في هذه اللغة، قد تكون: **tad**، أو **dad**، أو **thad**، أو **nhad**. والسطور الشعرية الأخيرة من ترنيمة ويلزية مشهورة تشتمل على ثلاث صيغ مختلفة للفعل الذي بمعنى **sing**، وهي: **canu**، و **ganu**، و **chanu**. كما أن ثمة إمكانيةً رابعة- هي **ghanu**- بيد أن هذه الترنيمة قد أسقطَتْها.

خلاصة:
ترجع صعوبةُ تعريف مصطلح "الكلمة" إلى وجود أنواع مختلفة من الكلمات.

التعرف على الكلمات (أو تعيينها):

يلزم أيَّ لسانيّ يشتغل بدراسة لغة غير مكتوبة، أن يحدد هذه الأنواع المختلفة للكلمة. وثمة مرحلتان أساسيتان لابد من استيفائهما؛ لإنجاز تحليل لغوي يقودنا إلى تحديد هذه الأنواع. المرحلة الأولى: اكتشاف"كِسَر" هذه اللغة، من مثل **fly**، و **flew** ، وغيرهما من "الكِسَر" التي يتكرر وجودها بوصفها وحداتٍ مستقلةً بنفسها، وتامة المعنى. المرحلة الثانية: أن نقرر عدد الوحدات المعجمية التي تغطيها كل "كِسْرة" من هذه "الكِسَر"، كما هو الشأن مع **fly** التي تغطي وحدتين معجميتين (ذبابة/ يطير). ثم إن علينا أن نعكس الأمر، فنقرر عدد "الكِسَر" المختلفة التي تتعلق بنفس الوحدة المعجمية، كما هو الشأن بالنسبة لـ **fly** و **flew** (يطير/ طار)، حيث تتعلق عدة صيغ نحوية وصرفية مختلفة بوحدة معجمية واحدة.

وحتى نُنجز المرحلة الأولى- أعني اكتشاف "الكِسَر" التي تُستعمل بوصفها وِحْداتٍ مستقلة- فلا مَعْدَى لنا عن أن نبحث عن التتابعات الصوتية التي تتميز- من

جهة- بعدم قابليتها للتجزؤ بحيث يتخللها تتابع آخر، وتتميز- من جهة ثانية- بقابليتها للتحريك هنا وهناك. وتوفِّر لنا هذه المنهجيةُ في اكتشاف الوحدات اللغوية الصغيرة دليلا هاديًا مفيدًا، في كثير من اللغات. فمثلا: نقف على أن التتابع الصوتي chickens لا يمكن أن يتخلله تتابعٌ آخر. فلا يمكن أن نقول- مثلا: -chick-little* ens، ولا أن نقول: chicken-little-s*. وفضلا عن ذلك، يمكن لهذا التتابع أن يتحرك عن موضعه، فيوجد إلى جوار كلمات أخرى، وفي مواقع مختلفة من جمل اللغة المعنية. كما في قولنا: chickens lay egges (الدجاج يبيض)، و foxes eat chickens (الثعالب تأكل الدجاج)، و the chicken clucked loudly (الدجاج صاح بصوت عالٍ)، وغيرها.

خلاصة:

يترجح أن تكون الوحدات اللغوية التي لا تقبل أن تتخللها وحداتٌ لغوية أخرى، وتقبل التحريك من موقع تركيبي إلى آخر - يترجح أن تكون وحداتٍ لغويةً مستقلة ذاتَ صيغ صرفية ونحوية (أو إعرابية) مختلفة.

فإذا أردتَ مثالا آخر، فدونك الآتي: هَبْ أننا قد صادفنا التتابع الصوتي الآتي: greentrousers، ثم أردنا أن نتبين: أهو كلمة واحدة أم أكثر من كلمة؟ سوف نبدأ بالبحث عن الجمل التي تشتمل على أي جزء من هذا التتابع. وقد يُسفر هذا عن العثور على ما يلي:

Green leather trousers (بنطال جلد أخضر)، و Red trousers (بنطال أحمر)، و Green shirts (قمصان خضراء).

إن المثال الأول يكشف عن أن هذا التتابع يمكن أن تشطُره تتابعاتٌ أخرى، مثل كلمة leather. وهذا ما يدل على أننا قد نكون بإزاء كلمتين على الأقل، هما: green، و trousers. ويتعزّز هذا الظنُّ حين نلاحظ أن كلا من green، و trousers يقع مع كلمات أخرى. وحيث إن كلا منهما يبدو غير قابل للتخلل بتتابعات أخرى - فنحن لا نقول مثلا: trous - green- erse*- فإننا نرجح أن كلا منهما يمثّل كلمةً مستقلة.

وفي نهاية هذه المرحلة الأولى من التحليل، نكون قد وقفنا على قائمة أولية بـ"كلمات" اللغة. ولكننا قد نكون جمعنا في هذه القائمة بين وحدات معجمية مختلفة؛ لأنها بدت لنا متماثلة في أصواتها (homonyms)(١). وربما نكون - في المقابل - قد فصلنا بين صيغ صرفية ونحوية مختلفة، في حين أنها ترجع - في الحقيقة - إلى نفس الوحدة المعجمية.

فإذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية من مراحل التحليل(٢)، لزمنا - حتى نُنجزها - أن ندرس المسلكَ النحوي والصرفيَّ لما رجحنا أنها "كلمات". أعني أن ندرس دورها في البنية النحوية والصرفية العامة للغة. فمثلا: سيتكشف لنا بجلاء أن كلمة **fly** الاسمية تتباين في مسلكها التركيبي عن كلمة **fly** الفعلية؛ من حيث إن كلا منهما ستناسبه موقعياتٌ مختلفة في مثل الجملتين:

The fly buzzed. (الذبابة طنت)

Birds fly. (الطيور تطير)

وفي المقابل، سينتهي بنا النَّظرُ في مسلك كلٍّ من **fly**، و **flew**، إلى تبيّن أن بينهما قدرًا من التماثل، من حيث إنهما يصلحان للوقوع في نفس المواقع التركيبية، من مثل:

They fly home on Sunday. (سيعودون إلى وطنهم يوم السبت)

They flew home on Sunday. (عادوا إلى وطنهم يوم السبت)

---

(١) يستعمل مصطلح homonomy (مشترك التعدد في اللفظ) في اللسانيات الغربية للدلالة على (أ) وجود كلمتين متماثلتين هجاء ونطقًا، ولكنهما متباينتان معنى، من مثل: bank (المؤسسة المالية)، و bank (ضفة النهر). وللدلالة على (ب) وجود كلمتين هجاؤهما واحد، ولكنهما متباينتان نطقًا ومعنى، من مثل: led/lead/ (معدن الرصاص)، و lead /li:d/ (مِقْوَد الكلب). وللدلالة (جـ) على وجود كلمتين متماثلتين نطقًا، ولكنهما متباينتان كتابة ومعنى، من مثل: meet (يقابل)، و meat (طعام/ لحم).
ينظر: Lyons. Introduction to Theoretical Linguistics. p. 405.
Jackson. Words and Their Meaninig. p. 4. [المترجم]

(٢) تعني: مرحلة تقرير عدد الوحدات المعجمية التي تغطيها كل "كِسْرة" من "كِسَر" اللغة، مثل fly التي تغطي وحدتين معجميتين (ذبابة- يطير)، وتقرير عدد "الكِسَر" المختلفة التي تتعلق بنفس الوحدة المعجمية، كما هو الشأن في fly (يطير)، و flew (طار). وهما صيغتان تصريفيتان لنفس الوحدة المعجمية. [المترجم].

ثم إن المسلك التركيبيَّ لهذه الصيغ المختلفة قد يُكمله تحليلٌ آخر لمكوناتها، أو بعبارة أخرى: تحليل للمورفيمات التي تتألف منها. فتعالوا – إذن- نواصل الدرس، فننظر في بعض الجوانب الأساسية لـ"علم المورفيمات"[= علم الصرف] **morphology**.

المورفيمات:

المورفيم هو أصغر وحدة لغوية: صرفية، أو نحوية. وتتفاوت المورفيمات في أحجامها. ولا تَرِفِدنا المقاطع، ولا مقدار الطول، بأي دليل هادٍ في مسألة تعيين المورفيمات. والمعيار الرئيسي في هذا الصدد هو عدم قابلية المورفيم للانشطار إلى وحدات صرفية، أو نحوية، أصغر. ويقدم لنا الرسم التوضيحي (٦-٣) جملة تشتمل على أَحَدَ عَشَرَ مورفيًا:

the	sleep	walk	ing	albatross	chant	ed	a	dream	y	lullaby[1]
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11

(الرسم التوضيحي ٦-٣).

فكلٌّ من **The**، و **albatross** (طائر القَطْرس)، و **a**، و **lullaby** (أغنية تُغرى الطفل بالنوم)، يجسِّد مورفيًا مستقلا بنفسه؛ من حيث إن بنية كلٍّ منها لا يمكن أن تنقسم – صرفيًا أو نحويًا- أيَّ انقسام إضافي آخر. فمثلا: لا نجد لأي من **alba** أو **tross**، دورًا آخر تؤديه في البنية النحوية، أو الصرفية، للغة الإنجليزية. فهما لا يأتيان في هذه اللغة إلا بوصف كلٍّ منهما جزءًا من الوحدة اللغوية المستقلة بنفسها **albatross**. وفى المقابل، نجد أن كلا من التابعين الصوتيين **chanted** (ترنَّم) و**dreamy** (حالمة)

(١) "طائر القطرس – ذلك السائر نائمًا – ترنم بأغنية حالمة". هذا، وقد سبق التعريف بهذا الطائر في الفصل الثاني (ما هي اللغة؟) (هامش ص ٦٣). [المترجم].

يتألف من مورفيمين. فالتتابع الصوتي **chant** يـأتي في كلـمات أخـرى مثـل **chanting**، و**chants**. كما أنه - هو نفسه- يجسّد كلمةً مستقلة. وكذا يأتي التتابع الـصوتي (**-ed**) في كلمات أخـرى، مثـل: **wanted**، و **batted** (ضرب الكـرة[بالمـضرب])، وَهَلُـمَّ جَـرًّا. وبالمثـل، نجـد أن التتـابع الـصوتي **sleep-walking** (الـسائر نـائمًا) يتـألف مـن ثلاثـة مورفيمات؛ لأن كلا من **sleep**، و **walk**، و(**ing**) يقع في سـياقات أخـري داخـل هـذه اللغة. ولا يوجد- من الناحية النظرية- حَـدٌّ أقـصى لعـدد المـورفيمات التـي يمكـن أن تتألف منها الكلمةُ الواحدة. فكلمة **antidisestablishmentarianism** - مثلا- تشتمل على ستة مورفيمات على الأقل، هي:

anti- dis- establish- ment- arian- ism.(1)

التعرف على المورفيمات:

يُعيّن علماء "اللسانيات" مورفيمات اللغة محلِّ الدرس، عبر المقارنة بين مجموعة كبيرة متنوعة من ألفاظ تلك اللغة.وتتركز تلك المقارنـةُ عـلى الألفـاظ المتماثلـة تمـاثلا جزئيًا، من مثل ما يلي (الرسم التوضيحي ٦-٤):

The	**dinosaur**	**sniff-ed**	**arrogant-ly**	**and**	**plodd-ed**	**for-wards**(2)

---

(١) في Oxford Advanced Learner's Dictionary (Appendix3) أن (-anti) سابقة للتعبير عن المقاومة - أو المعنى المناقض لآخر، وأن(ment -) لاحقة تلحق بالأفعال لتحويلها إلى أسماء تـؤدى الحـدث الـذي تعبر عنه هذه الأفعال، وأن (arian -) لاحقة للتعبـير عـن الممارس لأمـر (أو المؤيـد لـه)، وأن (ism -) لاحقة للتعبير عن مذهب، أو عقيدة، أو حركة (سياسية/ اجتماعية...).

وعـلى الموقـع http://www.thefreedictionary.com أن (كلمـة) antidisestablishementarianism تُستعمل للتعبير عن الموقف السياسي المعـارض للاتجـاه الـداعي إلى سـحب اعـتراف الدولـة بالكنيسـة الرسمية (=establishment). وأن هذه (الكلمة) تُستعمل عادةً للإشارة إلى كنيسة بعينها، هـى الكنيسـة الإنجيلية في بريطانيا، في القرن التاسع عشر. [المترجم].

(٢) "الديناصور تنشَّق [الهواء] بعجرفة، ثم تهادى للأمام". [المترجم].

The	dinosaur	Grunt-ed	loud-ly	and	edg-ed	back-wards[1]

(الرسم التوضيحي ٦ - ٤)

خلاصة:

يمكن تمييز "مورفيات" اللغة، والوقوف عليها، من خلال النظر في التماثل الجزئي الحاصل بين مكونات الكلمات المختلفة.

فالتماثل الجزئي بين **sinffed**، و **grunted**، و **plodded**، و **edged** يتيح لنا أن نعزل – وكذا نميِّز– التتابع الصوتي (-ed). كما يتيح لنا التماثُل الجزئيّ بين **arrogantly**، و **loudly**، وبين **backwards** و **forwards** أن نعزِل – وكذا نميِّز– التتابعين الصوتيين: (-ly)، و(-wards)[2] .

وفى اللغة التركية، نجد أن التشابه بين **adamlar** (بمعنى: رجال)، و **kadinlar** (بمعنى: نساء)، يتيح لنا أن نميز اللاحقة الدالة على الجمع في اللغة التركية. وهى(-lar). وكذا أن نحدد الكلمة الدالة على الرجل: **adam**، والدالة على المرأة: **kadin**. وفى اللغة السواحلية[3] نجد أن التطابق الجزئي بين:

nitasoma ⟶ (سوف أقرأ)

nilisoma ⟶ (قرأتُ)

---

(١) "الديناصور نَخَر بصوت عالٍ، ثم تراجع للخلف". [المترجم].

(٢) في Macmillan English Dictionary أن اللاحقة (-ly) تلحق ببعض الصفات للتعبير عن الكيفية وتكوين الظروف adverbs (أو الأحوال). وأن (-wards) لاحقة تلحق ببعض الأسماء والصفات للتعبير عن الوجهة أو الاتجاه. [المترجم].

(٣) سبق التعريف باللغة السواحلية في الفصل الرابع (من أين نبدأ؟)، (هامش رقم ١ من ص ٩٢). [المترجم].

utasoma ⟶ (سوف تقرأ)

ulisoma ⟶ (قرأتَ)

يتيح لنا أن نعيِّن –وكذا نميِّز– كلا من: (soma) بمعنى: يقرأ، و (ni) بمعنى: أنا، و(u) بمعنى: أنت، و (ta) للدلالة على الزمن المستقبل، و (li) للدلالة على الزمن الماضي.

وليس ينبغي أن يُظَن- بعد- أن كل المورفيمات تقبل التجزئة بهذا القدر من السهولة، الذي كشفتْ عنه الأمثلة السابقة. ولكننا نقرر أن هذه المنهجية في تعيين المورفيمات- أعني: منهجية المقارنة بين الألفاظ المتماثلة جزئيًا- تمثل المنهجية الأساسية التي لامَعْدَى عنها في هذا الصدد.

أنواع المورفيمات:

توصف المورفيمات التي من مثل: albatross، و chant، و lullaby- أعني تلك التي يمكن أن تقوم بنفسها، كلماتٍ مستقلةً- بأنها مورفيمات حرة free. وأما تلك المورفيمات التي من مثل: (-anti)، و (ed-)، و (ly-)- أعنى تلك التي لا يمكن أن تستقلّ بنفسها، بل لابد أن تأتي متصلةً بغيرها- فتوصف بأنها مورفيمات مقيدة bound. ثم إن هذه المقيدة تنقسم بدورها إلى نوعين أساسيين، تتضمنهما الجملة الآتية، فتأملها:

The owl look-ed up at the cloud-y sky.

(البومة شخصت بناظريها إلى السماء الغائمة)

فالكلمتان: looked، و cloudy، تبدوان ظاهريًا مؤلفتين من مكونات متشابهة؛ إذ يتألف كلٌّ منهما من مورفيم حر، يتلوه آخر مقيد. بيد أن حقيقة الأمر بخلاف ذلك؛ إذ إن بين المورفيمين المقيدين في هاتين الكلمتين اختلافًا في النوع. فالمورفيم المقيد (ed-) الواقع في نهاية كلمة look، يوصف بأنه مورفيم تصريفي inflectional؛ من حيث إنه يزوّدنا بمعلومة إضافية بشأن الوحدة المعجمية المتصلة به. وتلكم هي أن حَدَثَ "النظر" قد وقع في "الزمن الماضي". ومن أمثلة المورفيمات التصريفية الأخرى: مورفيم الجمع، كما في owls، ومورفيم الملكية، كما في قولنا: Peter's car.

وفى المقابل، نجد أن المورفيم (y-) الواقع في نهاية كلمة **cloudy**، يشتغل على نحو يختلف قليلا عن سابقه. وهو يوصف بأنه مورفيم اشتقاقي **derivational**. ويُعرَّف بأنه المورفيم الذي يفضي وجوده إلى خَلْق كلمة تامة الجِدّة.فالكلمتان: **cloud**، و**cloudy** تشتغلان في بنية اللغة الإنجليزية على نحو جِدٍّ مختلف، وتأتيان في مواقع تركيبية متباينة. ومن الأمثلة الأخرى للمورفيمات الاشتقاقية: مورفيم [1] (- **ness**، كما في **happiness** (سعادة)، ومورفيم[2] (- **ish**)، كما في **greenish** (مائل إلى الخضرة)، ومورفيم [3](**-ment**) ، كما في **etstablishment** (تأسيس/ مؤسسة).

ويسهل علينا في غالب الأحيان أن نميِّز بين ما هو تصريفي وما هو اشتقاقي من تلك المورفيمات. وأهم مفتاح لذلك هو أن النهايات التصريفية **inflectional endings** لا تغيِّر المسلك التركيبيَّ لأية وحدة لغوية، تغييرًا ذا شأن. فالكلمة تظلّ – بعد إضافة أي من النهايات التصريفية إليها- صالحة للوقوع في نفس المواقع التركيبية التي كانت تصلح لها قبل هذه الإضافة. وأما النهايات الاشتقاقية **derivational endings**، فتخلق كلماتٍ تامةَ الجِدّة. وفضلا عن ذلك، يمكن للنهايات التصريفية أن تضاف إلى أخرى اشتقاقية، بيد أن العكس لا يحدث. فنحن نجد كلماتٍ من مثل **-establish ment-s** ولكننا لا نجد **establish-s-ments**.

وتشتمل اللغة الإنجليزية على عدد قليل نسبيًا من المورفيمات التصريفية. وعلى الرغم من سهولة تعيين هذه المورفيمات في مجملها، فإنها تنطوي أحيانًا على مشكلات في التحليل، على ما سنناقش توًّا.

---

(١) في Macmillan English Dictionary أن اللاحقة (-ness) تلحق ببعض الصفات لتكوين أسماء تعبر – فيما تعبر – عن حالة ما state. [المترجم].

(٢) في المعجم السابق، أن اللاحقة (-ish) تلحق – فيما تلحق – ببعض الصفات للتعبير عن تحقّقها إلى حد ما، وببعض أسماء الأماكن أو البلدان للتعبير عن الاتصاف بالانتساب إليها (Swedish: سويدي). [المترجم].

(٣) تدخل اللاحقة (-ment) على بعض الأفعال؛ لتحويلها إلى أسماء تؤدى الحدث الذي تعبر عنه هذه الأفعال، على نحو ما سبق ذكره في (هامش ١ من ص ١٣٤) من هذا الفصل. [المترجم].

الألومورفــات:

في بعض الأحيان، يكون للمورفيم الواحد شكلٌ "فونولوجي" واحد. ولكـن الغالب على المورفيمات أن يكون لكل منها عـدةُ أشـكال فونولوجيـة، تُعـرَف باسـم "الألومورفات" **allomorphs**.

وقد تتنوع هذه "الألومورفات" تنوعًا كبيرًا، بحيث نجد بين أيدينا أحيانًا عددًا من الصيغ المتباينة كلّ التباين، ولكنها كلّها تؤلّف "ألومورفات" لمورفيم واحد فقط. فمثلا تشتمل كل الكلمات الآتيـة عـلى مـورفيم الجمـع في اللغـة الإنجليزيـة: **cats**، و**dogs**، و **horses**، و **sheep**، و **oxen** (ثيران)، و **geese** (إوَزّ).

ثـم إن "الألومـورف" يوصـف بأنـه "ألومـورف" مـشروط – أو مقيـد– "فونولوجيـا" **phonologically conditioned**، حـين تتوقـف بنيـة صـيغته عـلى الفـونيمات المجـاورة لـه. ويوصـف بأنـه "ألومـورف" مـشروط معجميًـا **lexically conditioned** حـين تكـون بنيـة صـيغته بنيـة اتفاقيـة، ارتبطـت بوحـدة معجمية خاصة.

ويوفّر لنا مورفيم الجمع في اللغة الإنجليزية أمثلةً نموذجية لهذين النوعين مـن الألومورفات.فتعالوا ننظرْ في شطر منها.

الشروط الفونولوجية:

يُطلَق مصطلح **morphophonology** (الفونولوجيا المورفية)– ويختصر أحيانًا إلى **morphonology**– للإشارة إلى ذلك الضرب من الدرس اللساني المعنيّ بدراسة الأشكال – أو التجليات – الصوتية المختلفة للألومورفات.

وتمثّل الألومورفات: /z-/، و/ s-/، و /Iz/، ألومورفات مشروطة فونولوجيا لمورفيم الجمع في اللغة الإنجليزيـة. بمعنـى أن كـل مـورفيم منهـا يقـع في عـدد مـن السياقات الصوتية المتوقّعة والمنضبطة.

فالألومورف /z-/ – مثلا – يقع بعد معظم الفونيات المجهورة، كما في: dogs، وlambs، و bees. (الفونيم المجهور هو الفونيم الذي يصحب النطقَ به تذبذبُ الوترين الصوتيين، كما يحدث عند النطق بالفونيات: /b/ ، و /d/، و /g/، و /v/، والصوائت).

والألومورف /s-/ يقع بعد معظمِ الفونيات المهموسة، كما في cats، وgiraffes (زرافات)، و skunks (جمع skunk: الظِّربان الأمريكي). (الفونيم المهموس هو الفونيم الذي لا يصحب النطقَ به تذبذبُ الوترين الصوتيين).

وأما الألومورف /ɪz-/، فيقع بعد ما يسمَّى بالأصوات الصفيرية sibilants (أي: الأصوات المهسهسة hissing والمتفشية hushing)[1]، كما في الكلمات: horses، و cheeses، و dishes .

فإذا نظرنا إلى الألومورف /z-/ على أنه هو الألومورف الأساسي أو الآصل، أمكننا أن نقرر –أولا – أن الألومورف /z-/ يتحول إلى /ɪz/ بعد الأصوات الصفيرية (الرسم التوضيحي ٦–٥)، وثانيًا: أنه يتحول إلى /s-/ بعد الأصوات المهموسة (الرسم التوضيحي ٦–٦) [من اليسار إلى اليمين في كلّ].

Ø → I / [+ sibilant] ___ z

مثل: /hɔ: siz/ → /hɔ: sz/

[+sibilant]-z	/	Ø → 1
بمعنى: بين الصوت الصفيري وفونيم الـ z	بمعنى: في السياقات (الصوتية) الآتية	بمعنى: الصفر يتحول إلى I (أي: أَدْرِج I)

(الرسم التوضيحي ٦ – ٥).

z → s / [- voice] ___

مثل: /kæts/ → /kætz/

(١) سيأتي للمؤلفة – وكذا للمترجم – فَضْلُ حديث عن هذا النوع من الأصوات، في الجزء الخاص بـ"علم الأصوات"، في آخر هذا الكتاب (ص٤٧٧). [المترجم].

[-voice]- بمعنى: بعد صوت مهموس(=غير مجهور).	/ بمعنى: في السياقات (الصوتية) الآتية	Z ⟶ S بمعنى: Z يتحول إلى S

(الرسم التوضيحي ٦ – ٦).

وأرجو أن تنتبه أيها القارئ – بعد – إلى أن هذه "القواعد" يجب أن تُطبَّق بالترتيب نفسه الموضح آنفًا، وإلا فلو عكسنا الترتيب، لتحصّلتْ لنا صيغ من مثل [dɪ ʃs]، بدلا من الصيغة الصحيحة [dɪʃ ɪz]، التي هى جمع لكلمة dish.

الشروط المعجمية:

تطرح الكلماتُ التي من مثل oxen، و sheep، و geese مشكلةً خاصة فيما نحن بصدده. وتلكم أن هذه الكلمات تؤدى وظيفتها في الاستعمال اللغوى بوصفها جموعًا، على الرغم من أنه يُعْوِزها علامة دالة على الجمع، كتلك التي لدى cats، و dogs، وغيرهما. ولا تخضع مثل هذه الجموع التي شَرَطَها – أو حددها – معجم اللغة وحده لقاعدة خاصة؛ فلا مَعْدَى – إذن – عن تعلُّم كل جمع منها على حِدَة.

هذا، وقد أمكن القولُ بأن الجموع المحدَّدة معجميًا، من مثل: oxen، و sheep، و geese، تُعَدّ – من ناحية المسلك التركيبي – مساويةً للجموع المحدَّدة فونولوجيًا، من مثل cats، وdogs؛ لأنه يصح لتلك الجموع الأولى أن تقع في نفس المواقع التركيبية التي تقع فيها الجموع الثانية (الرسم التوضيحي ٦ – ٧).

The ———— are making a lot of noise

cats
dogs
horses
oxen
sheep
geese

(الرسم التوضيحي ٦- ٧)

إن كلا من الجموع: oxen، و sheep، و goose يشتمل على مورفيمين [من اليسار إلى اليمين]:

ox + جمع

sheep + جمع

goose + جمع

ولكن الجمع oxen، وحده، هو الذي يمكن تقسيمه بسهولة إلى المورفيمين المكونين له: ox + /- ən / (-en)

ثم إذا افترضنا وجود ما يسمَّى بـ"اللاحقة الصفرية" zero suffix، أمكننا أن نقسّم الجمع sheep إلى مورفيمين كذلك. واللاحقة الصفرية ابتكار لغويّ عملي مناسب، يوظَّف أحيانًا في حالات من هذا النوع، ويكتب عادة هكذا: /Ø/ :

sheep + /Ø /.

وأما كلمة geese، فلا توجد طريقة واضحة لتحليلها. ففي وقت مضى، افترض اللسانيون أن صائت الجمع /i:/ الموجود في /gi:s/ (geese) – وقد حل محل الصائت /u:/ الموجود في كلمة /gu:s/ (goose)– يجب أن يصنَّف على أنه نوع خاص من الألومورفات، يسمى بـ"الألومورف الإبدالي أو التعويضي" replacive. وحللوا – على هَدْي من ذلك – هذا الجمع، كالآتي:

/gu:s/ + /i:/ ⟵ (/u:/).

ويلاحظ هاهنا أن الصياغة الرمزية (/ :u/) ←— /i: / تعنى أن "/i:/ يحل محل /u: / ".

وقد تنكَّب هذا التفسيرَ معظمُ اللسانيين في عصرنا هذا ؛ لما فيه من تكلف، واستبدلوا به تفسيرًا آخر قريبًا، يقول بأن الصيغة /gi:s / (geese) تمثل مورفيمين:

goose + الجمع

وأن هذين المورفيمين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. وكذا نحتاج إلى هذا التفسير في تحليل صيغ أخرى، من مثل: went، و took اللتين تمثلان:

go + الزمن الماضي

take + الزمن الماضي

أنواع الكلمة [أقسام الكلام]:

تشتمل كلُّ اللغات على عدد محدود من أنواع الوحدات المعجمية. وتسمَّى هذه الأنواع المختلفة للكلمات، في الدرس اللسانيّ التقليدي، بـ "parts of speech (أقسام الكلام). إلا أن مصطلح word classes (أنواع الكلمة) يتميز بأن دلالته الاصطلاحية أعمُّ من دلالة المصطلح التقليدي. وتُعطَى أقسام الكلمة هذه ألقابًا اصطلاحية متفقًا عليها، من مثل: اسم، وفعل، وصفة.

هذا، وتصنَّف الكلمات إلى هذه الأقسام تصنيفًا يعتمد - في جانب منه- على اعتبار مسلكها التركيبي. وفى جانب آخر، على اعتبار بنيتها الصرفية. بمعنى أن الكلمات التي تنتمي إلى نفس القسم من أقسام الكلمة تصلح غالبًا للوقوع في نفس المواقع التركيبية. وكذا تُعطَى أبنيتها "تصاريف" متماثلة. فمثلا: يمكننا أن نتعرف على كلمات ذلك القسم من أقسام الكلمة الذي يُعرَف اصطلاحًا بـ"الفعل"، في ضوء صلاحية وقوع هذه الكلمات بعد الأسماء- أو بعد عبارات phrases تشتمل على أسماء- من جهة، وفى ضوء اشتمال معظم "الأفعال" على النهاية التصريفية (ed-)، للدلالة على الزمن الماضي، من جهة أخرى:

Arabella detested snails . ("أربلا" اشمأزت من القواقع)

Mariana smiled . ("ماريانا" ابتسمت)

بيد أنني ألفتُ إلى أننا يجب أن نتحرّى الحَيْطة، في تحليلاتنا التي نتغيّا بها تحديد "القسم" الذي تنتمي إليه كلماتٌ اللغة. وذلك لأنه قد يتكشّف لنا أحيانًا أن بعض الوحدات المعجمية التي يبدو أنها تتقاسم ظاهريًا نفس المواقع التركيبية، هي – في الحقيقة – وحدات مختلفة، ولا تنتمي إلى نفس القسم من أقسام الكلمة. وانظر معي إلى هاتين الجملتين:

Charlie ate caviar. ("تشارلي"أكل الـ"كافيار")

Charlie ate well. ("تشارلي" أكل جيدًا)

فقد نفترض -للوهلة الأولى- افتراضًا غير صحيح، مؤداه أن الكلمتين **caviar** و **well** تنتميان إلى نفس القسم من أقسام الكلمة. ولكن استهداءنا بتحليل أقلّ سطحية من ذلك، يكشف لنا عن أنهما يوظّفان في الاستعمال اللغويّ توظيفًا متباينًا. وبيان ذلك: أنك لو تصرَّفْتَ في هاتين الجملتين بعض التصرف، لأمكنك أن تقول- مثلا:

Caviar was eaten by Charlie.

What Charlie ate was caviar.

ولما أمكنك أن تُحِلّ **well** محلّ **caviar**، فتقول:

*** Well was eaten by charlie.**

*** What Charlie ate was well.**

فهذا التباين يبرهن لك على أن بين الكلمتين: **caviar**، و **well** تباينًا في مسلكهما التركيبي، وأنهما – تبعًا- ينتميان إلى قسمين مختلفين من أقسام الكلمة.

خلاصة:
يمكن تمييز أنواع الكلمة **word classes** (= أقسام الكلام **parts of speech**)، والوقوف عليها، عبر ملاحظة مسلكها التركيبي، من جهة، وملاحظة بنيتها الصرفية، من جهة أخرى.

وليس يسهل علينا دائمًا أن نعيّن عدد أقسام الكلمة التي تشتمل عليها إحدى اللغات. فمثلا: تزعم بعض الكتب الدراسية التقليدية أن اللغة الإنجليزية تشتمل

على ثمانية أقسام للكلمة. وقد تكشَّف أن هذا الزعم قد تأسس- في المقام الأول- على قواعد اللغة اللاتينية القديمة. وهي القواعد التي نُقلتْ بدورها عن قواعد اللغة اليونانية القديمة، حيث غَلَب على تلك الأخيرة أن تُقسّم الكلمة إلى ثمانية أقسام. فإذا أمعنّا النظر في هذا التقسيم التقليدي لأقسام الكلمة في اللغة الإنجليزية، فربما نقف على قدر غير قليل من "التناقضات". فمثلا: تصنَّف الأسماء، والضمائر، في الدرس التقليدي، على أنهما قسمان مختلفان من أقسام الكلمة، بالرغم من أن بينهما قدرًا وافرًا من أوجه التماثل:

Max laughed .

He laughed .

وحقًا، نجد أن ما بين الأسماء والضمائر - وهما قسمان مختلفان- من تشابه، يزيد على ذلك القدر من التشابه الحاصل بين الأنواع المختلفة من الكلمات، التي تُصنَّف في الدرس اللساني التقليدي على أنها كلَّها تنتمي إلى قسم واحد من أقسام الكلمة، هو الظرف [أو الحال] **adverb**. فمثلا: تصنف الكلمتان **quickly** و **very** عادة على أنهما **adverbs**، بيد أنهما يوظفان في الاستعمال اللغوي على نحو جِدّ مختلف؛ إذ يجوز لنا - مثلا- أن نقول:

He ran quickly.

ولكننا لا نقول: ***He ran very.**

ويتفاوت عدد أقسام الكلمة من لغة إلى أخرى. وربما تتسم بعض هذه الأقسام- كـ"الاسم" و"الفعل"- بالعالمية، بمعنى أن جُلّ اللغات تتشارك فيها. ولكن أقسام الكلمة الأخرى ليست كذلك. إن "الأسماء"، و"الصفات"، و"الأفعال" تمثل سلسلة متصلة: في إحدى طرفيها، تقع الأسماء. وهي الكلمات التي تحتفظ بهويتها على مَرّ الزمان، مثل: شجرة، وقِطّة، ونهر. وفي الطرف الآخر لهذه السلسلة، تقع الأفعال. وهي الكلمات التي تدل على نشاط سريع التبدل، مثل: يمشي، ويركل، ويدفع. وفي وسط هذه السلسلة، تأتي الخصائص - أو السمات **properties**- من مثل: كبير، وجميل، وقديم. وتمثل هذه الكلمات الأخيرة قسمًا مستقلا من أقسام الكلمة، في اللغة الإنجليزية، هو "الصفات". ولكني ألفت - بعد- إلى أن هذا القسم الأخير ليس تقسيمًا حتميًا؛ إذ تعامل بعضُ اللغات الأخرى مثلَ هذه الكلمات - أو الصفات - على أنها نوع من الأفعال، يسمى بـ"الأفعال السكونية"

stative verbs ، أي الأفعال التي تدل على سكون، أو ثبات. ففي حين أننا نقول في اللغة الإنجليزية:

Petronella is happy. ("بترونلا" سعيدة)

نجد أن لغة أخرى - كاللغة الصينية- يقال فيها- إن صح التعبير:

Peronella happies.

أي باستعمال الفعل بدلا من الصفة. وكذا قد تراوح اللغة الإنجليزية أحيانًا بين الأفعال، والصفات. وقارن – مثلا- الاستعمال القديم المهجور المشتمل على فعل سكوني: **he ails**، بنظيره المعاصر المشتمل على صفة: **he is ill** .

الأنواع الرئيسية للكلمة:

يُنظر إلى اللغة الإنجليزية أحيانًا على أنها تشتمل على أربعة أنواع أساسية للكلمة. وهي: الاسم **noun** (ويرمز له: N)، والصفة **adjective** (ويرمز لها: A)، والفعل **verb** (ويرمز له: V)، وحرف الجر القبلي **preposition** (ويرمز له: P) (الرسم التوضيحي ٦ – ٨).

Big **A** (صفة)	**frogs** **N** (اسم) [ضفادع]	**swim** **V** (فعل)	**under** **P** (حرف جر قبلي)	**water** **N** (اسم)

(الرسم التوضيحي ٦ – ٨).

ومن بين هذه الأنواع الأربعة، نجد أن بين "الأسماء" و"الأفعال"، و"حروف الجر"، اختلافًا واضحًا في مسلكها داخل بنية اللغة. وأما الصفات، فتتسم في مسلكها اللغوي بقدر من الغرابة، حيث إنها تجمع بين سمات تخصّ الفعل، وأخرى تخصّ

الاسم. ففي قولنا– مثلا: Blessed are the brave (١)، تبدو "الصفة" brave وكأنها قد تحولت إلى "اسم". وفي قولنا: Mavis is asleep ("مافس" نائمة")، تبدو "الصفة" asleep (نائمة) قريبة بعض الشيء من "الفعل"؛ من حيث إنها تقع في نفس الموقع الذي يقع فيه sleeping، في جملة من مثل: Mavis is sleeping .

هذا، وقد ذهب بعض اللسانيين إلى أننا يجب أن نَصِفَ هذه الأنواع الأربعة للكلمة، وصفًا نقتفي فيه طريقة وصف الأصوات، عبر تعيين السمات المميزة لها distinctive features؛ إذ إن من شأن هذه الطريقة أن تُظهر لنا أوجه التشابه المشتركة بين أنواع الكلمة هذه:

Noun (الاسم)	[+ N, - V]
Verb (الفعل)	[- N, + V]
Adjective (الصفة)	[+ N, + V]
Preposition (حرف الجر القبلي)	[- N, - V]

فهذه الطريقة في الوصف، مفيدة وموجزة؛ لالتقاط أوجه التماثل، والتباين، بين الأنواع الرئيسية للكلمة .

وتُسمَّى الأنواع الرئيسية للكلمة بـ"الفصائل المعجمية" lexical categories. وتضم هذه الفصائل ما يسمى بـ"كلمات المحتوى" content words. وهي الكلمات التي تدلّ على معنىً في نفسها. ثم إن هذه "الفصائل المعجمية" تقابل ما يُسمَّى بـ"الفصائل الوظيفية" functional categories التي تضم كلمات محدودة البنية، يصعب – في كثير من الحالات– أن نحدد معانيها تحديدًا دقيقًا لا تخرج عنه. وذلك مثل: the، و a ، مما يسمَّى بـ"المحددات" determiners (ويرمز لها بالحرف D). ومثل "المتمِّم" complementizer :"that"، في نحو قولنا:

---

(١) في Macmillan English Dictionary أن كلمة Blessed –بالحرف B كبيرًا– تستعمل في "الإنجيل" في سياق وصف البشر الذين يحبهم الله تعالى، من مثل: Blessed are the merciful (طوبى للرحماء). ويلاحظ أن مجيء أداة التعريف the قبل الصفة brave قد أكسبها عمومية؛ فأشبهت الأسماء، على نحو ما ألمحت المؤلفة. وكأن أصل الجملة هو The brave are Blessed. [المترجم].

(أعرف أنّ "بول" مريض) **I know that Paul is ill.**

ويكثر اختصار هذا المصطلح إلى **COMP**، أو **C**. ولهذه الكلمات الوظيفية دورٌ مهم في ربط أجزاء الجمل بعضِها ببعض؛ لتكوين قوالبَ تركيبيةٍ أطول.

لقد عُني هذا الفصل- إذن - بدراسة "الكلمات" و"المورفيمات". ثم إن هذه الكلمات والمورفيمات تتضام؛ لتؤلّف- في مستوى آخر- قوالبَ تركيبيةً تتميز بأنها أطول من الكلمات، والمورفيمات، من جهة، وبوفرة تكررها في بنية اللغة، من جهة أخرى. وهذه القوالب هي محلّ اهتمام فصلنا الآتي.

فلنتذكر:

- يصعب على الدارسين وضعُ تعريف جامع مانع لمصطلح "الكلمة"؛ بسبب من وجود أنواع كثيرة لـ"الكلمة".
- يجب علينا ألا نخلط بين الأمثلة الفعلية للكلمات **word tokens** (أي العدد الإجمالي لكلمات اللغة)، وبين الأنواع المختلفة للكلمة **word types** التي تندرج تحتها هذه الأمثلةُ.
- يجب علينا أن نميز بين كلٍّ من: (أ) الوحدات المعجمية (أي المداخل المعجمية)، و(ب) الكلمات الصرفية والنحوية (أي الصيغ الصرفية والنحوية- أو الإعرابية- المختلفة للكلمات)، و(جـ) الكلمات الفونولوجية (أي الأشكال الصوتية المختلفة التي تُنطَق بها الكلمات).
- تتميز الكلماتُ ذات الصيغ الصرفية والنحوية المختلفة، بقابليتها للتحريك من موقع تركيبي إلى آخر، وبعدم قابليتها لأن تتخللها وحداتٌ لغويةٌ أخرى.
- تؤدى الكلمات وظائفَ مختلفةً داخل الجمل، ويلزمنا أن نسكّن كلا منها في نوع من أنواع الكلمة **word classes** (= أقسام الكلام **parts of speech**).
- يستطيع الدارسون تسكين الكلمات في أنواعها المختلفة، من خلال النظر في مسلكها التركيبي (أي المواقع التي تحتلّها في الجمل)، من جهة، والنظر في أشكالها الفونولوجية التي تتجسد فيها، من جهة أخرى.
- تتمثل أهم أنواع الكلمة في اللغة الإنجليزية- وكذا في لغات أخرى كثيرة- في الأسماء، والأفعال، والصفات، وحروف الجر القبلية.
- المورفيمات هي أصغر الوحدات اللغوية الصرفية والنحوية، وإن كان حجمها يتفاوت من أصوات مفردة إلى كلمات كاملة .
- تُعرف الصيغ المختلفة التي تتجسَّد فيها المورفيمات بـ"الألومورفات".
- توصف "الألومورفات" بأنها "ألومورفات" مقيَّدة فونولوجيًا، حين تكون مكونات بنيتها معتمدةً على المورفيمات المتاخمة. وتوصف بأنها "ألومورفات" مقيَّدة معجميًا، حين تكون صيغها مرتبطةً بوحدة معجمية بعينها.

٧

القوالب التي تنتظم جمل اللغة

يناقش هذا الفصلُ الكيفياتِ التي يمكن للكلمات أن تترابط بها معًا؛ لتكوّن وحداتٍ لغويةً أكبر. ويوضح المنهجيات التي يمكننا بها أن نحلل الجمل إلى الأجزاء المكونة لها. ثم يعرض – أخيرًا- لطرق تمثيل هذا النوع من التحليل.

للكلمات حالَ إفرادها، أو حال ترابطها ترابطًا عشوائيًا، فائدةٌ محدودة القدر نسبيًا. وهذه حقيقة يدركها أيّ شخص سافر إلى بلد أجنبي، غير مزوَّد سوى بقاموس لمفردات لغة هذا البلد، ودون أن تكون لديه معرفة بقواعد هذه اللغة، وطرائقها في التعبير. ودونك – مثلا – عبارة مثل: **me- bus**، فهل هي تَعنِي: **'I am a bus'**، أم **'A bus hit me'**، أم **'I came by bus'**، أم **'I want to go by bus'** ؟ فدعونا – إذن- ندرس الكيفية التي تتجمع بها الكلماتُ؛ لتكوّن تراكيب أطول.

سوف ينظر فصلُنا هذا في ثلاث مسائل: أولاها: الكيفيات التي قد تترابط بها الكلمات؛ لتكوين وحدات لغوية أكبر. وثانيتها: الكيفية التي يمكن تبنّيها لدى تحليل الجمل إلى أجزائها المكونة لها، أو إلى ما يُطلَق عليه مصطلح **constituents** في الدرس اللساني المعاصر. وثالثتها: أننا سوف نقترح طرقًا بعينها لإنجاز هذا التحليل.

نظْم الكلمات معًا:

توظِّف اللغات المختلفة وسائل متباينة؛ لإظهار العلاقة التي تربط بين الكلمات في الجمل. وتفضّل معظم اللغات وسيلة بعينها، أو وسيلتين؛ لإنجاز هذه المهمة. ودونك عرضًا لأشهر هذه الوسائل:

رتبة الكلمات في الجمل:

توظِّف اللغة الإنجليزية "رتبة الكلمات في الجمل" وسيلةً أساسية؛ للتعبير عن العلاقات التي تربط بين الكلمات داخل الجمل. ودونك المثال الآتي، فتأمله:

The large spider frightened Aunt Matilda.

(العنكبوت الكبيرة(١) أفزعت "العمة ماتِلْدا")

Aunt Matilda frightened the large spider.

("العمة ماتِلْدا" أفزعت العنكبوت الكبيرة)

فالكلمات في كلتا الجملتين متطابقةٌ بأعيانها. وإنما اختلاف ترتيبها هو الذي دلّ على "مَنْ" الذي أفزع "مَنْ". وهذا "الترتيب" هو الذي دلّ – كذلك- على أن الوصف بكبر الحجم يتعلق بالعنكبوت، لا بـ "العمة ماتِلْدا". وتُعرَف تلك اللغات التي تعتمد اعتمادًا كبيرًا على "رتبة الكلمات" في بيان علاقة كلٍّ منها بالأخرى، بـ"اللغات الترتيبية" **configurational languages**.

النهايات التصريفية:

في بعض اللغات الأخرى -كاللاتينية- توظَّف النهايات التصريفية **inflections** للكلمات للدلالة على ما بينها من علاقات. ففي الجملة الآتية:

Magna aranea perterruit Matilda amitam.

Large spider frightened Matilda aunt.

'The large spider frightened Aunt Matilda'

لا نرى لترتيب الكلمات دورًا في توجيه العلاقات القائمة بينها. فالجملة ستظل دالةً على المعنى نفسه، ولو تغيَّر ترتيب الكلمات فيها تغيرًا كاملا، على النحو الآتي:

---

(١) يلاحظ أن الغالب على كلمة "العنكبوت" في العربية، هو معاملتها معاملة المؤنث. وفي التنزيل العزيز: "مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" [سورة العنكبوت: ٤١] ينظر: لسان العرب (ع ن ك ب) ٤/ ٣١٣٨. [المترجم].

Magna Matildam peterruit amitam aranea.

Large Matilda frightened aunt spider

فالنهايات التصريفية وحدها تُظهر أن العنكبوت هي التي أفزعت "العمة ماتيلدا"، وأن العنكبوت - لا "العمة ماتِلْدا" - هي المعنيَّة بوصف الضخامة. ويستعمل اللسانيون مصطلح "اللغات غير الترتيبية" **non- configurational** للإشارة إلى اللغات التي من نوع اللغة اللاتينية(١)، حيث لا يكون لترتيب الكلمات دورٌ حاسم في بيان العلاقات الواقعة بينها، وإن كان قد عُثر على أن بعض هذه اللغات تُؤْثر "ترتيبات" بعينها، دون غيرها.

خلاصة:

توظِّف اللغاتُ الإنسانية وسائلَ مختلفةً لنظم الكلمات معًا. وبعض هذه اللغات - كالإنجليزية - يوظِّف أكثر من وسيلة؛ لإنجاز هذا الهدف.

الكلمات الوظيفية:

تتبقّى - بعد - وسيلةٌ أخرى ذائعة، توظِّفها اللغتان: الإنجليزية واللاتينية توظيفًا محدودًا؛ لبيان العلاقة بين الكلمات. وتلكم هى استعمال "الكلمات الوظيفية" **function words**. وهى تلك الكلمات التي من مثل: **of** ، و **by** ، و **that**، التي يدلّ كلٌّ منها على نوع بعينه من الارتباط بين أجزاء الجملة، كما في الأمثلة الآتية:

Aunt Matilda was terrified by a spider.

The Queen of sheba. (ملكة "سبأ").

---

(١) وكذا الشأن في اللغة العربية: فهي تتمتع بمرونة كبيرة في تحريك مكونات الجملة: تقديمًا، وتأخيرًا. وذلك لأنها لغة مُعْرَبة؛ يكثر أن تتغير نهايات الكلمات فيها - بالحركات أو الحروف - بتغير وظائفها النحوية (كالفاعلية - المفعولية...). فيتاح لنا - مثلا - لدى الرغبة في التعبير بجملة فعلية عن إكرام "زيد" لـ"علي" أن نقول: (أكرم زيدٌ عليًا)، أو (أكرم عليًّا زيدٌ)... إلخ. وإن كانت هناك مواضع بعينها، يجب فيها التزام ترتيب بعينه. [المترجم].

I know that Penelope will come. (أعلم أن "بينولوبي" سوف تأتي)

Matilda amita ab aranea perterrita est.

Matilda aunt by spider frightened is [was]

وليس يُجمع اللسانيون حول ما يمكن أن يُعَدّ كلمةً وظيفية في اللغة الإنجليزية. ويكمُن جانب من هذه المشكلة في أن العديد من الكلمات الإنجليزية- مثل: **to**- يمكن أن يُستعمل بوصفه كلمةً وظيفية تارة، وبوصفه كلمة من كلمات المحتوى **content words** تارةً أخرى (كلمة المحتوى هي الكلمة التي تحمل معنًى في نفسها). وذلك كما في المثالين الآتيين:

Paul want to go home.

(فـ "**to**" هنا كلمة وظيفية).

Peter went to the river.

(فـ "**to**" هنا كلمة محتوى، بمعنى: تجاه، أو بمعنى: حتى).

وفضلا عن ذلك، تجابهنا مواضعُ يغمُض فيها تصنيف كلمة **to**، بحيث لا نستطيع حسم انتمائها إلى أي من هذين النوعين. ومن أمثلة ذلك:

Andrew's suit was made to order.(بذلة "أندرو" فُصّلت له خِصّيصى)

It seems to me a good idea .(يبدو لى أنها فكرة جيدة)

تحليل الجمل إلى مكوناتها:

لا تتكون جمل اللغة، أية لغة، عبر رَكْم كلمات عشوائية، بعضِها إلى جوار بعض، بوسائل ربط مختلفة، كيفما اتّفق. ففي اللغة الإنجليزية – مثلا – لا نجد جملا مثل:

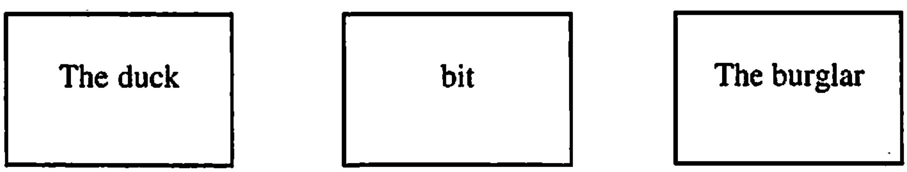
*** The large spider terrified Aunt Matilda swims of Sheba by a car.**

بل نجد بدلا من ذلك أن اللغة الإنجليزية – شأنها شأن كل اللغات الأخرى – تمتلك عددًا معينًا من القوالب التركيبية المتكررة التي تَنتظم الجملَ. وتعيين هذه

القوالب عبر (عملية) من الاستبدال المتعاقب لمكوناتها، يمثل آلية أساسية من آليات التحليل التركيبي للجمل. ودونك – مثلا– الجملة الآتية:

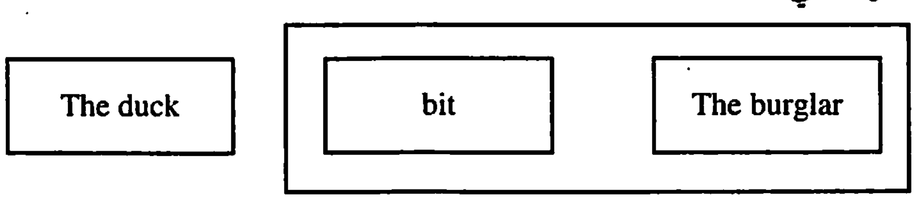
The duck bit the burglar. (البطة عضت اللص)

ففي هذه الجملة، يمكننا أن نستبدل بالكلمتين: **the**، و **duck**، كلمةً واحدة، مثل: **Donald**، و **it**، دون أن يترتب على ذلك تغيرٌ في القالب التركيبيّ الأساسي لهذه الجملة. ويدل هذا الاستبدالُ على أن هاتين الكلمتين مترابطتان ترابطًا وثيقًا، وعلى أنهما يؤلِّفان معًا مكونًا واحدًا أكبر. وبالمثل، نحكُم على الكلمتين **the**، و **burglar**، بأنهما متوافقتان؛ من حيث صلاحيةُ إحلال كلمة واحدة محلهما، مثل **Albert**، أو **him**. وعلى ذلك، فقد أمكننا – عبر هذه الخطوة الأولى – أن ننتقل من جملة ذات خمسة مكونات أصلية، إلى جملة أخرى ذات ثلاثة مكونات آصل (الرسم التوضيحي٧-١).



(الرسم التوضيحي ٧-١)

ثم إنه يمكننا أن نستبدل بالمكونين الأخيرين– من بين هذه المكونات الثلاثة– كلمةً واحدة، مثل **slept**. وهذا ما يجعلنا نستنتج أن هذين المكونين يمكن أن يتضاما معًا، بوصفهما مكونًا واحدًا أكبر. وهكذا يئول الأمر – أخيرًا– إلى تقليص عدد مكونات الجملة من خمسة مكونات إلى مكونين اثنين أساسيين فقط (الرسم التوضيحي ٧-٢)



(الرسم التوضيحي ٧-٢)

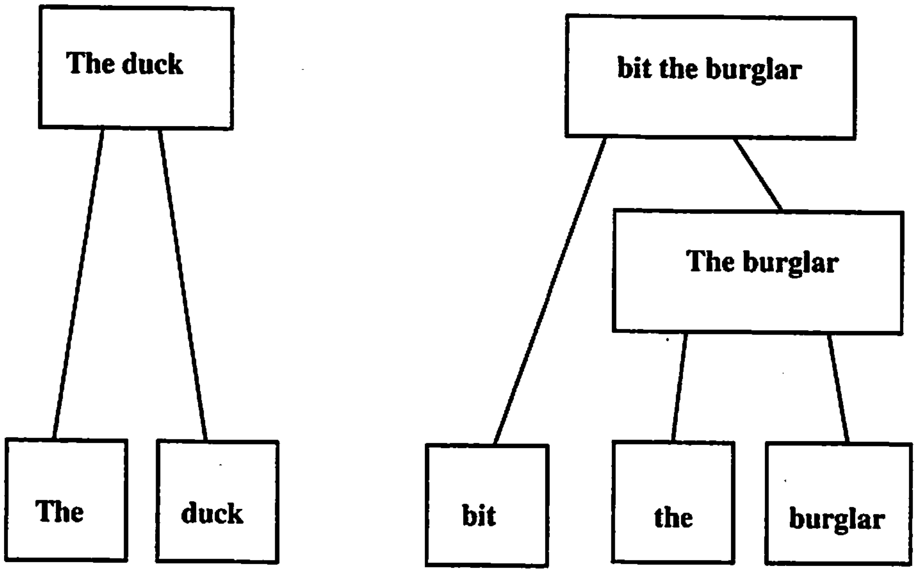
ويسمّى هذا المنهج اللساني الذي يحلل الجمل إلى أجزائها- أو مكوناتها- المؤلّفة لها، على هذا النحو باسم: "منهج التحليل إلى المكونات"(1) constituent analysis.

خلاصة:

يُعَدّ اختبار الاستبدال مقومًا أساسيًا لإنجاز منهجية "التحليل إلى المكونات". بيد أن منهجية التحليل هذه لا تجرى دائمًا على هذا النحو البسيط الذي جسّده المثالُ السابق.

المخطَّطات الشَّجَرية:

يمكننا أن نمثّل للطبقات المتعاقبة من المكونات المؤلّفة لجملة ما، تمثيلا أوضح مما سبق، بصنع مخطَّط يوصف في النتاج اللغوي بـ"المخطَّط الشجري" tree diagram؛ نظرًا لأن تفريعاته تشبه أغصان الشجر. وفى هذا النوع من المخططات، يقع القالب الأساسيُّ للجملة في قمة المخطط، ثم يتشعب إلى فروع ما تفتأ تزداد تعقدًا كلما توجَّهنا نحو الأسفل (الرسم التوضيحي ٧- ٣).

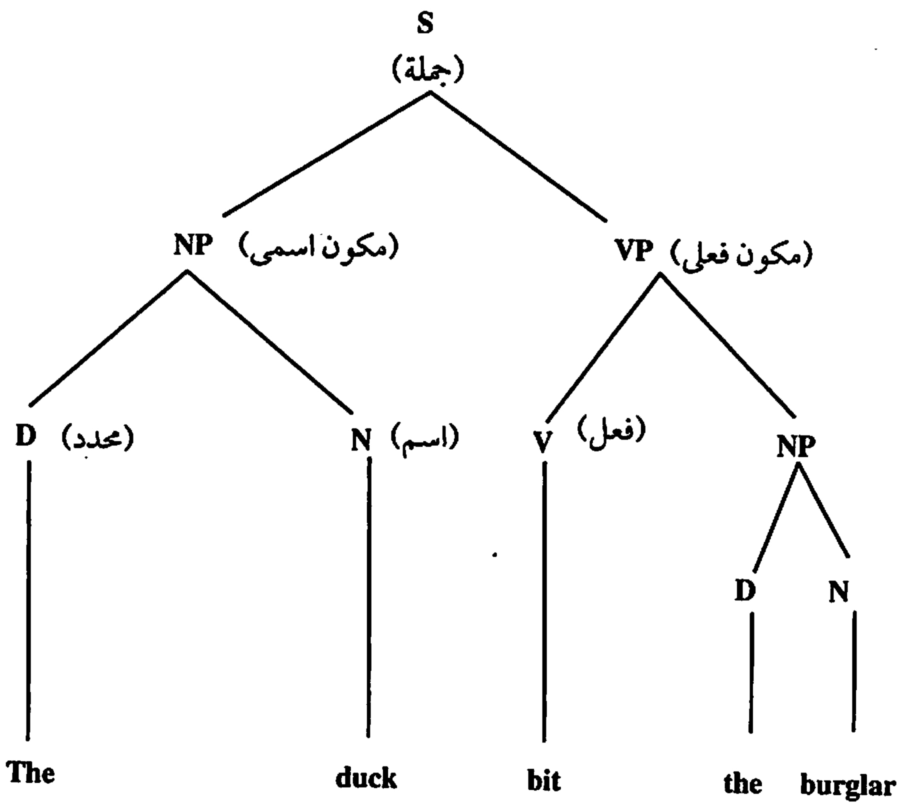


(الرسم التوضيحي ٧-٣)

(١) تشبه منهجية "التحليل إلى المكونات" هذه – في بعض جوانبها – منهجية التحليل النحوي للجملة العربية، في نتاج أئمتنا ومحدثينا من النحويين العرب. (ينظر: د. سمير استيتية: اللسانيات ص١٧٠). [المترجم].

. وتتمثـل مَزِيَّـةُ المخطَّـط الـشجري في أن كـلّ وُصْـلة- أو عُقْـدة node- عـلى الشجرة، يمكن أن يوضع لها تصنيف. وهذا ما يفضي إلى أن يصبح التركيب الإجمالي أوضح وأبين (الرسم التوضيحي ٧-٤).

ويوظَّف المجاز هاهنا للتعبير عن العلاقات الواقعة بين فروع تلـك الـشجرة، عبر استعارة بعض الألفاظ الخاصة بالعائلـة الإنـسانية (الرسـم التوضـيحي ٧- ٥). فالعقدة العليا هي "الأم"، والعُقَد التي تقع على الفروع المتفرعة عنهـا مبـاشرة، هـي كـ"البنـات" لتلـك الأم. ثـم تكـون "بنـات" "الأم" الواحـدة كـ"الأخـوات". ويُفترض- بعد- أن تتحكم "الأم" في العقد التي تقع تحتها: فتـتحكم تحكـمًا مبـاشرًا في "بناتها"، وغير مباشر في حفيداتها، وبنات حفيداتها، إن جاز هذا التعبير.



(البطة عضت اللص)

(الرسم التوضيحي ٧-٤)[1].

---

(١) تمثل الرموز الواردة في الرسم التوضيحي (٧-٤) مختصرات لما يلي:

S = sentence (جملة)

NP = noun phrase (مكون اسمي/ عبارة اسمية / ركن اسمي/ مركّب اسمي...)

VP = verb phrase (مكون فعلي/ عبارة فعلية/ ركن فعلي/ مركّب فعلي....)

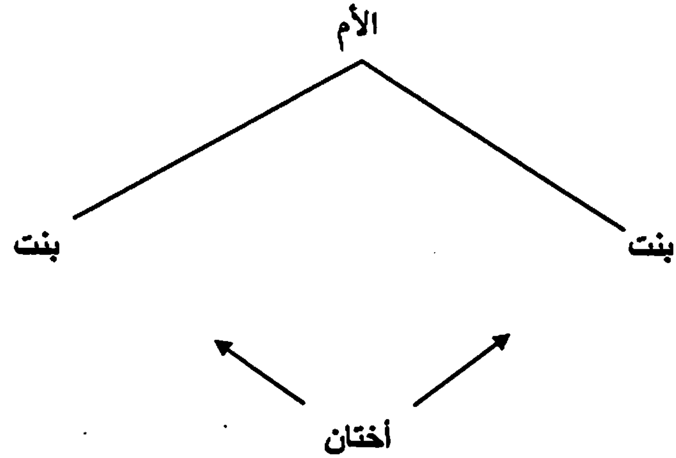
N = noun (اسم)

V = verb (فعل)

D = determiner (محدد)

ذكرت المؤلفة دلالة هذه الرموز على متن ذلك الرسم نفسه. وقد آثرتُ ذكرها هاهنا؛ حتى لا يُثقَل الرسم بالرموز، ودلالاتها، ثم ترجماتها العربية.

هذا، والمكون الاسمي (NP) – في الدرس اللساني الغربي – هو أحد التصنيفات التركيبية syntactic الرئيسية، التي يستعان بها في وصف بنية جمل اللغة. وقد يتألف المكون الاسمي من كلمة واحدة =



(الرسم التوضيحي ٧-٥)

قواعد إعادة الصياغة:

ثمة طريقة بديلة لتمثيل المعلومات الموجودة على المخطَّط الشجري. وتلكم هي ما يعرف بـ"قواعد إعادة الصياغة" **rewrite rules**. وقاعدة إعادة الصياغة هي قاعدة استبدالية، يتم فيها استبدالُ صياغة موسَّعة مكتوبة على الجانب الأيمن من السهم، بالرمز المكتوب على الجانب الأيسر للسهم نفسه. ومن ذلك:

= (اسم- ضمير)، أو كلمتين، أو مجموعة كلمات- كما في بعض أمثلة المؤلِّفة هاهنا- يمثِّل الاسمُ الكلمة الرئيسية head فيها. ويؤدي المكونُ الاسمي وظيفته في الجمل، كالاسم؛ فيقع فاعلا [أو مبتدأ]، أو مفعولا به، أو مكملا complement من مكملات الجملة.

ينظر: .Hartman, Dictionary of Language and Linguistics, p. 155.

وكذا يمثل المكون الفعلي (VP)- في الدرس اللساني الغربي- أحد التصنيفات التركيبية الأساسية، التي يستعان بها في وصف بنية الجمل. وهو يتألف من الفعل ومكملاته. ويغلب وقوعه "مسندًا" predicate. وأما مصطلح determiner (المحدِّد)، فيطلق- في الدرس اللساني الغربي- على أحد التصنيفات المعجمية للكلمة. وتشمل "المحددات"- فيما تشمل- أدوات التعريف والتنكير (the - a - an...)، وضمائر الملكية (my - your - our...)، والإشارة (this - that...)، والألفاظ الدالة على كمية (many - few ....).

ينظر: .Trask, A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics, p. 80, 297. [المترجم].

S ⟶	**NP**	**VP**
(جملة)	(مكوِّن اسمي)	(مكوِّن فعلي)

وهي تعني: "استبدل بالرمز S الرمزين **NP VP**"[1].

VP ⟶	**V**	**NP**
(مكوِّن فعلي)	(فعل)	(مكوِّن اسمي)

وتعني: "استبدل بالرمز **VP** الرمزين **V NP**".

NP ⟶	**D**	**N**
(مكوِّن اسمي)	(محدِّد)	(اسم)

وتعني: "استبدل بالرمز **NP** الرمزين **D N**".

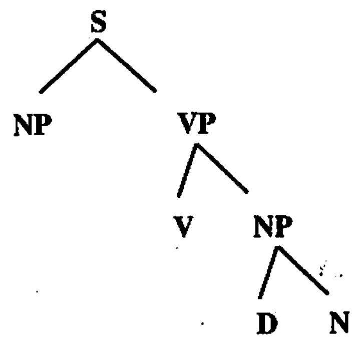
وعلى ذلك، يمكننا أن نلخص البنية الأساسية لجملة: **The duck bit the burglar** في ثلاث قواعدَ فقط، هي:

S ⟶	**NP**	**VP**
VP ⟶	**V**	**NP**
NP ⟶	**D**	**N**

فإذا رُمْنا تمثيل تلك القواعد في مخطَّط شجري، فستبدو لنا على النحو الذي يمثله الرسم التوضيحي (٧ - ٦).

---

(١) أو بعبارة أوضح: أن الجملة (S) يمكن أن تتألف من مكوّن اسمي (NP) يتبعه مكون آخر فعلي (VP) [مثل The duck bit the burglar]. وكذا أن المكون الفعلي (VP) يمكن أن يتألف من فعل (V) يتبعه مكون اسمي (NP) [مثل: bit the burglar]. وأن المكون الاسمي (NP) يمكن أن يتألف من محدد (D) يتبعه اسم (N) [مثل: the burglar- the duck]. ينظر: Palmer, Grammar, p. 128. [المترجم].



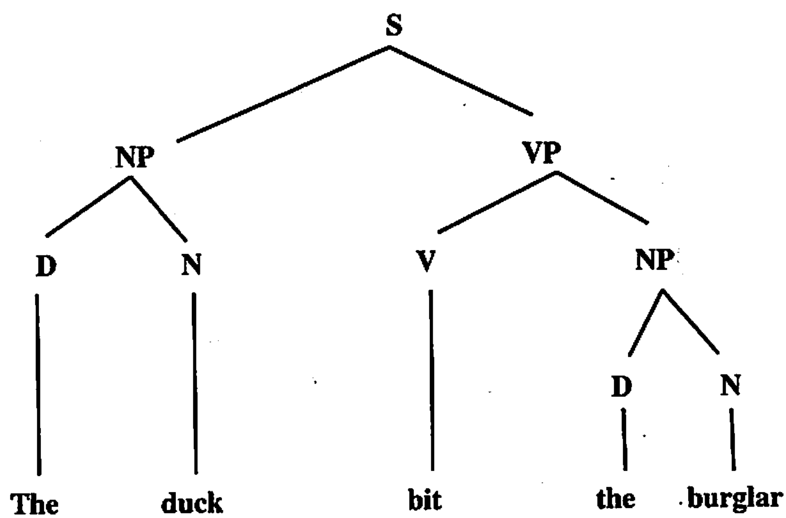
(الرسم التوضيحي ٧ – ٦).

ثم إن هذه القواعد التفريعية قد تُستوفَى بإضافة قواعد الاستبدال المعجمي، كالآتي:

N ⟶ duck, burglar

V ⟶ bit

D ⟶ the



(البطّة عضّت اللصّ)

(الرسم التوضيحي ٧ – ٧)

إن المزية الكبيرة لقواعد إعادة الصياغة، هي أنها قواعد جِدُّ واضحة وشفافة explicit، بحيث لا تغادر مجالا لإعمال الخيال، أو الحدس. فإذا اقتفيتَ هذه القواعد أمكنك أن تُنتج جملة إنجليزية مثالية، ولو لم تكن لديك أدنى معرفة سابقة باللغة الإنجليزية. وعلّة ذلك هو ما تتميز به هذه القواعد من تطبيق آلي، خطوةً تِلو الأخرى، وبرمز واحد في كلّ مرّة.

ولكنني ألفت- في المقابل - إلى أن تطبيق قواعد "إعادة الصياغة" المذكورة آنفًا، قد يفضي - كذلك - إلى تكوين الجملة الآتية:

The burglar bit the duck. (اللص عض البطة)

ولا أهمية لذلك؛ إذ إن المحصّلة هي جملة إنجليزية صحيحةُ الصياغة كلَّ الصحة (وإن كنا لا نستطيع إنكار أنها جملة بعيدة الاحتمال). لقد وُضِعتْ قواعد "إعادة الصياغة" لتخبرنا أي الجمل يمثّل جملة صحيحة الصياغة في اللغة الإنجليزية، وأيها ليس كذلك، لا لتزوِّدنا بمعلومات عن السلوكيات المحتملة للصوص.

خلاصة:
يمكن إظهار الكيفية التي تترابط بها المكوناتُ المختلفة لإحدى الجمل، عبر مخطَّط شجري يشبه في شكله الشجرة المقلوبة.

التعرف على مكونات الجمل:

تبين لنا مما سبق، أن كل جملة يمكن أن تحلَّل إلى طبقات متعاقبة من المكونات. بيد أننا يجب أن ندرك أنه لن يستقيم لنا تحليلُ كلّ جمل اللغة دون أن تصادفنا إلا مشكلاتٌ يسيرة، كتلك التي صادفتنا لدى تحليل جملة: **the duck bit the burglar**. ودونك الجملةَ الآتية، فتأملها:

The mouse ran up the clock. (الفأر جرى فوق الساعة)

فترى كيف يجب أن نحلل هذه الجملة؟ أيلزمنا أن نضم [**ran up**] معًا، على افتراض أن هاتين الكلمتين يمكن أن تُستبدل بهما كلمة واحدة مثل: **climbed** (تسلّق)؟ أم أنه يلزمنا أن نضم كلا من [**up the clock**] معًا، على اعتبار أنه يمكن أن يُستبدل بهذه العبارة كلّها كلمةٌ واحدة، مثل **upwards** (إلى أعلى)؟ إن حلّ المشكلات التي من مثل هذا النوع يكون بالنظر إلى مجموع الكلمات المعنيّة، ثم طرح السؤال الآتي: هل هي تتضامّ معًا، بوصف كل مجموعة منها مكوّنا واحدًا، في سياق آخر غير

السياق محلّ الدرس، أم لا؟ وقد تأسس هذا الحلّ على أن الكلمات التي تتضامّ معًا في جملة ما، يمكن أن تقع – هي نفسها – بوصفها مكوّنًا واحدًا في جمل أخرى كذلك. ومن الطرق التي يمكن تبنّيها لتجربة هذا الحل، أن نكوّن جملا تشتمل على الكلمات الأصلية محلّ الدرس، ولكن بترتيب مختلف. وذلك مثل:

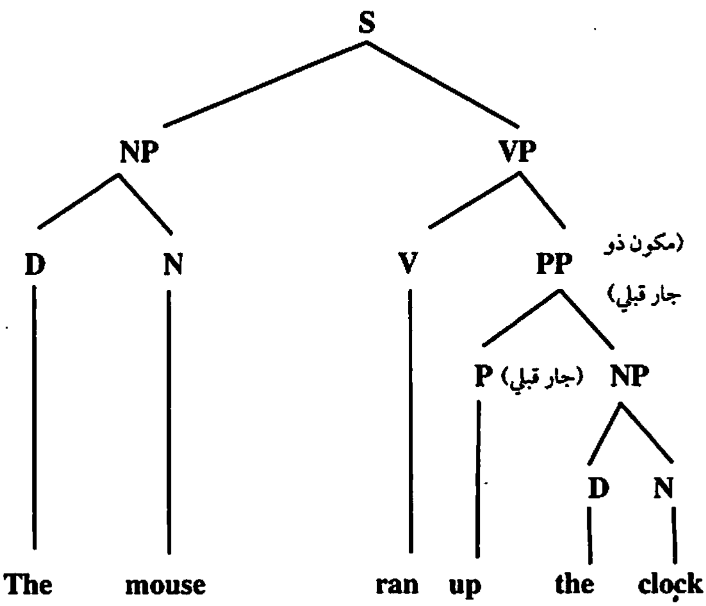
Up thé clock ran the mouse. (فوق الساعة جرى الفأر)

*** The mouse ran the clock up.**

فهاتان الجملتان تكشفان لنا أن الكلمات **up the clock** يجب أن تتضامّ معًا؛ من حيث إنه يمكن تحريكها جميعًا، بوصفها كتلةً واحدة، إلى أول الجملة. وعلى ذلك، نستطيع أن نحلل جملتنا على النحو الآتي:

[The mouse] [ran] [up the clock]

وكذا أن نرسم مخطّطها الشجري على النحـو الذي يمثّله الرسم التوضيحي (٧-٨).



(الرسم التوضيحي ٧ – ٨)(١).

(١) من الرموز التي يشتمل عليها هذا الرسم التوضيحي، مما لم يرد لها ذِكر من قبل: الرمزان: (P) و(PP). فأما الأول فهو اختصار للمصطلح preposition (جار قبلي). وأما الثاني (PP)، فهو اختصار =

إن جملتنا -هذه التي ناقشناها لتوّنا- يجب أن تُحلَّل على نحو يختلف عن التحليل الذي تستحقه جملة أخرى، تتشابه معها في تركيبها الظاهري، من مثل:

The mouse ate up the cheese. (الفأر التهم الجبن)

ويتضح الاختلاف بين كلٍّ، إذا بدلنا المواقع في هذه الجملة على النحو الآتي:

***up the cheese ate the mouse.**

(up the clock ran the mouse قارن بـ)

The mouse ate the cheese up.

(*The mouse ran the clock up قارن بـ)

وعلى ذلك، يسوغ لنا أن نحلل هذه الجملة الثانية كالآتي:

[The mouse] **[ate up]** **[the cheese.]**

وأن نرسم مخطَّطها الشجري على النحو الذي يمثله الرسم التوضيحي (٧-٩)، مستعملين تصنيفين إضافيين لـ"العقدات" **nodes**: **VB**: اختصار **'phrasal verb'** (الأفعال المركبة)، و **PRT**: اختصار **'particle'** (أداة)(١):

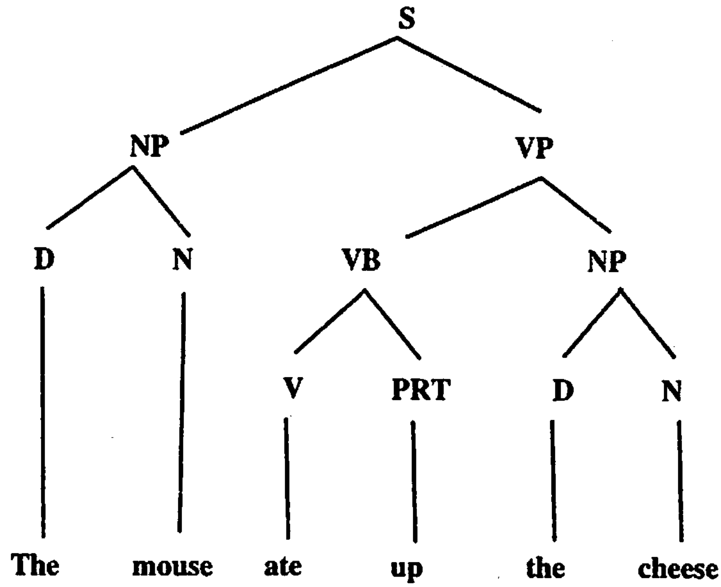
= للمصطلح prepositional phrase (مكون ذو جار قبلي). وقد ذكرت المؤلفة ذلك على متن هذا الرسم. ويستعمل المصطلح الأول (P)- في الدرس اللساني الغربي- للدلالة على أحد أقسام الكلمة. وهو القسم الذي يتميز تركيبيًا بوقوعه قبل الأسماء، أو المكونات الاسمية (NP)؛ للتعبير عن العلاقة بينها وبين أجزاء الجملة الأخرى. ومن أمثلته في الإنجليزية (... in – under- of – with – to – from). وأما المصطلح الثاني (PP)، فيستعمل للدلالة على ذلك المكوّن الذي يتألف من جار قبلي يتبعه اسم، أو مكون اسمي (NP)، كما في قولنا: in the garden.

ينظر: Trask, A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics, pp. 214-215. [المترجم].

(١) يستعمل مصطلح phrasal verbs (الأفعال المركبة) – في الدرس اللساني الغربي- للدلالة على تلك الطائفة من الأفعال التي يتألف كل منها من وحدة معجمية تقفوها أداة واحدة، أو أكثر. وذلك مثل: (come in – get up – look out for)، وغيرها. ويستعمل مصطلح particle (أداة...)- في الدرس اللساني الغربي –للدلالة على نوع من الكلمات ذي وظائف نحوية. ويتميز بجمود بنيته المعجمية، وعدم انتمائه إلى أي من أقسام الكلمة المعروفة المقررة (اسم – فعل...). ويكثر وقوعه مع الأفعال المركبة، من مثل up في make up ، وoff في take off، وغيرها.

ينظر:

Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics..., p. 279- 280, 299. Trask, A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics, p. 201. [المترجم]



(الرسم التوضيحي ٧ – ٩)

إن مكونات الجمل تشتغل في بنية اللغة على نحو يمكن التنبؤ به. وذلك لأن اللغات الإنسانية تكاد تستنفد كلَّ الاحتمالات الممكنة لحركة هذه المكونات، في قوالبَ قليلةٍ متكررة. وعلى ذلك، ففي وُسْع اللسانيين أن يُنمّوا ذخيرةً من "الاختبارات" الخاصة؛ ليتبينوا بها مواقع وجود مكوّن بعينه، في لغة بعينها. وقد تكشّف لنا مثال: (up the clock) عن أحد الاختبارات الخاصة بالمكون ذي الجار القبلي **prepositional phrase** (أي العبارة التي تشتمل على حرف جر قبلي، ويُرمَز لها بالحرفين **PP**). وهو أن حرف الجر لا يمكن أن يقع مباشرة بعد المكون الاسمي (**NP**) الذي يتعلق به. فإذا كان لا يجوز لك أن تقول:

***The mouse ran the clock up.**

فكذا لا يجوز لك أن تقول: ***Fenella went the woods into** [1]

---

(١) صحتها: Fenella went into the wood ("فنِلّا" دخلت الغابة). [المترجم].

ولا أن تقول: *Doris swam the bridge under[1]

فدعونا – إذن – نستزدْ من دراسة فكرة "الاختبارات" هذه، عبر دراسة "اختبارات المكونات الاسمية" .

اختبارات المكونات الاسمية:

يتكرر وقوع المكونات الاسمية في اللغة الإنجليزية، في مواقع خاصة بعينها يمكن حصرها. ومنها المواقع الأساسية الآتية:

- في بداية الجملة الاسمية سابقةً الفعل:

The cat ate the canary.

(القطة أكلت طائر "الكناري")

- في نهاية الجملة تاليةً الفعل:

The canary feared the cat.

(طائر "الكناري" أفزع القطة)

- بعد (by) في الجملة المبنية للمجهول:

The canary was eaten by the cat .

(طائر "الكناري" أكلته القطة)[2]

- بعد الفعل المساعد في الجملة الاستفهامية:

Did the cat eat the canary ?

(هل أكلت القطة طائر "الكناري"؟)

---

(١) صحتها: Doris swam under the bridge ("دوريس" سبحت تحت الجسر). [المترجم].

(٢) يلاحظ أن ترجمة هذه الجملة الإنجليزية المبنية للمجهول ترجمةً حرفية إلى العربية، سوف يفضي إلى الجمع بين بناء الفعل للمجهول، وذكر الفاعل (طائر الكناري أُكل بواسطة القطة). وهذا ما لاتسوّغه بنية الجملة العربية. [المترجم].

خلاصة:

يمكن إعداد اختبارات لغوية للتحقق من وجود أحد مكونات الجمـل، أو غيابهـا. ومن ذلك: الاختبارات الخاصة بالمكونات الاسمية.

ولا شك – بعد– في أن الأنواع الأخرى من المكونات، قد تقع في بعـض هـذه المواقع. ولكن المكونات الاسمية – من مثل **the cat** تتميز بأنها يمكن أن تقـع في كـل هذه المواقع. وعلى ذلك، فإذا اشتبه علينا أحد المكوِّنات: أهو مكـون اسـمي، أم لا؟ أمكننا أن نوظِّف هذه الاختبارات، وغيرها؛ لنقف على حقيقة ذلك. ودونك الجملتين الآتيتين، فتأملهما:

Uncle Harry kicked the cat. ("العم هاري" ركل القطة)

Suddenly Harry kicked the cat. (فجأة ركل "هاري" القطة)

فحتى نتبين الرأي في الكلمتين الأوليين من هاتين الجملتين: هـل همـا يمـثّلان مكونين اسميين أم لا؟ يمكننا أن نوظف اختباراتِ المكونات الاسمية التالية:

- في بداية الجملة سابقة الفعل:

Uncle Harry kicked the cat.

Suddenly Harry Kicked the cat.

- في نهاية الجملة تاليةً الفعل :

The cat scratched Uncle Harry.

(القطة خربشت "العم هاري")

*** The cat scratched suddenly Harry.**

- بعد **by** في الجملة المبنية للمجهول:

The cat was kicked by Uncle Harry.

*** The cat was kicked by suddenly Harry.**

- بعد الفعل المساعد في الجمل الاستفهامية:

Did Uncle Harry kick the cat?

(هل ركل "العم هاري" القطة؟)

*** Did suddenly Harry kick the cat?**

إن فشل (عبارة) **suddenly Harry** في اجتياز معظم "اختبارات المكوّن الاسمي" السابقة، يدل على أنها لا يمكن أن تكون مكونًا اسميًا. في حين يرجّح نجاح الكلمتين المتتابعتين **Uncle Harry** في اجتياز تلك الاختبارات أنهما معًا يمثّلان مكونًا اسميًا.

قوالب تركيبية إضافية:

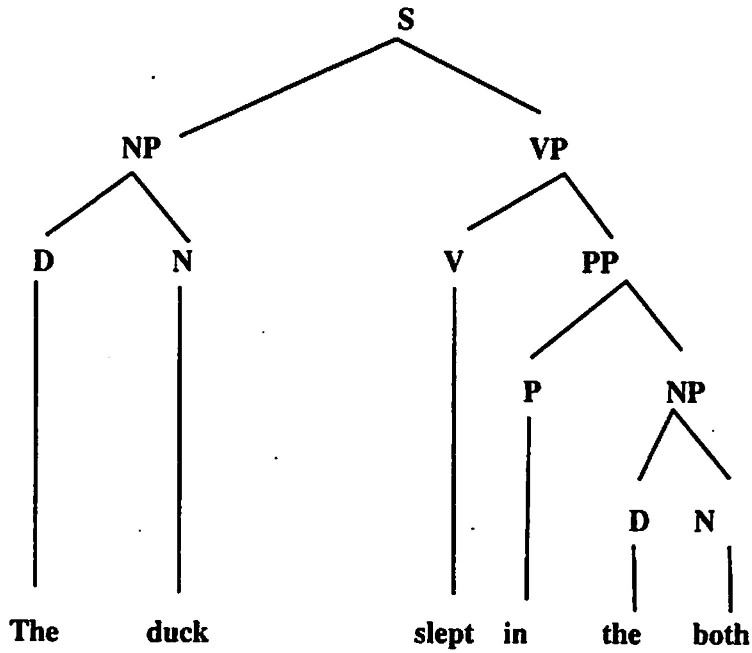
اقتصر ما عرضناه من "قواعد إعادة الصياغة" حتى موضعنا هذا، على ما تعامل من هذه القواعد مع بنية تركيبية واحدة، هي البنية التي تأسستْ عليها جملة **The duck bit the burglar**. فدعونا الآن نعرض لمزيد من القوالب التركيبية الأخرى. تأمل معي الجملة الآتية:

The duck slept in the bath. (البطة نامت في الحمام)

فهذه الجملة تنقسم إلى نفس المكونين الأساسيين (NP VP) اللذين تنقسم إليهما جملة **The duck bit the burglar**. بيد أن ثمة اختلافًا بينهما في بنية المكون الفعلي VP. ففي جملة **The duck slept in the bath** يقفو الفعلَ مكوِّنٌ ذو جارّ قبلي (الرسم التوضيحي ٧ – ١٠).

وتقتضي تلك البنية التركيبية قاعدتي إعادة الصياغة الإضافيتين الآتيتين:

VP	⟶	**V**	**PP**
(مكون فعلي)		(فعل)	(مكون ذو جار قبلي)
PP	⟶	**P**	**NP**
(مكون ذو جار قبلي)		(جار قبلي)	(مكون اسمي)



(الرسم التوضيحي ٧ – ١٠)

ولكنني ألفتُ – في المقابل – إلى أن المكوّن ذا الجار القبلي (PP) لا يمثّل مكونًا أساسيًا في البنية التركيبية لهذه الجملة، بل هو مكوّن إضافي اختياري. يدل على هذا أن قولنا: **The duck slept** (البطة نامت) يمثّل جملةً مستقلة صحيحة الصياغة. ويعبَّر عن هذا الحال، ونحوه، في "قواعد إعادة الصياغة"، بوضع قوسين حول "المكون ذي الجار القبلي"؛ للتنويه بأن ما بينهما يمثّل مكوّنًا اختياريًا، لا أساسيًا، في الجملة:

VP ⟶ V (PP)

فقاعدة إعادة الصياغة هذه – إذن – تتأسس عليها بنية كلٍّ من الجملتين:

The dock slept in the bath.

The duck slept.

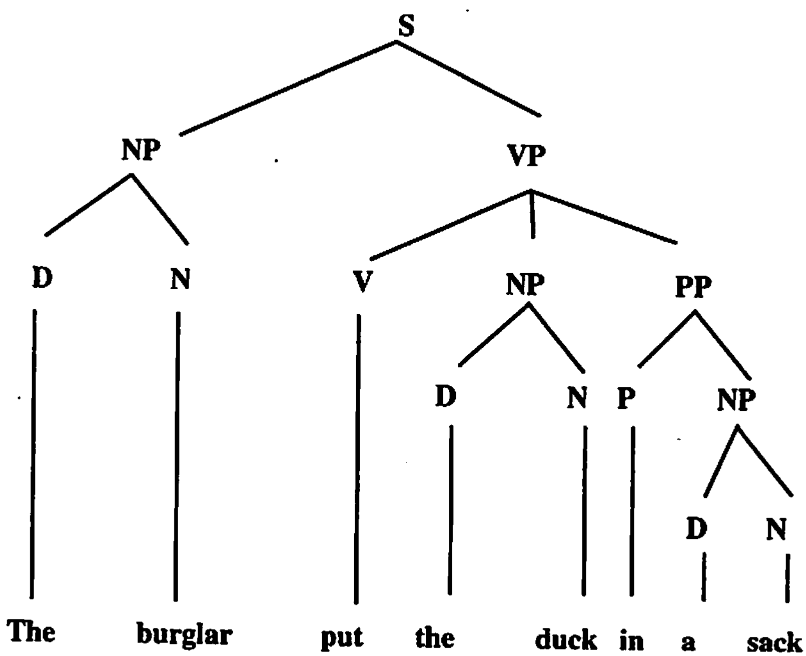
والفرق بينهما أن الجملة الأولى قد تضمنتْ المكوّن الاختياري (PP)، وأن الجملة الثانية قد أسقطته.

ودعونا- بعد- ننظر في جملة أخرى:

The burglar put the duck in a sack.

(اللصّ وضع البطّة في كيس)

فالبنية التركيبية لهذه الجملة تختلف عن نظيراتها مما سبق لنا مناقشته هاهنا؛ من حيث إنه يلزمها أن تشتمل على مكون اسمي NP ، ومكون ذي جار قبلي PP، بعد الفعل الواقع بها (الرسم التوضيحي ٧-١١).



(الرسم التوضيحي ٧ - ١١)

وذلك لأن حذف أي منهما سوف يفضي إلى تكوين جملة غير صحيحة التركيب **:ill- formed**

* The burglar put the duck. * The burglar put in a sack.

وستصبح "قاعدة إعادة الصياغة" في هذه الحالة، كالآتي:

VP ⟶ V NP PP

(مكون ذو جار قبلي) (مكون اسمي) (فعل) (مكون فعلى)

فقد أصبح لدينا- إذن- حتى موضعنا هذا، ثلاث قواعد مختلفة من قواعد إعادة الصياغة المتعلقة بالمكون الفعلي (VP) في اللغة الإنجليزية. وتلكم هي:

1- VP ⟶ V NP

مثل: The duck bit the burglar. (البطة عضت اللص)

2- VP ⟶ V (PP)

مثل: The duck slept. The duck slept in the bath.

(البطة نامت) (البطة نامت في الحمام)

3- VP ⟶ V NP PP

مثل: The burglar put the duck in a sack.

(اللص وضع البطة في كيس)

ثم قد يكون من المفيد- بعد- أن نجمع بين هذه القواعد الثلاث المنفصلة. ويتمثل أحد الاقتراحات المطروحة لإنجاز ذلك، في أن نرقّم الأنواع المختلفة للفعل، كالآتي [من اليمين إلى اليسار]:

V1 للأفعال التي من مثل: bit (عض).

V2 للأفعال التي من مثل: slept (نـــام).

V3 للأفعال التي من مثل: put (وضع).

ثم نحصرها في شكل آخر من الأقواس، هو { }، يوظَّف للدلالة على وجود احتمالات بديلة:

$$VP \longrightarrow \left\{ \begin{array}{lll} V1 & NP & \\ V2 & (PP) & \\ V3 & NP & PP \end{array} \right\}$$

ويعنى هذا الشكل ما يلي: "أَعِدْ صياغة المكون الفعلي VP، على أنه: إما V1 NP، أو V2 (PP)، أو V3 NP PP"(١). وألفت -بعد- إلى أننا إذا رمنا حصر كلٍّ أنواع البدائل المتاحة للمكون الفعلي (NP) في اللغة الإنجليزية، لازدادت "قواعد إعادة الصياغة" طولا، وتعقدًا، على نحو يخرجها عن حَدّ الاعتدال المطلوب. وقد يكون الحل الأمثل لذلك أن نستبقى "قواعد إعادة الصياغة" في صورتها البسيطة، ونستعملها جنبًا إلى جنب مع أحد معاجم اللغة، الذي يحدد لنا البنية التركيبية المرتبطة بكل فعل. وذلك من مثل الآتي:

bit	**V**	**[- NP]**
slept	**V**	**[- (PP)]**
put	**V**	**[- NP PP]**

حيث تُكتب الوحدة المعجمية المعنية أولا، ثم يُنَصّ إلى جوارها على هُوِيَّتها النحوية، وهى هنا أنها "فعل" V. ويتلو ذلك -بين قوسين مربعين- النصُّ على البنية التركيبية المرتبطة بها. وأما الشرطة الطويلة [ــ] فتعين الموقع الذي يحتله الفعل في هذه البنية. وعلى ذلك، تكون دلالة الشكل [NP –] هي: "الفعل المعنيّ يجب أن يتبعه مكوّن اسمي".

إن استعانتنا بمثل هذه "المداخل المعجمية"، يتيح لنا أن نجتزئ بـ"قاعدة إعادة صياغة" واحدة فقط، للأنواع الثلاثة السابقة. وهى:

$$VP \longrightarrow V \quad (NP) \quad (PP)$$

---

(١) أو بعبارة أوضح: أن المكون الفعلي (VP) يمكن أن يتحقق- في الإنجليزية- في الصور التركيبية الآتية (أو أن يتألف منها): فعل من النوع الأول (متعد) يتبعه مكون اسمي (NP)، أو فعل من النوع الثاني (لازم) قد يتبعه مكون ذو جار قبلي (PP)، أو فعل من النوع الثالث يتبعه مكون اسمي (NP) وآخر ذو جار قبلي (PP). [المترجم].

ودلالتها: "يتألف المكوّنُ الفعلي من فعل يُتبع اختياريًا بمكوّن اسمي، أو بمكون ذي جار قبلي، أو بهما معًا". وهى تشرح لنا كلّ الاحتمالات التي ناقشناها لتوّنا، بحيث نصبح مقيَّدين بنوع معين من الأفعال، يناسب البنية التركيبية المختارة. فمثلا: هَبْ أننا قد اخترنا المكونين الاختياريين NP و PP، فلا مَعْدَى لنا آنئذ عن انتقاء فعل يُتبع بمكون اسمي، ومكوّن ذى جار قبلى. وسيكون هذا الفعل - في حالتنا هذه - هو **put**. وكذلك إذا اخترنا الفعل بمفرده، فسيكون الفعل المناسب المنتقَى حينئذ هو **sleep**.

إن الاستعانة بمعجم يشتمل على تلك التفاصيل الخاصة بالأفعال، سوف يغنينا - وخاصة إذا اتسع ليشمل الأنواع الأخرى للكلمة - عن قواعد الاستبدال، من مثل:

V → bit , N → burglar

ودعونا -إذن- نلخص "قواعد إعادة الصياغة" والمداخل المعجمية، لجملنا السابقة، كالآتي:

The duck bit the burglar.

The duck slept.

The duck slept in the bath.

The burglar put the duck in a sack.

أ- قواعد إعادة الصياغة:

S → NP VP

VP → V (NP) (PP)

NP → D N

PP → P NP

ب- المعجم:

burglar	N	
duck	N	
sack	N	
bath	N	
bit	V	[− NP]
slept	V	[− PP]
put	V	[− NP PP]
the	D	
a	D	
in	P	

ولا شك- بعد- في أننا إذا توفّرنا على دراسة مادة علمية أكبر من تلك التي عرضنا لها هاهنا، فستكون القواعد-وكذا المعجم- أكثر تعقيدًا. فمثلا: لو ضمنّا الدراسة اسمًا من أسماء الأعلام، مثل: Donald "دونالد"، لتوجّب على المعجم أن يعيِّن لنا أي الأسماء يستعمل مسبوقًا بمحدِّد، مثل: The duck، وa sack، وأيها يستعمل غير مسبوق بمحدد، مثل: Donald ؛ إذ إننا لا نقول: a Donald* . ومهما يكن من أمر، فلقد نهضنا هاهنا بوضع القواعد المتعلقة بالقوالب التركيبية للجمل محلّ الدرس، وأنجزنا ذلك بأكبر قدر ممكن من الاختزال.

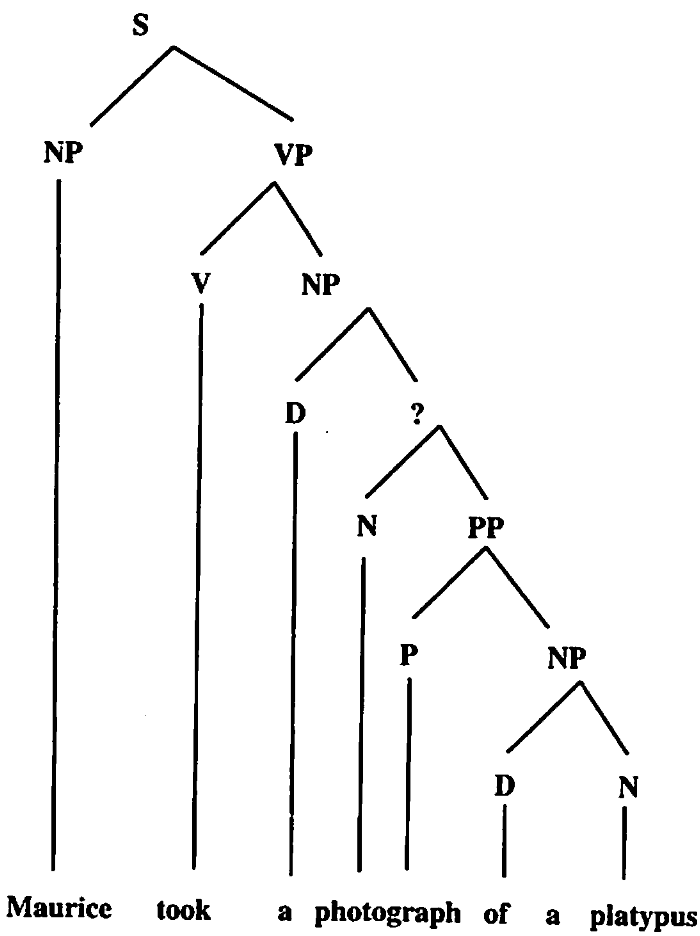
> **خلاصة:**
>
> يمثل الجمع بين "قواعد إعادة الصياغة"، والمعجم، منهجية ممتازة؛ للوقوف على البِنَى التركيبية الأساسية للجمل.

طبقات أفرع المخططات الشجرية

تميزت المخططات الشجرية التي عرضنا لها- حتى موضعنا هذا- باشتمالها على طبقات قليلة نسبيًا. ولكن انظر معي في جملة مثل تلك الآتية:

Maurice took a photograph of a platypus.

("مـــوريس" الـــتقط صـــورة فوتوغرافيـــة لأحـــد حيوانـــات "منقـــار البطة")[1].



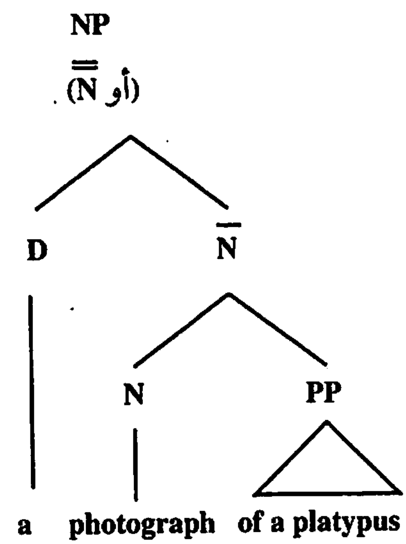
(الرسم التوضيحي ٧-١٢).

فهذا التتابع من الكلمات المؤلف مـن **a photograph of a platypus** يمثّـل- كما هو بيِّن- مكونًا اسميًا. كما أن كلا من الكلمتـين **photograph** و **platypus** يمثـل

(١) سبق التعريف بهذا الحيوان في الفصل الثاني (ما اللغة؟)، (هامش ص٥٨). [المترجم].

اسمًا على حِدَة. وتكمن المشكلة- بعد- في تلك "العقدة"node الاعتراضية المؤلَّفة من photograph of platypus. فهي تبدو شيئًا ما وسطًا بين الاسم، والمكون الاسمي التام. فماذا تكون إذن؟ وكيف نتعامل معها؟

يتمثل أحد الحلول المجدية في هذا الصدد، في إعطاء التصنيف $\bar{N}$ لذلك الشيء الذي لا هو بالاسم البسيط (N)، ولا هو بالمكون الاسمي التام (NP). (تنطق $\bar{N}$: N bar اسم بـ"شرطة"؛ لأننا نضع شرطة فوق الـ N). ويُعطى بعض الدارسين – كذلك – التصنيف $\bar{\bar{N}}$ (N- double bar اسم بـ"شرطتين") للعبارة برمتها. (يلاحظ في الرسم التوضيحي ٧ – ١٣ أننا قد استعضنا عن التفاصيل المتعلقة بـ"المكون ذي الجار القبلي" PP برسم مثلث في موضع تلك التفاصيل. وهذا أسلوب أمثل نتنكَّب به إهدار الوقت والمساحة، حين تكون التفاصيلُ غير مهمة للمسألة محلِّ الدرس).

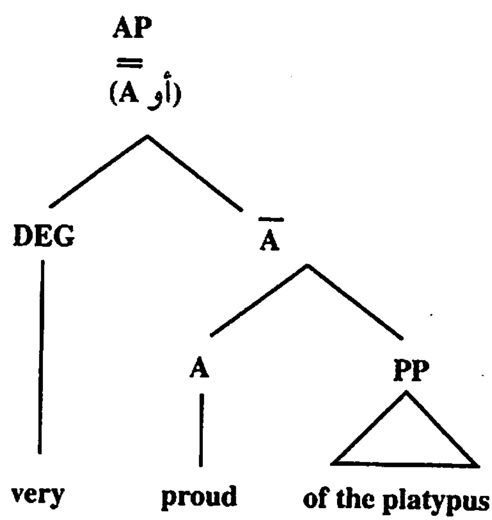


(الرسم التوضيحي ٧ – ١٣)

إن لاستعمال "الشرطات" مزيةً إضافيـــة مهمـة. وتلكم هي أنه يمكن استعمال تلك الشرطات مع الصفات (adjective = A)، والأفعال، وحروف الجر القبلية، فضلا عن استعمالها مع الأسماء. ويسهل علينا حينئذ أن نقف على أوجه

التماثـل في البنيـة التركيبيـة بـين المكونـات الاسـمية (NPs)، والمكونـات الوصـفية (adjective phrases = APs)، والمكونات الفعليـة (VPs)، والمكونـات ذات أحـرف الجر القبلية (PPs). وهو ما لم يكن تام الوضوح من قبل .

ومما يتكشّف من أوجه التماثل تلك: أن الكلمة الرئيسية head في أي من تلك المكونات، تكاد تقع في نفس الموقع الذي تحتله الكلمةُ الرئيسية في سائر المكونات الأخرى. وبعبارة أخرى: يغلب أن يكون الموقع الذي يحتله الاسم في أي مكون اسمي (NP)، مناظرًا للموقع الذي تحتلّه الصفةُ في أي مكون وصفي (AP)، والذي يحتله الفعل في أي مكون فعلي (VP) ، وحرف الجر في أي مكون ذي جار قبلي (PP). فمثلا: نجد أن المكون الوصفي (AP): very proud of the platypus (فخور جدًا بحيـوان "منقار البطـة") يشبــه - في قالبه التفريعـي- المكــون الاسمــي (NP): a photograph of the platypus (صورة فوتوغرافية لحيوان "منقار البطة") (يلاحظ في الرسم التوضيحي ٧ – ١٤ أن الحروف DEG تمثل اختصارًا لكلمة degree)[1].



(الرسم التوضيحي ٧ – ١٤)

---

(١) يوظَّف مصطلح degree (الدرجة)- في الدرس اللساني الغربي - لوصف التمايز الحاصل بين الصفات، من حيث مدى تحقق مضمونها: زيادة، أو نقصًا. وذلك كما يقال - في الإنجليزية: big – bigger – biggest . وكذا قد يعبَّر عن "الدرجة" باستعمال وحدات معجمية مستقلة، من مثل very، وغيرها.

ينظر: Trask, A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics, p. 74. [المترجم].

وألفت- بعد- إلى أنه ما تزال هناك بعض التفاصيل التي علينا أن نتبيّنهـا، فـيما يتعلق بما يسمى **X- bar syntax** (نحو الشرطات)[1]، وهو الاسم الذي يُطلَق على هذه المنهجية في التعامل مع القوالب التركيبية للجمل. فمثلا: مـا زال هنـاك خـلافٌ بـين اللسانيين حول عدد "الطبقات" من "الشرطات" التي ينبغي القولُ بها وإقرارهـا، في هذا الضرب من التحليل[2].

وتبقَّى – بعد- منهجيةٌ أخرى تتعلق بمعالجة "الطبقـات" التـي تتـألف منهـا جمل اللغة. وهى المنهجية التي ظهرتْ في السنوات الأخـيرة، وتركَّبـتْ – جزئيًـا مـع "نحوِ الشرطات". وتزعم هذه المنهجية أن للعبارات الوظيفية – وهى العبارات التي تتصدَّرها كلماتٌ وظيفية – بنيةً تركيبيـة مـشابهة لبنيـة العبـارات المعجميـة (ينظـر في "الكلمات الوظيفية":الفصل السادس). فمثلا: يمكننا أن نُصنِّف الزوائد التـصريفية المتـصلة بالأفعـال، والأفعـال المـصاحبة لهـا، عـلى أنهـا "عبـارات ذات زوائـد تصريفية **inflectional phrases** (ويرمـز لهـا **IP**). وعـلى ذلـك، تُـصنَّف العبـارات **to fish**، و**will fish**، و **fished** ، على أنها جميعًا عبارات ذات زوائد تـصريفية. ويكثـر وقوع الزائـدة التـصريفية (**I**)- ويـشار لهـا أحيانًـا بــ **INFL**- قبـل الفعـل في اللغـة الإنجليزية، من مثل الزوائد: **to** ، و **will** . ولكنها قـد تقـع بعـده- كـذلك – كـما في **fished** (الرسم التوضيحي ٧- ١٥)

---

(١) أو: (نظرية) سَ (للتمثيلات المقولية) [د. عبد القادر الفاسي الفهري: البنـاء المـوازى، ص٢٢)، أو: (فرضـية) زمرة السينات [د. سمير استيتية: اللسانيات ص١٨٥]، أو (نظرية) سَ لبنية العبارة [د. مرتـضى جـواد بـاقر: مقدمة في نظرية القواعد التوليديـة، ص٩٧]، أو: (نظريـة) س- مـدّة [دوكـرو، وشـافار: المعجـم الموسـوعي الجديد في علوم اللغة (ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صـمود) ص ٣٩٦]، أو: س- بـار [نوفـو: قـاموس علوم اللغة (ترجمة صالح الماجري)، ص٢٦٩]، أو... إلخ. [المترجم].

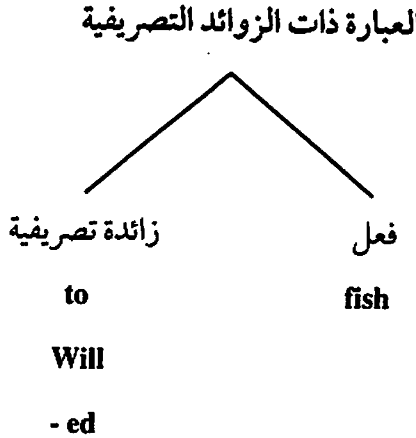
فالرمز X (=س) يشير – إذن – في هذه الفرضيـة المعنيـة بتحليـل بنيـة المكونـات (أو العبـارات)، إلى أي فصيل معجمي (اسم – فعل – صفة...) يمكن أن يقع رأسًا لأي من هذه المكونات (أو العبارات). وأما "الشرطة" bar موضوعةً فوق رمز ذلك الفصيل، فتشير إلى مستوى التحليل في البنيـة الـشجرية للعبـارة محل الدرس. [المترجم].

(٢) مما يحسن التذكير به – ها هنا- بشأن هذه الفرضية:

أ- أنهـا تمثـل توسـيعًا لــ"قواعـد بنيـة المكوّنـات" phrase structure rules التـي تـضمنها تـصور "تشومسكي" القديم عن النحو التحويلي.

ينظر – مثلا: Riley & Paker, English Grammar, p. 202.

ب- وأنهـا تمثـل فرضـية مـن سـبع فرضـيات تـضمنتها أطروحـة "تشومـسكي" المعروفـة باسـم Government and binding theory (نظرية العمل والربط [النحويين]). وسيأتي للمؤلفة فـضل كلام عن كل ذلك في فصول الكتاب الثلاثة الأخيرة. [المترجم].



(الرسم التوضيحي ٧ – ١٥).

الجمــل المعقّــدة:

لقد افترضنا – حتـى الآن – أن كـل الجمـل تتميـز بالبسـاطة التـي تتميـز بهـا الجملتان:

The duck bit the burglar.

The mouse ran up the clock.

بيد أن الأمر – في الواقع – على خلاف ذلك. فثمة جمل كثـيرة تـشتمل بـدورها على أبنية تركيبية تشبه الجمل: إما متصلة بها، أو متخللة أجزاءها. ودونك المثال الآتي، فتأمله:

Archibald played tennis, and Peter went fishing.

("أرشِبُلْد" لعب التنس، و"بيتر" ذهب للصيد).

فلدينا في هذا المثـال جملتـان فرعيتـان تـساوتا في الأهميـة، واتـصلتْ إحـداهما بـــالأخرى؛ فتألفـــتْ مـــنهما جملـــة واحـــدة. وتُـــسمَّى هـــذه (العمليـــة) بـ"العطف"**conjoining**. ويتأتى – من الناحية النظرية – أن يتعاطف عدد غير محدود من الجمل:

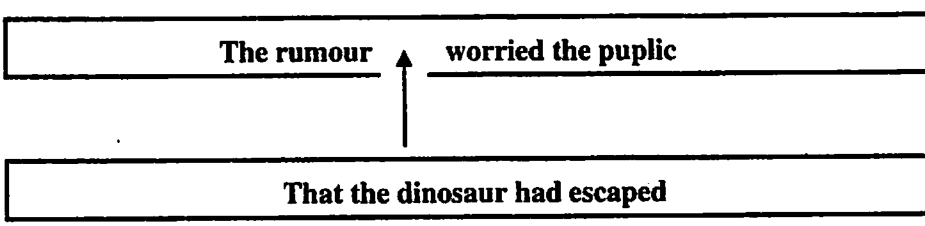
Archibald played tennis, and Peter went fishing , and Pip played cricket, and Mary washed her hair, and Drusilla climbed the Eiffel Tower.

("أرشِبُلْد" لعب التنس، و"بيتر" ذهب للصيد، و"بِب" لعب "الكريكت"، و"مارى" غسلت شعرها، و"دزُوسِلا" صعدت برج"إيفل")

وليس "العطف" هو العملية الوحيدة التي تترابط بها الأبنيةُ التركيبية الشبيهة بالجمل. فنحن نلاحظ اشتمال بنية اللغة الإنجليزية – مثلا– على أمثلة جِدٍّ كثيرة لجمل فرعية تتخلل أجزاء الجملة الواحدة الأساسية. وتُعرَف هذه (العملية) بـ"الإدماج" **embedding**، كما في المثال المعروض في الرسم التوضيحي(٧-١٦):

The rumour that the dinosaur had escaped worried the public

(الإشاعة القائلة بأن الديناصور قد هرب أفزعت الجمهور) .



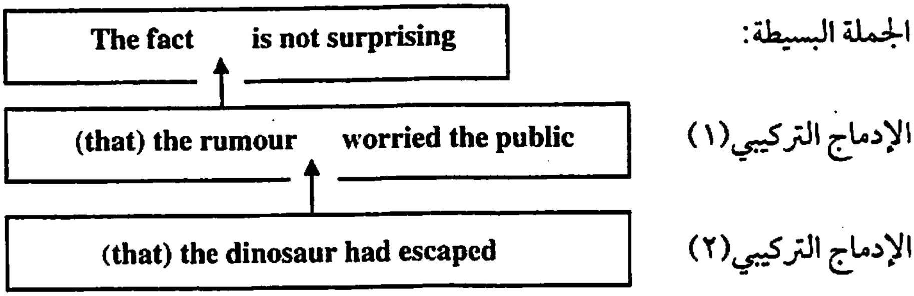
(الرسم التوضيحي ٧-١٦)

ويتأتى لأية جملة – من الناحية النظرية– أن تُدمِج في بنيتها عددًا لا نهاية له من الجمل الفرعية. ففي الجملة الآتية:

The fact that the rumour that the dinosaur hat escaped worried the public is not surprising.

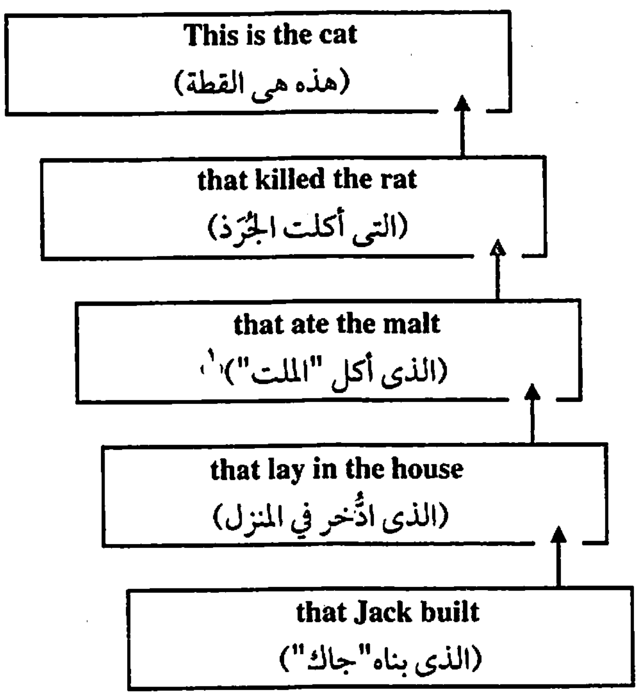
(الحقيقة المتمثلة في أن الإشاعة القائلة بأن الديناصور قد هرب أفزعت الجمهور ليست [حقيقة] مدهشة).

نلاحظ أن لدينا جملة بسيطة قد أُدمجت فيها جملتان فرعيتان أخريان (الرسم التوضيحي ٧- ١٧).



(الرسم التوضيحي ٧- ١٧)

ودونك- بعد- مثالا آخر لـ(عملية) الإدماج التركيبي، تجسّده أغنية الأطفـال القديمة الآتية (الرسم التوضيحي ٧- ١٨):



(الرسم التوضيحي ٧-١٨)

---

(١) الـ"ملت": نوع من الشعير، يُنقع في الماء، حتى يبدأ في الإنبات، ثم يجفَّف. وهو يستعمل في صناعة خمور بعينها. [المترجم].

إن عمليتي "العطف" و"الإدماج التركيبي" هاتين تكشفان لنا عن سمة مهمة من سمات اللغة الإنسانية، هي سمة "التكرارية **recursion**. وتشير هذه السمة إلى ما نعاينه من إمكانية استعمال التركيب اللغوي نَفْسِه استعمالا متكررًا. وعلى ذلك، فلا يوجد حَدٌّ ثابت لطول الجمل في اللغة. ويترتب على اعتبار هذه السمة نتائجُ مهمة. منها: أننا لن نستطيع أبدًا أن نضع قائمة كاملة بكلّ الجمل الممكنة في أية لغة. ولا مَعْدَى لنا – إذن– عن أن نتنكّب وضع هذه القوائم، وأن نجتزيء باستنباط نظام القواعد الذي تأسس عليه تكوينُ تلك الجمل.

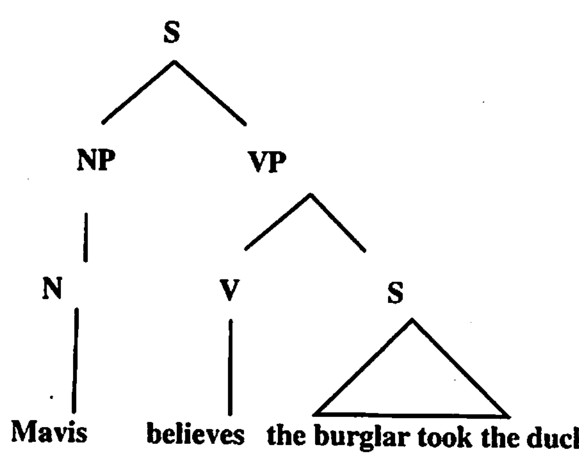
ويسهل علينا كلَّ السهولة - بعد - أن نُدمج سمة "التكرارية" هذه، في "قواعد إعادة الصياغة"، إذا جاز لنا أن نعيد صياغة رمز مثل **VP** بحيث يشتمل على **S** (جملة)، كالآتي:

VP ⟶ V S

حيث تتيح لنا هذه القاعدة أن نولّد جملة مثل تلك الآتية:

Mavis believes the burglar took the duck.

(الرسم التوضيحي ٧-١٩) ("مافِس" تعتقد أن اللص قد أخذ البطة)



(الرسم التوضيحي ٧ – ١٩).

وسوف يلزمنا - بعد - أن نضم هذه القاعدة إلى سائر "قواعد إعادة الصياغة" الخاصة بالمكون الفعلي VP، مما سبق لنا مناقشته في هذا الفصل.

لقد عُني فصلنا هذا - حتى الآن - ببيان الكيفية التي يحلّل بها اللسانيون القوالبَ التركيبية للجمل. واهتمّ - في هذا الصدد - اهتمامًا خاصًا باللغات الترتيبية، أي تلك التي تعتمد رتبة الكلمة أساسًا لأداء المعنى التركيبي. وتتبقّى - بعد - مشكلاتٌ إضافية، ينطوي عليها البحث في اللغات غير الترتيبية. بيد أنني ألفت - بعد - إلى أن الاختبارات اللغوية المؤسسة على إمكانية استبدال أحد مكونات الجملة - أو أجزائها - بمكوّن آخر، تمثل اختباراتٍ أساسيةً لا مَعْدَى عنها في كل (عمليات) التحليل التركيبي للجمل.

الأفعال: التداخل بين "النحو والصرف" و"الدلالة":

تشغل الأفعالُ الفجوةَ التي بين كلٍّ من النحو والصرف، من جهة، وعلم الدلالة، من جهة أخرى. بمعنى أن البنية التركيبية المحيطة بالأفعال تَرفِدنا بمفاتيح ترشدنا إلى دلالاتها. ودونك الجملة الآتية التي لا معنى لها:

The wickwock jipped.

فمن الواضح في هذه الجملة، أن هذا الـ"wickwock" قد صنع شيئًا ما بمفرده. كأن يكون قد قفز، أو أصابته غُصّة، أو غيرها. وتأمل - كذلك - الجملة العديمة المعنى الآتية: **The wickwock grunched the mobe**

فهاهنا، قام هذا الـ"wickwock" بعمل شيء ما لشيء آخر (أوقعه عليه).

إن النظر في الأسماء التي تصحب الأفعال يكشف عن تمتعها بـ"أدوار دلالية" **semantic roles**، أو - حَسَبَ المصطلح الأحدث - بـ"علاقات [أو أدوار] محورية" **thematic relations**. وقد أُخذ الوصف **thematic** من كلمة **theme** (محور). وهي الكلمة التي يوظفها اللسانيون أحيانًا لتكون "لقبًا"، أو "تصنيفًا"، للأسماء التي تشترك في حدث ما، وإن لم تكن هي التي أحدثته، كما في قولنا:

The snowball (theme) rolled down the hill.

[كرة الثلج(= المحور) تدحرجت إلى أسفل التل].

ولكن: ما عدد "الأدوار الدلالية" المختلفة التي تشتمل عليها اللغة؟ لا شك أن بعض هذه الأدوار يتميز بالوضوح، كالأدوار الآتية: **agent** (القائم بالفعل/ الفاعل الحقيقي). وهو الذي يستهل حدثًا ما. و **patient** (الخاضع)(1). وهو الذي يخضع لذلك الحدث، كما في قولنا:

The dog (agent) chewed a bone (patient)

[الكلب (= القائم بالفعل) قَضَمَ قطعة عَظْم (= الخاضع للفعل)].

و **recipient** (المتسلم/ المتلقي). وهو الذي يتسلم شيئًا ما، كما في قولنا:

Paul sent a letter to Pasty.

("بول" أرسل خطابًا إلى "باستي")

Pasty received a letter from Paul.

("باستي" تسلمت رسالة من "بول")

ولكن "العلاقات [أو الأدوار] المحورية" لا تتسم دائمًا بهذا القدر من الوضوح الذي تمثله الجملُ السابقة. وانظر معي في الجملة الآتية:

Veronica leapt into the water. ("فيرونكا" قفزت في الماء)

فهل ينهض "الماء" هنا بدور "المتسلِّم"؟ أم أنه يمثِّل الهدف **goal** الذي استهدفته "فيرونكا"؟ ثم هب أن "فيرونكا" لم تقفز في الماء، بل "سقطتْ" فيه، فكيف نصنف هذا "السقوط" إذن؟ إن هذا المثال يكشف عن صعوبة تقرير عدد **"الأدوار"** التي تشتمل عليها اللغةُ الإنسانية، وكذا صعوبة تقرير أن علاقة ما ينطبق عليها هذا الدور، أو ذاك. ومهما يكن من أمر، فإن الهدف من هذا الضرب من الدرس هو أن نحدد عددًا من "الأدوار المحورية" التي يمكن توظيفها في وصف أية لغة إنسانية. وربما تثمر المناقشات المستمرة بشأن هذه العلاقات عن تحديدات أشمل، وأدقّ.

لقد عُني هذا الفصلُ - إذن- بالبحث في القوالب التركيبية للجمل، وكذا بالتنويه إلى ما بين التركيب والدلالة من تداخل. وأما فصلنا الآتي، فسوف يناقش الكيفية التي يعالج بها اللسانيون قضية المعنى.

---

(1) يلاحظ وجود تشابه جِدّ كبير بين دلالتي المصطلحين theme و patient، بحيث يصعب التفريق بينهما؛ مما حدا ببعض اللسانيين إلى دمجهما معًا. [المترجم].

فلنتذكر:

- يُطلَق على الأجزاء المكونة لبنية الجمل مصطلح **constituents** (مكونات). ويمكن تعيين هذه "المكونات" عبر اختبارات لغوية جرّبها اللسانيون، وثَبَتَ لهم صحتها، وفائدتها.
- يُطلَق على (عملية) تقسيم الجملة إلى أجزائها المكونة لها مصطلح **constituent analysis** (التحليل إلى المكونات).
- تتنوع الوسائلُ التي توظِّفها اللغات الإنسانية المختلفة في نظم كلمات الجمل، و"مكوناتها"، معًا.
- يمكن إظهار الطبقات المتتابعة لمكونات الجمل عبر مخطَّطات ذات شكل شجري.
- يوظِّف بعض اللسانيين مجازاتٍ مشتقةً من ألقاب العائلة؛ للإشارة إلى "العُقَد" **nodes** الواقعة على المخططات الشجرية. وذلك من مثل: الأم، والأخت، والبنت.
- يمكن التعبير عن المعلومات المدوَّنة على "المخطَّطات الشجرية" بطريقة أخرى، هي "قواعد إعادة الصياغة".
- يمثّل الجمع بين كلٍّ من "قواعد إعادة الصياغة"، و"المعجم"، منهجيةً جيدة لتحديد البنية التركيبية لأية لغة.
- يمكننا أن نقرر – بوجه عام – أن كل لغة من اللغات الإنسانية، تمتلك عددًا غير محدود من الجمل، يمكن لهذه اللغة أن تُنتجها. وذلك بسبب من اشتمال هذه اللغات على سمة "التكرارية"، أي القدرة على إعادة تشغيل القواعد التي تولِّد الجمل.
- يمثِّل العطف، والإدماج، صورتين مهمتين من صور تجسُّد سمة "التكرارية" في اللغة الإنسانية.
- يتداخل الدرسُ التركيبي مع الدرس الدلالي، وخاصة عبر الأفعال؛ لما تحمله من معلوماتٍ تركيبيةً، وأخرى دلالية.

٨

المعنـــى

يشرح هذا الفصلُ ما يحاول علماء اللسانيات أن ينجزوه حين يتعاملون مع "علم الدلالة" **semantics**. وهو الفرع المعرفي المعنيّ بدراسـة المعنـى. ويوضـــح أن معـاني الوحدات المعجمية **lexical items** (= **words**: الكلمات) تـترابط معًـا، في أبنيـة معجميـة معقّدة. ويلخص القول- كذلك – في الكيفية التي يمكن أن تُعالَج بها معاني الجمل.

يشار إلى دراسة المعنـى عـادة بمـصطلح **semantics** (علـم الدلالـة). وهـو مأخوذ من اللغة اليونانية، من الاسم **seme**، بمعنى: **'sign, signal'** (إشارة / علامة)، والفعل **semanio**، بمعنى: **'signal, mean'** (يشير/ يدل على). ويحاول اللسانيّ الذي يدرس المعنى أن يثقَف السبب الذي من أجله يمكن لكلـمات وتراكيـب خاصـة، أن تتجمع معًا على نحو يُقبل دلاليًا، في حين يُعْوِز ذلك كلماتٍ وتراكيبَ أخرى. فمـثلا: لابأس أبدًا بأن نقول:

My brother is a bachelor. (أخي أعزب)[1]

The camel sniffed the chocolate and then ate it.

(تشمَّم الجمل قطعة من "الحلوى"، ثم أكلها)

The platypus remained live for an hour after the hunter shot it.

(ظل حيوان "منقار البطة"[2] حيًا، لمدة ساعة، بعد أن رماه الصياد)

Socrates arrived yesterday.

(وصل سقراط أمس)

---

(١) يقـــال: رجـــل عَـزَب وأعـزب. كلاهــا صـحيح. ينظـر: لـسان العـرب (ع ز ب) ٤/ ٢٩٢٣. ود. محمد حسن عبد العزيز: في تطور اللغة العربية ص٢٠٢. [المترجم].

(٢) سبق التعريف بهذا الحيوان في الفصل الثاني (ما هي اللغة؟)، (هامش ص٥٨). [المترجم].

وليس هكذا الشأن في الجمل الآتية:

(1)"My brother is a spinster(2)! (أخي عانس)

The camel swallowed the chocolate and then ate it.!

(ابتلع الجمل قطعةً من الحلوى، ثم أكلها).

The platypus remained alive for an hour after the hunter killed it.!

(ظل حيوان "منقار البطة" حيًا، لمدة ساعة، بعد أن قتله الصياد)

Socrates arrived tomorrow!.

(وصل سقراط غدًا)

فهذه الجمل تتميز بأنها صحيحةُ الصياغة من الناحية التركيبية؛ حيث تشتمل على أسماء، وأفعال، وغيرها، متموضعةً في مواقعها التركيبية الصحيحة. ولكنها – في المقابل – جملٌ متناقضة contradictory. ولا يمكــن لمـن يـسمعها، مـن أهـل اللغـة الإنجليزية، أن يؤولهــا إلا إذا افترض أن المتلفظ بها قد أخطأ القول. ولـذا فقـد يـرد عليـه قـائلا: "A brother can't be a spinster, you must mean bachelor". (الأخ لا يمكن أن يكون عانسًا، لابد أنك تعني أنه أعزب).

(يلاحظ أن علامة التعجب تدل على أن الجملة المعنية جملة غير جائزة من ناحية المعنى).

خلاصة: يستطيع أهل اللغة أن يميزوا بين الجمل التي تحمل معنـى مفيـدًا، والأخـرى التـي تنطوي على تناقض، أو تُعْوِزها الإفادةُ أصلا. وكذا يمكنهم أن يدركوا أن ثمة جملا تتسم بالتماثل في المعنى، وأخرى غامضة وملبسة.

ويتطلع اللسانيُّ الذي يدرس علم الدلالة – كذلك – إلى معرفة الإجابة عـن السؤال الآتي: كيف يمكن لأي شخص يعرف لغـة مـن اللغـات، أن يفهـم عبـارات

(١) ستشير المؤلفة – في الفقرة التالية – إلى أن هذه العلامة تدل على أن الجملة مستحيلة دلاليًا. [المترجم].

(٢) جاء في Oxford Advanced Learner's Dictionary أن كلمة spinster تستعمل – اسمًا – للدلالة على المرأة التي لم تتزوج، وتجاوزت العمر المعتاد للزواج. فاللفظ خاص – إذن – بمن كان هذا شأنها من النساء، لا الرجال. وكذا فإن الغالب في العربية استعمال لفظ "العانس" وصفًا للمرأة التي هذا شأنها: "امرأة عـانس، مـن نسوة عُنّس وعوانس". ينظر: لسان العرب (ع ن س) ٤/ ٣١٢٩. [المترجم].

وجملا معينة، على أنها ذات معان متماثلة. فمثلا: ربما يتساءل: كيف يمكن للناس أن يدركوا أن الجمل الآتية:

Indicate to me the route to my habitual abode,

(دلني على الطريق إلى مقري المعتاد)

I am fatigued and I wish to retire,

(إنني مجهد وأرغب في أن آوى إلى الفراش)

I imbibed a small amount of alcohol approximately 60 minutes ago,

(لقد شربت كمية قليلة من "الكحول"، من نحو ستين دقيقة مضت)

And it has flowed into my cerebellum.

(وقد تدفقت إلى مخيخي)

... كيف لهم أن يدركوا الجمل السابقة على أنها تماثل تقريبًا الجمل الآتية:

Show me the way to go home,

(دُلَّني على الطريق إلى البيت)

I'm tired and I want to go to bed,

(إنني متعب وأريد أن آوى إلى الفراش)

I had a little drink about an hour ago,

(لقد تناولت قليلا من الشراب من نحو ساعة مضت)

And it's gone right to my head.

(وقد سرى مباشرة إلى رأسي)

ومن القدرات الإنسانية الأخرى التي تحتاج إلى تفسير: ما ثبت من أن لدى السامع قدرةً على إدراك الجمل الغامضة، من جهة، وعلى توظيف السياق المحيط بالكلام؛ لاختيار أرجح التأويلات الممكنة، من جهة أخرى. فمثلا: حين نقرأ الجملة الآتية:

Visiting great- aunts can be a nuisance.

(زيارة أخوات الجَدّ قد تكون مزعجة)

نجد أنها مُلْبِسة؛ فتُرى: هل أخواتِ الجَدّ هنّ اللاتي سيأتين لزيارتنا، أم نحن الذين سنذهب لزيارتهن؟ ولكن إذا صادف أحدُنا هذه الجملة في الشكل الآتي:

Visiting great- aunts can be a nuisance: I wish we didn't have to go.

(زيارة أخوات الجَدّ قد تكون مزعجة. أتمنى لو أنه ليس من الواجب علينا أن نذهب).

فلن يشك السامع في أننا نحن الذين سنذهب لزيارة أخوات الجَدّ، وليس العكس.

معنى الكلمة:

لا شك في أن مشكلة المعنى تتعلق – في المقام الأول – بمعاني الكلمات المفردة، أو – على نحو أدق – بمعاني الوحدات المعجمية **lexical items**؛ إذ إن كلمة **word** قد تكون مضللة، على نحو ما رأينا في الفصل السادس. فالأفعى المسماة **boa constrictor** (الأَصَلَة العاصرة)(١)، يتألف اسمها – كما سبق أن نوّهنا – من كلمتين مكتوبتين، ولكنها تمثل وحدة معجمية واحدة. وعلى ذلك، فحين نصادف جملةً من مثل:

My brother is a spinster. !

يلزمنا – أولا – أن نستعلم عن معنى كل من **brother** ، و **spinster**؛ حتى نقف على السبب الذي يقف من وراء حكمنا على هذا التتابع من الكلمات بأنه غير مقبول.

وثمة ثلاث نقاط تمهيدية تحتاج إلى توضيح في مسألة معنى الكلمة. فأما النقطة الأولى – وهي الأهم – فهي أننا سوف نُعنَى – في المقام الأول – بالكلمات ذات المحتوى الدلالي **contents words**، من مثل: **zoo** ، و **apple**، و **jump** ، و**red** ، لا بالكلمات الوظيفية **function words** التي من مثل: **of**، و **that** ، و**by** ، و **which**، ونحوها من الكلمات التي يتمثل الشطر الأكبر من دورها في إيضاح العلاقة بين

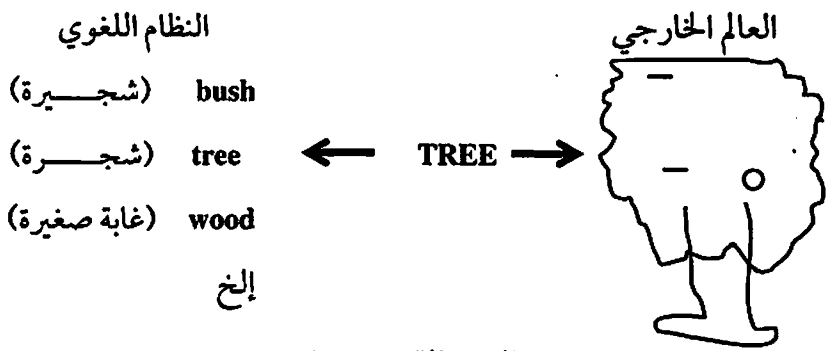
---

(١) سبق التعريف بها في الفصل السادس (الكلمات أو أجزاء الكلمات)، (هامش ص١٢٧) [المترجم].

الوحدات المكونة للتراكيب اللغوية (يلاحظ أن التفرقة بين هذين النوعين من الكلمات ليست تفرقةً حاسمة في كل الحالات).

وأما النقطة الثانية، فهي أننا لن نتعامل هاهنا إلا مع المعنى الوصفي المباشر – أو الصريح – للوحدات المعجمية. أي أننا سنغُضّ الطرفَ عما يسمى أحيانًا بالمعنى العاطفي **emotive**، أو الهامشي **connotation**، لهذه الوحدات. فمثلا: ستُعالَج كلمة **adolescent** (مراهق) على أنها تدل على ذلك الشخص ذي المرحلة العمرية التي تقع بين الطفولة والبلوغ، متجاهلين ما نعاينه من استعمال بعض الناس لهذه الكلمة، للإشارة إلى أن الشخص الموصوف بها قد يكون – كذلك – متسرعًا، وغِرًّا، وعنيدًا، ومتقلب المزاج.

وأما النقطة الثالثة – والأخيرة – فهي أننا يجب أن نكون على وعى بأن للمعنى وجودًا ذا وجهين. وبيان ذلك: أننا حين نشرع في دراسة معنى وحدة معجمية من مثل **tree**- يجب علينا أن نعتبر حيثيتين اثنتين: الأولى أن هذه الوحدة المعجمية تمثل عنصرًا واحدًا داخل نظام لغوى، عنصرًا يعتمد "معناه" على علاقاته بالكلمات الأخرى داخل هذا النظام. والحيثية الثانية: أن معنى هذه الوحدة يرتبط بطائفة معينة من الأشياء القابلة للإدراك في عالمنا الخارجي. (الرسم التوضيحي ٨-١).



(الرسم التوضيحي ٨-١)

وينظر اللسانيون إلى هاتين الحيثيتين على أن إحداهما تُكمِل الأخرى. وعلى ذلك، يَسْبِرون غَوْر إحداهما، ثم يُثَنُّون بالأخرى، بادئين بالعلاقات الداخلية بين العناصر اللغوية.

خلاصة:

يُعنَى اللسانيون – في المقام الأول- بدراسة العلاقات بين كلمات اللغة بعضها بعضًا، قبل أن ينظروا في العلاقات بين تلك الكلمات والعالم الخارجي.

وتمتلك كلُّ وحدة معجمية موقعها الخاص بها داخل النظام اللغوي، شأنها في ذلك شأن سائر كلِّ العناصر اللغوية الأخرى. ويستطيع اللسانيون- عبر دراسة العلاقات بين الوحدات المستقلة – أن يشكّلوا تدريجيًا صورةً للبنية العامة لمفردات أية لغة. وحين ينجز اللسانيون تلك المهمة، فلابدّ لهم من أن يتناسوا أن كلمة- من مثل **apple** (تفاحة)- تشير إلى شيء يمكن تعيينُه تعيينًا حسيًا في عالمنا الخارجي، وأن يركّزوا فقط على علاقات تلك الكلمة بالوحدات الأخرى، في اللغة محلِّ الدرس.

المجـالات الدلاليـة:

تقسّم كل لغة عالمنا، وتصنِّفه، بطرق مختلفة. ولستُ أعني بذلك ما نلاحظه أحيانًا من اشتمال بعض اللغات على تقسيمات فرعية أكثر من التي تشتمل عليها لغاتٌ أخرى، في مجالات دلالية بعينها. وذلك كأن نلاحظ – مثلا- أن العربية تشتمل على عدد هائل من المفردات المتعلقة بالأنواع المختلفة للإبل[1]، في حين تشتمل اللغة الإنجليزية على عدد متنوع من الكلمات المتعلقة بضروب مختلفة من الكلاب. إن ما أقصده أعْقَد من ذلك بكثير. فنحن نلاحظ أن مجموعة الكلمات التي تغطي مجالا دلاليًا بعينه، في لغة ما، ينذُر أن تتطابق مع مجموعة الكلمات التي يشتمل عليها هذا المجالُ الدلالي نَفْسه في لغة أخرى، ولو كان أهل هاتين اللغتين ينتمون إلى ثقافتين متشابهتين. ويوضّح اللسانيون هذه المفارقة – عادة- عبر التمثيل بالمفردات التي يشتمل عليها حقل الألوان. فمثلا: نعرف أن أهل اللغة الإنجليزية، وأهل اللغة

(١) يشتمل معجم العربية على مئات المفردات المتعلقة بالإبل، في حالاتها المختلفة: خِلْقتها (مفردات دالة على كافة أعضاء بدنها)، وتناسلها، وحَمْلها، وولادتها، ومراحلها العمرية، وغذائها، وألوانها، وأصواتها، وأدوائها، ومداواتها، وضروب سيرها، وأسماء تجمعاتها، وسماتها، وأظمائها (الظِّمْء: المدة بين الشَّرْبتين)... إلخ. وقد أفرد بعضُ أئمتنا – كالأصمعي (ت ٢١٦هـ)- مصنفاتٍ مستقلة للإبل، تجمع المفردات المتعلقة بها. [المترجم].

الويلزية **Welsh** قد عاشا في الماضي حياة متشابهة إلى حد ما. وبالرغم من ذلك، نجد أن الدلالة القديمة للفظ **glas** ، في اللغة الويلزية، لم تكن تغطى المساحة اللونية التي يُطلِق عليها أهل الإنجليزية لفظ **blue** فحسْب، بل كانت تغطى – كذلك- شطرًا من المساحات اللونية التي يُطلِق عليها أهلُ الإنجليزية لفظي **green** ، و **grey** (الرسم التوضيحي ٨-٢). وألفت – بعد- إلى أن هذه الحدود اللونية القديمة قد ذَوَتْ في عصرنا هذا، فغدت مطابقة لنظيراتها في اللغة الإنجليزية.

اللغة الويلزية	اللغة الإنجليزية
gwyrdd	**green**
glas	**blue**
IIwyd	**grey**

(الرسم التوضيحي ٨-٢).

بل حتى كلمات الألوان هذه، لا تعكس إلا مثالا مبسطًا- وربما خادعًا- لمثل هذه المفارقة؛ لأن كلمات هذا الحقل الدلالي تتمتع بحدود فارقة واضحة. وأما واقع الحال فيشهد بأننا كثيرًا ما نُواجَه بأمثلة أعقد بكثير من مثال حقل الألوان هذا. فمثلا: يستحيل عليك أن تترجم الجملة الإنجليزية: **The cat sat on the mat** ترجمةً دقيقة إلى اللغة الفرنسية، دون أن تضيف إلى ترجمتك معلوماتٍ إضافيةً بشأن الموقف الذي تصفه هذه الجملة. وربما تجد نفسك مضطرًا لأن تقرر تخمينًا حالَ هذه القطة: أكانت تجلس على **(paillassan) doormat**، أي على تلك القطعة من البساط التي توضع أمام أمام الأبواب لتُمسَح فيها الأرجل، أم أنها كانت تجلس على **(descent de lit)** (قطعة البساط التي توضع إلى جوار السرير)؟ فلا توجد في اللغة الفرنسية كلمات تناظر تمامًا

الكلمات الإنجليزية mat، أو rug ، أو carpet. والشائع هو استعمال كلمة tapis الفرنسية لترجمة كل من carpet و rug.

إن هذه الأمثلة تكشف لنا وجهًا من وجوه أهمية أن يشتغل اللسانيون بمعالجة البنية المعجمية (العامة) للغة، بدلا من أن يُعَنُّوا أنفسهم بدراسة كلمات اللغة، كلٍّ كلمة على حِدَة. إن كلمة green في اللغة الإنجليزية، لا تصبح تامة المعنى إلا حين تُقارَن بأخواتها في حقل الألوان؛ فهي تدل على اللون الذي بين "الأزرق" و"الأصفر". ولفظ "الأرجواني" يدل على اللون الذي بين "الأحمر" و"الأزرق". إن معالجة علم الدلالة للبنية المعجمية للغة، تكشف عن أن اللغة- كما كان شأنها في الدرسين: الفونولوجي والنحوي الصرفي- ليست كَوْمة سَقَطٍ تضم مجموعة عشوائية من الوحدات المختلفة. بل هي أشبه ما تكون بلعبة القطع الخشبية المقطعة jigsaw puzzle، حيث تتموضع كلّ قطعة خشبية في موضعها المناسب بين سائر القطع المحيطة بها، وحيث لا يكون للقطعة المفردة أيُّ معنى – أو قيمة – إذا حُرِّكتْ عن موضعها في الشكل العام. إننا بإزاء موقف تكون فيه:

... every word is at home

(كلُّ كلمة في مُسْتَقَرّها)

Taking its place to support the others.

(آخذة مكانها؛ لتعزز الأُخَر)

كما يقول "ت. س. إليوت"[1] **T. S. Eliot**

ولا شكّ – بعد- في قدر الإفادة الذي سيتأتى من دراسة مفردات اللغة، حال تجمعها في حقول معجمية **lexical fields**، يضم كلُّ حقل منها مفرداتٍ تتعلق بموضوع واحد. وحينئذ، يمكن أن تُعرَّف كل مفردة معجمية، في هذه الحقول، في ضوء مقارنتها بأخواتها في نفس الحقل المعجمي. فلفظ **adolscent** (مراهق) – مثلا –

(١) "توماس ستيرنس إليوت" Thomas Sterns Eliot (١٨٨٨- ١٩٦٥م): شاعر، وناقد، وكاتب مسرحي، بريطاني مشهور. حصل على جائزة نوبل في الأدب في العام (١٩٤٨م). من أعماله الشعرية المشهورة The Wast Land (الأرض الخراب/ اليباب). [المترجم].

يدل على ذلك الشخص الذي لم يَعُدْ **child** (طفلا)، ولكنه لم يصبح – بعد – **adult** (بالغًا). ولفظ **cool** (معتدل البرودة) يشير إلى درجة الحرارة التي تقع بين الوصف بـ **cold** (بارد)، و **warm** (دافئ). وكذا ينظر كثير من الناس إلى لفظ **copse** (الغَيْضة) على أنه يدلّ على ذلك الكائن الذي يقع بين **tree** (الشجرة)، و **wood** (الغابة الصغيرة) (الرسم التوضيحي ٨– ٣).

baby (طفل رضيع)	cold (بارد)	tree (شجرة)
toddler (طفل فى بداية مشيه)	cool (معتدل)	copse (غيضة)
child (طفل كبير)	warm (دافئ)	wood (غابة صغيرة)
adolescent (مراهق)	hot (حار)	forest (غابة كبيرة)
adult (بالغ)		

(الرسم التوضيحي ٨-٣)

وتتميز مثل هذه الدراسة بأنها يمكن أن تقدّم لنا صورةً مفيدة، بشأن الطريقة التي تتوزع بها مفرداتُ مجال دلالي بعينه. وإن كنا نخطيء لو افترضنا أن الوحدات المعجمية المتعلقة بمجال دلالي ما، تغطّي ذلك المجال كلّه، كفُسَيْفِساء ناعمة. فإن واقع الحال يكشف عن وجود كثير من الفجوات – وكذا التداخلات – المعجمية. فمثلا: يزعم بعض اللسانيين أن اللغة الإنجليزية تشتمل على فجوة معجمية، في مجال

الأشياء الميتة. ففي حين توجد كلمة **corpse** للدلالة على "جُثَّة الإنسان الميت"، وكلمة **carcase** للدلالة على "جثة الحيوان الميت"، فيُعْوِزنا - في المقابل - أن نجد كلمة مناظرة للدلالة على "النبات الميت".

خلاصة:

تمثل دراسة الكلمات التي يجمعها حقلٌ دلالي واحد بعينه، خطوةً مبكرة مهمة، في سبيل استكشاف السمات المعجمية للغة محلِّ الدرس، على أن يوضع في الحسبان أننا سنواجَه دائمًا بوجود فجوات معجمية، وتداخُل بين دلالات بعض الكلمات.

ولكن "الفجوات" المعجمية تمثّل أمرًا هيّنًا، إذا قسناها بـ"التداخلات" المعجمية التي ربما تمثل المشكلة الكبرى فيما نحن بصدده. فمثلا: نجد أن الكلمات: **cow** (بقرة)، و **princess** (أميرة)، و **tigress** (نمرة)، كلماتٌ متداخلة؛ من حيث دلالة كلٍّ منها على أنثى. وكذا تتداخل الكلمات: **calf** (عجل)، و **puppy** (جرو)، و**baby** (رضيع)؛ من حيث تقاسُم كلٍّ منها لمعنيي: حداثة السن، وعدم البلوغ. وأخيرًا: تتداخل الكلمات: **murder** (يقتل عمدًا)، و **assassinate** (يغتال)، و**execute** (يُعدِم)؛ من حيث تضمُّن كلٍّ منها لفكرة إنهاء الحياة. فتعالوا بنا - إذن- ننظر في الكيفية المناسبة للتعامل مع هذا الضرب من المشكلات الدلالية.

محاولات التغلب على مشكلة التداخل الدلالي:

تطلّع اللسانيون -في وقت مضى- إلى إثبات أن في وُسْعهم تجزئةَ الوحدات المعجمية، إلى عناصرها المكونة لها. حيث كان ثمة فرضية تقول بأن معاني الكلمات - شأنها في ذلك شأن الفونيمات (يراجع الفصل الخامس)- تتألف من ذخيرة من المكونات الأساسية. فمثلا: تتألف كلمة **bull** (ثور) من المكونات:

MALE/BOVINE/ADULT

(بالغ) (الفصيلة البقرية) (ذكر)

في مقابل كلمة **cow** (بقرة) التي تتألف من:

FEMALE / BOVINE / ADULT

(بالغ) (الفصيلة البقرية) (أنثى)

وفى مقابل كلمة **calf** (عجل) التي تشمل الآتي:

BOVINE / NON - ADULT

(غير بالغ) (الفصيلة البقرية)(1)

هذا، وتسمَّى هذه الطريقة في تحليل الوحدات المعجمية إلى عناصرها المكونة لها بـ"التحليل التكويني" **componential analysis**. ويبدو هذا الضرب من التحليل مألوفًا لنا نسبيًا؛ لأن معاجمنا تكثر من تقديم ضرب من التحليل مشابه له، فمثلا: تعرَّف كلمة **mare** (أنثى الخيل) في معجم "أكسفورد" الوجيز **Concise Oxford Dictionary** بأنها **'famale of equine animal'** (أنثى الحيوان المنتمى إلى فصيلة الخيول).

لقد كان يُظَنّ - في وقت مضى- أن "التحليل التكويني" يفسِّر لنا التداخلات الدلالية تفسيرًا طبيعيًا. حيث يستطيع أحدنا أن يشير إلى وجود المكونات التي تتقاسمها بوضوح الكلماتُ المتداخلة دلاليًا. فمثلا: توصف الألفاظ **cow** (بقرة)، و **princess** (أميرة)، و **tigress** (نمرة)، بأنها متداخلة دلاليًا؛ من حيث تقاسُمها للمكون الدلالي (الطبيعي): "أنثى". وكذا توسّع اللسانيون في استعمال هذا الضرب من التحليل ليشمل "الأفعال" أيضًا، من مثل:

die	**become not alive**
(يموت)	(يصبح غير حيّ)
kill	**cause become not allive**

---

(١) يلاحظ أن كلمة calf تطلق - في الإنجليزية- على ذكر العجل وأنثاه كذلك. وهذا ما يفسِّر عدم اشتمال التحليل التكوينى لمعنى هذا اللفظ على مكوّن خاص بالجنس كاللفظين السابقين. وأما العربية فتفرق بينهما بالتاء (عِجْل- عِجْلة). [المترجم].

(يتسبب في أن يصبح [كائن ما] غير حيّ) (يقتل)

murder **intentionally cause human benig become not alive**

(يتسبب عمدًا في أن يصبح إنسانٌ ما غير حيّ) (يقتل عمدًا)

slaughter **intentionally cause animate being not alive**

(يتسبب عمدًا في أن يصبح كائنٌ حيّ غيرَ حيّ) (يذبح)

ولكننا – في المقابل – نرى أن وصف معاني الكلمات، على هَدْى من أن هذه المعاني "مؤلفة" من كَوْمة من المكونات الدلالية المنفصلة، هو –للأسف– وصف يُعْوِزه قدرٌ من الدقة. وحُمادَى ما يمكن قولُه بشأن هذه "المكونات" هو أنها تمثل جزءًا ضئيلا فحسْب من المعنى الكلى للكلمة المعنية. وكذا فقد افترض خطأً دعاةُ هذا الاتجاه في التحليل، أن في وسعنا – إذا أعطينا هذه المنهجية مزيدًا من العناية والتدقيق – أن نقف على كل المكونات الدلالية التي تشتمل عليها كلماتُ اللغة محلِّ الدرس، وأن نصنِّفها التصنيف اللائق الذي يفى بالغرض. وعلى ذلك، فقد خبت تدريجيًا فكرة "المكون الدلالي"، و"التحليل التكويني"، وتجاوزهما الدرسُ الدلالي الحديث. ويجنح اللسانيون في عصرنا هذا، إلى الحديث عن "السمات الدلالية" **semantic properties** التي تمتلكها كلماتُ اللغة. ويتميز هذا الاتجاه الأخير بأنه أكثر دقة وأَلْيقيّة؛ من حيث إنه لا يتضمن القولَ بأن هذه "السمات" تمثل كتلا مستقلة تحتاج إلى أن تركَّب معًا.

المترادفات والمتقابلات:

يحتاج اللسانيون – حتى يكتسبوا فهمًا أكمل للكيفية التي تترابط بها الوحداتُ المعجمية داخل إحدى اللغات – إلى دراسة أنواع العلاقات المختلفة التي تقع بين الكلمات في هذه اللغة. فمثلا: ربما يفضي وقوفنا على مرادفات كلمة ما **synonyms**، أو مقابلاتها **opposites**، إلى تزويدنا بمعرفة دقيقة ومفيدة بشأن العلاقات التي تربط هذه الكلمة بسائر الكلمات، داخل اللغة محلّ الدرس.

هذا، وتوصف الوحدات المعجمية بأنها مترادفة إذا جاز أن يَحُلّ بعضُها محلَّ بعض، دون أن يتغير معنى الكلام. وذلك مثل الفعلين **snapped**، و **broke**، في الجملتين الآتيتين:

He snapped the twig in half.

He broke the twig in half.

(كَسَرَ الغصنَ الصغير نصفين)

ومن خلال دراسة الوحدات المعجمية التي تقبل التبادل على النحو الوارد في الجملتين السابقتين، يستطيع اللسانيّون أن ينمُّوا وصفًا دقيقًا لتلك الوحدات ذات المعاني المتماثلة.

وينظر اللسانيون إلى ما يسمى بـ"الترادف التام" perfect synonymy على أنه ظاهرة نادرة الحدوث. أعني أنه يندر جدًا أن نجد وحدتين معجميتين تمتلكان نفس المعنى، في كل السياقات التي يقعان فيها في اللغة محلّ الدرس. ومن الحالات النادرة والعرضية التي يقع فيها مثل هذا الترادف: ما نجده من مفردات تُستَعمل على المستوى الرسمي (أو الفني)، في مقابل مفردات مناظرة أخرى تستعمل على المستوى غير الرسمي (أو العام). وذلك مثل كلمة rubella التي تستعمل في المؤلفات الطبية للدلالة على المرض الذي تشيع تسميته- على المستوى غير المتخصص- بـ German mealse (الحصبة الألمانية).

وأما النوع الأشيع من الترادف، فهو ذلك النوع الذي تتماثل فيه الوحدة المعجمية تماثلا جزئيًا مع وحدة معجمية أخرى. فهما – إذن- يترادفان في سياقات معينة، لا في كل السياقات. فإذا عدنا إلى الفعلين snap و break ، وجدنا أن قولنا:

He snapped his fingers. (فرقع أصابعه)

لا يحمل نفس المعنى الذي يحمله قولنا:

He broke his fingers. (كَسَرَ أصابعه)

وكذا نجد أن قولنا:

He broke the record for the 100 metre sprint.

(كسر الرقم القياسي لسباق المائة متر عدْوًا)

يمثل جملة مقبولة. في حين نجد أن قولنا:

He snapped the record for the 100 metre sprint.

سوف يبدو جملة غير مألوفة، لدى معظم المتكلمين باللغة الإنجليزية(١).

خلاصة:

يمثل البحث في الألفاظ "المترادفة"، والأخرى "المتضادة"، منهجيةً مفيدة في سبيل استكشاف العلاقات المعجمية، داخل بنية اللغة محل الدرس. بيد أننا يجب أن نكون على ذُكْر من أن الترادف الحقيقي (أو التام) هو ظاهرة نادرة الحدوث، وأن "التضاد" عِدّة أنواع، لا نوعٌ واحد.

وأما دراسة "المتقابلات" فتبدو أعقد من دراسة المترادفات؛ لأن ثمة أنواعًا مختلفة ومتعددة للتقابل. ومن أجل ذلك، فقد تنكّبنا هاهنا استعمال مصطلح antonym، حيث يوظّفه بعض اللسانيين للدلالة على كل أنواع التقابل، في حين يوظّفه آخرون للدلالة على نوع واحد فقط.

ويتمثل أوضح أنواع التقابل في تلك الأزواج من الكلمات التي يقتضي نَفْيُ أحد عضويها إثباتَ العضو الآخر(٢)، من مثل:

He is not married: he is single.

(هو عَزَب) : (هو ليس متزوجًا)

He is not single: he is married.

(هو متزوج) : (هو ليس عَزَبًا)

---

(١) من أمثلة الاستعمالات المترادفة ترادفًا فضفاضًا في العربية، مما اشتمل عليها كتاب "الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى" للرُّمّاني (ت ٣٨٤هـ): "مدحه، وقرّظه" (ص٥٣)، و"دنا، وقرُب" (ص٥٦)، و"لَمع، وبَرَق" (ص٦٠)، "وحضّه، وحثّه" (ص٦٤)، و"سَئِم الشيءَ، وملّه" (ص٦٩). [المترجم].

(٢) يسمّى هذا النوع من التضاد أحيانًا بـ"التضاد غير المتدرج" ungradable antonymy. ومن أمثلته الأخرى القليلة: التضاد بين كل من (حيّ – ميت)، و(ذكر – أنثى). وهو يتميز – فيما يتميز – باستنفاده لكل الاحتمالات ذات الصلة بمجال المتضادين. ينظر: Hurford, Semantics.., p. 114 [المترجم].

وأما النوع الثاني من التقابل، فيتميز - على خلاف النـوع الأول المطلـق - بقـدر من النسبية. فالوصفان **small** (صغير)، و **large** (كبير) -مثلا- يتضمنان دائمًا قـدرًا من المقارنة[1]. فقولنا :

What a large mouse ! (ما أكبره من فأر!)

يعني: ما أكبره من فأر مقارنة بالحجم المعتاد للفئران. وقولنا:

What a small elephant ! (ما أصغره من فيل !)

يعني: ما أصغره من فيل مقارنة بالحجم المعتاد للأفيال.

وأما النوع الثالث من التقابل، فيتحقق حين تكون دلالة كلمة ما معاكسةً لدلالة أخرى. ويتوقف اختيارك لإحدى الكلمتين دون الأخرى، على الزاوية التي ترى من خلالها الموقفَ الذي يتعلّق به الكلام[2]. ومن ذلك: التقابل بين الفعلين: **give** (يعطي)، و **take** (يأخذ):

I give you the book: you take the book.

التصنيف (أو التضمن):

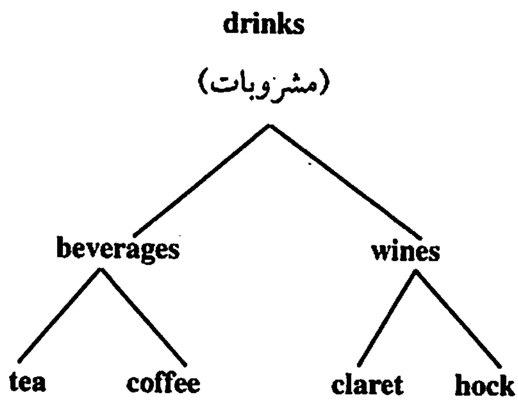
ثمة طريقة أخرى لدراسة البنية المعجمية للغة. وتلكم أن نلاحظ السُّبل التي تسلكها اللغة؛ من أجل تصنيف الوحدات المعجمية. فمثلا: يصنف "الكلاريت" **claret**، و"الهوك" **hock** في اللغة الإنجليزية، على أنهما نوعان من "الخمور" **wines**. ويصنف "الشاي"، و"القهوة" على أنهما نوعان من "الأشربة" **beverages**. ثم تصنف "الخمور" و"الأشربة" تحت لفظ أعم هو **drinks** (مشروبات).

---

(١) ويُسمَّى هذا النوع من التضاد أحيانًا بـ"التضاد المتدرج" gradable antonymy (يقبل التدرج والمقارنة...). ومن أمثلته الأخرى الكثيرة: التضاد بين كلٍّ من (حار - بارد)، و(طويل - قصير)... إلخ. ينظر: Hurford, Semantics..., p. 118 [المترجم].

(٢) ويُسمَّى هذا النوع من التضاد أحيانًا بـ"التضاد العكسي" converse (تحقُّق أحد عضوي هذا النوع من التضاد يستلزم وجود العضو الآخر). ومن أمثلته الأخرى الكثيرة: من الأفعال: (يشتري - يبيع)، ومن الأسماء: (زوج - زوجة)، و(والد - ابن)، ومن الظروف: (فوق - تحت)، و(أمام - خلف). ينظر: Palmer, Semantics, p. 98 [المترجم].

ويدل هذا التصنيف السابق، ونحوه، على أن مفردات اللغـة تتميـز –في شـطر منها– بأنها ذاتُ بنية هرمية. وفي الرسم التوضـيحي (٨– ٤) الـوارد تـوًّا نلاحـظ أن الكلمات الأعم تأتي في قمة الهرم، في حين تأتي الكلمات الأخـصُّ في هيئـة تقـسيمات فرعية لتلك الأعم:



(الرسم التوضيحي ٨-٤).

وقـد صُـنِّفت مفـردات اللغــة الإنجليزيـة، عـلى هــذا النحــو، في قـاموس "روجيت" للمترادفات Roget's Thesaurus. حيث توجـد تحـت كـل مـدخل مـن مداخل هذا القاموس قائمةُ الكلمات المتضمَّنة hyponyms الخاصة به (أي: الوحدات المعجمية التي تشتمل عليها كلمة هذا المدخل). وتتمثـل المـشكلة الأساسـية في هـذا القاموس في أنه لا يميز بين الاعتبارات الاجتماعية والأسلوبية المختلفة التي تتحكم في اختيار المرادفات.

خلاصة:

يمثّل النظر في (عملية) "تصنيف" اللغة لمفرداتها classification– وتُعرَف كـذلك باسم inclusion (التضمن)– منهجيةً مفيدة في دراسة العلاقـات المعجميـة داخـل بنية اللغة؛ لأنها تُظهر أن مفردات اللغة تتميز –ولو جزئيًا– ببنية معجمية هرمية.

إن من شأن دراسة هذه العلاقات الدلالية بين الوحدات المعجمية، أن تُثمر لنا عددًا من الفوائد. منها: أنها تتيح لنا فَهْمَ العلاقات المتعـددة بـين الكلـمات المختلفـة.

ومنها – كذلك – أنه يمكن التعبير عنها كلِّها بواسطة الرموز المنطقية، مما يتيح للسانيين إنجاز وصف جِدٍّ واضح لها. ولقد زعم بعض اللسانيين فعلا أن في وسعنا أن نعبّر عن المعنى الكُلّيّ لأية كلمة، في ضوء علاقاتها المنطقية بالكلمات الأخرى.

الغموض والتشابه بين كلمات المجال الدلالي الواحد:

لقد افترضنا – حتى الآن – أن للكلمات معاني متفقًا عليها، يمكن اكتشافها – وكذا وصفها. ولكن هذا الافتراض لا يصح إلا بشأن بعض الوحدات المعجمية فقط. وأما سائر الوحدات الأخرى، فيكاد الاتفاق على المعنى الصحيح الدقيق لها، يكون هدفًا مستحيل المنال.

ودونك – فانظر – الكلمتين: **bachelor** (عَزَب)، و **tiger** (نَمِر). فالخطوة الأولى هاهنا هي أن نبحث عن معنييهما في أحد المعاجم، وليكن معجم "أكسفورد" الوجيز **Concise Oxfod Dictionary**. فأما كلمة **bachelor** فتُعرَّف في هذا المعجم بـ "رجل غير متزوج". أي أن سمتي "عدم الزواج" و"الذكورة" تُعَدّان سمتين دلاليتين أساسيتين لهذه الكلمة.

فإذا قال شخص ما: **'I met a bachelor and he was married'** (قابلت رجلا عزبًا، وكان متزوجًا) فسيكون الرد التلقائي هو: **'Then he isn't a bachelor"** (إذن هو ليس عزبًا). أو إذا قال شخص آخر: **'I know a gril who is bachelor** (أعرف فتاة عَزَبة)، فسيكون الرد التلقائي **'that is impossible'** (هذا مستحيل). (إلا إذا تصادف أن كان المتكلم يتحدث عن فتاة حاصلة على درجة "البكالوريا" في الآداب **Bachelor of Arts degree**. فقد اتضح لنا – إذن – أن كلمة **bachelor** تشتمل على السمتين الدلاليتين: "ذَكَر"، و"عَزَب". وكذا ثبت أن تحليل هذه الكلمة كان من اليسر بمكان.

فإذا انتقلنا – بعد – إلى كلمة **tiger** (نَمِر)، وجدنا هذا المعجم يعطيها التعريف الآتي: "حيوان آسيوي، ضخم الجسم، ذو جلد أصفر مائل إلى اللون البني، مخطَّط باللون الأسود، آكل للحوم، لا لِبْدة على عنقه، ينتمي إلى الفصيلة السِّنَّورية". فترى: أيّ هذه السمات الدلالية يُعَدّ السمة الأساسية، وأيها لا يُعَدّ كذلك؟ ربما تكون السمة

"آكل للحوم" سمةً غير أساسية حقًا؛ إذ يمكنك أن تقول – مثلا: "نمر (هاري) ليس من آكلة اللحوم"، دون أن تتلقى ردَّ الفعل الآتي: "هذا مستحيل. لا يمكن أن يكون نمرًا، إذن". ولكن: ما الشأن في السمة الدلالية: "ذو جلد مخطَّط"؟ إن ردود أفعال الناس بشأنها سوف تختلف عما سبق. فإذا قلت – مثلا: "نمر (هاري) ليس مخططًا"، فسوف ينقسم السامعون إزاء قولك هذا إلى فصيلين. أما أحدهما فربما يقول: "إنه ليس نمرًا إذن"، منوّهين بأن كون الجلد مخططًا يمثل سمةً أساسية لوصف حيوان ما بأنه "نمر". وأما الفصيل الآخر، فربما تصدر من بعض ممثليه تعليقات من مثل: "حسن، أظن أنه يمكنك أن تحوز نَمِرًا أَمْهَق[1] albino، مثلما يمكنك أن تحوز شُحْرورًا[2] blackbird أمهق". أو من مثل: "إذا كانت القطط المخططة باللون الأسود لا تلد دائمًا قططًا مخططة مثلها، فربما يمكنك – كذلك – أن تحوز نمورًا غير مخططة". فاللون المخطط لدى هؤلاء الناس لا يمثل – إذن – سمة دلالية أساسية يلزم الاتصاف بها؛ حتى يوصف حيوان ما بأنه من جنس "النمور".

وخلاصة القول: هناك كلمات – من مثل bachelor (عَزَب) – تحظى بقدر كبير نسبيًا من الاتفاق بشأن السمات التي تجسم الشطر الأكبر من دلالاتها، في مقابل كلمات أخرى – من مثل tiger (نمر) – يُعْوِزها مثل هذا الاتفاق.

ويمثل الغموض وتداخل الدلالات fuzziness – بعد – مشكلةً أخرى. فكثيرة هي الحالات التي نجد فيها الحدود بين دلالات الكلمات حدودًا غائمة غير قاطعة. فمثلا: يُعْوِزنا تعيين فروق واضحة حاسمة بين cup (كوب)، و mug (فنجان). وبين glass (كأس)، و vase (مزهرية). و بين plate (طبق الطعام)، و saucer (طبق الفنجان). فثمة تداخل شديد بين دلالاتها. والناس لا يفرقون بينها تفريقًا مطردًا: فما يسمونه اليوم: vase، قد يسمونه غدًا: glass. وربما يتوقف ذلك على ما يحتوى عليه كلٌّ: فما اشتمل على زهور سَمَّوْه vase، وما احتوى على عصير برتقال سموه glass .

---

(١) في Macmillan English Dictionary أن الـ albino هو الشخص – أو الحيوان – ذو الجلد الشديد البياض، والشعر الأبيض، والعينين الزرقاوين... إلخ. وفى "لسان العرب" لابن منظور (م هـ ق): "المَهَق والمُهْقَة: شدَّة البياض. وقيل: هما بياض الإنسان حتى يَقْبُح جدًا. وهو بياض سَمِج لا يخالطه صُفرة ولا حمرة... ورجل أمهق وامرأة مَهْقاء". [المترجم].

(٢) الشحرور: نوع من الطيور ينتشر بقارتي أوربا وأمريكا الشمالية. ويتميز بلونه الأسود، ومنقاره البرتقالي اللون. [المترجم].

ويتسبب ما يسمَّى بـ"التشابهات العائلية" **family resemblances** في صعوبات أخرى إضافية. ففي بعض الأحيان، نجد أن كلمة من مثل **furniture** (أثاث) تغطي مجالا كبيرًا من الأشياء التي تتقاسم فيما بينها سماتٍ مشتركة، كما هو الشأن بين أفراد العائلة. وبالرغم من ذلك، فقد يستحيل علينا أن نقترح مجموعةً من السمات المميزة التي تصف كلا من هذه الأشياء.

وهكذا تُظهر لنا المشكلاتُ السابقة استحالة تسجيل معانٍ ثابتة وحاسمة لكل الكلمات. كما تكشَّف للباحثين أن البشر لا يتفاهمون فيما بينهم، بتعلم تعريفات ثابتة محدَّدة للكلمات، بل هم ينجزون هذا التفاهم عَبْر ما يسمَّى بـ "النموذج الأصلي" **prototype**، أو المثال النموذجي **typical** للموجودات المختلفة. فمثلا: قد يكون الطائر الذي يجسّد النموذج الأصلي للطيور شيئًا مقاربًا لطير أبي الحِناء **robin**: له منقار، وجناحان، ورجلان دقيقتان كالعصا، وقادر على الطيران.

لكننا – في المقابل – ننظر إلى كلٍّ من "البطريق" **penguin** والـ"إميو"[1] **emu** على أنه من جنس "الطيور"؛ نظرًا لشبههما الكبير بذلك الجنس من المخلوقات، وإن لم يكونا طائرين "طبيعيين"، من جهة، ولا مجسِّديْن لـ"النموذج الأصلي" لجنس الطيور، من جهة أخرى. فهذه المرونة تسمح لعدد جِدّ كبير من الأشياء أن تصنَّف على أنها من "الطيور"، ولو كنا بإزاء بَبْغاء بدون منقار، له رجل واحدة، وجناح واحد.

ولم يتضح لعلماء "اللسانيات" – بعد – الكيفيةُ المناسبة لتمثيل تلك المرونة، في إطار وصف لغوي. إننا مضطرون لأن نفترض أننا بإزاء ظاهرة ثابتة وواضحة المعالم؛ حتى نضع لها وصفًا نافعًا ومفيدًا، على ألا نغفل – في المقابل – أنها ليست كذلك، في واقع الحال. وأما أين ينبغي أن يقع هذا التوازن بين "المفترض" و"الواقع"، فما زال قيد الدرس[2].

---

(١) الـ"إميو": طائر كبير، لا طاقة له على الطيران. له جناحان أثريان، وساقان بالغتا القوة، وهو يعيش في سهول أستراليا، وغاباتها المفتوحة. [المترجم].

(٢) من الكتب التي تُرجمت حديثًا في موضوع "النموذج الأصلي": كتاب "علم دلالة الأنموذج: الفئات والمعنى المعجمي" لـ"جورج كليبر"، ترجمة ريتا خاطر (المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٣م). [المترجم].

إدراك العـالم (أو تأويلـه):

ولكن: ما هي تلك النماذج الأصلية؟ ومن أيـن جـاءت؟ يبـدو لنـا أن النـاس يكوّنون لأنفسهم نماذج عقلية **mental models**، يدركون بها العالم المحيط بهـم. ففـي مثال بسيط -كذلك الخاص بالطيور- قرر الناس اختيار الطير الـذي رأوه الأفـضل - أو الأكثر- تمثيلا لجنس الطيور. بل إن الناسَ يكوّنون - كذلك - رؤى بشأن مفاهيم أخرى أكثر تجريدًا. وتتأسس تلك الرؤى- في أغلب الحالات- على ثقافتهم الخاصة. فأهل اللغة الإنجليزية -مثلا- ينظرون إلى الأسبوع على أنه يتـألف مـن سـبعة أيـام، مقسَّمة إلى خمسة أيام للعمل، يَقْفوها يومان يمثّلان عندهم إجازة نهاية الأسبوع. هذا، بالرغم من أنـه لاشيء في العـالم الخـارجي يفـرِض وجهـة النظـر هـذه. فعنـد هنـود الـ"إنكا"(١) - مثلا- يتألف الأسبوع من تسعة أيام: ثمانية منها للعمل، والتاسع يمثّل يوم التسوق. وهو اليوم الذي يغيّر فيه الملك زوجاته.

ودونك مثالا آخر: كلمة **mother**. فالآباء في دول الغرب يسلِّمون بأن "الأم" ليست هي تلك المرأة التي تلد طفلا فحسْب، ولكنها - كذلك- المرأة التي تُعنَـى بـه، وتعيش مع الأب. وقد تأسس هذا التصورُ على الثقافة الغربيـة؛ ممـا يجعلـه لا ينطبـق بالضرورة على مفهوم "الأم"، في سائر أنحاء العالم. وبالمثل، يزعم كثير من النـاس في بريطانيا أنهم يعيشون في مجتمع طبقـيّ، يتـألف مـن طبقـة عليـا، وأخـرى متوسـطة، وأخيرة من العمال. وهذا تصوُّر أورثته إياهم الكتبُ والصحف. وثمـة أمثلـة أخـرى وافرة على هذا التفاوت في رؤية العالم مـن حولنا(٢).

---

(١) الـ"إنكا": شعب هندي، كان يعيش فيما يعرف الآن بجمهورية "بيرو"، بأمريكا الجنوبية. [المترجم].

(٢) يمكننا - من خلال اعتبار "المعاني المحورية"- أن نقف على بعض "رؤى" العرب لبعض المعاني المجـردة والحسية في العربية. ومن ذلك: القول بأن العرب تكيِّف "الذكاء"- وهو سرعة الفهم...- على أنـه نـوع من "النفاذ (المعنوي) الحاد"؛ حيث ينفـذ عقـلُ الـذكي في الغـوامض والمعمَّـسات، ويـصل إلى البـدائل والخيارات. وذلك أخذًا من النفاذ الحسي الحادّ المتمثل في قول العرب: "ذكَّى الـشاة": ذبحهـا (والـذبح نفاذ جد حادّ)، و"مسك ذكيّ": ساطع الرائحة (ينفذ في الجـو)... إلـخ. (ينظـر: د. عبـد الكـريم محمـد جبل: الألفاظ الدالة على العقل... ص١٧٣- ١٧٤. وينظر في التعريف بـ"المعنـى المحـوري" (ص٥١، هامش ١- أ، من هذا الكتاب) [المترجم].

خلاصة:

لا يمتلك البشر معانيَ ثابتةً للألفاظ في عقولهم، ولكنهم – في غالب الحال- يتواصلون، ويدركون العالم من حولهم، عبر "نماذج أصلية"، أو "أمثلة نموذجية". ويبنون لأنفسهم "نماذج عقلية" تتضمن تلك النماذج الأصلية .

ومصطلح **mental models** (النماذج العقلية) هو مما سكّه علماء النفْس؛ للتعبير به عن الصور الذهنية التي يكوّنها الناسُ عن العالم المحيط بهم. بيد أن الاهتمام بهذه الظاهرة ليس مقصورًا على الدراسات النفسية فحسب، بل تتوزّعه مجالاتٌ معرفية أخرى كثيرة، مع توظيف كلمات – أو مصطلحات- أخرى للتعبير عنها. فالمشتغلون بالدراسات الثقافية –مثلا- يفضّلون استعمال كلمة **representation** (التمثيل). وليس يغطّي هذا المصطلح"التمثيلات" اللاواعية، أو الموروثة، فحسْب، بل يغطى – كذلك- تلك "التمثيلات" التي يقصد إليها بعضُ الناس قصدًا. وذلك على نحو ما يصنع السياسيون حين يبتكرون تعبيراتٍ مواربة **euphemisms**، مثل: ضربات رأس الدبوس **pin- point strikes**؛ ليحملوا الناس على الاعتقاد بأن "القنابل" قد تصيب أهدافًا بعينها إصابةً جِدَّ دقيقة. وسوف نعود – في الفصل الثاني عشر- إلى مناقشة مسألة توظيف المجاز في الدعاية، والشعر، مناقشةً إضافية.

معاني الجمــــل:

لقد تعاملنا – حتى الآن- مع معاني مفردات اللغة فحسْب. فما شأن الجمل إذن؟ إن واقع الحال يشهد بأن معاني الكلمات تَرْفِدنا بزاد وافر بشأن معاني الجُمَل؛ من حيث إن الجمل تتألف من كلمات مفردة، اتصل بعضها ببعض عبر قواعد التركيب التي تتميز بها اللغة المعنيّة. وهذا ما يتيح لنا فَهْمَ السبب الذي يقف من وراء وَصْفنا لجملة ما من مثل:

My brother is spinster. (شقيقي عانس)

بأنها – حين ننظر إليها حرفيًا- جملة متناقضة؛ إذ كأننا – حين نطقنا بها- قد قلنا:

My male sibling is an unmarried female.

(شقيقي الذكر هو أنثى غير متزوجة)

حيث يناقض الوصفُ بـ"ذكر" الوصف بـ "أنثى". وينظر بعض علماء الدلالة إلى مثل هذه الجمل على أنها جمل كاذبة، أو خاطئة؛ من حيث إنه يبعد أن تكون صادقة، أو مطابقة لـ"الواقع". أي أنهم يتعاملون مع المعنى، على هَدْى من شروط حدَّدوها، للحكم على جمل اللغة: إنْ بـ"الصدق"، أو بـ "الكذب".

إن الارتباط الوثيق بين معاني الكلمات والتراكيب النحوية لا يتيح لنا رفض الجمل الشاذة فحسْب، بل يتيح لنا – كذلك – أن نكوِّن استنتاجاتٍ من الجمل الاعتيادية المألوفة. ودونك – مثلا – الجملة التالية:

The cobra killed a rat. ("الكوبرا" قتلت فأرًا)

فمعرفتنا أن كلمة **kill** تتضمن السمة الدلالية **CAUSE DIE** (يسِّبب الموت)، قد أتاحت لنا استنتاج أن"الفأر قد مات". فإذا وظَّفنا المصطلحات اللغوية لتوصيف ذلك، قلنا: إن جملة "الكوبرا قتلت فأرًا" تستلزم **entails** أن "الفأر قد مات". وكذا، فإن معرفتنا بأن "الكوبرا" هي نوع من الثعابين، تتيح لنا استنتاج أن "ثعبانًا قد تسبب في أن يموت فأر". بل ربما نذهب إلى أبعد من ذلك فنقرر ما يلي: "كائن حيّ، من الثعابين، هو الكوبرا، قد تسبب في أن كائنًا حيًا آخر، من الثدييات، هو الفأر، قد أصبح غير حيّ". وشطر كبير من قدرتنا على فهم الجمل، إنما يتأتى من استنتاجات منطقية من هذا النوع.

ويذهب كثير من اللسانيين إلى وجوب الاستعانة بأحد أنواع "المنطق الصوري"، للتعبير عن "التمثيل الدلالي"للجمل، بعد أن يجرى تفكيكُها إلى معانيها الضمنية الأساسية.

خلاصة:

يأمل علماء "علم الدلالة" في أن تنجح الأنظمة المنطقية الصورية يومًا ما، في معالجة كلٍّ من "التمثيلات الدلالية"، ومعاني الجمل، معالجةً وافية شافية.

ومن الناحية النظرية، تستطيع الأنظمةُ المنطقية الصورية أن تقدِّم لنا صياغاتٍ منطقيةً، لتمثيل الجمل، في أية لغة. وكذا تستطيع هذه الأنظمة أن تُظهر لنا العلاقاتِ المنطقية الحاصلة بين الجمل. بل إن للمنطق مزيةً أخرى جِدَّ مهمة، تتمثل في قدرته على إظهار ضروب خاصة من اللبس **ambiguities** إظهارًا جليًّا. ودونك الجملة الآتية:

All the nice girls love a sail.

(كل الفتيات اللطيفات يحببن بحارًا)

فهي تحتمل أحد المعنيين الآتيين: الأول: "كل فتاة لطيفة تحب بحارًا ما: فـ"أليس" Alice تحبّ (جو) joe، و(مارى) Mary تحبّ (برْت) Bert، و(دسْديمونا) Desdemon تحبّ (بلِي) Billy. وهكذا". والثاني: "كل فتاة لطيفة تحب بحارًا واحدًا بعينه، اسمه (جاك تار)[1]. إن علم المنطق يَرْفِدنا بتمثيل رمزيّ دقيق، يجلّي لنا أوجه التباين بين التراكيب اللغوية المختلفة. ولكننى ألفت – بعد- إلى أننا لم نتبين – حتى وقتنا هذا- أى أنواع المنطق المستعملة الآن، هي الأنسب للتوظيف في الدرس الدلالي، إن كان ثمة ما يصلُح منها أصلا لهذا التوظيف.

ولا شك – بعد- في أن استنباط العلاقات المنطقية ليس هو الوسيلة الوحيدة التي يستعين بها الناسُ على فهم معاني الكلام. بل هم يوظفون – في سبيل ذلك- وسائل أخرى كذلك، كبدائههم، وخبراتهم الحياتية المتعددة. فإذا ما قال شخص ما – مثلا: "تلك الفتاة فيل"، فإن النظام المنطقي الصارم سوف يرفض هذه الجملة؛ لاستحالتها؛ من حيث إن الفتيات لسن أفيالا. وأما أحدنا، فسوف يحاول – لدى سماعه لهذه الجملة- أن يفسّر العلّة التي اعتبرها المتكلمُ، حين تفوّه بهذه الجملة البالغة اللامعقولية. وفى فصلنا- هذا الآتي توًّا- سوف نناقش الكيفية التي يُنجِز بها الناسُ مثل هذا التفسير.

---

(١) "جاك تار": هو اسم قديم لإحدى الرتب البحرية. وهو الجندي (النَّفر) ذو السترة البحرية المعروفة، والبنطال القصير الواسع. ينظر: Oxford Advanced Learner's Dictionary. وكذا استعمل عَلَمًا عامًا على البحار القوى البنية في القصص والمسرحيات والأغاني، خلال القرنين: الثامن عشر والتاسع عشر، في كلٍ من بريطانيا وأمريكا. ينظر:

http:/www.omnilexica.com/?q=jack+tar [المترجم].

فلنتذكر:

- يُطلَق على الفرع المعرفي المعنيّ بدراسة "المعنى" مصطلح: **semantics** (علم الدلالة). وهو مأخوذ من كلمة يونانية بمعنى "علامة"، أو "يدل على".

- يُعنَى علماء "علم الدلالة" بالبحث في أسباب قابلية بعض الجمل للفهم، واستعصاء أخرى عليه. وكذا بالبحث في القدرة التي تمكّن أهلَ اللغة من إدراك المعاني المتماثلة والغامضة لبعض الجمل، على حدٍّ سواء.

- يُعنَى اللسانيون – في المقام الأول- بدراسة العلاقات بين الوحدات المعجمية بعضها بعضًا. وأما العلاقات بين هذه الوحدات والعالم الخارجي، فتأتي في المرتبة الثانية من اهتماماتهم.

- يَرْفِدنا البحثُ في "المترادفات"، و"المتقابلات"، بمنهجية مفيدة لدراسة العلاقات المعجمية داخل بنية اللغة.

- ينبغي – لدى دراسة "الترادف" أو "التضاد" – أن نضع في الحسبان أن "الترادف الحقيقي" – أو التام- ظاهرة نادرة الحدوث، وأن لـ"التضاد" أنواعًا متعددة.

- يتميز "التصنيف" **classification** – أو علاقة "التضمن" **inclusion**- بالعلاقات الهرمية بين المفردات.

- يمثّل كلٌّ من الغموض **fuzziness**، والتشابه بين كلمات المجال الدلالي الواحد، عائقًا يحول دون الفهم الدقيق لمعاني بعض الكلمات.

- يرى بعض الدارسين أن البشر يبتنون لأنفسهم "نماذجَ عقليةً" يدركون – أو يكيّفون- بها العالم من حولهم. وتنتظم هذه النماذجُ العقلية أحيانًا ما يُعرف بـ"النماذج الأصلية"، أي الصور المثالية للأشياء والموجودات المختلفة بهذا العالم.

- يمكن توظيفُ "المنطق" في التعبير عن المعاني المختلفة للجمل الغامضة.

- يمكن لعلاقة "الاستلزام" المنطقية، أن تمكّننا من فهم السبب في وجود "تناقض" في بعض الجمل.

القسم الثالث

الدوائر الخارجية

في نغمة يلفُّها قَدْرٌ من التهكم، قال "هامتي دامتي"[1] Humpty Dumpty: "حين أستعمل إحدى الكلمات، فإنما تدلّ على المعنى الذي اخترتُ لها أن تدُلَّ عليه لا غير: بلا زيادة، أو نقصان".

لويس كارول (خلال المرآة)

Lewis Carroll (Through the Looking- Glass)

(١) سبق التعريف بشخصية "هامتى دامتى" – وكذا بـ"لويس كارول"– في صدر القسم الثاني من هذا الكتاب (الدوائر الداخلية) (ص١٠١، هامش رقم ١، ٢). [المترجم].

٩

استعمال اللغة

يُعنَى هذا الفصلُ بدراسة "التداولية" pragmatics. وهي الفرع المعرفي المعنيّ باستكشاف جوانب المعنى التي لا يمكن التنبؤ بها، عبر الدراسة الحرفية المحضة للبنية اللغوية. ويستكشف الكيفياتِ التي يُنجز بها البشر جوانبَ المعنى تلك، ملخصًا القول فيما يعرف بـ"مبدأ التعاون [في الحوار]" cooperative principle ، و"نظرية الحدث الكلامي"(١) speech act theory. وكذا ينظر فصلُنا هذا في بعض الوسائل التي توظَّف لإحداث الترابط بين الجمل. ثم يناقش - أخيرًا - مسألتي "تناوب الأدوار" turn- talking، و"التأدب" politeness في الحوار.

اشتملتْ لافتة بإحدى "كافتيريات" الطلاب على العبارة الآتية: 'This is a self - cleaning cafeteria' . وقد يتوقع أحدُنا - لدى قراءته لهذه العبارة- أن تقوم الأطباق والأكواب بهذه الـ"كافتيريا" بتنظيف نفسها بنفسها. وذلك قياسًا على المقصود من عبارات أخرى مماثلة، من مثل: self- cleaning oven ("فرن" ذاتيّ التنظيف)، وself-raising flour (دقيق ذاتيّ التخمير)، و self - righting lifeboot (قارب نجاة ذاتيّ الاعتدال- إذا انقلب). وبالرغم من ذلك، نجد أن جُلّ الطلاب قد فسّر المقصود بهذه العبارة على أن المتوقَّع منهم- بوصفهم زبائن لهذه الـ"كافتيريا"- أن ينظّفوا أطباقهم بأنفسهم. والسؤال- بعد- هو: لماذا توافقتْ أغلبية الطلاب على هذا التفسير؟ والإجابة الواضحة المتبادِرة هو أن هؤلاء الطلاب قد وظّفوا بداتهم، وخبراتهم الحياتية؛ للوصول إلى التفسير الأكثر منطقية لهذه العبارة، في مثل هذا السياق، وإن لم يكن هذا التفسير بالضرورة هو التفسير الوحيد الأكثر توافقًا مع البنية اللغوية لهذه العبارة.

(١) أي "الأحداث" التي يصنعها "الكلام"، على ما سيتضح بعد قليل. [المترجم].

تمثل "التداولية" فرعًا من فروع "اللسانيات". وهو الفرع المعنيّ بدراسة جوانب المعنى التي لا يمكن الوقوفُ عليها، عبر التحليل الذي تقدّمه النظرياتُ الدلالية المختلفة. وإجمالا، يمكننا أن نقرر أن "التداولية" تبحث في الكيفية التي يوظّف بها البشر اللغة، على نحو لا يمكن التنبؤُ به عبر المعرفة اللغوية وحدها. فإن شئنا تحديدًا أدقّ، قلنا: إنها تبحث في الكيفية التي يتوصل بها سامعو الكلام إلى المعنى الذي يقصده المتكلمون (= المعنى المراد). وأما إذا اجتزأنا بالتحديد العام لموضوع هذا الفرع المعرفي، فيمكننا القولُ بأنه يتعامل مع المبادئ العامة التي يتّبعها الناس، حين يتواصل بعضُهم مع بعض. وعلى ذلك، يوصَّف هذا الفرع المعرفي أحيانًا بشيء من عدم الاكتراث، على أنه "سَلّة مُهمَلات علم الدلالة".

وتتداخل "التداولية" - بالمفهوم السابق - مع ما يُعرَف بـ "**تحليل الخطاب**" **discourse analysis**. وهو الفرع المعرفي المعنيّ بالنظر في الوسائل المختلفة التي يوظفها المتحدثون، والكتّاب؛ للربط بين الجمل المفردة ربطًا يكوّن نصًّا كليًّا، يتسم بالتماسك الشكلي، والدلالي.

ويتّسم هذان الفرعان المعرفيان من فروع "اللسانيات" بالجِدّة النسبية. وليس ثمّة اتفاقٌ عام - بعد - على الكيفية المناسبة للتعامل مع كلٍّ منهما. ويلخّص هذا الفصلُ القولَ في بعض الاتجاهات التي ثبت للباحثين سلامةُ فرضياتها، ومقرراتها، في هذا الصدد.

مبدأ التعاون [في الحوار]:

يُنظر إلى الفيلسوف الأمريكي "بول جرايس" **Paul Grice** [١٩١٣-١٩٨٨م] أحيانًا على أنه "مؤسس التداولية". وقد أكد "جرايس" أن السبب في تواصل البشر، بعضهم مع بعض، تواصلا مناسبًا، يرجع إلى اتسامهم فطريًا بالميل إلى مساعدة الآخرين، ومعاونتهم. وحاول "جرايس" أن يعين المبادئ التي يتأسس عليها هذا السلوكُ التعاوني. واقترح فى هذا الصدد أربعة "مبادئ" **maxims** - أو قواعد - لـ"الحوار".

خلاصة:

يمكننا تلخيصُ "مبادئ جرايس" تلخيصًا يجمعها في مبدأ واحد فقط: "كن متعاونًا". وهو مبدأ يمثل تجَلّي من مجالي ميل البشر الفطري إلى مساعدة بعضهم بعضًا.

وهاكم بيانًا بهذه المبادئ:

١ - مبدأ الكمية MAXIM OF QUANTITY:

أَعْطِ القدرَ الصحيح المناسب من المعلومات، حين تتحدث مع الآخرين. فإذا سألك أحدُ الأشخاص، في إحدى الحفلات: "من هذا الشخص الذي مع (بوب)؟"، فإن الإجابة التعاونية ستكون نحوًا من: "إنها صديقته الجديدة (أليسون)". وأما الإجابة غير التعاونية فستكون: إما مفرطةً في الاقتضاب، نحو: "إنها فتاة". وإما مفرطةً في الإسهاب، نحو: "إنها (أليسون مارجريت جونز)، التي ولدت منذ عشرين عامًا، في (كينجستون) **Kingston**، بمقاطعة (سوري) **Surrey**. وهي ابنة لكل من (بيتر)، و(ماري جونز) ... إلخ".

٢ - مبدأ النوعية MAXIM OF QUALITY:

كن صادقًا. فمثلا: إذا سألك أحدُ الأشخاص عن اسم حيوان غير مألوف، من مثل الـ"بلاتْبوس" **platypus** (منقار البطة)(١)، فالتزم بالصدق في إجابتك، ولا تقل: "إنه الـ(كوكابور) **Kookaburra**"(٢)، أو "إنه بطة"، إذا كنت تعلم أنه "بلاتبوس".

(١) سبق التعريف بهذا الحيوان في الفصل الثاني (ما اللغة؟) (هامش ص٥٨). [المترجم].

(٢) الـ"كوكابورا": طائر استرالي كبير الحجم، يعيش بجوار مياه الأنهار. وله صوت يشبه صوت الضحك. [المترجم].

٣- مبـدأ المناسبـة MAXIM OF RELEVANCE:

ليكن كلامك مناسبًا لموضوع الحديث. فإذا سألك شخص ما: "مـا مكونـات وجبة العشاء؟"، فلتكن إجابتك مناسبةً لموضوع هـذا السؤال، مـن مثـل: "سـمك ورقائق بطاطس". ولا تجب إجابات غير مناسبة، من مثل: "طاولات وكراسـي"، أو "نبات الحوذان[1] Buttercups أصفر اللون".

٤- مبدأ الطريقة (= طريقة العرض) MAXIM OF MANNER:

كن واضحًا ومنظمًا في عرضـك للمعلومـات. ومـن ذلـك أن يكـون وصـفك للأشياء موافقًا للترتيب الذي حدثتْ به، من مثـل: "سـارت الطـائرة عـلى مَـدْرَجها الأرضي، ثم أقلعتْ نحو الغرب". وذلك بدلا من: "أقلعت الطائرة نحو الغرب، ثم سارت على مدرجها الأرضي". وهو الوصف الذي قـد يوقـع النـاس في لَـبْس؛ مـن حيث عدمُ تبيُّنهم لما حدث تبيُّنًا واضحًا.

ويتضح لنا- بعد- على هذا المستوى من التناول المختصر، أن مبـدأ **"التعـاون [في الحوار]" cooperative principle** يتطابق مع ما تمليه البديهـةُ والحسُّ الـسليم. ويغدو النظر في هذا "المبدأ" أكثر تشويقًا، حين نبحث في الكيفية التي ينتهكه بها البشر في بعض الأحيان. وذلك كأن يوجَّـه إلى أحـدنا الـسؤال الآتي: "مـا مكونـات وجبـة العشاء؟"، فيرد قائلا: "(بِـلِي) Billy سـقط في الـدور الأرضي". وهـو الـرد الـذي لا يجيب عن السؤال. وكأن يسأل أحدنا: "لماذا لا تحـب (بـامِلا) Pamela؟"، فـيرد قائلا: "(بامِلا) فيل". وهي الإجابة التي لا شك في عدم صحتها.

وليس يسوغ أن تُتخذ هذه الردود دلـيلا يـنقض مبـدأ "التعـاون في الحـوار"، ويُظهر ضآلة أهميته.بل إنها – على العكس– تُظهر لنا قدر الفاعلية التي يعمل بها هـذا المبدأ في حوارات الناس، بعضهم مع بعض. وبيان ذلك: أن لدى الناس اقتناعًـا تامًـا بأن الشخص الآخر الذي يشاركهم في الحديث، يتسم بـ "التعاون"، بحيث ينظـرون إلى أي انتهاك ظاهري لأي من مبادئ "التعاون في الحوار"، عـلى أنـه أمـر يـستوجب الاهتمام، والتفكر في دلالته.

---

(١) "الحوذان": نبات يتميز – فيما يتميز – بأزهاره الصغيرة الصفراء اللامعة. [المترجم].

فمثلا: إذا سأل أحدُهم: "ما مكوّنات وجبة العشاء؟"، ثم كانت الإجابة إجابةً غير مناسبة ظاهريًا، من مثل: "(بِلِي) سقط في الدور الأرضي"، فالراجح أن السامع سيفترض أن ما قيل من معلومات في تلك الإجابة بشأن "بِلِي" كان مهمًا. وسيملأ الفجوة بين سؤاله وما تلقاه من إجابة عليه، بافتراضات من مثل: "لما كان من المفترض أن يقوم "بِلِي" بطهي طعام العشاء، ولما كان قد سقط في الدور الأرضي، فلابدّ أن أفترض أنه لا عشاء جاهزٌ على الإطلاق". وبالمثل: إذا نطق أحدهم كذبًا صُراحًا، من مثل: "(بامِلّا) فيل"، فإن سامع هذا الكلام لن يتردد لحظة في الرد عليه قائلا: "هذا مستحيل". وسوف يبحث عن السبب الذي يقف من وراء تلفظ المتحدث بهذا التعليق. ويمكننا أن نقرر- إجمالا- أن الناس يفسّرون الكلام الذي يسمعونه في ضوء تطابقه المسلَّم مع مبدأ "التعاون في الحوار"، حتى لو انتُهك هذا المبدأ انتهاكًا صريحًا. إنهم يقفون على استنتاجات ضمنية مما يقال لهم، استنتاجاتٍ لا تشير إليها بالضرورة المعاني اللغويةُ الحرفية لنصِّ ما يسمعونه.

خلاصة:

إن حصول خَرْق لـ"مبدأ التعاون في الحوار" لـ"جرايس"، يكشف عن قدر قوة اشتغال هذا المبدأ في كلام الناس؛ من حيث إنهم يفترضون لدى سماعهم إجاباتٍ تبدو غير تعاونية ظاهريًا، أنها – في حقيقة الأمر- إجاباتٌ تعاونية.

إن المشكلة الأساسية في "مبادئ" "جرايس" هي انطواؤها على قدر من الغموض. كما أن "الاستنتاجات الحوارية" **conversational implicatures** – أي النتائج التي يمكن استنباطُها من الحوار- تتميز بالفضفضة، والكثرة المفرطة. ومن أجل ذلك، حاولت بعض الجهود المعاصرة أن تعيّن الكيفية التي ينجح بها الإنسانُ في الوصول إلى الاستنتاج المناسب، من بين جملة الاستنتاجات التي يمكن له أن يستنبطها في محاوراته مع الآخرين.

الأحداث الكلامية:

حين يتلفظ أحدُنا بسلسلة متتابعة من الكلمات، فالغالب أنه يحاول بذلك أن ينجز تأثيرًا، يمكن إنجازه في حالات أخرى عبر عمل بديل. فقول أحدنا مثلا: "ارجع للوراء!"، ربما يحمل فكرة "الدفع" نفسها. وحين يقول القاضي: "أحكم

عليك بالسجن لمدة خمس سنوات"، فإن هذا الحكم لا يمثّل مجرد سلسلة من الكلمات، بل إن له تأثيرًا مماثلا لـ"حَدَثٍ" بعينه، هو قيام القاضي بتوجيه أمر إلى رجل بالسير قُدمًا إلى السجن، ثم إدخاله إياه، وإغلاق الباب عليه، وحَبْسه فيه. وإجمالا، يمكننا القول بأن لبعض الكلام الذي نتلفظ به أثرًا مشابهًا لبعض "الأحداث". فإذا مضينا قُدُمًا بهذا الضرب من المنهجية المنطقية في المعالجة، جاز لبعضنا أن يذهب إلى أن كلّ ما نتلفظ به يمثّل ضربًا من القيام بـ"أحداث" مختلفة. وحتى كلامنا العادي – من مثل: "البنفسج أزرق اللون"- يمكن النظر إليه على أنه نوع خاص من "الأحداث"، أعنى: (حَدَث) إحداثِ تقريرٍ – أو بيان – **statement**:

(أقرِّر أن): البنفسج أزرق اللون.

ويُعرَف هذا الاتجاه – في عمومه – بـ"**نظرية الحدث الكلامي**" **speech act theory**"(١). وهو يمثل منهجًا يستعين به الفلاسفة، و اللسانيون، في تصنيف الطرق التي يستعمل بها البشر اللغة. حيث يعُدّونها هاهنا وسيلةً موازية لـ"أحداث" أخرى ينجزها البشر.

ويحاول مؤيدو "(نظرية) الحدث الكلامي"- في المقام الأول- أن يضعوا قائمة بالأحداث الكلامية الممكنة المتنوعة التي قد يحاول الناسُ إنجازها، من مثل: التقرير، والطلب، والسؤال، والأمر، والوعد، وتحديد محلّ الرِّهان **placing of bets**. وتتنوع "الأحداث الكلامية" التي تشتمل عليها هذه القائمة، من باحث إلى آخر، وإن كان هناك اتفاقٌ بينهم حول كثير منها. ويأتي في مقدمة هذه "الأحداث الكلامية": التقريرات **statements**، والأسئلة ، والأوامر :

---

(١) أو الفعل الكلامي/ الأفعال الكلامية... إلخ. هذا، ويرجع أصل هذه النظرية- كما هو معروف – إلى محاضرات الفيلسوف البريطاني "جون أوستن" John Austin (١٩١١ - ١٩٦٠م) المعنونة بـ How to do things with words (كيف تنجز أشياء بواسطة الكلمات). وقد ترجمها عبد القادر قنيني، ونشرت في (١٩٩١م) بـ"أفريقيا الشرق – الدار البيضاء". ومن المصادر العربية التي عرضتْ لهذه النظرية بالتفصيل: "آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر" للدكتور محمود نحلة، و"نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب" لطالب هاشم الطبطبائي، و"التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي" للدكتور مسعد صحراوي، و"مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسَّكّاكي" للأستاذ باديس لُهويمل، "والتداوليات: علم استعمال اللغة" تنسيق وتقديم د. حافظ إسماعيلي علوي، وغيرها كثير. [المترجم].

(أقرر أن:) الجو بارد.

(أسألك:) كم الساعة الآن؟

(آمرك:) ابتعد!

وتجسّد الأمثلةُ السابقة ضربًا من "الأحداث الكلامية" يُسمَّى بـ"الأحداث الكلامية المباشرة" **direct speech acts**؛ حيث يعبِّر عن "الحدث" تعبيرًا مباشرًا صريحًا، بأوضح الوسائل اللغوية الممكنة.

خلاصة: في بعض الأحيان، تمثل الألفاظُ التي نتفوه بها بديلا كلاميًا عن بعض الأحداث. وذلك كقولنا: "ابتعد!"، عوضًا عن حَدَثِ "الدفع".

ولكننا – في المقابل – نلاحظ أن كثيرًا من "الأحداث الكلامية" يتّسم بـ "عدم المباشرة" **indirect**؛ من حيث إنها تُصبّ في قالب تركيبي، يغلِب عليه الارتباطُ بـ"أحداث" أخرى. ودونك – مثلا على ذلك – ثلاثَ جمل حوارية، نتلفظ بها أحيانًا لإعطاء "أوامر"، على الرغم من أن أولاها فقط هي المصبوبة في القالب التركيبي لـ"الأمر".

- **Go to bed**

(اذهب إلى الفراش!)

- **Isn't it past your bedtime?**

(ألم تتجاوز وقت الذهاب للنوم بعد؟)

- **You should have been in bed long ago.**

(كان ينبغي أن تكون على فراشك منذ وقت طويل).

فالجملة الأولى تمثل – إذن – "حدثًا كلاميًا مباشرًا"، في حين تمثل الجملتان الأخريان "حدثين كلاميين غير مباشرين".

والسؤال- بعد: كيف يستطيع الناس أن يقفوا على "الحدث الكلامي" المقصود، إذا كان كلّ "حَدَثٍ" يمكن أن يفارق قالبه التركيبي المعتاد، ليتجسّد في قالب تركيبي آخر، يرتبط ارتباطًا أساسيًا بـ"حَدَثٍ" آخر؟ إن إحدى الإجابات المحتملة على هذا السؤال هي أن نحدد ما يسمّى بـ **happiness conditions** أو **felicity conditions** (شروط الاستخدام)- أي الظروف - أو السياقات - التي يدفعنا توافرها دفعًا منطقيًا إلى أن نفسّر شيئًا ما، على أنه نوع بعينه- دون غيره- من "الأحداث التي ينجزها الكلام". وذلك كأن يقال: إذا صُنّف قول ما على أنه "أمر" حقيقي، فيجب أن تتوافر "شروط" لذلك. منها: أن يكون السامع قادرًا قدرةً فيزيائية على تنفيذه. وأن يكون قادرًا - كذلك - على التعرف على الأشياء المشاركة في الحديث محل "الأمر". بل قد يُمكّن هذا القَدْر المجتزأ من "شروط الاستخدام" بعضَنا من فهم عبارات مثل: "خذ ذلك الكتاب!"، و "هذا الكتاب لا ينبغي أن يكون على الأرض"، على أنهما "أمران" حقيقيان. ثم فَهْم عبارات من مثل: "اذهب وارمِ نفسك في البحيرة!"، و"شمّر عن ساعديك!"(١)، على أنهما أمران غير حقيقيين.

فإذا أمكننا يومًا أن نحدد "شروط الاستخدام" لكل نوع من أنواع "الأحداث الكلامية" تحديدًا وافيًا، لكُنّا بذلك قد اجتزنا خطوة جِدّ مهمة في سبيل فهم الكيفية التي يستعمل بها الناسُ اللغة.

الأُطر المحفوظة الثابتة:

يمثّل مجال "الذكاء الاصطناعي" **artificial intelligence** (= **AI** اختصارًا) اتجاهًا بحثيًا آخر، يُعنَى بتناول الكيفية التي يفهم بها الناسُ بعضَهم بعضًا. ويطرح هذا الاتجاه فرضياتٍ بشأن الكيفية التي يمكن بها محاكاةُ الأنظمة الذكية على الحاسوب. وكانت المشكلة الأساسية في هذا الصدد هي الوقوف على الكيفية التي يمكن بها "برمجة" أجهزة الحاسوب، بحيث تتعامل تعاملا ناجحًا مع الحوارات الغامضة المفتقدة ظاهريًا إلى التناسب، من مثل:

---

(١) 'Gird up thy loins!'. والمقصود: استعدّ. فالعبارة كناية عن الاستعداد والتهيؤ لأداء أمر ما بقدر من الجِدّ، لا أن يكون أداء هذا الأمر مستلزمًا لتشمير الساعدين، ولا حتى أن يكون المخاطَب مرتديًا ما يلزم تشميره أصلا. [المترجم].

البائـع: أحواض غسيل الأطباق القرنفلية اللون هي آخر "صيحة"، يا سيدتي.

الزبونة: غسالة أطباقي حمراء اللون"[1].

وقد تمثَّل أحدُ حلول مشكلة الحاسوب هذه، في حلٍّ يوظّفه البشر كذلك. وبيان ذلك: أن "المعرفة" - كما افترض بعضهم - ربما تكون مخزّنة في صورة مواقف نمطية - أو أُطُر frames- ثابتة. ويجرى تكييف هذه "الأطـر" بحيـث تتناسـب مـع الواقـع المعيش؛ فتتغير وَفْق المطلوب. وعلى ذلك، فربما يكون لدى كل منـا "إطـار" راسـخ، يمثّل الشكل النموذجيَّ المعتاد للمطبخ. وفى هذا "الإطار" النموذجي توجد فراغات - أو مواقع slots- متعددة: فراغ يملؤه الحوض، وآخر يملـؤه المؤقـد، وثالـث تملـؤه غسالة الأطباق... إلخ. فـ"الحوار" الـذي يبـدو ظاهريًـا مفكّكًـا، أو غـير مـترابط- كذلك السابق- يستحيل إلى "حوار" مترابط منطقيًا كلّ الترابط، حـين يُنظَـر إليـه في ضوء علاقته بهذا "الإطار" النموذجي المعتاد للمطبخ. وفضلا عن ذلك، يبـدو جليًـا أن طرفي "الحوار" السابق يتقاسمان قدرًا معينًا من المعرفة المشتركة؛ من حيث إن لدى كلٍّ منهما صورةً عامة متشابهة لشكل المطبخ، ومكوناته.

يتضح لنا - إذن - أن ثمة طريقةً أخرى للتعامل مع التفاعل الإنساني. وتلكم: أن نعين الأطر المحفوظة المناسبة، من جهة، والمعرفة المشتركة المتوافرة لـدى كـلٍّ مـن المشاركين في ضروب "الحوار" المختلفة، من جهة أخرى. وكذا تزوّدنا هذه "الأطُـر" المحفوظة بطريقة أخرى لمعالجة ما يسمَّى بـ"التمثيـل" representaion، أو "الـنماذج العقلية" mental models. (ينظر: الفصل الثامن).

تحليـل الخطــاب:

لقد ركّزنا - حتى الآن - على النظر في الحالات التي يُضفى فيها البـشرُ معنًـى على الكلام البالغ التفكك والغرابة. ولكنى ألفت إلى أننا حين نـستعمل اللغـة، فإننـا لا ننجز ذلك بالضرورة على نحو عشوائي يُعْوِزه الترابطُ والتنظيم. وبيـان ذلـك: أن

---

(١) أي أن لون غسالة الأطباق التي لدى الزبونة، لا يتناغم مع لون حوض الغسيل الذي يعرض عليها البائع شراءه. فردّ الزبونة- إذن- هو رفض غير مباشر لعرض البائع. [المترجم].

لكلٍّ من "الحوارات" و"النصوص المكتوبة" وسائلَ متنوعة، توظِّفها في صهر الكلام غير المتآلف معًا، صهرًا يثمر كلا مترابطًا. وانظر معي في النصين الآتيين:

النص الأول:

George ate the curry with delight.Curry had always been George's favourite food. The curry was subtly flavoured. George dectected hints of cumin and coriander in the curry. Cumin and coriander are George's favourite spices.

("جورج" أكل الـ"كاري" برضًى كبير. الـ"كاري" كان – وما يزال – طعام "جورج" المفضل. الـ"كاري" كـان ممزوجًـا بقـدر طفيف من النكهات. "جـورج" اكتـشف آثـارًا مـن "كمـون" و"كزبرة" في الـ"كـاري". "الكمـون" و"الكزبـرة" همـا نوعـا التوابل المفضَّلان لـ"جورج").

النص الثاني:

George at the curry with delight. This type of food had always been his favourite. The dish was subtly flavoured, and in it he detected hints of his favourite spices, cumin and coriander.

("جورج" أكل الـ"كاري" برضًى كبير. هذا النوع مـن الطعـام كان – وما يزال – طعامه المفضَّل. طبق الطعام كان ممزوجًا بقدر طفيف من النكهات. وقد اكتشف فيه آثارًا من توابلـه المفـضلة: "الكمون"، و"الكزبرة").

فهذان النصان يعبّران عن محتوًى دلالي متقارب، وكأنهما مجرد "روايتين" لحدث واحد. وكذا يكاد بناؤهما التركيبي يكون واحدًا. وبالرغم من ذلك، فثمة قَدْر كبير من الاختلاف بينهما: فالنص الثاني أفضل أسلوبيًا. كما أنه يبدو أكثر ألفـةً لعمـوم القـراء.

إن النص الأول يبدو أنه قد كُتب جملةً جملةً، دونما تنبه إلى الأثر المحصَّل من النص بأكمله. وأما النص الثاني، فقد وظَّف وسائل متنوعةً للربط بين جمله ربطًا أثمر نصًّا كليًّا يتسم بالترابط. فبعد الظهور الأول لكلمة **curry** جرى استبدالُ كلماتٍ – أو عبارات – أخرى بها: **'this type of food'**، و **'the dish'**، والضمير **(it)**. وكذا استُبدل بـ"جورج" الضمير **(he)**. كما غُير ترتيب بعض الكلمات، في مواضع من النص، بحيث يُستبقَى له ترابطه وانسيابيته. ومن ذلك: نقل **(in it)** إلى مقدمة جملتها الفرعية. وفضلا عن ذلك، فقد حَدَثَ ربط بين بعض جمل النص الأساسية.

إن "**تحليل الخطاب**" هو الدراسة المعنيّة بالتعامل مع هذا الموضوع. ويتداخل "تحليل الخطاب"- بهذا المفهوم – مع "**علم الأسلوب**" **stylistics** المعنيّ بدراسة العلاقة بين "اللسانيات" و"الأدب" (سنتناول "علم الأسلوب" بالدرس لاحقًا). هذا، وللوسائل التي تستبقى التدفق الانسيابيّ للتواصل أهميةٌ خاصة في مجال اللغة المكتوبة؛ حيث لا يتوافر مَنْ يوضح للقارئ ما يستغلق عليه فهمُه، وإن كان واقع الحال يشهد بتوظيف كثير من هذه الوسائل في الحوارات العادية بين عموم الناس، كذلك. ودونك "روايتين" لـ"حوار" واحد، فتأملْهما معي:

"الرواية" الأولى[(١)]:

Edna	**: Someone ought to lock up Fred**
(إدنا)	(شخص ما يجب عليه أن يسجن "فرِد") :
Minnie	**: Fred is a disgrace**
(مِني)	("فرِد" عار) :

(١)يلاحظ هنا- وفى ترجمة أي حوار حيّ من الإنجليزية، أو غيرها، إلى العربية- ما انتهى إليه العلامة د. محمد عناني في مشكلة ترجمة هذه الحوارات: "والمشكلة في رأيي لا حلّ لها في الفصحى. فالحوار الحيّ في الإنجليزية ينبغي أن يُترجَم إلى حوار حيّ بالعربية، أي بالعامية، ولو اقتضى ذلك إخراج ترجمة له في كل بلد عربي باللهجة الدارجة له" (فن الترجمة، ص١٢٥). وتستطيع – بسهولة – أيها القارئ العربي الكريم أن تحوّل الحوار المكتوب بالفصحى إلى عاميتك أيًا كانت. [المترجم].

Edna : **Someone caught fred peeping at the new lodger through the bathroom window.**

(إدنا) : (شخص ما ضبـط "فرِد" يختلس النظر إلى المستأجرة الجديدة عبر نافذة الحمام)

Minnie : **What is the name of the new lodger? Is the name of the new lodger Arabella or Annabel?**

(مِنِي) : (ما اسم المستأجرة الجديدة؟ هل اسم المستأجرة الجديدة "أرابِلّا" أم "أنابِل"؟)

"الرواية" الثانية:

Edna : **Fred ought to be locked up.**

("فرِد" يجب أن يُسجَن)

Minnie : **That man's a disgrace**

(هذا الرجل عار)

Edna : **He was caught peeping through the bathroom window at the new lodger.**

(لقد ضُبط وهو يختلس النظر عبر نافذة الحمام إلى المستأجرة الجديدة)

Minnie : **What's her name? Is it Arabella or Annabel?**

(ما اسمها؟ هل هو "أرابِلّا" أم "أنابِل"؟)

إن "الرواية الأولى" لهذا الحوار تبدو متكلّفة وشاذة، على الرغم من أنها – في نفسها – تتميز بصحة تركيب ما تشتمل عليه من جمل. وأما "الرواية الثانية"، فتبدو أكثر شبهًا – بكثير – بالحوار المعتاد بين عموم الناس. وهي تشتمل على وسائل ربط مماثلة لتلك المستعملة في قطعة النثر السابقة الخاصة بـ"جورج" وطعامه من الـ"كاري". فبعد الظهور الأول لـ"فرد" **Fred**، استُبدلتْ به العبارة **(that man)**،

والضمير (he). وكذا تغيرت الجملة الثالثة، فأصبحت مبنيَّةً للمجهول؛ من أجل الإبقاء على "فرد" في بؤرة الاهتمام. وهلُمّ جَرًّا. والنتيجة الإجمالية لتوظيف هذه الوسائل ، وغيرها ، أن الحوار بأكمله قد اكتسب ترابطًا منطقيًا، بعد أن تلاحمت جُمَلُه. وهذا هو ما يفعله أهلُ اللغة بطبعهم. وأما الذين يتعلمون لغةً ثانية، فيحتاجون غالبًا إلى تعلم هذه المهارة؛ من حيث إن وسائل تحقيق هذا الترابط تتنوع – في تفاصيلها – من لغة إلى أخرى.

تناوب الأدوار في الحوار :

الأم : وكيف حال طفلي الجميل المدلل، إذن؟

الطفل : أف... أف.

الأم : أوه ما كان أجمله من نسيم! لابد أنك تشعر بأنك أفضل الآن!

الطفل : غغغ غغغ(١)

إن هذا المقطع القصير من "الحوار" يوضّح لنا حقيقةً مهمة بشأن الكلام الإنساني. وتلكم هي أن الناس يتناوبون الحديث: واحدًا ثم الآخر. وحتى إذا لم يكن في وسع أحد طرفي "الحوار" أن يتكلم، فإن الطرف الآخر يتظاهر بأن هذا الأول قد استوفى دَوْرَه في "الحوار". ولكننا يمكن أن نذهب إلى أبعد من مجرد تقرير ظاهرة "تناوب الأدوار" هذه، فنصف – فضلا عن ذلك – الكيفيةَ التي يجرى عليها "الحوار" النموذجي المعتاد بين عموم الناس. إن المتحاورين يشاركون في طقس اجتماعي، يُملي العرفُ جانبًا منه. ويكثر في حوارات الناس كثرةً بالغة تكرارُ أزواج بعينها من العبارات، تُعرَف أحيانًا بـ"أزواج العبارات المتبادلة أو المتلازمة" **exchanges or adjacency pairs**. وذلك من مثل:

---

(١) هذه الحروف هي المقابل للفظين goo, goo في الأصل: وهما يستعملان اللفظ goo للتعبير عن الأصوات التي يصدرها الأطفال الرُّضّع، على سبيل المحاكاة الصوتية onomatopoeia.
ينظر: http//en.wiktionary.org/wiki/goo_goo_ga_ga .
وفى معجم "لسان العرب" لابن منظور (ت ٧١١هـ) (ن غ ى ٦/ ٤٤٩٠): "النَّغية من الكلام....: الشيء تسمعه ولا تفهمه... والمناغاة: تكليمك الصبي بما يهوى من الكلام. والمرأة تناغى الصبيّ، أي تكلمه بما يعجبه ويسُرّه... والإنغاء: كلام الصبيان". [المترجم].

سـؤال : كم الساعة الآن؟

جـواب : الثالثة وعشر دقائق.

تحيـة : مرحبًا "جو" .

تحيـة : مرحبًا "بِل"(1) .

عـرض : أترغب في "فنجان" من القهوة؟

قبـول : نعم، من فضلك .

اعتـذار : أنا في غاية الأسف.

تهويـن : لا عليك .

ولا تقتصر "الحوارات" بين الناس بالضرورة على استعمال تلك الأزواج من العبارات المتلازمة، بل يكثر اشتمالها – كذلك – على ثلاثيات من تلك العبارات، من مثل:

سـؤال : كم الساعة الآن؟

جـواب : الثالثة وعشر دقائق.

امتنـان : شكرًا.

فـ" الحوارات" الجارية على ألسنة الناس – إذن– تسير وَفْق نمط متوقَّع، تُختار فيه بعض العبارات المتلازمة من بين ذخيرة متنوعة شائعة منها. ويتأسس اختيارُ طَرَفٍ بعينه من أطراف "الحوار"، لعبارات متلازمة بعينها، في مناسبة بعينها، على الموقف الاجتماعي الذي يلُفّ المحادثة.

---

(1) Why hallo. Bill.

خلاصة:

يتناوب الناسُ أطراف "الحوار": واحدًا ثم الآخر. وهذا ما يُعرَف بـ"تناوب الأدوار"

تصويب [أخطاء الحوار]:

لا تجرى "الحوارات" بين الناس بالضرورة على نحو سَلِسٍ يخلو من الزلّات. فهم بين ثلاثة احتمالات: إما ألا يستطيعوا شرح الأشياء شرحًا صحيحًا مناسبًا، وإما أنهم قد يقعون في بعض الأخطاء، وإما أن تقع الأخطاء ممن يحاورونهم. فإذا ما لوحظت هذه الأخطاءُ الهينة، فيجب أن تصوَّب. ثم إن هذا "التصويب" **repair** قد يرفِدنا بمعرفة ثاقبة إضافية، بشأن الطريقة التي يفهم بها الناسُ بعضَهم بعضًا.

وتتضمن هذه "التصويبات" أحيانًا ما يسمَّى بـ "التصويب الذاتي" **self- repair**، حين يلاحظ المتكلم نفسُه زلّته؛ فيستدركها توًّا. وذلك من مثل: "هل يمكن أن تناولني ملعقة؟ أعني ملعقة الشاي"، و"وصلت (ماريون) يوم السبت – آسف، أقصد يوم الأحد".

وكذا تتضمن "حوارات" الناس– في أحيان أخرى– ما يُعرَف بـ"التصويب الغيري" **other- repair**، حين يُعْوِز أحدَ أطراف "الحوار" التيقنُ مما قيل، أو حين يظُن أن طرف "الحوار" الآخر قد وقع في خطأ ما. وذلك من مثل: "أظنك تقصد ملعقة الشاي"، و"هل وصلت (ماريون) يوم السبت حقًّا؟ أليس الأحد؟".

ولكنا نلاحظ – في المقابل – أن عموم الناس يتنكَّبون مواجهة بعضهم بعضًا مواجهةً مباشرة، بما قد يقع منهم من أخطاء. بل يجنحون – في أكثر الحالات– إلى ما يُعرَف بـ"التصويب الذاتيّ بتلقين الآخرين" **other- initiated self- repair** حيث يستعلم السامع بلطف من المتكلم عما قاله؛ فيتنبه الأخير إلى زَلّته، ويبادر بنفسه إلى تصويبه. وذلك من مثل:

المتحدث (أ) : "آلان" **Alan** اجتاز دورة تدريبية في الغوص في أعماق البحار.

المتحدث (ب) : "آلان"؟ هل اجتاز هذه الدورة حقًّا؟ .

المتحدث (أ) : آسف، لم أقصد "آلان"، بل قصدتُ "أليس" **Alice** .

خلاصة:
تُصوَّب زلّاتُ اللسان الهينة، التي قد تقع لدى تحاور الناس بعضهم مع بعض: إما عبر "التصويب الذاتيّ"، حين يُصوّب المرءُ لنفسه. وإما عبر "التصويب الغيري"، حين يُصوّب له الآخرون.

فالناس – كما يشير المثال السابق – يميلون إلى التحلي بالأدب، لدى تحاور بعضهم مع بعض. وعلى ذلك، فربما يؤثّر "التأدب في التعبير" تأثيرًا بالغًا في البنية التركيبية لـ"الحوار". وتعالوا بنا نبسُط القولَ في هذا الموضوع.

التـأدب في الحوار Politeness:

Shut the door !

(أغلق الباب!)

I wonder if you'd mind shutting the door?

(تُرَى... أتمانع في إغلاق الباب؟)

There's quite a draught in here.

(هناك تيار هواء بارد يهبُّ علينا)

إذا أردتَ من شخص ما أن يغلق الباب، ففي وسعك نظريًا أن تستعمل إحدى الجمل الثلاث المذكورة آنفًا. ولكن واقع الاستعمال اللغوي يشهد بأن استعمال الجملة الأولى، يكاد يقتصر على مقام توجيه الكلام إلى طفل صغير. وتوجيهها إلى أي شخص آخر، سيُعَدّ ضربًا من القِحَة، أو إساءة الأدب. إن هذا التنكُّب للمباشرة في توجيه الطلب، يعتمد – في جانب منه – على ثقافة المجتمع. وقد سألتْ إحدى الزائرات ذات مرّة متحيرةً: "لماذا بدا ذلك الرجل مُغضَبًا، وكأني قد جرحتُ شعوره، حين قلت له: **'Pass the salt'** (ناولني الملح). ثم ازدادت حيرة تلك الزائرة، حين نُبِّئت بأنه كان من الأليق أن تقول: **'I wonder if you could possibly pass the salt?** (تُـرَى، هل

يمكن أن تناولني الملح؟). وتساءلت: ما السّرُّ في كل هـذه الجلبـة والحـساسية بـشأن كمية صغيرة من الملح؟ وبالرغم من هذا التنوع الثقافي بين مجتمع وآخر، على نحو مـا يجسّده المثالُ السابق، ففي وُسْعنا أن نقرر أن طلب الأشياء بأسلوبٍ غير مباشر، يمثل الطريقة الأكثر تهذبًا وأدبًا في معظم الثقافات، على مستوى العالم كلِّه.

إن لدى البشر في كل مكان ميلا إلى أن يكونوا مهذَّبين. ثم إنهم يـستعينون – في سبيل إنجاز ذلك الميل – بوسائلَ متـشابهة، تتأسـس عـلى تلبيـة حـاجتين اجتماعيتـين أساسيتين، هما: "لا انتقاد"، و "لا تدخُّل". فالناس يرغبـون في أن تُـصدَّق أقـوالهم، وفي ألا يُفرَض عليهم شيء. وعلى ذلك، نجد الشخص الـواعي اجتماعيًـا يقلـل مـن انتقاداته للآخرين، ويتجنَّب التطفل عليهم، والانتقاصَ مـن حريـاتهم، ولـو بـشكل صريح، على الأقل.

ولهذه الحاجة الاجتماعية إلى "عدم الانتقاد" و"عدم التدخل" أثرُهـا في اللغـة. وأي انتقـاد للآخـرين، أو تـدخُّل في شـئونهم، سـوف يكـون مغـامرة اجتماعيـة. وعـلى ذلـك، يلـزم المتحـادثين أن يوازنـوا بـين مزايـا "الكـلام الـصريح المبـاشر" 'straight talking'، وعيوبـه. إن علـيهم أن يعتـبروا عوامـل متعـددة: كالمـسافة الاجتماعية **social distance** بينهم وبـين مـن يتحـدثون إلـيهم، والعلاقـة الـسلطوية بينهما، والمعايير الثقافية السائدة. وعلى حاصل جمع هذه الاعتبارات المختلفة، يتأسَّـس اتخاذُ القرار المناسب.

خلاصة:

يميل عموم الناس إلى التحلّي بـ"الأدب"، لدى تعامل بعضهم مع بعض. ويغلِـب عليهم الالتزامُ بالمبدأين العامين الآتيين: "لا تنتقد الآخرين"، و"لا تفرضْ نفسك عليهم".

هَـبْ أن زمـيلا كـان يفـرط في شرب الخمـر، فـربما يقـول لـه أحـدهم: **Stop drinking!** (توقف عن الشرب!). ولكن الاحتمال الأرجح أن يقال لـه – بلباقة:
I wonder if we should keep our heads clear for tomorrow's meeting.
(ترى: أيجب علينا أن نستبقى عقولنا صافية؛ من أجل اجتماع الغد؟). بل ربـما يمـزح

معـه زمـلاؤه قـائلين لـه: **Even if everybody else goes bankrupt, the whisky manufacturers will survive!** (وحتى إذا أصبح كل الناس- خـلاك – مُفْلسين، فإن مصانع الشراب ستظل منتعشة!). وأما إذا غلب على الظن غلبةً طاغية، أنّ جَـرْح شعور ذلك الزميل سيكون مخاطرة، فبوسع محادثه- بلا شك- أن يلتزم الصمت.

ولكن هَبْ أن شخصًا ما كانت لديه حاجة عاجلة ملحة، وأحسَّ أنه مضطرّ إلى أن يفرض نفسَه على شخص آخر، فماذا يحدث؟ هناك طرق متنوعة يجرى توظيفُهـا في هذا الصدد؛ للتخفيف من ثِقَل مثل هذا الموقف. فمثلا: يكثر مـن هـؤلاء المتقحِّمـين عرضُ حاجاتهم في إطار تشاؤمي، من مثل: **I don't suppose you could lend me a pound, could you?** (أنـا لا أفـترض أن في وسـعك إقـراضي جنيهًـا واحـدًا. أفي وسعك؟). أو ربما يحاولون التخفيف من ثقل تقحُّمهم، من مثل: **I won't keep you a minute, but...** (لن أعطّلك أكثر من دقيقة. ولكـن...). أو ربـما يكتفـون بمجـرد الاعتذار، من مثـل:**I'm terribly sorry to bother you, but...** (أشـعر بالأسـف البالغ بسبب إزعاجك. ولكن...).

ويوظِّف البشر- على مستوى العالم كله- هـذه الطـرق المتنوعـة الـسابقة، وإن كانت لا توجد كلُّها بالضرورة في كلّ لغة؛ فلكلّ ثقافةٍ طرقها التي تُؤْثرها عما سواها. إن كل ما سبق يكشف لنا عن أن هذا النوع مـن الدراسـة يتـداخل مـع "اللـسانيات الاجتماعية" **sociolinguistics**. وهو الفرع المعرفي الذي سنفرد له فصلَنا الآتي.

خلاصة:

لكلٍّ من الثقافات المختلفة طُرُقُها الخاصة، التي تستعين بها في التخفيـف مـن وقـع الإزعاج – أو الإغضاب- المتوقَّعين، حين يُضطَرّ أحد أبناء تلك الثقافات إلى انتقاد الآخرين، أو فرض نَفْسه عليهم.

فلنتذكر:

- تمثل "التداولية" فرعًا من فروع "اللسانيات". وهو الفرع المعنيّ باستكشاف الطرق التي يجرى بها توظيفُ اللغة، توظيفًا لا يمكن الوقوفُ على المراد منه، عبر الاستعانة بالمعرفة اللغوية وحدها.
- يوصف الفيلسوف الأمريكي "بول جرايس" أحيانًا بأنه "مؤسس التداولية".
- اقترح "جرايس" أربعة مبادئ **maxims** رأى أن السلوك التعاوني ينهض عليها. وافترض أن الناس يعتبرون تلك "المبادئ" لدى تحادث بعضهم مع بعض.
- تفترض هذه "المبادئ" أن كلام المتحاورين يجب أن يقدّم القدر الصحيح المناسب من المعلومات، وأن يكون صادقًا، وكذا مناسبًا لموضوع الحوار، ومعروضًا عرضًا منظمًا.
- يكشف حصولُ خَرْق لهذه المبادئ عن تعاظم قدر الفاعلية التي تشتغل بها في حوارات الناس. حيث يفترض المتحاورون أن الكلام الذي يبدو مفتقدًا للسمة التعاونية، إنما يقدّم- في حقيقة الأمر- معلوماتٍ مهمةً.
- يحدث أحيانًا أن تمثّل الكلماتُ التي نتفوه بها، بديلا لغويًا عن بعض "الأحداث". وذلك كقولنا لشخص ما: "ابتعد!"، بديلا عن حَدَثِ "دَفْعه بعيدًا".
- تمثل "التقريرات" **statements**، و"الأسئلة" ، و"الأوامر" ، أحداثًا كلامية مباشرة. وأما ما عداها فيمثل أحداثًا كلامية غير مباشرة .
- يتكون "الحدث الكلامي غير المباشر" حين يستعمل أحدُنا حدثًا كلاميًا بدلا من آخر. وذلك كأن نستعمل "سؤالا" من مثل: **Shouldn't you be in bed by now?** (أما كان يجب أن تكون في فراشك قبل الآن؟) بدلا من استعمال "الأمر" المباشر: **'Go to bed'** (اذهب إلى فراشك!)
- يميل عموم الناس إلى أن يكونوا مهذَّبين، لدى تعامل بعضهم مع بعض.
- يتجلّى هذا الميلُ في مراعاة متطلبيْن اجتماعيين أساسيين، هما: "لا تنتقد الآخرين"، و"لا تتدخلْ في شئونهم".

١٠

اللغــة والمجتمــع

يتناول هذا الفصلُ بالدرس "اللسانيات الاجتماعية" **sociolinguistics**. وهو العلم المعنيّ بتحليل التنوع **variation** الحاصل داخل اللغة. ويدرس فـصلُنا في هـذا الصدد الاختلافاتِ بين الكـلام والكتابـة، والتنـوعَ الحاصـل في سـمات النطـق بـين الطبقات الاجتماعية المختلفة. ويلخّص القولَ – كذلك- في الفروق بين لغة الرجـل، ولغة المرأة. ثم يناقش – أخـيرًا- موضـوع المجتمعـات المتعـددة اللغـات، واللغـات الخليط التي من النوع الـ"بِدْجِن" **pidgins**، ومن نوع الـ"كرِيول" **creoles** .

يُعرَّف علم "اللسانيات الاجتماعية" عـادةً بأنـه: العلـم المعنـيّ بدراسـة اللغـة والمجتمع. وفى حين يركّز معظم اللسانيين على عنـاصر الاتفـاق التـي تكمُـن خلـف التنوع الظاهري للغات الإنسانية، نجد أن علـماء اللـسانيات الاجتماعيـة يـسعون إلى تحليل العوامل الاجتماعية التي أفضت إلى حـصول هـذا التنـوع. وخلاصـة القـول : دراسة الاختلافات اللغوية هي متوجَّه عناية علماء اللسانيات الاجتماعية، وبخاصـة: التنوع اللغوي الواقع في لغة بعينها.

مفهــوم اللغــة:

ربما يكون أول سؤال يحتاج علماء "اللسانيات الاجتماعية" إلى طرحه هو: "ما هـي اللغة؟" هل يمكن لفكرة "اللغة" أن تُعرَّف جغرافيًا؟ هل يمكـن أن يـسوَّى بينهـا وبـين الجنسية؟ أم هل يجب أن تُعرَّف اللغة في ضوء سهولة الفهم المتبادل بين المتكلمين بها؟

إن الإجابة الراجحة على كل هذه الأسئلة، هي: "لا". فأما التعريـف الجغـرافي للغة، فمن شأنه أن يفصِل الإنجليزية الأسترالية عن الإنجليزية الأمريكية مثلا. وهذا

فصل غير مناسب، كما هو جِدّ واضح. وأما الجنسية، فهي فكرة غامضة، ليس لها كبير صلة باللغة التي يتكلمها أحدُ الأشخاص. فمثلا: يوجد عدد كبير من اليهود السوفيت يَعُدّون أنفسهم- في المقام الأول- يهودًا. وبالرغم من ذلك، نجد أنهم يتكلمون اللغة الروسية. وأما القدرة على الفهم المتبادل، فلا كبير غناء لها بهذا الصدد. وذلك لأن واقع الحال يشهد بأن متكلمًا باللهجة "الجلاسجِيّة"(١) **Glaswegian**، وآخر متكلمًا باللهجة الـ"كُكْنية"(٢) **Cockney** قد يجدان صعوبة في أن يفهم أحدُهما كلام الآخر، أكثر من الصعوبة التي يجابهها رجلٌ هولندي في تواصله مع آخر ألماني، على الرغم من أنه يُنظَر إلى هذين الأخيرين على أنهما يتحدثان لغتين مختلفتين. وفضلا عن ذلك، لا يوجد معيار لغوى موضوعي يمكن توظيفه في هذا الصدد. فاللغتان الهولندية والألمانية لا تتميزان بسهولة إمكانية التواصل بين المتكلمين بهما فحسْب، بل هما تتميزان – كذلك – بأن ما بينهما من التشابه في مكوناتهما، يفوق التشابه الحاصل بين بعض لهجات اللغة الصينية.

ويفضّل علماء اللسانيات الاجتماعية- تنكُّبًا لهذه المعضلة – أن يبدأوا بفكرة "الجماعة اللغوية" **speech community**، بدلا من فكرة "اللغة". ويعرّفون "الجماعة اللغوية" بأنها: أية جماعة من الناس تضع في اعتبارها أنها تتكلم نفس اللغة. وتأسيسًا على ذلك، لابد من النظر إلى اللغتين: الهولندية، والألمانية، على أنهما لغتان منفصلتان . وبيان ذلك: أنه على الرغم من تشابه هاتين اللغتين، نجد أن الهولنديين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم يتكلمون باللغة الهولندية، كما ينظر الألمان إلى أنفسهم على أنهم يتكلمون لغة أخرى، هي الألمانية. وكذا يجب تصنيفُ كلِّ لهجات اللغة الصينية على أنها تمثل لغةً واحدة؛ لأن جميع المتحدثين بهذه اللهجات يعُدّون أنفسهم متكلمين بلغة واحدة، هي اللغة الصينية. وذلك على الرغم من الفروق الكبيرة الحاصلة بين هذه اللهجات.

---

(١) نسبة إلى مدينة "جلاسجو" Glasgow بجنوب "اسكتلندا". [المترجم].

(٢) في Macmillan English Dictionary أن لفظ Cockney يطلق على السكان الأصليين لـ"الحي الشرقي" East End من مدينة "لندن". ويطلق – كذلك – على اللهجة- أو اللكنة accent- التي يتحدثون بها. [المترجم].

خلاصة:

ترتَّب على ما جابهه اللسانيون من صعوبة في تعريف مصطلح "اللغة" تعريفًا جامعًا مانعًا، أنهم قد استبدلوا بالحديث عن هـذا المصطلح، الحديث عما يُعـرَف بـ"الجماعة اللغوية" .

اللهجـة واللُّكْنَـة:

تتميز الجماعات اللغوية بوجود تنوع لغويّ كبير داخل كلٍّ منها. ويتنـوع كـلام أعضاء كل جماعة لغوية، وَفقًا لعـدد كبـير مـن العوامـل، تـشمل: الموقـع الجغـرافي، والعمر، والوظيفة، والحالة الاجتماعية الاقتصادية، والجماعة العرقية، ونوع الجنس.

وأوضح أنواع التنوع في الجماعة اللغوية هو استعمال لهجـات **dialects** مختلفـة. وترتبط اللهجة عادة بمنطقة جغرافيـة بعينهـا. وذلـك مثـل اللهجتـين البريطـانيتين: "الجيورديـة" **Geordie**، "والكُكْنيـة" **Conckney**، اللتـين يـتكلم بهـما النـاسُ في "تاينْسايد"[1] ، و"لندن"، على الترتيب. ويشير مصطلح **dialect** إلى وجود اختلافات أكبر بكثير من مجرد وجود اختلاف في طريقة النطق. إن لهجـة مقاطعـة "لانكـشير"[2] تختلف عن "الإنجليزية البريطانية الفصحى" في النظام الـصوتى، والبنـاء التركيبـى، وبعض المفردات، والعبارات، من مثل:

I don't want for to go[3]. و **summat** بدلا من **'something'**، و **nowt** بدلا من **'nothing'**. ويُنظَر إلى الإنجليزية الأمريكية على أنها لهجة مختلفة عن الإنجليزيـة البريطانية؛ من حيث تميـز الأولى بابتكـارات فونولوجيـة، مـن مثـــل الـصوائـــت

(١) Tyneside بشمال شرق بريطانيا. [المترجم].

(٢) Lancashire بشمال غرب بريطانيا. [المترجم].

(٣) محل الشاهد –كما يبدو– هو إقحام for بين الفعل want، والمصدر (المؤول) to go. [المترجم].

الأنفيـــــة، وبتراكيـــب من مثـل: "'I kinda figured maybe'"[1]، و 'He said for you not to worry'"[2].

ويشيع في الاستعمال اليومي للغة حصولُ لَبْس غـير محمـود بـين المـصطلحين **dialect** (لهجة)، و **accent** (لُكْنة). ويـشير هـذا الأخـير إلى الاختـلاف الحاصـل في طريقة النطق فقط. وعلى ذلك، يترجّح النظر إلى الرجل الأسكتلندي، ونظيره اللندني، على أنهما يتكلمان اللغة الإنجليزية، ولكن بلُكْنتين مختلفتين. ولكـن إذا كـان النظـام اللغويُّ الأساسي واحدًا لدى كلٍّ، وكذا المفرداتُ متماثلـة، فـسيُنَظر إلـيهما عـلى أنهـما يتكلمان لهجة واحدة.

> **خلاصة:**
>
> على الرغم من أننـا مازلنـا – حتـى وقتنـا هـذا- نكتـشف وجـودَ عـددٍ كبـير مـن "اللُّكْنات" المحلية في "بريطانيا"، فإننا نلاحظ – في المقابل- أن اللهجات **dialects** في سبيلها للانقراض، بسبب من تأثير كلٍّ من: التعليم، والمذياع، والتلفاز.

مـن الأعلى إلى الأدنـــى:

يجذب التنوع اللغويُّ الحاصل داخل المنطقة الجغرافيـة الواحـدة اهـتمام علـماء اللسانيات الاجتماعية، أكثر من غيره من ضروب هـذا التنـوع. وينقـسم هـذا التنـوعُ اللغوي بدوره إلى نوعين أساسيين: **الأول:** التنوع الحاصل في كلام الشخص الواحد. **والثاني:** التنوع الواقع بين أهل المنطقة الجغرافية كلّهم. ويتداخل هذان الـضربان مـن التنوع اللغوي بحيث يصعب أحيانًا أن نفصل أحدهما عن الآخـر. ودعونـا نبـدأ – أولا- بدراسة التنوع الأسلوبي الحاصل في كلام الشخص الواحد.

---

(١) في Macmillan English Dictionary أن Kinda استعمال شائع في الإنجليزية الأمريكية خاصة، بمعنى: kind of (= نوعًا ما = adverb). وفي Oxford Advanced Learner's Dictionary أن figured استعمال شائع في الإنجليزية الأمريكية كذلك، بمعنى: "ظن/ خمّن". [المترجم].

(٢) وذلك بدلا من: 'He told you not to worry' مثلا. [المترجم].

يخضع أهلُ اللغة الأصليون عادة لعدد كبير من التنوعات الأسلوبية المختلفة، يُطلَق عليها أحيانًا مصطلح register (السجِلّ اللغوي)[1] ويحصل هذا التنوع وَفْقًا للموضوع محل النقاش topic، ولمدى رسمية المناسبة formality، ولوسيلة التواصل medium: المحاورة، أو الكتابة، أو الإشارة.

إنّ تبنّي لغة تناسب الموضوع محلَّ النقاش هو أمر واضح العلّة والمعقولية؛ فواقع الحال يشهد بأن لكثير من الأنشطة قاموسَها اللغوي الخاص: فإذا كنت بصدد ممارسة رياضات تلعب بالكرة –مثلا– فيلزمك أن تعرف أن "الصفر" يُعبَّر عنه بكلمة duck في لعبة "الكريكت"، وبكلمة love في لعبة كرة التنس الأرضي، وبكلمة nil في لعبة كرة القدم. وإذا تناولت شرابًا مع أصدقاء في إحدى الحانات، فأنت في حاجة إلى أن تعرف تحيات من مثل Cheers![2]، و Here's to your good health (في صحتك).

وفي بعض الحالات، تتجمع مفرداتٌ مألوفة نسبيًا، في تراكيبَ غيرِ مألوفة. فمثلا: يشيع في العناوين الرئيسية للصحف– وكذا في نصوص البرقيات– حذفُ الكلمات غير الأساسية حذفًا مطردًا؛ مما يفضي –أحيانًا– إلى حصول قدر من الغموض غير المتعمَّد، كما في العنوانين الآتيين الواردين في صحيفة بريطانية، وأخرى هندية، على التوالي:

Giant waves down Queen Mary's funnel.

(أمواج عاتية أطاحت بمدخنة الملكة "ماري")[3]

---

(١) ممن جرى قلمه بهذه الترجمة العربية لمصطلح register: د. محمد البطل، في كتابه: "تحليل الخطاب والترجمة"، ص٧٥. وترجمه د. رمزي بعلبكي بـ"نوعية اللغة/ لهجة خاصة". ينظر: معجم المصطلحات اللغوية ص٤٢٣. [المترجم].

(٢) في Macmillan English Dictionry أن Cheers كلمة ينطق بها حامل كأس الشراب، قبل شربه لها مباشرة؛ للتعبير عن التمنيات الطيبة لمنادمه. [المترجم].

(٣) محل الشاهد في هذا العنوان الصحفي هو حذف الكلمة الدالة على "السفينة"؛ مما ربما يفضي إلى حصول لَبْس في المقصود. هذا، وقد سُميت هذه السفينة باسم الملكة "ماري" (١٨٦٧ – ١٩٥٣م) ملكة بريطانيا، وزوجة الملك جورج الخامس (١٨٦٥ – ١٩٣٦م). ينظر:
http//en.wikipedia.org/wiki/RMS_Queen_mary [المترجم].

Dacotis (= bandits) shoot dead policeman.

(قطّاع طرق "يطلقون" النار على شرطي فـ"يُرْدونه" قتيلا)[1]

وتلتزم بعضُ الثقافات بأساليبَ خاصةٍ من الكلام التزامًا شديد المغالاة. وترتبط تلك الأساليب بمواقف اجتماعية تَقْفو درجةً عالية من الشعائرية. وذلك على نحو ما نجد لدى أبناء "السوبانون" Subanon- إحدى قبائل الفيليبيين- فإنك إذا أردت أن تتناول شرابًا لديهم، فلن يُجزئك - في سبيل ذلك- أن تتلفظ بالمقابل "السوباانوني" للجملة الإنجليزية "Please may I have a drink" (من فضلك أعطني شرابًا). فقولك هذا قد يدفع أحدَ أبناء هذه القبيلة إلى امتداح طلاقتك في التحدث بـ"السوبانونية"، بيد أنك لن تحصل على ما تريده من شراب! إن احتساء الشراب- وبخاصة "البيرة" - يتسم بأنه من الأنشطة ذات الدرجة العالية من الطقوس الشعائرية التي تُنجَز عبر عدد من المراحل. ولكل مرحلة منها أسلوبُ الكلام الذي يناسبها. ويعتمد الترقي في المجتمع "السوبانوني" على مدى نجاح الفرد في التعامل مع الأساليب الخاصة بكلٍّ من هذه المراحل.

وثمة ضروب أخرى من التنوعات اللغوية لا تتسم الفروقُ بينها بهذا القدر من الصرامة. فالشخص نَفْسُه قد يتلفظ بإحدى الجمل الثلاث الآتية، وَفْقًا لمقتضيات المقام:

I should be grateful if you would make less noise.

(سأكون ممتنًا إذا خفضتَ من صوتك)

Please be quiet.

(من فضلك هدِّئ صوتك)

Shut up !

(اخرس!).

---

(١) محل شاهد الغموض هاهنا هو استعمال shoot (يطلق النار) في زمن المضارع، على الرغم من أن معتاد استعماله في هذا التركيب خاصة، أعني: (shoot) dead ، أن يكون في الزمن الماضي، أو التصريف الثالث (= shot dead). هذا فضلا عن حذف أداة التنكير a قبل كلمة policeman .

وينظر: Macmillan English Dictionary.

http://english.stockexchange.com/question/27334/using-term-shot-dead [المترجم]

فهذه التنوعات الأسلوبية تتراوح - هاهنا - من الأسلوب الأعلى، أو الرسمي، نزولا إلى الأسلوب الأدنى low، أو غير الرسمي. ويرتبط اختيار أي من نوعى الأسلوب هذين- في جانب منه- بمسألة التأدب في الحديث (ينظر: الفصل التاسع).

ولكن "التأدب في الحديث" لا يمثل إلا مكوّنًا واحدًا من مكونات مهارة لغوية أعم، هي مهارة الاستعمال المناسب للغة appropriate. ومعرفتنا بـ"ماذا" نقول، و"متى" نقوله، هو ما يطلق عليه أحيانًا مصطلح "القدرة التواصلية". communicative competence. وأصحاب اللغة وحدَهم هم الذين يدركون أن توجيه عبارة من مثل:(١) 'kindly refrain from smoking' (لطفًا كُفَّ عن التدخين) لصبيّ عمره عَشر سنوات، يدخّن سيجارة مسروقة، سيكون من الغرابة وعدم المناسبة بمكان. وكذا أن توجيه عبارة بالمعنى نفسه بصيغة (٢) 'Put that fag out' (أطفئي السيجارة) لإحدى الدوقات(٣)، سيكون من الفظاظة بمكان كذلك. فكلتا العبارتين متساويتان في عدم مراعاتهما لمقتضى الحال. ويلزم الأطفالَ ومتعلمي اللغة من الأجانب أن يكتسبوا تلك المهارة. وهو ما يتطلب زمنًا ليس بالقصير.

ويتسبّب عدم القدرة على استخدام اللغة المناسبة في تفوُّه المتكلم بما قد يجعل السامعين يستغرقون في الضحك. وهذا ما جعل استعمالَ الأسلوب اللغويّ غير المناسب لمقتضى الحال واحدًا من مصادر الفكاهة، في اللغة الإنجليزية، كما في المثال الآتي:

Scintillate, scintillate, globule lucific,
Fain would I fathom thy nature specific(٤).

---

(١) في Macmillan English Dictionary أن كلمة Kindly تستعمل في السياقات الرسمية formal؛ لإنشاء طلب مهذّب، خاصة حين يكون المتلفظ بها في حال من يحاول أن يخفي حقيقة انزعاجه من أمر ما. وفي هذا المعجم أيضًا أن كلمة refrain تستعمل -كذلك- في السياقات الرسمية. [المترجم].

(٢) في Oxford Advanced Lerner's Dictionary أن fag كلمة عامية مبتذلة بالمعنى الوارد في المتن. [المترجم].

(٣) سبق التعريف بالدوق duke والدوقة duchss في الفصل الأول (ما اللسانيات؟) (هامش ص٣٧) [المترجم].

(٤) تتمثل المفارقة المضحكة - كما ستشير المؤلفة توًّا- في أن هذه ترجمة لأغنية خاصة بالأطفال، يفترض في كلماتها أن تكون بسيطة شائعة. وبالرغم من ذلك نجدها مشتملة على كلمات: =

ومثار التفكه، هنا، هو استعمال هذا الأسلوب الرسمي في ترجمة أغنية مقفاة، ارتبطت بمقام غير رسمي خاص بالأطفال. وهي:

Twinkle, twinkle, little star

(تلألأ، تلألأ، أيها النجم الصغير)

How I wonder what you are.

(كم أتعجب ماذا تكون)

إن استعمال مستوًى غير مناسب من الرسمية **formality** لا يُعَدّ - في بريطانيا - خطأ اجتماعيًا جسيمًا في معظم حالاته. ومهما يكن من أمر، فإن واقع الحال يشهد بحصول قدر كبير من التداخل بين استعمالاتنا للأساليب المختلفة. فلا فرق ذا بال - مثلا - إن قلت لجارك: **'Hello'**، أو قلت له: **'Good morning'**. ولكننا - في المقابل - نجد الحال مختلفًا في ثقافات أخرى، حيث يتطلّب الموقفُ الاجتماعي درجةً أكبر من الالتزام الصارم بأساليبَ لغويةٍ معينة في الحديث. ومن الأمثلة المتطرفة على ذلك: ما وُجِدَ في جزيرة "جاوه" **Java** الأندونيسية. ففي هذه الجزيرة ينقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات اجتماعية متمايزة. ففي القمة يوجد أبناء الطبقة الأرستقراطية. وفي الوسط يوجد أهل المدن. ثم يقبع الفلاحون في القاع. ولكل طبقة - أو مجموعة - من هذه الطبقات مستوًى من الحديث يرتبط بها. فأما المستوى الأرفع من الكلام، فيستعمله أبناءُ الطبقة الأرستقراطية، حين يدور الحديث بين رَهْط منهم لا يعرف بعضُهم بعضًا معرفةً وطيدة. وكذا يستعمله أهلُ المدن حين يقتضي الأمر أن يخاطب أحدُهم مسئولا حكوميًا رفيعًا. وأما المستوى الأوسط من الكلام، فيستعمله أهلُ المدن الذين لا تربط

= إما أن استعمالها يكاد يقتصر على النتاج الأدبي الشديد الخصوصية (من مثل: scintillate بمعنى: يومض)، وإما أنها كلمات قديمة أو مهجورة [من مثل: lucific بمعنى: يُشِع ضوءًا، و fain بمعنى: بسرور، و fathom بمعنى: يفقه شيئًا معقدًا أو غامضًا، و thy بمعنى: خاصتك أو ملكك (your)].
ينظر: Macmillan English Dictionary.
The Oxford Dictionary of English Etymology.

وأما المعنى الإجمالي فقريب مما يلي:

أومضي، أومضي، أيتها الكُرَية المشعة
كم تُؤنقني خاصةُ كُنهك [المترجم]

بينهم علاقاتُ صداقة حميمة. وكذا يستعمل الفلاحون هذا المستوى حين يخاطبون ذوي المكانة الاجتماعية العالية منهم. وأما المستوى الأدنى من الكلام، فيستعمله الفلاحون لدى مخاطبة بعضهم بعضًا. ويستعمله الأرستقراطيون وأهلُ المدن حين يتحادثون مع الفلاحين. وكذا يستعمله الناسُ من كل الطبقات ممن تجمع بينهم علاقاتُ صداقة حميمة. ويستعمله – أخيرًا – الآباءُ لدى الحديث مع أبنائهم. وعلى ذلك، فهذا المستوى هو الذي يتعلمه – أولا – كلُّ أطفال تلك الجزيرة الأندونيسية. ثم إنه يُنتظَر منهم حين يكبرون أن يغيّروا من أسلوب مخاطبتهم لآبائهم، ليصبح أسلوبًا ذا قدر أوفر من الرسمية، وإن استمر آباؤهم في التحدث إليهم بهذا المستوى الأدنى من الكلام.

إن معيار "الرسمية – غير الرسمية" يتداخل مع اعتبارات أسلوبية أخرى، في مقدمتها وسيلة التواصل. فدعونا – بعد – ننظر في هذا الاعتبار.

الكلام في مقابل الكتابة:

يختلف الكلام عن الكتابة، من حيث هما وسيلتان للتواصل، في عدد من الأمور. ودونك هذا الحوار بين A ، و B ، فتأمله:

A: But the point is she is not such a strong character.

(ولكن النقطة المهمة أنها ليست تلك الشخصية القوية [كما يبدو][1]

B: It's not the point she's as str... she's stronger than what she makes out I'll tell you now.

(ليست النقطة المهمة أنها [مجرد شخصية] قو... إنها أقوى مما تبدو وسأشرح لك الآن)

A: Well maybe.

(حسن ربما)

(١) يلاحظ خلو الترجمة من علامات الترقيم، كما هو الحال في النص المترجم، على أساس أننا بصدد حوار، لا كلام مكتوب. [المترجم].

B: **She's a lot stronger cos[1] otherwise I would have drived her mad when she lived here but no she's a lot stronger than what she makes out to you lot I'll tell you that now.**

(إنها أقوى بكثير وإلا لكنتُ أخرجتُها عن طَوْرها حين كانت تعيش هنا ولكن لا إنها أقوى بكثير مما تبدو لك وسوف أشرح لك الآن كيف ذلك).

إن هذه المحادثة تدور بين شخصين يَفترض كلاهما وجودَ قَدْر من المعرفة المشتركة لدى الآخر؛ فلم نسمع من أيهما كلامًا بشأن من تكون **she** هذه، ولا كلامًا بشأن المكان الذي يشير إليه المتحدث **(B)** بقوله: **here**، في ردّه الثاني. وتتميز المحادثة بقدر من التكرار، حيث تكرر من المتكلم **(B)** تأكيدُ قوة المتحدَّث عنها **(she)**. وكذا تتميز محادثتنا هذه بأنها لا تتألف من جمل محضة. فهناك – مثلا – عبارة **'Well maybe'** التي عوملت في المحادثة على أنها جملة تامة. وجاءت الأفعال كلّها مبنية للمعلوم **(tell**، و **drive**، وغيرهما). واتسمتْ بنية الجمل بالبساطة النسبية. وتألفت المفردات في معظمها من كلمات شائعة، مع وجود بعض العبارات العامية **(I'll tell you that – drive mad)**.

ثم دونك – بعد – قطعةً مكتوبة مختارة من إحدى الصحف الرفيعة المستوى. وهي تتناول موضوعًا مشابهًا للموضوع الذي دارت حوله المحادثةُ السابقة، فتأملْها:

> **Assertiveness problems are pervasive. For example, marital discontent can arise from the inability of partners to talk assertively about their problems. Instead they tend to bottle up feelings, which inevitably leads to hostility. Marital violence also occurs more frequently in men low in assertiveness and may be explained by their inability to be assertive as apposed to aggressive.**

---

(١) في Macmillan English Dictionary أن cos تمثيل كتابي لـ because يُظهر الطريقة التي تُنطق بها في الكلام الدارج، في الإنجليزية البريطانية خاصة. [المترجم].

(تتغلغل مشكلاتُ الحزم في نواح كثيرة من حياتنا. فالسَّخَط الزوجي- مثلا- قد يحدث بسبب من عدم قدرة كلٍّ من الزوجين على أن يتحدث حديثًا صريحًا حازمًا عن مشكلاته. ويجنحان - بدلا من ذلك- إلى كبت مشاعرهما. وهذا ما يفضي حتمًا إلى نشوء العدائية. وكذلك يقع العنف الزوجي -بنسبة أكبر- من قبل الرجال ذوى الحظّ الأقل من الحزم. وهذا ما قد يفسَّر بعدم قدرتهم على أن يتسموا بالحزم، لا على أنهم عدائيون).

إن هذه القطعة المؤلَّفة من سلسلة متصلة من الكلمات قد خطّها قلمُ مؤلِّف واحد. وهي قطعة تامة الوضوح؛ من حيث إنها لا تشير إلى أناس مجهولين، ولا إلى أماكن مجهولة كذلك. وانحصر ما فيها من تكرار على الكلمات المفتاحية، من مثل: **assertiveness**(الحزم)، و **inability** (عدم القدرة). ولا تشتمل القطعة إلا على جمل تامة. وهي تتضمن فعلا مبنيًا للمجهول: **'may be explained by'**. وتتميز بنية جملها بأنها معقدة نسبيًا، وباشتمالها على جمل مضمَّنة في جمل أخرى (ينظر: الفصل السابع)، كما في:**Inability of parents to talk** ، و **tend to bottle up**، و **which inevitably leads**. وثمة عدد كبير من الكلمات المجردة، مثل: **assertiveness**، و **inability** ، و **discontent** (السَّخَط)، و **violence** (العنف)، و **hostility** (العدائية). وكذا ثمة وحدات معجمية ذات نسبة تردد قليلة في الاستعمال اللغوي، مثل: **marital**(زوجي: متعلق بالزواج) ، و**pervasive** (كثير/ منتشر) .

إن القطعتين السابقتين تشتملان على ما يجسّد الفروق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة تجسيدًا مثاليًا. ويمكننا - بعد - تلخيصُ هذه الفروق في الجدول الآتي:

اللغة المنطوقة	اللغة المكتوبة
- ينجزها أكثر من شخص (طرف) واحد.	- ينجزها كاتب واحد.
- غير واضحة الدلالات والإحالات.	- واضحة الدلالات والإحالات.

اللغة المنطوقة	اللغة المكتوبة
- تتسم بالتّكرار .	- لا تتسم بالتّكرار.
- تتألف من جمل تامة وأجزاء جمل.	- تتألف من جمل تامة فقط.
- ذات تراكيب بسيطة.	- ذات تراكيب معقّدة.
- ذات مفردات شائعة حسية الدلالة.	- ذات مفردات أقلّ شيوعًا مجرّدة الدلالة.

ويتطابق عددٌ متنوع من هذه السمات السابقة تطابقًا جزئيًا مع السمات التي يشتمل عليها معيار الرسمية- غير الرسمية. وكذا ينطبق جزئيًا على الكلام ذي السمات غير الرسمية، وعلى اللغة المكتوبة ذات السمات الرسمية. وعلى ذلك، فبين الكلام الرسمي والكتابة غير الرسمية أوجُه تشابه كثيرة. ويميّز -أحيانًا- الكتّاب ذوو الأسلوب الجذّاب الممتع بأنهم الكتّاب الذين "يكتبون وكأنهم يتحدثون". ولكن أصحاب هذا التصور واهمون؛ إذ إن كثيرًا من الكتابات التي تبدو لنا تلقائية عفوية، تخفي وراءها عادة صَنْعة حِرْفية متقنة.

إن اللغة المنطوقة تتجسّد فيها تجسُّدًا مثاليًا تلك السماتُ التي يتضمنها النهرُ الأيمن من الجدول السابق. وكذا اللغة المكتوبة تتجسّد فيها تجسُّدًا مثاليًا تلك السماتُ التي في النهر الأيسر من ذلك الجدول. ولكن كلا منهما قد تستعير سمةً للأخرى؛ فالحدود بينهما ليست من الصرامة والثبات بمكان، بحيث يمتنع حصول هذه الاستعارة. وعلى ذلك، يترجّح أن يكون حظّ "الموعظة" من سمات اللغة المكتوبة، أكبر من حظّ المحادثة التي تدور بين الأصدقاء في إحدى الحانات. وليست إحدى اللغتين (المنطوقة والمكتوبة) بـ"أفضل" من الأخرى؛ فلكلٍّ مقاماتها التي تناسبها. ويرى بعض الدارسين أن اللغة المكتوبة ربما تجسّد النموذج الأمثل للتحدث. وهذا رأي تُعْوِزه الدقة: فواقع الحال يشهد بأن الذين يجتَرّون في حديثهم سماتِ اللغة المكتوبة، يبدون على قدر من الشذوذ كبير. ويصف الناس أحيانًا بعض المهاجرين الجدد بأنهم متحذلقون متفاصحون. وقد يكون السبب الأساسي وراء ذلك الوصف أن هؤلاء المهاجرين قد اعتمدوا في تعلمهم الإنجليزية على الكتب، الاعتماد

الأكبر. إن سمات اللغتين: المكتوبة والمنطوقة، تمثل – إذن- جانبًا آخر من جوانب أساليب الكلام التي يسيطر عليها المتحدثون، والكتاب الأَكْفاء، دونما مشقة.

التدوين المفصَّل للتنوع الفونولوجي:

لا يقتصر التنويعُ الذي يحدثه أهلُ اللغة في اللغة التي يتكلمونها على مفردات تلك اللغة، وتراكيبها التي تنتظم تلك المفردات. بل إنه يمتد – كذلك- إلى النظام الصوتي لتلك اللغة. ويتبوَّأ التنوع الفونولوجي- سواء أوقع في كلام أهل اللغة بعضهم مع بعض، أم في كلام الفرد وحده- أهميةً كبيرة؛ حيث تنعكس فيه عواملُ اجتماعية متنوعة. فأهل اللغة يغيّرون سماتهم النطقية، بحيث تناسب مواقفَ بعينها، دونما وعى منهم بذلك، في الغالب. فمثلا: يترجح أن ينطق أحدُ قاطني مقاطعة "ديفون"[1] Devon بصوت الـ [r] في كلمة مثل farm، حين يتحادث مع أصدقائه في المنزل. ولكن هذا الشخص نفْسَه قد يتكلّف عدم النطق بهذا الصوت حين يكون في مقابلة رسمية، في مدينة "لندن". وفى هذه الحالة، ربما يكون المتكلم على وعى وافٍ بالتغير الحاصل في النطق. وفى المقابل، يدرك قليلٌ من أهل اللغة الإنجليزية الفصحى أنه يشيع بينهم في المواقف غير الرسمية إسقاطُ صوت الـ [t]، من نهايات بعض الكلمات مثل last، في عبارات من مثل last thing .

لقد كان يُظَنّ في وقت مضى، أن مثل هذا التنوع النطقي يتّسم بقدر من العشوائية، وأنه لا يمكن تقريرُ أحكامٍ دقيقة بشأنه. ولكن أحد علماء "اللسانيات الاجتماعية" الأمريكيين- واسمه "وليَم لابوف"[2] William Labov- قد كشف عن أن حقيقة هذا الضرب من التنوع ليست كذلك. ففى أحد أعماله التي غدت مشهورة في عصرنا هذا، اختبر "لابوف" الطريقة التي تُنطَق بها كلمات مثل: car و park، في مدينة "نيويورك". حيث يلتزم أهل هذه المدينة بنطق صوت الـ [r] في هذه الكلمات

---

(١) بجنوب غرب بريطانيا. [المترجم].

(٢) "وليام لابوف" (١٩٢٧- .....) يعمل حاليًا أستاذًا بقسم اللسانيات بجامعة "بنسلفانيا" Pennsylvania. وهو يعد من أبرز رواد اللسانيات الاجتماعية. من مؤلفاته- وهى جِدّ كثيرة: Principles of Linguistic Change (مبادئ التغير اللغوي) (٢٠٠١م). ينظر: http://www.ling.upenn.edu/~wlabo [المترجم].

أحيانًا، ويُسقطونها في أحيان أخرى. وعلى الرغم من أن "لابوف" لم يكن قادرًا على تعيين تلك الكلمات التي يترجَّح أداؤها بنطق صوت الـ [r]، وتلك يترجَّح أداؤها بدون النطق به، فقد وجد أنه يستطيع التنبؤَ بنسبة النطق بهذا الصوت، في كلام الطبقات المتباينة المستوى الاجتماعي والاقتصادي: كلِّ طبقة بنسبتها. وكذا التنبؤَ بنسبة النطق بهذا الصوت في كلام الفئات العمرية المختلفة: كلِّ فئة بنسبتها. وذلك في كل أنماط الكلام.

لقد استهل "لابوف" عملَه الخاص بنطق صوت الـ [r] بطريقة جِدّ شائقة. فقد وقف – أولا – على تخصصات أقسام المحلات التي تقع في الدور الرابع، في ثلاثة من المتاجر الكبيرة ذات الأقسام المتعددة، في مدينة "نيويورك". ثم أخذ – بعد ذلك – في طرح سؤالٍ على كلّ من استطاع سؤاله من العاملين في تلك المحلات، من مثل: 'Excuse me, where are children's coat? (عفوًا، أين توجد معاطف الأطفال؟). حيث ستكون الإجابة بالطبع هي 'On the fourth floor' (في الطابق الرابع). وهي الإجابة التي تتضمن كلمتين تشتمل كلٌّ منهما على صوت الـ[r]. ومن المعروف أن باعة المحلات يميلون إلى تقليد كلام زبائنهم. وقد وجد "لابوف" – وحسبما توقع – أن عدد مرات تردد صوت الـ [r] كان قليلا (أقل من ٢٠٪)، في المحلات التي كانت تُعَدّ في مرتبة أدنى من الناحية الاجتماعية. ووجد أن هذا العدد قد زاد إلى خمسين في المئة، في المحلات ذات المستوى الاجتماعي المتوسط. ثم زاد إلى أكثر من ستين في المئة، في المحلّات ذات المستوى الاجتماعي الأرقى. لقد أظهرتْ هذه النتائجُ الأولية بوضوح أن استعمال صوت الـ [r]، في مدينة "نيويورك"، كان يمثّل دليلا هاديًا مفيدًا على الوضع الاجتماعي.

وبعد هذا "المسح" الأوّلي، فحص "لابوف" كلام أفراد كلِّ طبقة على حِدَة، على نحو أكثر تفصيلا. وقد وجد – وحسبما كان متوقعًا – أن درجة الالتزام بنطق صوت الـ [r] في الكلام المتأنق، وفي قراءة قوائم الكلمات word lists، كانت أكثر – بكثير – منها في الكلام الدارج. وقد لاحظ "لابوف" أن هذه النتيجة قد انطبقت على كلام كل الطبقات الاجتماعية. ولكن "لابوف" قد وقف – في المقابل – على نتيجة لم تكن متوقعة. حيث وجد عند قراءة قوائم الكلمات أن درجة التزام أفراد الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى بنطق هذا الصوت، كانت أكثر منها لدى أفراد

الشريحة العليا من الطبقة الوسطى. وإن كان الحال قد انعكس في الكلام الدارج، حيث وجد أن درجة التزام أفراد الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى بنطق هذا الصوت، كانت هي الأقل. وتطرح هذه النتيجة فَرَضيةً معينة، هي أن أفراد هذه الطبقة أكثر وعيًا بها لطريقة أداء الكلام من دلالة على الطبقة الاجتماعية، وأنهم يبذلون جهدًا لتحسين وضعهم الاجتماعي.

خلاصة: إن دراسة طرق النطق المختلفة، قد تُفصح عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها أصحابُ كل طريقة من طرق النطق هذه. وكذا تكشف مثلُ هذه الدراسة عن الطموحات الاجتماعية للناس؛ من حيث إنهم يحاولون أحيانًا أن يتحدثوا بالطريقة التي يتحدث بها من يرغبون في التشبه بهم.

التنوع الفونولوجي في الإنجليزية البريطانية:

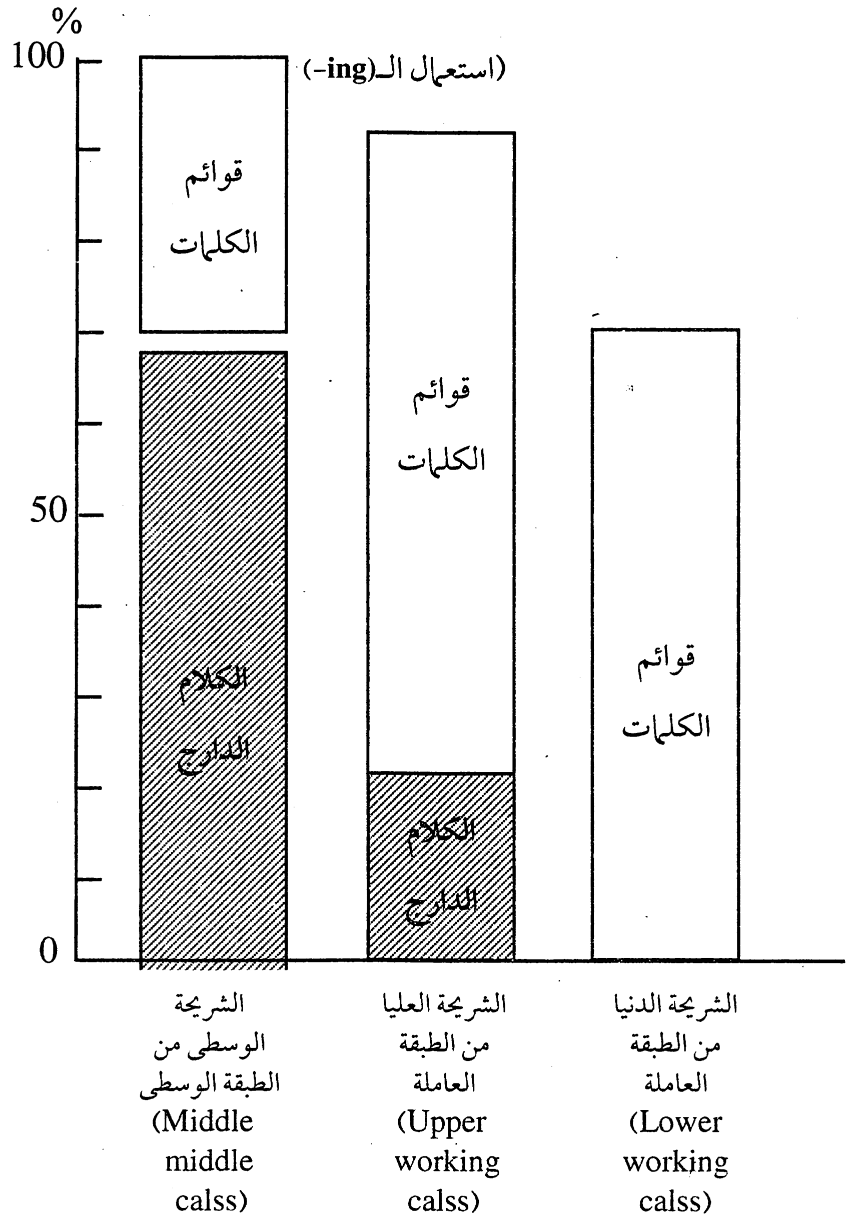
ربما يفترض بعضُنا في البداية، أن النتائج التي انتهى إليها "لابوف" تمثّل نتائج خاصة، بمعنى أنها ربما عكستْ وضعًا اجتماعيًا أمريكيًا لا نظير له في مكان آخر. ولكن ذلك غير صحيح؛ فقد تبين الدارسون أن ثمة حالةً مشابهة، في "بريطانيا"، في كلام الناس الذين يعيشون في مدينة "نُورِتْش" **Norwich**. وبيان ذلك أنك إذا تأملتَ طرق النطق المختلفة للكلمات التي تنتهي بـ (**ing**)، فستجد أن أهل "نُورِتْش" ينطقونها في بعض الأحيان، كما في اللغة الإنجليزية الفصحى. وأنهم - في أحيان أخرى - يقولون: **walkin**، و **talkin** ، و **singin**، أي أنهم ينطقونها بصوت الـ **[n]** بدلا من صوت الـ[ŋ]. وحين دُرستْ مسألة الالتزام بنطق الـ (**ing**) دراسةً دقيقة، تكشّفتْ حقائق شائقة. أولها: أن نسبة الالتزام بنطق الـ (**ing**) كان أكثر - بكثير - في الكلام المتأنق، منها في الكلام الدارج، في كلام كل الطبقات الاجتماعية. وهذا أمر كان يتوقعه الدارسون. فمثلا: وُجد أن نسبة التزام أولئك المنتمين إلى الشريحة الدنيا من الطبقة العاملة، بنطق الـ (**ing**)، قد بلغت سبعين في المئة، حين طُلب منهم أن يقرأوا قوائم الكلمات. بيد أنهم لم ينطقوا بها إلا نادرًا في الكلام الدارج. وفي المقابل، وُجِدَ أن

المنتمين إلى الشريحة الوسطى من الطبقة الوسطى ينطقون بالـ (ing) بنسبة مائة في المائة، لدى قراءة قوائم الكلمات، وبنسبة سبعين في المائة تقريبًا في الكلام الدارج.

وأما الحقيقة الثانية- وربما المثيرة للعَجَب- فكانت أن مسلك المنتمين للشريحة العليا من الطبقة العاملة، من أهل مدينة "نُورِتْش"، كان شديد الشبه لمسلك الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى من أهل مدينة "نيويورك". فقد وُجِدَ أن ثمّة تفاوتًا شديدًا لدى هذه الطبقة الاجتماعية (أعني: الشريحة العليا من الطبقة العاملة) بين نمط كلامهم المستعمل في قوائم الكلمات، حيث بلغتْ نسبة الالتزام بنطق الـ (ing) فيه خمسًا وتسعين في المئة (٩٥٪)، وبين نظيره المستعمل في الكلام العادي، حيث بلغتْ تلك النسبة فيه ثلاث عشرة في المئة (١٣٪).

ومرة أخرى، يتضح لنا أن أهل اللغة من ذوى الوضع الاجتماعي الأدنى نسبيًا، يحاولون أن يرفعوا من قَدْر أنفسهم، بالتزام التحدث بأسلوب أدائي يرونه الأرقى، قياسًا إلى أسلوبهم الأدائي في كلامهم العادى. ويوضح الرسم التوضيحي (١٠-٢) الموقف الحاصل في مدينة "نُورِتْش".

وقد كشف تحليلٌ آخر لاستعمال الشريحة العليا من الطبقة العاملة للـ (ing)، عن وجود اختلاف غير متوقّع بين الجنسين. حيث عُثِرَ على أن النساء أكثر التزامًا بنطق الـ (ing) من الرجال. وتقود هذه النتيجة إلى افتراض أن "التغيرات التي تنشأ من الأعلى" – وهذا هو مصطلح "لابوف" الذي وظّفه للتعبير عن التغيرات اللغوية التي يوقعها أهلُ اللغة عن وعى وقصد-يُعزَى استهلالها إلى النساء في المقام الأول. وثمة دليل آخر على أن هناك تغيراتٍ لغويةً أخرى تنشأ من "الأسفل"، أي من أسفل مستوى الوعي المقصود. وقد تبين أن هذه التغييرات يستهلها رجالُ الطبقة العاملة. فمثلا: وجد في مدينة "نُورِتْش" أن الصائت الذي يقع في كلمات من مثلٍ: night، وrye، و side، يتحرك صوب الصوت oy (ɔI). وهذا التغير اللغوي متحقّق – كأبلغ ما يكون- في كلام رجال الطبقة العاملة.



(الرسم التوضيحي ١٠-٢).

وتأسيسًا على ذلك، افترض الدارسون أن الناس يعجبون – ربما بدون وعي مقصود – برجال الطبقة العاملة، ويربطون بينهم وبين معاني القوة والفحولة؛ فيتبنّون السماتِ النطقيةَ المتحققة في كلامهم، دونما إدراك منهم لحصول ذلك التبنّي. ولا يبدو – بعد – أن هذا الحال خاص بمدينة "نُورِتْش" فقط، بل يبدو أنه ظاهرة عامة تتحقق – كذلك – في مناطق أخرى من العالم.

إن هذه الأمثلة للتنوع الفونولوجي تحتشد بالمعلومات المفيدة. فهي تزودنا بمرآة موضوعية تنعكس عليها العواملُ الاجتماعية المتنوعة، من مثل: الطبقة الاجتماعية الاقتصادية، والجماعة العِرْقية، والعمر، والنوع (ذكر – أنثى). ويمكننا أن نحلل تأثير كلٍّ من هذه العوامل على اللغة، وكذا يمكننا أن نحلّل ما يقع بين هذه العوامل من تفاعل، أو تأثير متبادل. فمثلا: عُنيت إحدى الدراسات بدراسة التفاعل بين الجماعة العرقية والعمر، في ولاية "بوسطن" **Boston**. وكشفتْ عن أن ثمة نطقًا خاصًا لصوت الـ [o] يرتبط بكبار السن من اليهود، وبالإيطاليين من كل الأعمار. فأما الأفراد الأصغر سنًّا في المجتمع اليهودي – وكانوا يتمتعون بقدر عالٍ من التعليم – فقد هجروا هذا النطق الخاص؛ ربما لأنهم عدُّوه نطقًا غير صحيح. وأما الإيطاليون – في المقابل – فقد جنحوا إلى إيثار هذا النطق، بوصفه دليلا على الهوية الإيطالية. وعلى ذلك، نجد أن مثل هذه الدراسات قد تُلقي – وعلى نحو شائق – ضوءًا على الضغوط التي قد يتعرض لها أفرادُ مجتمعات بعينها، وكذا على مواقفهم ورؤاهم المختلفة.

الشبكات الاجتماعية:

تعتمد عملياتُ المسح **surveys** من النوع الذي أنجزه "لابوف"، على معلومات مأخوذة من عينات عشوائية لأفراد المجتمع. ثم يحلَّل كلامهم على هَدْي من سمات مفتاحية متنوعة. ثم يُربَط ذلك بخلفياتهم الاجتماعية الاقتصادية. وتأتي النتيجةُ بعد ذلك مفترضة أن المجتمع الإنساني يشبه "الكعكة" متعددة الطبقات، حيث تتكدّس الطبقاتُ الاجتماعية الاقتصادية، واحدةً فوق الأخرى. وتزوّدنا هذه المنهجيةُ بمعرفة عميقة مفيدة بشأن الكيفية التي تشتغل بها المجتمعات. بيد أن النتائج تبسّط الصورة تبسيطًا مفرطًا، كما هو الشأن في نتائج كثير من عمليات المسح. وبيان ذلك: أن واقع الحال يشهد بأن الناس لا يعيشون عادةً في مثل تلك

الطبقات المنفصلة على نحو حادّ. فالشخص المصنَّف على أنه يقع ضمن ما يسمَّى بالطبقة العاملة، ربما يكون له عدد لا بأس به من الأصدقاء، والجيران، المصنَّفين ضمن الطبقة الوسطى.

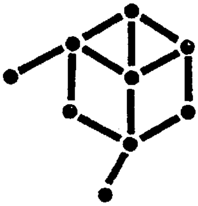
إن واقع الحال يشهد بأن الناس تميل إلى التجمع في شبكات اجتماعية social networks، أي جماعات من الناس يتفاعل بعضُهم مع بعض على نحو منتظم. ومن شأن إنجاز دراسة مفصَّلة بشأن الشبكات الاجتماعية الموجودة في جماعة لغوية معينة، أن يزوّدنا بتقويم مفيد للدراسات التي على شاكلة جهد "لابوف"، أي تلك الدراسات التي تفترض أن البشر مقسَّمون إلى طبقات – أو مستويات- اجتماعية، تقسيمًا صارمًا وثابتًا. إن الدراسات المتعلقة بالشبكات الاجتماعية يمكن أن تَرْفِدنا بصورة أكثر واقعية للطريقة التي يتفاعل بها الناسُ في واقع الحياة. أضفْ إلى ذلك أنه لو نجح أحد علماء اللسانيات الاجتماعية في التعارف مع إحدى هذه الشبكات، فالمرجَّح أن أفرادها سوف يتجاذبون معه أطراف الحديث، على نحو أكثر طبيعية مما يقع في نمط عمل "لابوف"، حيث يصعُب في هذا النمط الأخير أن نلاحظ الناسَ وهم يتحادثون على نحو طبيعي لا تكلُّف فيه.

خلاصة:

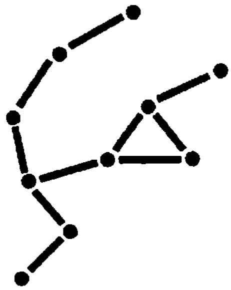
قد تَرْفِدنا الدراساتُ المتعلقة بـ"الشبكات الاجتماعية"، بصورة مفيدة عن الكيفية التي يتعامل بها أعضاء مجتمع ما، بعضهم مع بعض.

وقد حاز اللسانيان البريطانيان الشقيقان "جِم" **Jim** و"ليسلي" **Lesley** "ميلروي" **Milroy** قَصَبَ السَّبْق، في مجال الدراسة اللسانية للشبكات الاجتماعية. وذلك بإنجازهما دراسة لثلاثة مجتمعات في "بلفاست" **Belfast**. حيث جرى تقديم "ليسلي" لهم على أنها "صديق لصديق". وقد كفل لها ذلك حَوْزَ القبول لدى هذه المجتمعات، كما كفل لها تحادُثَ أفراد هذه الجماعات – في حضورها- على نحو طبيعي، إلى حد ما. فمثلا: حين حاول أحد الشباب التأثير فيمن حوله، عبر التحدث بطريقة ذات قدر من التكلف، وَكَزَه أحد أصدقائه، وصاح فيه قائلا: **'Come on, you're not on television now, you know'** (أسرع، فإنك لا تتكلم أمام كاميرا ت التلفاز الآن...).

إن الشبكات الاجتماعية قد تكون ذاتَ قَدْرٍ عالٍ من الكثافة، حين يميل نَفْسُ الناس إلى أن يعملوا، ويلعبوا، ويعيشوا، معًا. ثم إنها قد تكون ذات قدر منخفض من الكثافة، حين يكون حظ الناس من التواصل بعضهم مع بعض، داخل الشبكة الاجتماعية قليلا. أعني أنهم ربما يكونون ممن يعيشون في منطقة ما، ويعملون في منطقة أخرى، ويسافرون إلى ثالثة؛ من أجل متطلّبات حياتهم الاجتماعية (ينظر: الرسم التوضيحي ١٠-٣).



شبكة اجتماعية عالية الكثافة



شبكة اجتماعية قليلة الكثافة

(الرسم التوضيحي -٣)

وحين فحص الأخوان "ميلروي" المعلوماتِ التي حصّلاها، تبين لهما عددٌ من الأمور التي ربما ما كانت لتتكشَّف، لو أن نمط البحث كان من النمط الذي اتبعه "لابوف". فمثلا: طرح عمل "لابوف" فَرَضِيَّةَ وجود اختلاف بين كلام كل من الرجال والنساء، من حيث إن كلام النساء يتسم – في مجمله- بأنه الأقرب إلى مراعاة أصول اللباقة **prestige**. وقد تبين الأخوان "ميلروي" أن هذا التوصيف العام لكلام الرجال والنساء يشيع – كذلك – في "بلفاست"، ولكن مع قدر من الفروق الدقيقة الشائقة. فحين درست "ليسلى **Lesley**" ثلاثة مجتمعات، كلٍّ على حِدَة، ثم سجّلت الطريقةَ التي يتبعها الناسُ من ذوى الأعمار المختلفة، ومن كلا الجنسين، في نطق صوت الـ [a] = وجدت أن ثمة تعديلاتٍ طفيفةً ينبغي إدخالها على هذا التوصيف العام المذكور. فقد تبينتْ أن هذا التوصيف كان هو الأكثر ذيوعًا في المجتمع الأقدم، والأكثر تماسكًا، وحميمية، وحفاظًا على التقاليد القديمة. وأما المجتمعان الآخران

اللذان اتسما بأنهما الأحدث، والأقل تماسكًا، وحميمية، نسبيًا، فقد كان هذا التوصيف العام لكلام الرجال والنساء أقلّ وضوحًا، وتحققًا، فيهما. بل لقد كان الأمر على عكسه في الكلام الجاري على ألسنة النساء الصغيرات السنّ، في واحد من هذين المجتمعين. وتشير تلك النتيجةُ إلى أن قلّة وضوح الفرق بين الجنسين، في موقفهم من اللغة، ربما ارتبط بحصول تفكُّك في الشبكات الاجتماعية المتماسكة اجتماعيًا. وعلى ذلك، نجد أن مثل هذه النتائج تشير إلى أن مسألة التنوع اللغوي هذه، تحتاج إلى أن تُدرَس من زاويتين على الأقل: زاوية وجهة النظر التي يمثّلها المسحُ العام الذي أنجزه نمط عمل "لابوف"، وزاوية وجهة النظر التي تُدقِّق البحث في عدد من الشبكات الاجتماعية.

اللغة ونوع الجنس[1]:

عُني كثير من الباحثين في العصر الحديث، بالنظر في الفروق اللغوية التي قد تكون راجعة إلى اختلاف الجنسين.

ونحن نحتاج- أولا- إلى أن نصل إلى الرأي الصائب في الفرضية القائلة بأن النساء يتحدّثْنَ على نحو يختلف عن الرجال. إن انطباعات الناس لا تكون بالضرورة انطباعاتٍ صحيحةً. فمثلا: تشيع في هذا الصدد فَرَضِيةٌ تقول بأن النساء يتكلمْنَ أكثر من الرجال، في حين أثبتت جُلّ الدراسات المعنية بهذه المسألة أن العكس هو الصحيح، أي أن الرجال هم الذين يتكلمون أكثر من النساء. وكذا يُروَّج أحيانًا لزعم يقول بأن النساء يستعملْنَ الصفات "الفارغة"[2] **empty adjectives**، من مثل: **divine** (رائع جدًا)، و **charming** (جذاب)، و **cute** (فاتن). ولكن واقع الحال يشهد

---

(١) أفرد د. أحمد مختار عمر- طيّب الله ثراه- هذا الموضوع بكتاب مستقل أسماه: "اللغة واختلاف الجنسين"، اعتمد فيه – أكثر ما اعتمد – على مصادر أجنبية. وقد نشرته مكتبة "عالم الكتب" القاهرية (١٩٩٦م). [المترجم].

(٢) هذا المصطلح هو مما جرى به قلم "روبين لايكوف" Robin Lakoff في حديثها عن السمات المميزة لكلام النساء (عشر سمات). والمقصود به صفات الاستحسان الانفعالية الغائمة الدلالة (= ليس لها معنى دقيق محدد)، كالأمثلة المذكورة. ينظر:

Coates. Women. Men and Language. pp. 107-108.

ود. أحمد مختار عمر: اللغة واختلاف الجنسين ص٩٩. [المترجم].

بأن هذا النوع من الوصف ربما يكون أكثر ذيوعًا على أقلام الرجال من الكتاب، في الصحف الشعبية، لدى وصف النساء.

وأما الفرق المطّرد الذي تم الوقوف عليه بين كلام الرجال والنساء في العالم الغربي، فهو أن لدى النساء ميلا إلى مراعاة معايير الوجاهة الاجتماعية، أو بعبارة أصرح: النساء يتحدثْنَ على نحو "أمثل" من الرجال. ولا أحد على يقين تام بالسبب في ذلك. وقد طُرحت في هذا الصدد تفسيراتٌ متعددة تتقاسم جميعها قدرًا من الصحة. فمثلا: ترى إحدى وجهات النظر أن المجتمع قد يكون هو من أكره النساء على أن يلتزمن بمقومات السلوك الذي يليق بالسيدات المهذّبات من ذوات الوجاهة الاجتماعية. و"التحدث بلطف" ربما يمثّل أحد هذه المقوّمات. وتذهب وجهةٌ نظر أخرى إلى أن نهوض النساء بالدور الأكبر في تربية الأطفال، قد يكون السببَ في أنهن يلتزمن – ودونما وعى- بالحديث بالطريقة التي يُرجَى لها أن تمكّن أطفالهن من أن يتطوروا اجتماعيًا. ثم ترى وجهةُ نظر ثالثة أن السبب ربما يكمن في ميل النساء إلى الحصول على وظائف تعتمد مهاراتِ التواصل – لا قوةَ السواعد- معيارًا للأهلية.

> **خلاصة:**
>
> يُلاحَظ في السنوات الأخيرة أن الفروق بين كلام الرجال وكلام النساء- وخاصة الموظفاتِ منهن- آخذة في التلاشي.

أضف إلى ذلك أنه قد تكشّف للدارسين أن بعض السمات اللغوية التي تُعزى للنساء، ليست سماتٍ مقصورةً عليهن، بل هي أكثر انتشارًا من ذلك العزو الضيق بكثير. فمثلا: شاع زعم يقول بأن النساء يجنحن – أكثر من الرجال – إلى تنكُّب العبارات – أو الردود- الصريحة، ويؤثرْنَ عليها استعمال عبارات مطّاطية **hedges**- وعبارات غير قاطعة **tentative**، من مثل: **kind of** (نوعًا ما)، و **sort of** (إلى حد ما). وعلى ذلك يكثر أن تتردد على ألسنتهن عباراتٌ من مثل: **'Bill is 'kind of short'** ("بِل" قصير إلى حد ما)، بدلا من **'Bill is short'** "بِل" قصير). وكذا اتُّهمت النساء باستعمال النغمة التساؤلية **question intonation** في إجابتهن على ما يوجَّه إليهن من أسئلة. وذلك من مثل قول بعضهن: **'About eight O'clock?'** (حوالي الساعة

الثامنة؟) في ردّهن على السؤال: 'what time's dinner?' (متى وقت طعام العشاء؟). بيد أن هذا الأسلوب المفتقر إلى الثقة في النفس لدى التحادث، ليس يقتصر على النساء، بل هو سمة مميزة للناس ضعاف السلطة، أو التأثير. أعني أولئك الذين يتسمون بقدر من التوجس والخوف من إزعاج الآخرين، واستعدائهم. وهؤلاء الناس يشملون الرجال، والنساء، لا النساء فقط.

ويتبقّى - بعد- تفسيرٌ بديل لكل ما سبق. وذلكم هو أن مثل هذا الكلام ربما يكون من قبيل تشجيع الطرف الآخر على التحدث. وذلك أن من شأن السؤال الذي يتم تكوينه عن طريق التنغيم أن يدفع في سبيل تدفُّق الحديث دفعًا. وطَرْح تعليق من مثل:'It's cold today, isn't it?' (الجو اليوم بارد. أليس كذلك؟) سيشجع على إصدار استجابة تلقائية بسيطة من مثل: 'yes, I even put my winter boots on' (نعم. وقد ارتديت حذائي الشتوي الطويل الرقبة؛ من أجل ذلك). وعلى ذلك، يمكن النظرُ إلى الكلام "غير السلطوي" على أنه كلام يطبعه الودُّ وروح التعاون، وإلى الكلام السلطوي - في المقابل- على أنه كلام تُعْوِزه الحساسية، وتبطِّنه روح الاستبداد.

إن الكلام الودي ربما يعكس - كذلك - طبيعة الموقف الذي يقال فيه. ففي مقام "الاجتماعات" يكون الكلام الذي يطبعه قَدْر من الرسمية هو الكلام الطبيعي المناسب لمقتضى هذا المقام. لكن الحال يتغير حين نكون في منازلنا، أو في المتاجر، إذ يصبح الكلام غير الرسمي هو الأكثر احتمالا للتردد والتداول على الألسنة. وقد جرى غالبُ أمر الناس منذ زمن بعيد، على أن يقضي الرجال شطرًا كبيرًا من أعمارهم في اجتماعات عمل، وعلى أن تَقَرّ النساء في البيوت. وإن كان هذا الحال يشهد تغيرًا- ولو نسبيًا - منذ عقود.

إن الكلام ذا الطابع التشجيعي أو التعزيزي supportive speech يرتبط غالبًا بالنساء، لا بالرجال. حيث يترجَّح أن تقوم النساء الودودات بالمساعدة في دفع المحادثة قُدمًا، بتَرداد استجابات من مثل 'mmm'، و 'aha'، و 'yes'. وهي الاستجابات التي تسمى بـ"الاستجابات الدنيا" **minimal responses**. ومن شأن هذا الضرب من الاستجابات أن يشجع المتحدث على المضي في حديثه، عبر إظهار أن طرف المحادثة الآخر يُنصت له. وكذا يمكن النظر إلى الكلام التزامني على أنه من

باب تعزيز المحادثة. وذلك حين يَـدْعم المستمعُ الرسالةَ التي يرغب المتحدثُ في توصيلها، كما في المحادثة الآتية التي تتعلق بالذهاب إلى الجنازات، ويتخللها ذلك الحديثُ المتزامن، بين المتحادثين: A، و B :

A: Perhaps they would want you to go, you know...

(ربما يرغبون في أن تذهب، كما تعلم...)

B: yeah for their comfort.

(نعم من أجل مواساتهم)

إن مثل هذا الضربَ من الكلام ذي الطابع التعزيزي، يختلف اختلافًا بينًا عن نقيضه، أعنى الكلام السلطوي. الذي سنلخص القولَ في سماته توًّا.

الحديث السُّلْطَوِيّ :

انظر معي في هذا الحوار بين كل من A ، و B :

A: Now tell me what youy're going to do.

(والآن أخبرني عما ستفعله)

B: Yes, well, first...

(نعم، حسن، أولا...)

A: Louder, Please, we all want to hear.

(ارفع صوتك من فضلك، كلنا نريد أن نسمع)

B: I'd start by cutting this here.

(أريد أن أبدأ بقطع هذه هنا)

A: what do you mean 'this here'?.

(ماذا تعنى بـ"هذه هنا"؟)

B: **The place where ...**

(المكان حيث...)

A: **Have you washed your hands?**

(هل غسلتَ يديك؟)

المتحدثون "السلطويون" **powerfull speakers** هم من يديرون دَفّة الحوار، ويقاطعون الآخرين، ويطالبون بالحصول عل تفسيرات واضحة، وصريحة، لكلام من يحادثونهم. ومثل هذا الضرب من الحديث ربما يكون سائغًا إذا كنا بصدد حديث شخص ما يرأس اجتماعًا، أو في بعض مواقف التدريس. وإن كان واقع الحال يشهد بكثرة حصول هذا الضرب من الحديث في مقامات أخرى، كالمواقف الحوارية، على نحو ما قد يجسّده المثالُ المذكور آنفًا. حيث يُمسك المحاور بتلابيب الحوار محاولا إنجاز الهدفين الآتيين: السيطرة والتحكم في المشاركين الآخرين في الحوار، وتدمير ثقتهم في أنفسهم.

إن الحديث السلطوي قد يَسِمُ كلام كلٍّ من الرجال والنساء، ولكنه أكثر التصاقًا بالرجال. فالمتحدثون من الرجال لا يتسمون بأنهم الأكثر تحدثًا من حيث الكم فحسْب، بل هم يتسمون – كذلك – بأنهم الأكثر مقاطعةً للآخرين، وإن كانوا ربما لا يدركون أنهم يصنعون ذلك.

ويتميز الرجال– كذلك – بأنهم الأكثر إصدارًا للأوامر الصريحة المباشرة. ففي إحدى الدراسات المتعلقة بالتعامل بين الطبيب والمريض، في الولايات المتحدة الأمريكية، وُجِدَ أن الرجال قد استعملوا أوامر صريحة في نحو من ثلث توجيهاتهم، من مثل: **'Lie down'** (استَلْقِ)، و **'Take off your shoes and socks'** (اخلع حذاءك وجوربك). في حين آثرت النساء صياغة أوامرهن في صورة أفعال مشتركة، مثل: **Maybe we should just take the top of your dress** (قد يكون كل ما يجب علينا فِعْلُه هو أن تخلع ملابسك العلوية)، و **'Maybe what we ought to do is to stay with the dose you're on'** (قد يكون ما يجب علينا فِعْلُه هو أن تستمر في تناول جرعة الدواء الموصوفة لك)، وغير ذلك.

التغــير في أساليـب اللغــة:

لا تتصف الأحوالُ الاجتماعية ضرورةً بالثبات. وحصول أي تغير اجتماعي في العلاقات الاجتماعية في أي مجتمع، يفضى غالبًا إلى إحداث تغير في الأساليب اللغويـة الشائعة في ذلك المجتمع. ومن أمثلة هذا الضرب من التغـير اللغـوي: مـا طـرأ عـلى صيغتي الضمير you، من تغير تدريجي في المعنى، في اللغات الأوربية.

فاللغة اللاتينية كانت – في أصلها – تشتمل على صيغة لضمير المفرد، هـي tu، وأخرى لضمير الجميع، هي vos. ثـم حـدث أن استُعملت صيغة الجمـع هـذه، في مخاطبة المفرد، إذا كان ذلك المخاطَب من ذوى الجاه والسلطة، مـن بـاب التـأدب في التعبير. وقد اختلفت الآراء في منشأ هذا التغير اللغوي. فثمة رأى يقول بأنه حين كان هنـاك امبراطـوران رومانيـان- أحـدهما في "القـسطنطينية"، والآخـر في الغـرب في "روما"- فقد صار من المعتاد أن يخاطَب كلٌّ منهما بضمير الجمع (vos)؛ من حيـث إن كليهما كان يخاطَب ضـمنيًا في الوقـت نفـسه. وقـد أفـضى هـذا إلى إيجـاد اتجـاه عـام لاستعمال ضمير الجمع vos في مخاطبة أي شخص مـن ذوى الـسلطة. وشـيئًا فـشيئًا، اعتاد أبناء الطبقة العاملة أن يخاطبوا أبناء الطبقة الأرستقراطية بضمير الجمـع vos، في حين استمر أبناء الطبقات العليا في استعمال ضمير المفرد tu في مخاطبة أفراد الطبقـات الدنيا. وفى تلك الأثناء، جَعَلَ أبناء الطبقة الأرستقراطية يستعملون ضمير الجمع vos، في مخاطبة بعضهم بعضًا، عـلى أسـاس أن هـذا المـسلك اللغـوي يـدلّ عـلى احـترام الشخص المخاطَب به. وفى المقابل، استمر أبنـاء الطبقـات الـدنيا في اسـتعمال ضـمير المفرد tu، لدى مخاطبة بعضهم بعضًا. ويتضمن الرسم الآتي (١٠ – ٤) توضيحًا لهـذا الموقف:

	في مخاطبة الطبقة العليا	في مخاطبة الطبقة الدنيا
الطبقة العليا	vos (أنتم)	tu (أنت)
الطبقة الدنيا	vos (أنتم)	tu (أنت)

(الرسم التوضيحي ١٠- ٤).

فهذا المسلك اللغوي – إذن– قد عكس موقفًا اجتماعيًا بعينه، حيث كان المجتمع الإقطاعي هو السائد آنذاك. وهو مجتمع اتسم بسيطرة طبقة على طبقة أخرى، وأَوْلَى ترسيخ تلك السيطرة أهميةً جِدَّ كبيرة.

وبالرغم من ذلك، فحين هَوَى ذلك النظام الإقطاعي، ذَوَى – كذلك – ذلك التقسيمُ الخاص بتنظيم استعمال الضميرين **tu** و **vos**. وترى إحدى وجهات النظر في هذا الصدد، أن الناس قد شرعوا يفقدون تدريجيًا شعورهم بالاحترام لأولئك النفر من أصحاب السلطة، واستبدلوا به مجرد شعور بالجفاء إزاءهم. ولم يعد استعمال ضمير الجمع **vos**– على زعم بعضهم–دليلا على الاحترام، بقدر ما غدا دليلا على فقدان الحميمية. وأما استعمال ضمير المفرد **tu** فقد صار يُنظَر إليه على أنه أمارة على الحميمية، والصحبة، والتضامن. وشرع الناس الذين انتظمتْهم صداقاتٌ – أو علاقات – وثيقة في استعمال ضمير المفرد **tu**، لدى مخاطبة بعضهم بعضًا، غاضّين الطَّرْفَ عن حظّ كلٍّ منهم من السلطة. وهذا هو واقع الحال الآن في اللغات الأوربية التي تتسم بوفرة العدد، واشتمال كلٍّ منها على صيغتين للضمير **you**.

إن التحول من الخطاب "السلطوي" إلى الخطاب "التضامني"– إذن– يمثّل عاملا واحدًا، من عوامل كثيرة، اشتركتْ في إحداث التغير من **vos** إلى **tu**. وقد شكك بعض الدارسين في مقدار أهمية هذا العامل. ولكننا وقفنا على ظاهرة أخرى مماثلة لتلك السابقة في أجزاء أخرى من العالم، مما يدعم القولَ بأهمية ذلك العامل. ففي الهند، كانت اللغتان: الهندية **Hindi**، والجُجِراتية(1) **Gujarati**، تشتملان– في مرحلة سابقة من تاريخهما – على نموذج للسلطوية، تجلّى في الطبيعة غير التبادلية لصيغ الخطاب بين الزوج والزوجة، والشقيق الأكبر والأصغر. وأما في أيامنا هذه، فنجد أن هذا النموذج السلطوي قد أخذ في التلاشي، حيث جَعَلَت العلاقاتُ التبادلية تكتسب أهمية أكبر، من تلك القائمة على تسلُّط شخص على آخر. كما أخذ أبناء العائلات الهندية في استعمال الصيغ الحميمية للضمير **you**، لدى مخاطبة بعضهم بعضًا.

---

(1) الجُجِراتية: هي إحدى اللغات الهندية الآرية Indo- Aryan. وهي لغة سكان ولاية "جوجارات" الواقعة في شمال غرب الهند. وكذا يتكلم بها آخرون في باكستان، وبنجلاديش، وسنغافورة، وغيرها. ينظر: Dalby, Dictionary of Languages, p. 237. [المترجم].

خلاصة:

يشهد العالم بأسره تحولا من الخطاب "السُّلْطوي" إلى الخطاب "التضامني". بمعنى أن الناس قد صاروا أكثر مودةً إزاء بعضهم بعضًا، وأقلَّ تأثرًا باعتبارات "السلطة"

المجتمعات المتعددة اللغـات:

ممـا يُعـزى إلى الامبراطـور الرومـاني المقـدس "تـشارلز الخـامس" Charles V [١٥٠٠ – ١٥٥٨م] قولُه: "إنني أتكلم الإسبانية حين أخاطب الله، والإيطاليـة حـين أخاطب النساء، والفرنسية حين أخاطب الرجال، والألمانية حين أخاطب حـصاني". فهذا الاقتباس يشير إلى تميز بعض الثقافات بأنها تغير اللغة التـي يـتكلم بهـا أبناؤهـا؛ وَفْقًا لاختلاف الموقف الاجتماعي. وهى الظاهرة التي تُعرَف باسم: "تبديل الشفرة" code- switching. ومن وجهة نظر اللـسانيات الاجتماعيـة، لا يختلـف هـذا التعـدد اللغويُّ عن التنوع الأسلوبي الواقع داخل اللغة الواحدة. وعلى ذلك، فقد صار علماء اللسانيات الاجتماعية يهتمون بدراسة مـسألة "تبـديل الـشفرة" في المجتمعـات ذات اللغتين، وذات اللغات المتعددة.

فمثلا: يوجد في بلدية "سوريس" Souris– وهى مجتمع سكاني صغير في الجزء الشمالي الشرقي من إيطاليا أعلى سلسلة جبال الألب الكارنينية Carnian Alps- وَضْعٌ لغوي يلفت النظر لفتًا: فسكّان ذلك المكان يستعملون ثـلاث لغـات مختلفـة خـلال حياتهم اليومية: الأولى: إحـدى لهجـات اللغـة الألمانيـة، والثانيـة: اللغـة الإيطاليـة، والثالثة: الـ"فرِيُوليّة" Friulian– وهى إحدى اللهجات "الرومانسية"(١) Romance – فالإيطالية تمثل لغة الشعائر الدينية. وهى – كذلك – اللغة المـستعملة في المـدارس. وأما الـ"فرِيُوليّة"، فهي اللغة التي يستعملها الرجال في الحانات المحلية. وأما الألمانية، فهي اللغة المستعملة داخل البيوت، بحيث يندُر سماعُها خارجَهـا. ومـن ذلـك أنهـا

---

(١) اللهجات الرومانـسية هـي اللهجـات التـي تحـدرت مـن اللغـة اللاتينيـة الجاريـة عـلى الألـسن زمـان الإمبراطورية الرومانية، في عهودها الأخيرة. وقد تحولتْ بعض هذه اللهجات بمـرور الـزمن إلى لغـات مستقلة، كالفرنسية، والأسبانية، والبرتغالية، والإيطالية. ينظر: Trask. The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics. p. 289. [المترجم]

سُمعت – ذات مرة – حين اندفعت سيدة غاضبةً إلى أحد "البارات" ووبّخت زوجها؛ لأنه لم يعد إلى البيت في الوقت المتوقّع لعودته!

وتتبوّأ دراسة الطرق التي تُستعمل بها تلك اللغاتُ المتعددة أهميةً خاصة عند المعنيين بمهمة **التخطيط اللغوي language planning**. وهى المهمة التي تتوسّل بها الحكومة، أو المسئولون عن التعليم لتوجيه الواقع اللغوي وجهةً بعينها. ويزداد حظ هذه المهمة من النجاح إذا قمنا بطرح الاستعمالات السائدة للغة، وتعزيزها تدريجيًا؛ إذ إن الفرض المفاجئ للغة بعينها، عبر قرار حكومي، لا يُؤتى أُكُلَه في الغالب.

ولكننا – في المقابل – نلاحظ الندرة النسبية لتلك المجتمعات المتعددة اللغات، التي يتقن كلُّ أهلها كلَّ اللغات المستعملة فيها. فالشائع في جُلّ مثل هذه المجتمعات أن يتبنّى أهلُها لغةً بعينها، أو لغة مبسّطة؛ لتكون هي اللغة العامة التي يتواصلون بها. ويمكن لهذا أن يحدث: إما على نحو طبيعي، وإما نتيجة للتخطيط اللغوي. وتُعرف هذه اللغة العامة أحيانًا باسم: **"اللغة المشتركة" lingua franca**. وقد انتشرت اللغةُ اللاتينية في البلاد المطلة على البحر المتوسط، قبل ألفى عام خلت، بهذه الطريقة. وفى عصرنا هذا، توشك اللغة الإنجليزية أن تكون هي "اللغة المشتركة" في الهند. فالمتحدثون باللغة الهندية في شمال الهند، يمكنهم التواصلُ مع نظرائهم في الجنوب باللغة الإنجليزية، على الرغم من أن أهل الجنوب يغلب عليهم التحدث بإحدى اللغات الـ"درافيدية"(١) **Dravidian**. وأما اللغة الاصطناعية المعروفة بالـ"إسبرانتو" **Esperanto**، فيطرحها الدارسون أحيانًا بوصفها اللغة المرشحة لأن تكون اللغة المشتركة للعالم كلِّه.

اللغات الخليط التي من نوع الـ"بِدْجِن" pidgins والـ"كرِيُول" creoles:

إن تبنّي لغة مشتركة لا يمثّل الحلَّ الوحيد لمشكلة التواصل بين مجموعات الناس الذين يتكلمون لغاتٍ مختلفة. ففى بعض الحالات، يظهر نوع من اللغات

---

(١) اللغات الـ"درافيدية": عائلة لغوية مهمة تتركز في جنوب الهند وسريلانكا. وهى تضم نحوًا من ثمان وعشرين لغة، منها: التاميلية Tamil.
ينظر: Trask, The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, p. 97. [المترجم].

الخليط تُعرَف بـالـ "بِدْجِن" pidgin. وتتألف مثل هـذه اللغـات مـن نظـام لغـوي محدود، ينشأ من أجـل إنجـاز احتياجـات التواصـل بـين أنـاس تُعْـوِزهم لغـةٌ عامـة يتواصلون بها.

ولا تمثّل الـ"بِدْجِن" لغةً أولى لأي أحد. وهي تُستعمل - في بـادئ الأمـر - في عدد محدود من المقامات. وينمو مثل هذا النظام اللغـوي، أكثـر مـا ينمـو، في الطـرق التجارية، والمناطق الساحلية.

وتتأسس مكونات الـ"بيدجن" عادةً على لغة واحدة بعينها. ولكنها سَرْعَان ما تكتسب خليطًا من لغات أخرى، فضلا عن التراكيب اللغوية المستقلة الخاصـة بهـا. ودونك مثلا: اللغة المعروفة باسم: "توك بِزِن" Tok Pisin- وتعـرف كـذلك باسـم: Melanesian Pidgin English، وباسم: Neo- Melanesian- وهي اللغة التي يتكلم بها الناس في دولة "بابواغينيا الجديدة"(١) Papua New Guinea. فالنظر في هذه اللغـة يكشف عن أن بنيتها مؤسَّسةٌ على اللغة الإنجليزية، وأن كثيرًا من كلماتها يبدو ذا حـظٍّ من الشبه بالكلمات الإنجليزية المناظرة لها. وذلك من مثل:

Mi go long taun. 'I go/went to the town'.

Yu wokabaut long rot. 'you walk/walked along, the road'.

بيد أن هناك كثيرًا من الكلمات الأخرى التـي لا يمكـن الوقـوف عليهـا، مـن خلال معرفتنا المجردة باللغة الإنجليزيـة. وذلـك مـن مثـل: **lotu** بمعنـى **'church'** (كنيسة)، و **diwi** بمعنى **'tree'** (شـجرة)، و **susu** بمعنـى **'milk'** (لـبن). أضـف إلى ذلك أن هذه اللغة قد اكتسبتْ أبنيةً تركيبية لا توجد في اللغة الإنجليزية. فمثلا: تميّـز هذه اللغة تمييزًا مطّـردًا بـين الأفعـال ذات المفاعيـل (الأفعـال المتعديـة **'transitive'** **verbs**) التي تعطـى النهايـة التـصريفية (**im**–)، كـما في الفعـل **bagarapim** بمعنـى **wreck** (يحطّم)، وبين الأفعال التي لا تطلب مفاعيل (الأفعال اللازمة **intransitive** **verbs**)، كـــما في الفعـــل **bagarap** بمعنـــى **'collapse'** (ينهـــار)، و **'breakdown'** (يتهشم)، فيقال:

---

(١) بجنوب غرب المحيط الهادي بالقرب من إندونيسيا. [المترجم].

Mi bagarapim ka bilong mi.

بمعنى: **'I crashed my car'.** (حطّمتُ سيارتي)

ويقال: **ka bilong mi i bagarap**

بمعنى: **'my car broke down'.** (سيارتي تهشّمت)

ومن الابتكارات الأخرى في هذه اللغة: الأداة (i) التي يجب أحيانًا أن تُستعمل سابقة على الفعل، كما في الجملة الثانية المذكورة آنفًا.

هذا، ويتميز كلٌّ من النظام الصوتي، والتركيبي، والمعجمي، في اللغة التي من نوع الـ"بِدْجِن"، بأنه أبسط من نظيره في اللغة العادية. فهي تشتمل على عدد أقلّ من الفونيمات، على نحو ما نجد في لغة الـ "توك بِزِن"، حيث يشيع فيها اندماج الفونيمين [p] و [f]، والفونيمين [s] و [ʃ]، كما أنها لا تشتمل إلا على خمسة صوائت. فقد تحولت كلمة **fish** المقترضة من الإنجليزية إلى **pis**، وكلمة **ship** إلى **sip**. وحتى يُؤمن اللَّبْس، غيَّر أهل هذه اللغة كلمة **piss** (بمعنى: **urinate** "يتبول") إلى **pispis**، وتحولت كلمة **'sheep'** إلى **sipsip**. وكذا تميزت هذه اللغة بنُدْرة وجود نهايات لكلماتها، وببساطة تراكيب جملها، وبقلّة عدد مفرداتها. كما أنها توظّف الوحدة المعجمية الواحدة – أو الوحدتين– توظيفًا واسعًا، على نحو ما يتضح من الاستعمالات التالية لكلمة **pikinini** (طفل):

طفل (وحرفيًا: طفل رجل)	:	**pikinini man**
بنت (وحرفيًا: طفل امرأة)	:	**pikinini meri**
مُهْر (وحرفيًا: طفل حصان)	:	**pikinini hos**
"مِنُّو"[1] (وحرفيًا: طفل سمك)	:	**pikinini pis**
بذور الأرز (وحرفيًا: طفل أرز)	:	**pikinini bilong rais**
ثمرة الشجرة (وحرفيًا: طفل الشجرة)	:	**pikinini bilong diwai**

(١) الـ"مِنُّو" minnow: سمك أوربي شديد الصغر، يعيش في الأنهار والبحيرات. [المترجم]

وفي بعض الأحيان، تتلاشى هذه اللغاتُ التي من نوع الـ"بِدْجِن" من تلقاء نفسها. وفي أحيان أخرى، تزداد أهميتها، وتتزايد مجالات استعمالاتها، أكثر فأكثر؛ فتشمل مجالاتِ استعمالاتٍ جديدة. فإذا اكتسب شخصٌ ما وقتئذ لغةً من تلك الـ"بِدْجِن"، بوصفها لغته الأم، فإن هذه اللغة تُسمَّى باسم آخر، هو "كرِيُول" **creole**. ويحدث ذلك أحيانًا بسبب من حالات الزواج المختلط، بين الناس الذين ليست لهم لغة عامة إلا هذه "اللغة الخليط".

وفور تحول اللغة التي من نوع الـ"بِدْجِن" إلى لغة من نوع الـ"كرِيُول"، يجنح نظام هذه الأخيرة إلى التطور سريعًا: فتزداد طلاقةُ الحديث بها، وتغدو التراكيب أكثر تعقيدًا، وتُبتكَر مفرداتٌ إضافية جديدة. فإذا استمرت هذه الـ"كرِيُول" في تطورها، ترجّح أن تصبح – بعد وقت قصير – مثل أية لغة أخرى كاملة المقومات تقريبًا.

وفي المقابل، نجد أن اللغة التي من نوع الـ"كرِيُول" – في بعض الظروف – قد تلتهمها اللغةُ التي كانت المصدر الذي نشأت منه هذه الـ"كرِيُول". وبيان ذلك: أنه إذا كان لدينا لغة من نوع الـ"كرِيُول" يتكلّم بها الناسُ في منطقة تستعمل فيها – كذلك – اللغةُ المصدر لتلك الـ"كرِيُول"، فربما تعرَّض المتحدثون بهذه الأخيرة لضغط اجتماعي يلجئهم إلى التحدث باللغة المصدر بدلا منها. ويعزِّز ذلك الاستبدال أن اللغة المصدر تتمتع – في أغلب الحالات – بقدر أكبر من الوجاهة الاجتماعية. وعلى ذلك، تحُلّ مفرداتُ اللغة المصدر، وتراكيبها، محلَّ نظائرها في الـ"كرِيُول".

وقد تنامت الدراساتُ المتعلقة باللغات التي من نوع الـ"بِدْجِن" والـ"كرِيُول" تناميًا سريعًا؛ لأن النفع والنتائج المتحصِّلة جرّاء ذلك الدرس قد تجاوز مجال اهتمامات اللسانيات الاجتماعية إلى مجالات أخرى. فمثلا: يرى بعض الدارسين أن لدراسة هذا النوع من اللغات قيمتها الكبيرة في تعميق دراستنا لـ(عملية) التغير اللغوي. وكذا زعم دارسون آخرون أن من شأن هذا الضرب من الدرس أن يسهم في توضيح جوانبَ من مسألة "الكليات اللغوية"؛ من حيث إن هذا النوع من اللغات (بِدْجِن – كرِيُول) يقدّم لنا اللغةَ الإنسانية في حالتها الأساسية والمجردة. ويختلف الدارسون حول مدى صحة هذا الزعم. ولكن الاهتمام الذي أثاره قد زاد من قدر العناية الخاصة التي يوليها الباحثون لهذا الموضوع. والزمن وحده هو الذي سيكشف لنا عن مدى معقولية مثل هذه المزاعم المبالغ فيها.

هذا، إلى أن مسألة "الكليات اللغوية" هذه، أكثر ارتباطًا بدراسة موضوع العلاقة بين اللغة والمخ. وهو الموضوع الذي سيتناوله فصلنا الآتي.

فلنتذكر:

- تُعنَى "اللسانيات الاجتماعية" بتحليل العوامل الاجتماعية التي تفضى إلى حصول تنوع لغوى، يشمل طريقة النطق، واختيار الألفاظ... إلخ.
- يجب ألا نخلط بين مفهوم مصطلح **dialect** (لهجة)، ومصطلح **accent** (لَكْنة)، حيث يشير هذا الأخير إلى طريقة النطق فقط.
- يستطيع عموم أهل اللغة أن يوظّفوا في تواصلهم أساليبَ مختلفةً، تتنوع بتنوع المقام، والموضوع، ووسيلة التواصل (التحدث أو الكتابة).
- يستغرق الإنسانُ في نموّه اللغوي وقتًا؛ حتى يستوعب الأساليب المختلفة التي تقدّمها له لغته، ويوظفها التوظيف المناسب لمقتضى الحال.
- لا يحصُل التنوعُ اللغوي الاجتماعي على نحو جزافي، بل يتّسم بقدر وافر من النظامية. ويستطيع علماء اللسانيات الاجتماعية أن يسجّلوا تفصيلاته تسجيلا علميًا، دقيقًا، منضبطًا.
- يمكن للدراسات المتعلقة بـ"الشبكات الاجتماعية" أن تُظهر لنا الكيفية التي يتعامل بها البشر، بعضُهم مع بعض.
- أثبتت بعضُ الدراسات أن الرجال يتحدثون أكثر من النساء، على الرغم مما يشيع بين عموم الناس، من أن العكس هو الصحيح.
- لا يدلّ استعمال الكلام غير القاطع **tentative speech** على افتقار صاحبه إلى قوة الشخصية، كما كان يُفترض أحيانًا، بل يشير – في أغلب حالاته – إلى رغبة صاحبه في تشجيع الطرف الآخر على التحدث.
- توظِّف الثقافاتُ متعددة اللغات في تواصلها لغاتٍ مختلفةً، بحيث تستقلّ كلُّ لغة منها بمجال استعمال خاص.
- ربما تتطور اللغات التي من نوع الـ"بِدْجِن" **pidgin** – وهى في الأصل لغات محدودة الألفاظ والتراكيب – لتصبح لغاتٍ مستوفيةً لكافة مقومات اللغات الطبيعية.

١١

اللغـــة والعقـــل

يتنـاول هـذا الفـصلُ بالـدرس "اللـسانيات النفـسية" psycholinguistics، فيلخّص القولَ في ثلاث من أهم مسائله: كيفية اكتساب النـاس للغـة، وكيفيـة فهـم الكلام، ثم كيفية إنتاجه. ويعالج فصلُنا هذا – كذلك – مسألتي: اضطرابات الكلام، وتعيين مراكز اللغة بالمخ، معالجةً موجزة.

يعرَّف علم "اللسانيات النفسية" عادةً بأنه الفرع المعرفي المعنيّ بدراسة العلاقـة بين اللغة والعقل: فيستكشف ما يحدث داخل العقل الإنساني، حين يكتسب الإنسانُ اللغة، ويفهمها، وينتجهـا، ويخزّنهـا. وتغطّـى مثـلُ هـذه الدراسـة عـددًا كبـيرًا مـن الموضوعات، بحيث لا يكاد اثنان من علماء اللسانيات النفسية يتفقـان عـلى موضـوع دقيق بعينه لهذا العلـم. ومـن الأسـباب التـي تقـف مـن وراء هـذا الاخـتلاف: أن اللسانيات النفسية تتداخل مع فرع معرفي آخر، أرحبَ قليلا، يعرَف بـ "علـم نفـس التواصل" psychology of communication الذي يدرس اللغة جنبًا إلى جنب مـع وسائل التواصل الأخرى، مثل: الحركات الجسمية، وتعبيرات الوجه.

ويلخص هذا الفصلُ القولَ في بعـض الجهـود المبذولـة في ثلاثـة موضـوعات أساسية، من موضوعات اللسانيات النفسية، هي:

- كيفية اكتساب الإنسان للغة.
- كيفية فهم الإنسان للغة.
- كيفية إنتاج الإنسان للكلام.

ونناقش في هذا الفصل – كذلك – مسألة تداخل دراسة علاقة اللغة بالعقل، مع دراسة علاقة اللغة بالمخ.

الدليل اللغوي النفسي:

لم يجد علماء "اللسانيات النفسية" بُدًّا من ابتكار وسائل خاصة؛ لاستنباط الكيفية التي يعمل بها العقل؛ إذ ليس يمكن أن نلاحظه ملاحظةً مباشرة. وقد آل الأمر بهم إلى استقاء أدلّتهم من مصدرين أساسيين: ملاحظة الكلام العَفْوي، من جهة، والتجارب اللغوية النفسية، من جهة أخرى.

ويتميز الكَلام العَفْوي الذي انحرف بقَدَر عن نظيره الطبيعي، بأنه أكثر ضروب الكلام العفوي إفادة للدارسين. فما يمكن أن نحصّله من معلومات جرّاء ملاحظة أخطاء الأطفال- كقول بعضهم **foots** بدلا من **feet** (أقدام)، أو **geranium** بدلا من **hydrangea** (شُجيرة الكوبية)(1)- يفوق بكثير ما يمكن أن نحصّله من ملاحظة الكلام الفصيح الذي لا أخطاء فيه.

وفى المقابل، نجد الكلام الطبيعي مُحْتَفًّا بالمشكلات: حيث يجب علينا أن نعتبر العشرات من العوامل المختلفة، حين نرغب في تحليله. وعلى ذلك، يُراعِى علماء اللسانيات النفسية في التجارب التي يبتكرونها، أن تشتمل على عدد من العوامل المتغيرة التي يمكن التحكم فيها. وكذا يراعون مدى قابلية هذه التجارب للقياس بدقة. فمثلا: قد يُعرِّضون بعض "الحالات" لتجربة يقفون منها على المدى الزمني الذي تستغرقه تلك الحالاتُ في التعرف على كلمات اللغة، أي في الإقرار بأن ما يُعرَض عليهم يمثّل بالفعل كلمةً من كلمات تلك اللغة، أو أنه ليس كذلك، بل هو مجرّد تتابع صوتي لا معنى له، من مثل **vleesidence**. وتُعرَف مثل هذه المهمة - أو التجربة- بـ"مهمة التقرير المعجمي" **lexical decision task** .

ولكنّ هذا الضَّرْب من المنهجيات ينطوي على مشكلة بعينها، تُعرف بـ"التناقض التجريبي" **experimental paradox**. وبيان ذلك: أنه كلما ازدادت درجةُ

---

(1) في قاموس المورد (إنجليزي- عربي) أن "الكوبية": جَنْبَة [= شجيرة] للتزيين، تشبه ثمارها كوب الماء. [المترجم].

عنايتنا بابتكار تجربة ما، بحيث تحصُر "المتغيراتِ" المختلفة حصرًا، فإن ذلك يُفضي إلى وضع الأفراد محلَّ التجربة في بيئة مصطنعة، يترجَّح معها أن تتصف سلوكياتُهم بالغرابة. وفي المقابل، فإنناكلما أتحنا لهؤلاء الأفراد بيئةً طبيعية تماثل الواقع المعيش، قلّل ذلك قدرتنا على التمييز بين تأثير العوامل المتباينة والمتفاعلة ذات الصلة بموضوع التجربة، كلٍّ عامل على حِدَة.

وتستوجب الطريقةُ المثلى لمعالجة الموضوعات المهمة في ذا الصدد، إنجازَ أمرين معًا: ملاحظة الكلام العَفْويّ، وابتكار التجارب المناسبة. فإذا تطابقت النتائج، دل ذلك على أن ثمة تقدمًا قد أُنجز.

اكتساب اللغة:

استحوذت مشكلة "السليقة" innateness على اهتمامات الدارسين طوال النصف الثاني من القرن العشرين. واحتدم الجدلُ في هذا الصدد حول إجابة أسئلة من مثل: إلى أي حَدٍّ دقيق يمكن القولُ بأن اللغة قد جرى برمجتها مسبقًا داخل العقل الإنساني؟ وهل يمتلك البشر "نحوًا كليًا" Universal Grammar تشتمل عليه جيناتهم، كما افترض "تشومسكي"؟ أم أن إنسان الكهف الذكي قد استهلَّ الكلامَ الإنساني البدائي الأول، ثم توارثتْ كلامَه هذا الأجيالُ التالية: جيلا بعد جيل؟ ولم تجد هذه الأسئلة -بعد- إجاباتٍ - أو حلولا- مفصَّلة، بيد أننا ما بَرِحْنا نكتسب على مَهَل فهمًا أكثر لطبيعة اللغة الإنسانية، عبر النظر المدقِّق والمتكرر في هذه الأسئلة.

وثمة مسألة بعينها قد غدت أوضح من ذي قبل. وتلكم: أن اللغة الإنسانية تمتلك نفس خصائص ضروب السلوك الإنساني الأخرى التي تتحكم فيها عمليةُ اكتمال النضج (أو النمو) maturationally controlled behaviour. وقد اعتاد الباحثون القولَ بأنه يمكن تقسيم السلوك الحيواني إلى نوعين: سلوك موروث وفِطْريّ (كالنبح بالنسبة للكلاب)، وآخر مكتسب وغير فطري (كما يحدث أحيانًا من تعليم الكلاب التسول). بيد أنه قد تبين أن هذا التقسيم ليس تقسيمًا حاسمًا بأية حال، بل ربما يكون مضللا. فثمة ضروب كثيرة من السلوك الإنساني تتطور تطورًا فطريًا، في مرحلة عمرية معينة، شريطة أن تتوافر لها الظروفُ الملائمة لحصول هذا التطور. فمثل هذا السلوك ينتمي إلى ضروب السلوك التي تتحكم فيها عمليةُ النمو. ويجسّد النشاط

الجنسي مثالا نموذجيًا لهذا الضرب من السلوك. إن الجدل حول طبيعة السلوك الإنساني: أهو سلوك فِطْرى، أم يتحصّل بالتعلم، هو جدل غير ذي جدوى. فالفطرة والتعلم كلاهما شرط ضروري للسلوك الإنساني: فالقدرات الفطرية الموروثة تحتفظ بالإطار العام لهذا السلوك، ثم إن هذا الإطار يشتمل بدوره على عدد كبير من البدائل variations التي تعتمد على البيئة المحيطة. وحين يصل الإنسانُ إلى مرحلة عمرية حاسمة بعينها، من مراحل نموّه، يصبح جاهزًا- من الناحية "البيولوجية"- لتعلم ذلك السلوك. وما كان له أن يتعلّمه، لو لم تتوافر الشرارة "البيولوجية". والعكس صحيح: فما كان لهذه الشرارة "البيولوجية" أن تُقْدَح لو لم يتوافر للإنسان- في بيئته المحيطة به- أناسٌ آخرون يتعلم منهم ذلك السلوك.

خلاصة:

قاد استيعابُ الدارسين، وفقههم، لأنماط السلوك الإنساني التي تتحكم فيها (عملية) النضج maturation، إلى إنهاء الجدل القديم حول طبيعة السلوك الإنساني: أفِطْريّ هو أم مكتَسب؟ فالسلوك الإنساني يتطور تطورًا طبيعيًا – أو خِلْقيًا- في مرحلة معينة من مراحل نمو الإنسان، شريطة أن تتوافر له ظروفُ التنشئة المناسبة.

وينتبه الأطفال للغة منذ ولادتهم. وينتجون كلماتٍ مفهومةً في المرحلة العمرية ما بين الشهر الثاني عشر إلى الشهر الخامس عشر تقريبًا. ثم يشرعون في صَفِّ الكلمات إلى جوار بعضها حوالي الشهر الثامن عشر من عمرهم. وتقوى الرغبةُ في ظهور النشاط اللغوي في هذه المرحلة العمرية قوةً عظيمة، بحيث لا يعوقه عن الظهور إلا ظروفٌ جِدّ استثنائية، كتلك التي وقعت لـ"جيني" Genie. وهي فتاة أمريكية مراهقة، من ولاية "كاليفورنيا"، ظلت – بدءًا من الشهر العشرين من عمرها – تعيش محبوسةً في حجرة واحدة صغيرة، حيث كان والدها يعاقبها عقوبةً بدنية، كلما بكت بصوت مرتفع. وحين اكتُشف أمرها، وُجِدَ أنها لا تتكلم، حسبما هو متوقَّع لمن نشأ في مثل ظروفها(1).

---

(1) اكتُشفت حالة هذه الطفلة في العام (١٩٧٠م). وكان عمرها وقتئذ ثلاثة عشر عامًا تقريبًا. (ينظر في تفصيل القول في حالة هذه الطفلة وتطورها اللغوي وبعض المصادر الأجنبية المستقى منها هذا التفصيل: د. عبد الكريم محمد جبل: اللغة والمخ ص ٩٦- ١٠٠). [المترجم].

ولكن كل الأطفال الطبيعيين- وكذا بعض غير الطبيعيين- يبدأون في (عمليـة) التكلم حين يسمعون اللغة من أفواه الآخرين، في البيئة التي يعيشون فيها. ودونـك - مثلا- حالة "لورا" **Laura**. وهي فتاة كانت تكابد إعاقة ذهنية حـادة، ولكنهـا - في المقابل - كانت تتلفظ بكلام طَلْق ثريّ البنية، من مثل:

He was saying that I lost my battery- powered watch that 1 loved.

(كان يقول إنني فقدت ساعتي التي تعمل بالبطارية التي كنت أحبها).

ولم تكن "لورا"، في كلامها الطَّلْق هذا، مجرد بَبْغـاء يـردد جمـلا سـبق لـه أن سـمعها. ويدلك على ذلك وقوعُها في بعض الأخطاء النحوية، من مثل:

Three tickets were gave out by a police last year.(1)

(وزعت الشرطةُ ثلاث تذاكر السنة الماضية)

وقد تعارضت هذه الطلاقةُ اللغوية تعارضًـا حـادًا، مـع عجـز "لـورا" عـن معالجـة الشئون اليومية المعتادة، بحيث إنها لم تكن تعرف حتى عمرها.

الجدل بشأن القدرة اللغوية (احتواء أم معالجة؟):

إن إدراكنا أن اللغة تتحكم فيها (عملية) النمو، يعنى أن معظم علماء اللسانيات النفسية يتفقون الآن على أن الناس مبرمجون خِلقيًا - أو سليقيًا - على ممارسـة اللغـة. بيد أنه يُعْوِز هؤلاء العلماء الاتفاقُ على الماهية الدقيقة لتلك السليقة. وعلى الأخـص: يُعْوِزهم أن يحددوا مدى انفصال القدرة اللغوية عن سائر القدرات المعرفية الأخرى، إن كان ثمة انفصالٌ أصلا.

ويتفق كلُّ الباحثين على أن ثمة تشابهًا غير عادى في مراحل النمو اللغوي، التي يمر بها الأطفال النـاطقون باللغـة الإنجليزيـة. وفـضلا عـن ذلـك، فقـد لـوحظ أن الأطفال الذين يعالجون نقصًا في القدرة عـلى الـتعلم واكتـساب المعـارف والخـبرات المختلفة، يمرون بمراحل متشابهة في نموهم اللغوي، ويقعـون -كـذلك- في أخطـاء

---

(١) صواب الجملـة هـو .Three tickets were given out by police last year (يلاحـظ أن كلمـة police تعامل معاملة الجمع). [المترجم].

متشابهة. وقد احتدم الجدلُ بين الدارسين بشأن النتائج التي يمكن استنباطها من مثل هذا التشابه. فثمة فريق يرى في هذا التشابه في مراحل النمو اللغوي، دليلا على أن الأطفال يحتوون في أصل خِلْقتهم على مخطَّط - أو برنامج عمل **blueprint**- لممارسة اللغة. وتمثل وجهة النظر هذه ما يُسمَّى بـ"**اتجاه الاحتواء**" **content appr ach**. ويفترض المتعصبون لوجهة النظر هذه، أن الأطفال ربما يمتلكون إطارًا لغويًا كليًا مطبوعًا في أمخاخهم.

وفى المقابل، نجد فريقًا آخر يدعم ما يسمى بـ"**اتجاه المعالجة**" **process approatch**. ويؤكد ممثلو هذا الفريق نَفْي احتمالية اشتمال أمخاخ الأطفال على عموميات لغوية بعينها. ويفترضون - بدلا من ذلك- أن الأطفال يولدون وهم مهيئون لمعالجة البيانات اللغوية، حيث يوظّفون - في سبيل إنجاز تلك المعالجة - القدرةَ على حل الأُحْجِيات. وهى القدرة الشديدة الارتباط بسائر المهارات المعرفية الأخرى.

خلاصة: ثار جدال بين علماء "اللسانيات" حول ما يسمَّى بـ"الاحتواء في مقابل المعالجة"، أي: هل يتميز الأطفال خِلْقيًا باحتواء أمخاخهم على معلومات لغوية؟ أم أنهم يمثّلون مخلوقاتٍ ذكيةً نجحت في معالجة البيانات اللغوية، وحَلِّ أُحْجِياتها؟

ويلفت فريق ثالث النظر إلى **الطبيعة الاجتماعية للغة**، وإلى دور الوالدين. وقد احتجوا لوجهة نظرهم تلك، بأن الأطفال كائناتٌ اجتماعية، تشتد حاجتهم إلى التفاعل مع من يحيطون بهم. وفضلا عن ذلك، نجد أن مُربّي الأطفال **caregiver** في كل أنحاء العالم، يجنحون إلى التحدث في نفس الموضوعات. فهم يتحادثون - في المقام الأول- بشأن الطعام، والملابس، وسائر الأشياء التي تقع في البيئة الملاصقة لهم. كما أن لمن يعلّمون الأطفال اللغة في جُلّ الأماكن خصائص جِدّ متشابهة. فهم يقللون من معدَّل كَمّ كلامهم، ويتحدثون في بطء، مستعملين جملا صحيحة التركيب، مع قدر وافر من التكرار. ويزعم هذا الفريقُ الذي يؤكد أهمية الجوانب الاجتماعية للغة، أنه لا حاجة بنا إلى البحث عن آليات فطرية معقدة؛ إذ إن التفاعل الاجتماعي مع مُربّي الأطفال العطوفين كافٍ لتطوير لغتهم.

ويتضح لنا – بعد – أن وجهة النظر الأخيرة هذه، تُفْرِط في تقدير دور العامل الاجتماعي في اكتساب اللغة. ولا يستطيع أحد أن يماري في أن للأبوين دورًا في تيسير تعلم الأطفال للغة، بيد أن هذا الدور لا يقوى على تفسير حدوث هذا التعلم في مدى زمني جِدّ قصير. وانظر إلى حيوانات الشمبانزي الذكية، لتتضح لك المفارقة؛ إذ ينـدر أن يزيد عدد ما تتعلمه هذه الحيوانات – بعد إعطائها دروسًا مكثفة في لغة الإشارة – عن المائتي كلمة، وعن جملتين اثنتين فقط، من الجمل ذوات الكلمتين.

فشأن اللغة – إذن – يبدو أكبر من أن تكون مجرد نتاج لرغبة الإنسان في التواصل. وقد سُجّلت حالة لطفل واحد على الأقل، استطاع أن يكتسب اللغة بطلاقة، على الرغم من عدم تواصله مع غيره، حيث كان يحادث نفسه فقط، ويرفض التفاعل مع الآخرين.

إن الجدل الدائر بين الباحثين حول طبيعة اللغة ما زال بعيدًا عن الحسم، بيد أن اعتقادهم بأن اللغة تمثل ضربًا من ضروب السلوك الإنساني الموجَّه فطريًا **innately guided behaviour** ما فتئ يتزايد يومًا بعد يوم (يراجع الفصل الثاني). إن البشر يولدون وهم مزوَّدون بأجهزة استقبال، ضُبطت بحيث تكون مهيئة وجاهزة لالتقاط (موجة) اللغة. وهم ينتقون أصوات الكلام الإنساني – من بين سائر الأصوات – انتقاء فطريًا، ويعرفون الكيفية التي يجمعون بها بين هذه الأصوات في تراكيبَ لغويةٍ أكبر، تحكمها بعضُ القواعد.

لغة الطفل ذات طبيعة محكومة بالقواعد:

على الرغم من الجدل المتعاظم حول لغة الطفل، فإن علماء اللسانيات النفسية يتفقون على نقطة واحدة مهمة على الأقل. وتلكم: أن الأطفال لايتعلمون اللغة بمجرد محاكاتهم لما يسمعونه ممن يحيطون بهم، وكأنهم بَبْغاوات. إن عمليات التعلم التي ينتظمها هذا الشأنُ هي أعقد من ذلك بكثير. فالأطفال – منذ لحظة استهلالهم باللغة – يبدون مدركين أن للغة قواعدَ تحكمها. ويشرعون من ذلك الحين في (عملية) بحثٍ نشط عن القواعد التي تتأسس عليها اللغةُ التي يتعرضون لها ممن يحيطون بهم. لغة الطفل لم تكن قطّ ركامًا من الكلمات العشوائية، أو نسخةً محرّفة عن كلام البالغين. بل إن لدى كل طفل – في كل مرحلة من مراحل نموّه اللغوي "نَحْوَه"

الخاصّ به، وإن كان "نحوًا" أقل من ذلك الذي لدى الشخص البالغ. فمثلا: حين يشرع الطفل لأول مرة في استعمال وسائل النفي في اللغة الإنجليزية، فالمرجّح أنه يوظّف القاعدة البسيطة التالية: "ضع no أو not في بداية الجملة". وسوف يُفضي تطبيقُ هذه القاعدة إلى النطق بعدد من الجمل المتماثلة في طريقة نطقها. وهي جمل يترجّح أن الطفل لم يسمعها من أحد البالغين قطّ:

No play that. **No Fraser drink all tea.**

ثم إن هذه القاعدة تنسخها عادة قاعدةٌ أخرى تقول: "ضع وسيلة النفي بعد المكون الاسمي (NP) الأول". ويفضي تطبيق هذه القاعدة – كذلك – إلى إنتاج عدد من الجمل التي تتميز باطّراد طريقة نفيها، ويترجّح عدم سماع الطفل لها من البالغين:

Doggie no bite. **That no mummy.**

وثمة مثال آخر يدعم – على نحو أوضح – القولَ بوجود قواعد تحكم لغة الطفل. وذلكم هو اشتمال هذه اللغة على كلمات من مثل:**mans**، و **foots**، و**gooses**. وهي كلمات وافرة التردد على ألسنة الأطفال(1). ويلفت النظر هاهنا أن استعمال الأطفال لهذه الجموع لم يؤثّر على فهمهم، ولا على سلامة استجابتهم، للصيغ الصحيحة التي يستعلمها البالغون لهذه الجموع: **men** (رجال)، و **feet** (أقدام)، و**geese** (أوِزّ). ويدلّ هذا دلالةً واضحةعلى أن اهتمام الأطفال بتطبيق قواعدهم الخاصة في كلامهم، يفوق اهتمامهم بمجرد محاكاة كلام البالغين.

بيد أننا يجب أن نلاحظ –في المقابل– أن الأطفال لا يخلُقون قاعدةً جديدة فجأة، ثم يُحِلّونها محلَّ القاعدة القديمة فجأة كذلك. بل تستغرق تلك النُّقْلة زمنًا غير قصير، يراوح فيه الأطفالُ بين القاعدة الجديدة وبديلتها القديمة. وتظهر تطبيقات القاعدة

---

(1) من أمثلة هذا "القياس الخاطئ" (أحيانًا): قول بعض أطفالنا: "قلمات" في جمع كلمة "قلم" – بنطق القاف همزة أو جيمًا قاهرية – قياسًا على مثل: حاجة/ حاجات، ورحلة/ رحلات... إلخ. وكذا قول بعضهم: "أحمره" و"أصفره" في تأنيث "أحمر" و"أصفر"، قياسًا على توظيف هذه (التاء) في تأنيث مثل: كبير/ كبيرة، وطويل/ طويلة... إلخ. (ينظر: د.إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة ص٤١. وينظر – كذلك: د. داود عبده: دراسات في علم اللغة النفسي ص٧٤– ٧٧، وكمال بكداش: علم النفس ومسائل اللغة ص٣٤). وكانت ابنتي "خديجة" – زكى الله نبتتها – تقول: "إبرات"، و"شنطات"، و"مسطرات"... إلخ. [المترجم].

الجديدة – أولا – في عدد محدود من المواضع. فمثلا: قد يستعمل الطفل الإنجليزي كلمة **what** في عبارات مع فعل بعينه:

What mummy doing?   What daddy doing?   What Billy doing?

ثم ما يلبث تدريجيًا أن يعمِّم **what** مع أفعال أخرى، من مثل:

What kitty eating? (ماذا تأكل "كيتي")

What mummy sewing? (ماذا تخيط أمي؟)

وتكاد الطريقة التي تقع بها هذه النقلة (النحوية)، في لغة الأطفال، تشبه الطريقةَ التي يحصُل بها التغيير البطيء من كلمة إلى كلمة في عملية التغير اللغوي (ينظر: الفصل الثالث عشر).

خلاصة:

حين يدرك الأطفال أن إحدى "قواعدهم" الخاصة، تخالف نظيرتها لدى البالغين، فإنهم لا يهجرون قاعدتهم –تلك القديمة– توًّا. بل تتأرجح القاعدتان على ألسنتهم وقتًا، حتى تسود القاعدة الجديدة (الصحيحة) في نهاية الأمر.

إن ملاحظة الطريقة التي يتم بها انتقالُ الأطفال من قاعدة إلى أخرى، تُظهر لنا أن عملية اكتساب اللغة، لا تتم على نحو متماثل مطّرد بين كافة أطفال البشر، على ما قد يظنّ المرء للوهلة الأولى. فثمة مساربُ مختلفة يسلكها الأطفالُ في اكتسابهم للغة. فمثلا: نجد أن بعضهم يركّز على الإيقاع الإجمالي **overall rhythm**، ثم يملأ مواقع ذلك الإيقاع بالكلمات ذات البِنَى الصوتية العامة المتماثلة. في حين يفضّل آخرون أن يتعاملوا مع "مواقع" أكثر تجريدًا. ومن الجهود التي تتبوأ مكانة خاصة في ذا الصدد: تلك التي تبحث في الكيفية التي يتعامل بها الأطفال تعاملا ناجحًا مع لغات مختلفة. فمن شأن هذا الضرب من الدرس أن يمكننا من الإجابة على السؤال الآتي: هل يمتلك الأطفال توقعاتٍ مسبقةً موحدة – أو عالمية – بشأن الطريقة التي تشتغل بها اللغة، أم أنهم ينتظرون ليروا ما تتيحه لهم لغاتُهم الخاصة؟

هذا، وقد حاولت بعضُ الجهود المعاصرة أن تحاكى على جهاز الحاسوب الكيفيةَ التي يتعلَّم بها الأطفالُ صيغ الزمن الماضي في اللغة الإنجليزية، محققةً في ذلك قدرًا من النجاح. ففي البداية، تعلم الحاسوب - مثل الأطفال - الصيغ غير المطردة للزمن الماضي، مثل: **caught** (أمسك)، و **went** (ذهب)، تعلمًا صحيحًا دقيقًا. ثم أفرط الحاسوب - كالأطفال كذلك - في تعميم الصيغة النظامية المطّردة لهذا الزمن؛ فأنتج كلماتٍ من مثل **catched** ، و **goed**. وأخيرًا، نجح الحاسوب - كالأطفال كذلك - في تعيين صيغة الزمن الماضي المناسبة للكثرة الكاثرة من الأفعال التي غُذّي بها. بيد أن هذه المحاكاة الناجحة قد أفضت إلى استنباط نتيجتين متعارضتين: فإما أن اللغة ظاهرةٌ بسيطة قريبة المأخذ، بحيث يتاح للحاسوب المبرمج جيدًا أن ينجح في معالجتها. وإما أن نهايات الكلمات - كتلك الخاصة بالزمن الماضي - لا تمثل إلا شطرًا محدودًا، وغير معقّد -كذلك- من بنية اللغة. وقد تكشف لنا دراساتُ المستقبل عن مدى إمكانية برمجة الحاسوب، بحيث يمكنه أن يعالج جوانب أخرى من اللغة أعقد من تلك السابقة.

تعلُّم معاني الكلمات:

لا يلزم الأطفالَ أن يتعلموا أصوات لغاتهم، وصيغ كلماتها، وتراكيب جملها، فحسْب. بل يلزمهم أن يتعلموا معاني كلماتها كذلك. وقد تبين أن هذه المهمة الأخيرة أعقدُ مما يفترض بعض الدارسين. فبدءًا، تكشَّف أن الأطفال ربما يستغرقون قدرًا من الوقت قبل أن يكتشفوا أن الكلمات يمكن أن تدل على أشياء منفصلة. فربما يحسَب الأطفال في بداية تعلمهم لمعاني الكلمات، أن كلمة مثل **milk** (لبن)، تشير إلى طقس عام برمته من الطقوس المتكررة، يتضمن شيئًا ما يُنطَق مثل **mug** (كوب) يوضع أمامهم. ثم إنهم يكتشفون لاحقًا أن للكلمات معاني يمكن أن تُستعمل للإشارة إلى أشياء وأحداث منفصلة: كلٍّ على حِدَة.

وربما يستطيع الأطفال في البداية أن يستعملوا الكلمات في سياقات خاصة بعينها، كأن يوافقك أحدُهم على أن "الثلج" أبيض اللون، ولكنه - في المقابل - سيرفض القول بأن قطعة من الورق لونها أبيض كذلك. ويمُرّ هذا الميلُ إلى "الإفراط في التخصيص" **undergeneralization** على عموم الناس دون أن ينتبهوا إليه، على

الرغم من أنه أكثر حدوثًا من ميل الأطفال العكسي إلى "الإفراط في التعميم" **overgeneralization**، الذي يجتذب قدرًا أكبر من اهتمام الناس.

خلاصة:

يلاحظ عمومُ الناس ظاهرة إفراط الأطفال في التعميم، ويعلّقون عليها. ومن ذلك أن الأطفال ربما يطلقون كلمة **crumb**[1] على كل شيء صغير أيًا كان نوعه: فيسمُّون بها كِسْرة الخبز، والخُنْفُساء الصغيرة، وبُقْعة الطين. وكذا قد يستعمل الأطفال كلمة "قمر" للإشارة إلى أي نوع من النور.

وقد كان من الأفكار الشائعة في القرن التاسع عشر القولُ بأن الأطفال يدركون العالم من حولهم من خلال "ضباب عقلي" **mental fog**. فهم لايستطيعون في هذه المرحلة العمرية إلا أن يدركوا الحدود والملامح العامة للأشياء؛ مما يسمح بحصول ذلك الميل إلى "الإفراط في التعميم"؛ حيث إن كثيرًا من الأشياء تتشابه في ملامحها العامة. ولكنهم ما يلبثون أن يتبينوا لاحقًا الملامحَ الخاصة التي تميز كلَّ مُدْرَك عن الآخر؛ مما يقلّص من عملية التعميم هذه. وقد تبين –بعد– أن هذه الفرضية تبالغ في تبسيط الأمر: فإفراط الأطفال في التعميم، هو – في جُلّ حالاته– إفراط من نوع خاص جدًا، وغريب جدًا كذلك. ودونك –مثلا على ذلك: ما سجّله أحدُ الباحثين من أن طفلة أطلقت اسم "القمر" على ورقة نبات خضراء لامعة! ومن التفسيرات المحتملة لهذا التعميم الغريب: أن تكون هذه الطفلة قد اعتبرت نموذجًا أصليًا **prototype** مغايرًا لذلك الذي لدى البالغين (يراجع الفصل الثامن). فربما تكون هذه الطفلة قد جعلتْ من صورة القمر الهلالي الأصفر اللامع نموذجًا أصليًا لـ"القمر"، ثم عمَّمت استعمال اسم "القمر" على أي شيء يتمتع بنفس هذا الشكل التقريبي لذلك النموذج، أو بأية صفة من صفاته الأخرى. فورقة الشجر كانت أقربَ

---

(١) في Macmillan English Dictionary أن كلمة crumb تستعمل اسمًا للدلالة على الكِسْرة البالغة الصغر من الأطعمة الجافة، كالخبز. وأنها تستعمل – كذلك – للدلالة على الكمية البالغة الضآلة من بعض الأشياء [المجرّدة]، كالمدح، وغيره. [المترجم].

إلى الشكل الهلالي، كما كانت تبرق كذلك. وتحظَى فكرة "النموذج الأصلي" الشائقة باهتمام الدارسين في وقتنا هذا.

تعلُّم معاني الكلمات عبر إشارات الأيدي:

تُلحّ على الناس رغبةٌ شديدة في التواصل. ويستطيع الذين حُرموا من حاسّة السمع منهم أن يتعلموا لغة الإشارة؛ لإنجاز ذلك التواصل. وتتميز لغة الإشارة باستيفائها لكافة المقومات اللازمة لاستحقاق الوصف بـ"اللغة". بيد أنه يحسُن أن يبدأ الأطفال في اكتسابها من سِنِي عمرهم المبكرة. هذا، ويُلاحَظ أن الأطفال الصُّمّ، من ذوى الآباء الصُّمّ كذلك، يبدأون في استعمال الإشارة في وقت أبكر من غيرهم. كما أنهم يتقنون لغة الإشارة على نحو أفضلَ من نظرائهم، ممن لم يُحرم آباؤهم من حاسّة السمع، وفى مدى زمني أسرع كذلك.

هذا، وقد ابتكرت جمعيةُ الأطفال الصُّمّ في "نيكاراجوا" **Nicaragua** لغةَ إشارة خاصة بها. وقد تأتّى هذا بأن تعلّم هؤلاء الأطفالُ في البدء خليطًا عامًا من الإشارات المختلفة ممن يحيطون بهم. ثم استطاعوا- بعد حوالي عشرين سنة – أن يطوّروا هذه الإشارات إلى لغة كاملة. وقد كشف جهد أطفال "نيكاراجوا" هؤلاء عن مدى إلحاح اللغة على الظهور والتحقق. كما كشف عن استطاعة صغار البشر ابتكارَ نظام لغوى في زمن ليس بالطويل. وقُصارى ما يحتاجونه في سبيل إنجاز ذلك: عددٌ قَليل من الإشارات يبدأون بها، ثم مجموعة من الناس توظفها في التواصل.

فهـم الكـلام:

قد يتوهَّم كثير منا للوهلة الأولى، أن (عمليـة) فهـم الكـلام تتسم بالبساطة. فالأمر لا يعدو وجود شخص ما، يتلقى رسالةً ما، من شخص آخر، تلقيًا سلبيًا. ويفترض بعض الناس بهذا الصدد أن سلوك سامعي الكلام يشبه موظفي "السكرتارية" الذين يدونون في أذهانهم ما يُطلب منهم. فالسامعون يسجلون الرسالة ذهنيًا، ثم يعودون إلى قراءتها لأنفسهم.

وقد تبين – بعد- أن هذا الافتراض خاطئ تمامًا. فبدءًا: يستحيل –استحالة مادية- إدراكُ الأصوات على نحو منفصل كلٍّ على حِدَة؛ إذ يقع الكلام بسرعة جِدّ

كبيرة لا تتيح ذلك. لقد تبين أنّ عملية فهم الكلام عمليـة إيجابيـة، وليـست سـلبية. فسامعو الكلام يسارعون إلى تكوين رأى في محتواه، على هَدْى من بعـض المعلومـات الجزئية. وقد تمت البرهنةُ على صدق هذا الرأي عبر عدّة تجارب متنوعة. ففي إحـدى هذه التجارب، اختيرت عدّة جمل، وأُبهم الصوت الأول من الكلمة الأخيرة من كـلّ منها. ثم طُلب من ا لمستمعين أن يشرحوا هذه الجمل. وهي:

Paint the fence and the ?ate .

(اطْلِ السِّياج والـ...)

Check the calendar and the ?ate .

(راجع التقويم والـ ...)

Her's the fishing gear and the ?ate.

(دونك معدّاتِ صيد السمك والـ...)

وقد ادّعى هؤلاء المستمعون أنهم قـد سـمعوا كلمـة **gate** (بوابـة) في الجملـة الأولى، وكلمة **date** (التـاريخ) في الجملـة الثانيـة، وكلمـة **bait** (طُعْـم الـسمك) في الجملة الثالثة.

> **خلاصة:**
>
> يدرك عمومُ الناس معنى الكلام الذي يسمعونه بالتقاط ملخَّص جزئيّ لبعضه، ثم تخمين معنى الباقي .

فإذا كانت عملية فهم الكلمات تنتظم قدرًا كبيرًا مـن التخمـين، فكيـف يكـوّن المتخاطبون تخميناتهم إذن؟ هَبْ أن أحدهم قد سمع العبارة الآتية: **'She saw a do-'**: أتُـراه سـيخمّن الكلمـةَ الناقـصة عـبر مراجعـة الاحـتمالات الممكنـة لهـا، احـتمالا تلـوَ الآخـر، مـثلا: **dog** ، **doll** (دميـة)، **don** (مـدرس في الجامعـة)، **dock** (رصيف للسفن...)، وهلـمّ جَـرًّا (أي بالمعالجـة التسلـسلية **serial processing**)؟ أم تراه سـيعتبر لاشـعوريًا كـلّ الاحـتمالاتِ الممكنـة في نفس الوقـت (أي بالمعالجـة التزامنية **parallel processing**) ؟

يبدو أن العقل الإنساني يؤثر المنهجية الثانية، أعني: المعالجة التزامنية للكلمات. بل ربما ينظر العقلُ لا شعوريًا في الاحتمالات المستبعدة كذلك. وتفترض النظريةُ المعاصرة لـ"التنشيط التفاعلي" interactive activation للكلمات، أن العقل البشرى عبارة عن شبكة معقَّدة بالغة القوة، حيث يُفضى سماعُ الإنسان لأية كلمة إلى حصول تنشيط آلي لسائر الكلمات التي تشبهها على أي وجه. ثم إن كلا من هذه الكلمات المنشَّطة تستثير بدورها جاراتها الخاصة. وهكذا ينتشر التنشيط تدريجيًا كأمواج البحيرة. ثم لا تلبث الكلمات التي تبدو – دون غيرها – أنسب للمراد، أن تزداد استثارةً، في حين تتلاشى تدريجيًا تلك التي لا تبدو مناسبة له. وأخيرًا – وبعد لأْيٍ – تتغلب إحدى تلك الكلمات المناسبة على أخواتها .

فهـم التراكيـب:

إذا كان الدارسون قد حصَّلوا قدرًا وافرًا من المعلومات بشأن (عملية) فهم دلالات الكلمات، فلم تزل – بعد – الكيفية التي تتركّب بها الكلماتُ في نسيج التراكيب اللغوية الأكبر غير واضحة. وتبدو (عملية) فهم هذه التراكيب – في شطر منها – مشابهةً لـ(عملية) فهم الكلمات. وذلك من حيث إن الناس يبحثون عن "مفاتيح" عامة، ثم يَنْشَطون في إعادة تركيب الرسالة المحتملة عبر تلك "المفاتيح". وبالمصطلح اللساني نقول: إن سامعي الكلام يوظّفون – في سبيل فهمه – "آليات إدراكية" perceptual strategies. فهم يسارعون – على هَدْى من مفاتيح عامة – إلى استنباط المراد، عبر فَرْضِ ما يتوقعون سماعه، على سلاسل الكلام التي يتبادلونها. ودونك – مثلا – الجملة الآتية:

The boy kicked the ball threw it back.

فجُلّ من سيسمع هذه الجملة، سيشعر أن بها خللا ما. وهو أن ثمة كلمةً قد سقطتْ سهوًا في موضع ما منها. وأن المرجَّح أن تكون هذه الكلمة نحوًا من الآتي:

The boy who kicked the ball threw it back.

(الولد الذي رَكَلَ الكرة، أرجعها للخلف) .

The boy kicked the ball, then threw it back.

(الولد ركل الكرة، ثم أرجعها للخلف)

وفى المقابل، نجد أنه حين تُعرض عليهم جملة أخرى مشابهة لتلك السابقة، من مثل:

The boy thrown the ball kicked it back.

(The boy to whom the ball was thrown kicked it back).

(الولد الذي مُررتْ إليه الكرة أعادها للخلف)

فإنهم يدركون أنها جملة صحيحة كلَّ الصحة.

وقد نَجَمتْ هذه المشكلة جرّاء ميل الناس – لدى تفسيرهم الجمل – إلى فرض التتابع التركيبي: (فاعل – فعل – مفعول) عليها. ويصعب على أهل اللغة مقاومةُ هذا الميل العام. وهذا ما يفسِّر لنا الوهم الذي يقع فيه بعضُنا حين يطالع بعض "الجمل الخادعة" **garden- path sentences** أعنى: تلك الجمل التي تُوهم القارئ في بداية قراءته لها، بأنها متجهة إلى معنًى معين، ولكنه سَرْعانَ ما يتبين أنه قد أخطأ في فهمها. وذلك كما في الجملة الآتية:

Anyone who cooks ducks out of the washing-up.

بمعنى:

Anyone who cooks tries to avoid or ducks out of the washing- up.

(يحاول أي شخص يقوم بالطهي، أن يتهرب من مهمة غسل الأواني)(١).

وفى حالات أخرى، نجد أن اختلاف تفسير الناس للجمل، يعتمد على الوحدات المعجمية التي تشتمل عليها تلك الجمل. ففي الجملة الآتية – مثلا:

Clever girls and boys go to university.

---

(١) محل الشاهد هنا هو كلمة ducks: فورودها عقب الفعل cooks (يطهو) يدفع – للوهلة الأولى – إلى تفسير الجملة على أن معنى تلك الكلمة هو "البط" (اسم جنس جمعي للبطة). ولكن هذا التفسير سرعان ما يتغير باستكمال قراءة الجملة، أو سماعها، حيث يتبين أننا بإزاء فعل مركّب (أو مذيّل) phrasal verb هو duks out of بمعنى: "يتهرب من". [المترجم].

(البنات والأولاد الأذكياء يلتحقون بالجامعة)

نجد أن عموم الناس يسلّمون بأن الوصف clever (ذكي) يشمل كلا من الأولاد والبنات. وأما لدى سماعهم لجملة أخرى من مثل:

Small dogs and cats do not need much exercise.

(الكلاب والقطط الصغيرة لاتحتاج إلى تدريب كثير)

فإنهم يميلون عادةً إلى عَدّ الوصف **small** منصَبًّا على الكلاب وحدها.

وعلى ما سبق، يتبين لنا أن العلاقة بين كلٍّ من الوحدات المعجمية ، والتراكيب، والسياق الإجمالي، لم تزل- بعد- قيد الدرس. وثمة مشكلة تركيبية أخرى لم نعرض لها بعد. وهي مشكلة الفجوات التركيبية. أعني: تلك السياقات التي يلزم منها تحرُّكُ كلمة ما من موقعها إلى أول الجملة، مخلِّفةً وراءها "فجوة" بعد الفعل، كما في قولنا:

Which wombat did Bill put in the cage?

(أي "وُمْبات"[1] وضعـ(ـه) "بِلْ" في القفص؟)

فتُرى: هل يخزّن السامعون عبارة **which wombat** في أذهانهم؛ حتى يجدوا الموقع المناسب لها في الجملة (وهو – هاهنا – الموقع التالي للفعل **put**)؟ أم ماذا يحدث؟ لم تزل – بعد – إجابة هذا السؤال محلَّ جدل شديد بين الدارسين.

إنتـــاج الكـــلام:

يتضمن "إنتاج الكلام" نوعين ضروريين من (العمليات) على الأقل. أولاهما: اختيار المفردات. والثانية : نَظْم هذه المفردات في تراكيب.

وتَرْفِدُنا زلّاتُ اللسان **slips of the tongue** – وهي الحالات التي يتفوه فيها الإنسان عفويًا بعبارات من مثل **par cark** بدلا من **car park** (موقف سيارات)[2]–

---

(١) في قاموس المورد (إنجليزي – عربي) أن الـ"وُمْبات" حيوان أسترالي من ذوات الجراب، يشبه الدبَّ الصغير. [المترجم].

(٢) ومثل: "تُوء سفاهم" بدلا من "سُوء تفاهم"! [المترجم].

بمفاتيح مهمة لفهم هاتين العمليتين. وكذا يفيد في فهمها دراسة ما يسمَّى بـ"وقفات الكلام" - أو سكتاته - pause ؛ من حيث إنها تدلنا على المواضع التي يتوقّف فيها المتكلم؛ حتى يفكّر. وإن كان يصعُب علينا أن نميز بين تلك الوقفات الناجمة عن بحث المتكلم عن المفردات، وتلك الناجمة عن تخطيطه لاختيار التركيب المناسب.

وثمة ضربان أساسيان من زلّات اللسان تلك. فهناك - أولا - ما يسمَّى بـ"أخطاء الاختيار" selection errors. ويُقصَد بها الحالات التي يخطئ فيها المتكلم في اختيار المفردات المناسبة، من مثل:

Please hand me the tin- opener.

(فضلا، ناولني فتّاحة العُلَب)

بدلا من **nut – crackers** (كسّارة البندق)

Your seat's in the third component.

(مقعدك يقع في الجزء الثالث)

بدلا من: **compartment** (المقصورة)[1].

ثم هناك - ثانيًا - "أخطاء التركيب (أو التجميع)" **assemblage errors**. وهى الحالات التي يحدث فيها أن يصيب المتكلم في اختيار المفردات، بيد أنه يخطئ في تركيبها، من مثل:

Dinner is being served at wine.

بدلا من: **Wine is being served at dinner**

(قُدِّم الشراب على طعام العشاء)

ومثل: **A poppy of my caper**

---

(١) من الأمثلة التراثية التي تصنف ضمن هذا النوع من زلات اللسان: ما ورد من أن "خالد بن عبد الله القَسْريّ" (= والي العراق المقتول في ١٢٩هـ) كانٌ يخطب على المنبر، فجاءه خبر خروج المغيرة بن سعيد (= رأس فرقة من غلاة الشيعة، قُتل في ١١٩هـ) عليه؛ فدَهِش لذلك، وقال: "أطعموني ماء!"؛ فعُيِّر بذلك. (ينظر: ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ١٦٥، والجاحظ: الحيوان ٢/ ٢٦٧). [المترجم].

بدلا من: (نسخة من بحثي) **A coppy of my paper.**

وقد يـبدو للوهلة الأولى أن هذه الزلّات تقـع عـلى نحـو عـشوائي مـضطرب. ولكنّ النظر المدقّق يكشف عن قدر من الاطّراد في سياقات وقوعها، إلى حد أن ألفينا بعض الدارسين يتحدث عن "قوانين" زَلّات اللسان. ولا شك في أن في هذا الوصف قدرًا من المبالغة؛ فنحن – في تعاملنا مع هذه الزلات – إنما نتعامل في حقيقة الأمر مـع احتمالات متكررة، ولا نتعامل مع أي نوع حقيقي من "القوانين".

ويكثر أن تنتظم أخطاءُ الاختيار وحداتٍ معجميةً. وهـذا مما يجعـل مـن هـذه الأخطاء وسيلةً نافعةً لتحديد المفردات الشديدة الترابط في العقل. فمـثلا: يتكـرر أن يجرى لسانُ بعض الناس بكلمة **knives** (سكاكين) بدلا من **forks** (شِوَك)، وبكلمـة **orange** (برتقال) بدلا من **lemons** (ليمون)، وبكلمة **left** (شـمال) بـدلا مـن **right** (يمين). ويطرح هذا المثـال وغـيره فَرَضِـيةً مفادهـا: أن الكلـمات التـي تـشارك في ملامحها العامة، تحظى بترابط جِدّ وثيق في العقل الإنساني، لا سيما إذا كان الاسـتعمال اللغوي ينظر إليها على أنها تمثل أزواجًا متقارنة. وكذا يَغْلِب عـلى الكلـمات المتـشابهة صوتيًا التي يقع فيها الخطـأ، أن تكـون متـشابهة في بـداياتها، ونهاياتهـا، وفي الإيقـاع كذلك. وذلك مثل قول بعضهم: **antidote** (ترياق) بدلا مـن **anecdote** (طُرْفـة)، و **confusion** (ارتباك) بدلا من **conclusion** (خاتمة).

وربما يكون أولُ من قدّم هـذه الملاحظـات عـالمين متخصـصين في اللـسانيات النفسية، بجامعة "هارفارد" **Harvard**. فقد ابتكر هذان العالمان تجربة لاستكشاف ما يسمى بـ **tip of the tongue** ([ظاهرة وجود الكلمة على] طرف اللـسان). وفي هـذه التجربة التي اشتُهرت في عصرنا هذا، جمع هذان العالمان عددًا مـن الطـلاب، وقـرأ عليهما تعريفاتٍ لكلمات قليلة الشيوع نسبيًا، من مثل "آلة ملاحية تستخدم في قيـاس المسافة المـزَوّاة **angular distance**، وخاصـة الارتفـاع العمـودي للـشمس والقمـر والنجوم فوق سطح البحر". ولم يستطع بعض الطلاب أن يدوِّنوا الكلمة المقصودة – وهي كلمة **sextant** (آلة السُّدْس)– فور قـراءة التعريـف علـيهم. لقـد كانـت هـذه الكلمة على أطراف ألسنتهم، لكن ذواكرهم لا تستطيع القـبض عليهـا. وقـد طلـب مجريا التجربة من هؤلاء الذين كانت الكلمة على أطراف ألسنتهم، أن يملأوا اسـتبيانًا

يتعلق بحالة البحث الذهني التي كانوا يعايشونها؛ تفتيشًا عن الكلمة المقصودة. وقد تبين من هذا الاستبيان أن هؤلاء الطلاب قد استطاعوا أن يقدّموا معلوماتٍ جِدّ كثيرة بشأن تلك الكلمة المراوغة. وكذا نجحوا في تحديد عدد مقاطعها الصوتية، وفى تحديد الحرف الأول منها، وكذا الأخير أحيانًا. وقد تواردت على أذهانهم كلماتٌ ذات معانٍ مقاربة لمعنى الكلمة المقصودة، من مثل **astrolabe** (الاصطرلاب)، و **compass** (البوصلة). وكذا تواردت عليهم كلماتٌ ذات بنية صوتية مشابهة لبنية الكلمة المقصودة، من مثل: **secant** (قاطع[1])، و **sexton** (قَنْدَلَفْت)[2]، و **sextet** (سداسي)[3]. فكل ذلك ، وغيره، يشير إلى أن اختزان البالغين للكلمات، واختيارهم إياها، يتأسس – في شطر منه – على الإيقاع **rhythm**، وفى شطر آخر على تذكر بدايات الكلمات، ونهاياتها.

ويغلِب على عدد كبير من أمثلة "أخطاء الاختيار" أن تكون متشابهةً في كل من الصوت والمعنى. وذلك كالتلفظ بـ **component** (مكوّن) بدلا من **compartment** (مقصورة في قطار)، وبـ **geraniums** (نبات الغُرْنُوقي)[4] بدلا من **hydrangeas** (شجيرة الكُوبية)[5].

وتشير هذه الملاحظة إلى أن نظرية "التنشيط التفاعلي" – في صورتها المقترحة لتفسير (عملية) فهم الكلام – ربما تكون صالحةً – كذلك – لتفسير (عملية) إنتاجه: فالعقل ينشّط – أولا – كلَّ الكلمات المتشابهة، ثم إن ما يستأثر من هذه الكلمات بالتشابه في الصوت والمعنى معًا، يزداد تنشيطه عما عداه؛ فيصبح – من ثَمَّ – أكثر عرضة لأن تقع فيه أخطاء الاختيار عن غير قصد.

---

(١) في معجم المورد (إنجليزي – عربي) أن الـ"قاطع" – في الرياضيات: خط مستقيم يقطع منحنى بنقطتين، أو أكثر. [المترجم].

(٢) في المعجم السابق أن الـ"قَنْدَلَفْت": موظف في الكنيسة، مسئول عن رعاية أملاك الكنيسة، وحمايتها، وربما قرع الأجراس، كذلك. [المترجم].

(٣) في المعجم السابق أيضًا أن "السداسي": مجموعة من ستة مغنيين، أو موسيقيين. [المترجم].

(٤) الغُرنوقي: نبات ذو أوراق ناعمة مستديرة، وأزهار براقة يغلب أن تكون قرنفلية اللون، أو حمراء، أو بيضاء. [المترجم].

(٥) سبق التعريف بها في (هامش ص٢٦٨) من هذا الفصل. [المترجم].

وإذا كانت أخطاء الاختيار تَزْوِدنا بمعلومات عن الكيفية التي تخزَّن بها الكلمات، وتُختار، فإن أخطاء التجميع **assemblage errors** تدلنا على الكيفية التي يتم بها تنظيم سلسلة الكلام برمتها؛ استعدادًا للظهور على الألسنة. فمثلا: يُلاحَظ في أخطاء التجميع أنها لا تكاد تقع إلا في إطار "وحدة النغمة" **tone-group** الواحدة ("وحدة النغمة" هي سلسلة قصيرة من الكلام تُنطَق بمنحنى تطريزي(١) تنغيمي واحد وهذا ما يشير إلى أن "وحدة النغمة" هي وحدة التخطيط في (عملية) إنتاج الكلام. وداخل "وحدة النغمة" هذه، يكثر أن تتبادل الوحداتُ ذات النبر المتشابه مواقعها، كما في قول أحدهم:

A gas of tank بدلا من **A tank of gas** خزان (وقود)، و **Reap of hubbish**، بدلا من **heap of rubbish** (كومة قمامة)، و **Hass or grash**، بدلا من **hash or grass**(٢)

إن كل ما سبق يشير إلى أن (عملية) إنتاج الكلام إنما يجرى تنظيمها وَفْقًا لمبادئ إيقاعية. وبيان ذلك: "أن وحدة النغمة" تتجزأ إلى وحدات أصغر، تُسمَّى عادة بـ"التفعيلات"(٣) **feet**، التي تتأسس على النبر **stress**، كما في اللغة الإنجليزية. ثم إن هذه التفعيلات تتجزأ- بدورها- إلى مقاطع **syllables**. وهذه المقاطع قد يكون المتحكِّم فيها هو "النبضات" البيولوجية التي تنهض بمهمة تنظيم سرعة الكلام. ولابد أن ألفت – بعد – إلى أن مسألة التفاعل بين "الوحدات النغمية" المؤسسة على الإيقاع، من جهة، والبِنَى التركيبية، من جهة أخرى، ما تزال في حاجة إلى مزيد من الدرس المدقّق.

---

(١) "المنحنى التطريزي" contour: هو تتابع من بعض السمات التطريزية prosodic features:- من مثل درجة الصوت pitch والنبر stress – التي تُؤدَّى بها الجملة المنطوقة كلها، أو جزء منها خاصة. ومن ذلك: المنحنى التطريزي الصاعد rising الذي يؤدى به بعض ضروب الكلام، من مثل الاستفهام، في نحو Are you? . ينظر: .Hartman, Dictionary of Language and Linguistics, p.53. [المترجم].

(٢) في Macmillan English Dictionary أن hash صيغة صوتية يستعملها بعض العوام لكلمة hashish. وهو نبات مخدّر (من أصل عربي). وأن grass كلمة تستعملها العوام أيضًا للدلالة على "القِنّب الهندي" cannabis . وهو نبات مخدّر كذلك. [المترجم].

(٣) سيأتي للمؤلفة فضل كلام عن "التفعيلات" في الفصل الآتي (علم الأسلوب) (ص ٣٠٥، وهامش رقم ١). [المترجم].

خلاصة:

تمثل زَلّات اللسان جانبًا من الكلام الطبيعي السَّوِيّ. ولا يكاد ينجو أحد من الوقوع فيها. ولكن هذا النوع من الزلات يتداخل مع نوع آخر من الأخطاء أكثر غرابة، وشططًا. أعني: تلك الأخطاء التي تَسِمُ كلام بعض الناس ممن يعانون من اضطرابات الكلام **speech disorders**.

اضطرابات الكلام:

"lovely rabbit" (أرنب جميل). جملة جرى بها لسان امرأة مصابة بجلطة دماغية، حين رأت صورة لتفاحة. وتفسير ذلك أنه قد تصادف أن هذه المرأة كانت – قبل رؤيتها لصورة التفاحة مباشرة – تتحدث عن نبات "الراوند"[1] **rhubarb**؛ فأفضى بها ذلك إلى أن تمزج – على نحو ما – بين الكلمتين **apple** و **rhubarb**؛ فأنتجت **rabbit**. لقد كانت هذه المرأة تعاني من "الحُبْسة" **aphasia**. ومصطلح **aphasia** هذا، هو المصطلح العام الذي وظّفه الدارسون للدلالة على اضطرابات الكلام الخطيرة. ودلالته الحرفية هي "بدون كلام"[2]. وواقع الحال أن المرضى بهذه "الحبسة" لا يفقدون كلَّ القدرة على الكلام، كما يشير إلى ذلك المعنى الحرفي للمصطلح، بل هم يتفوهون ببعض الكلام، ولكنه كلام يتّسم بقدر من الغرابة. ويحسُن هاهنا أن نميز بين "الحبسة"، واضطرابات نطقية أخرى، تنحصر مشكلة المصابين بها في (عملية) التلفظ بما يريدون قوله، من مثل: "التَّهْتهة"، ونحوها.

ويصعُب على الدارسين تصنيف مرضى الحبسة؛ لأن ضروب التلف التي يمكن أن تصيب المخ يتعذّر حصرها، وتصنيفها، على نحو دقيق. فأنسجة المخ قد تتورم، وبعض أجزائه ربما لا يصل إليها الدم و "الأكسجين". ثم إن المخ يحاول أن يعوّض كلَّ ذلك بأساليب غير متوقعة في كثير من الحالات. وعلى ذلك، نجد أن لكل مريض من مرضى "الحبسة" أعراضًا تختلف اختلافًا طفيفًا عن نظرائه. ولكنهم

---

(١) الراوند: نبات ذو سيقان طويلة حمراء اللون، أو قرنفلية، تُطهى، وتُؤكل، بوصفها فاكهة. [المترجم].

(٢) وذلك لأن مصطلح aphasia مؤلف من السابقة (-a) بمعنى: الفقد أو الإعواز، وكلمة phasia بمعنى الكلام. ينظر: Taylor, Psycholinguistics, p. 440. [المترجم].

يكادون يتفقون في أنهم جميعًا يكابدون مشقّةً في وجدان الكلمات. وهو العَرَض الذي يطلق عليه مصطلح anomia. ومعناه الحرفي هو "فقدان القدرة على التسمية".

وبالرغم مما سبق، فقد أمكن تصنيف "اضطرابات الكلام" تصنيفاتٍ تتسم بقدر من العموم. فثمة - مثلا- طائفةٌ من مرضى هذه الاضطرابات تجابه صعوبة بالغة في صَفّ الكلمات بعضها إلى جوار بعض؛ لتكوين الجمل. كما أنها تكابد مشقةً شديدة في التفوه بكلام لا يتجاوز عدد كلماته - في معظم الحالات-ثلاث كلمات، أو أربع، يغلِب عليها أن تكون من الأسماء. ويكاد كلام هذه الطائفة يخلو من نهايات الكلمات، كما تُعْوِزه أحيانًا الكلماتُ القصيرة، من مثل: a ، و the ، و on ، و to . فمثلا: سُئل أحدهم إن كان يغادر المستشفى إلى بيته، في إجازات نهاية الأسبوع، فأجاب قائلا: " Why, yes ... Thursday , er, er, er, no, er, Friday...

Barbara wife...and, oh, car... drive...".

ويوظف الدارسون مصطلح agrammatism (فقدان الصحة النحوية) للإشارة إلى حالة هذا المريض، وأمثاله؛ إذ يبدو كلامه خِلْوًا من القواعد، وإن كان يستطيع - في كثير من الحالات- أن يفهم كلام الآخرين، وأن يَرُدّ ردودًا مناسبة.

وفى المقابل، نجد طائفة أخرى تعانى من نوع آخر من الحبسات، يسمَّى بـ"حُبْسة الطلاقة" fluent aphasia . وحَسَبَ ما تشي به تسميةُ هذه الحبسة، يتميز كلام المرضى بها بالطلاقة، بيد أنها طلاقة تُعْوِزها الإفادةُ في معظم الحالات. كما أنهم يتفوهون أحيانًا بكلمات غريبة مخترعة من لَدُنْهم. وكذا يكابدون مشقّة بالغة في فهم ما يقال لهم. فمثلا: سئل أحدهم عن السبب الذي أفضى به إلى دخول المستشفى، فأجاب بكلام أشبه بالرطانة غير المفهومة، نصه:

> "I can't mention the tarripoi ... I impose a lot, while, on the other hand, you know what I mean, I have to run around, look it over, trbbin, and all that sort of stuff".

ولا تتمثل "اضطرابات الكلام" في هذين النوعين العامين السابقين فقط، ولكنهما ربما يكونان النوعين الأشيع من بين سائر أنواع هذه الاضطرابات، مع ملاحظة أن حُبْسة "فقدان الصحة

النحوية" أشيع من حُبْسة "الطلاقة". ويحاول اللسانيون من خلال دراسة هذه الاضطرابات، ومصادر أخرى غيرها، أن يستنبطوا الكيفيةَ التي ينظّم بها الناسُ اللغة في عقولهم. فمثلا: تشير "حبسة الطلاقة" إلى أن عمليتي إنتاج الكلام، وفهمه، ربما تكونان عمليتين منفصلتين إلى حَدّ كبير؛ من حيث إن إحداهما يمكن أن توجد دون الأخرى.

إن دراسة "الحُبْسة" **aphasia**- أو بالمصطلح الفني: **aphasiology** (**علم دراسة الحبسة**)- تمثل الحدَّ الفاصل بين العقل والمخ. ويحاول علماء "اللسانيات النفسية" أن يضعوا مخططًا تفصيليًا لما يحدث داخل العقل، غاضّين الطرف عن الكيفية التي تنظَّم بها اللغة، وتُعالَج، في المخ. وكما يستطيع شخص ما أن يدرس مساراتِ الحافلات الكبيرة في مدينة "لندن"، دون أن يعرف أيَّ شيء عن الطبيعة المادية للحافلات، فكذا يستطيع شخص آخر أن يحصّل زادًا معرفيًا وافرًا بشأن الكيفية التي تعمل بها اللغة، دون دراسة للخلايا العصبية التي تسمح لذلك العمل بالحدوث. وحين تقدمت المعرفةُ البشرية عن المخ، أخذ علم "اللسانيات النفسية" يُدمج تلك المعرفة- في علاقتها بالنشاط اللغوي- ضمن مسائله، مطلقًا عليها مصطلح **"اللسانيات العصبية" neurolinguistics**. وكانت المسألة الأهم التي ما بَرِحَتْ أطروحة للنقاش في هذا العلم، هي الإجابة عن هذا السؤال: هل يمكن الربط السببيُّ بين أنواع خاصة من اضطرابات اللغة، ووقوع تلف في مناطق بعينها من المخ؟

اللغة والمخ:

يكاد المخ البشريُّ يشبه في شكل بنيته ثمرة "الخوخ". فهو يتكوّن من طبقة خارجية كبيرة تسمَّى **cerebrum** (القشرة المخية)، تحيط بنواة داخلية تسمَّى **brainstem** (جِذْع المخ). وهذا الجذع هو المسئول عن استبقاء الإنسان حيًا. وتتميز الطبقة الخارجية للمخ بأنها جِدّ غزيرة التجعد والتثنّي، وأنها مصدر كلِّ الأنواع القصدية من التفكير والحركات. ويتحول لون هذه الطبقة بعد وفاة الإنسان إلى اللون الرمادي. وهذا ما يعكسه قولهم: **"Use your grey matter"** (استعمل قشرتك

المخية الرمادية)(١)، قاصدين: "فكِّر". وتنقسم هـذه الطبقـة إلى نـصفين: نـصف المـخ الأيسر الذي يتحكم في الجانب الأيمن من البدن، ونصف المخ الأيمن الـذي يـتحكم في الجانب الأيسر منه. وعلى ذلك، فحين يصيب إنسانًا ما جلطةٌ، ينجُم عنها حـدوثُ شلل في الجانب الأيمن منه، فإننا نعرف أن هذه الجلطة قد أثّـرتْ في النـصف الأيـسر من مخه.

ويبدو نصفا المخ هذان متشابهين في شكلهما العام. بيد أن حقيقة الأمر بخـلاف ذلك: فأحدهما – وهو النصف الأيسر غالبًا- يوصف بأنه نصف المخ الأكثـر فاعليـة وسيطرة **dominant**. وهو لم يستحقّ هذا الوصفَ لمجرد أنه هو النـصف المـتحكم في الجانب الأيمن من بدن الإنسان- والأكثرية الكاثرة من البشر هم مـن الأيـامن- بـل لأنه النصف الذي يتحكم في النشاط اللغوي لدى غالبية البشر كذلك. وبيـان ذلـك: أن نحوًا من تسعين في المئة من البشر، يولدون وأنصاف أمخـاخهم اليـسرى "مبرمجـة" لاستقبال اللغة. وأما أولئك الذين لا تتموضـع مراكـز اللغـة لـديهم في نـصف المـخ الأيسر، فيغلِب عليهم أن يكونوا من الأعـاسر. ولا يكـاد البـاحثون يختلفـون حـول ذلك. ولكن الخلاف يقع بينهم حين يحاولون تحديد مواقع مراكز اللغة، داخـل هـذا النصف الأيسر من المخ، تحديدًا دقيقـًا. وتارةً أخرى نجد أن التحديـد العـامَّ أوضـحُ من التحديد التفصيلي.

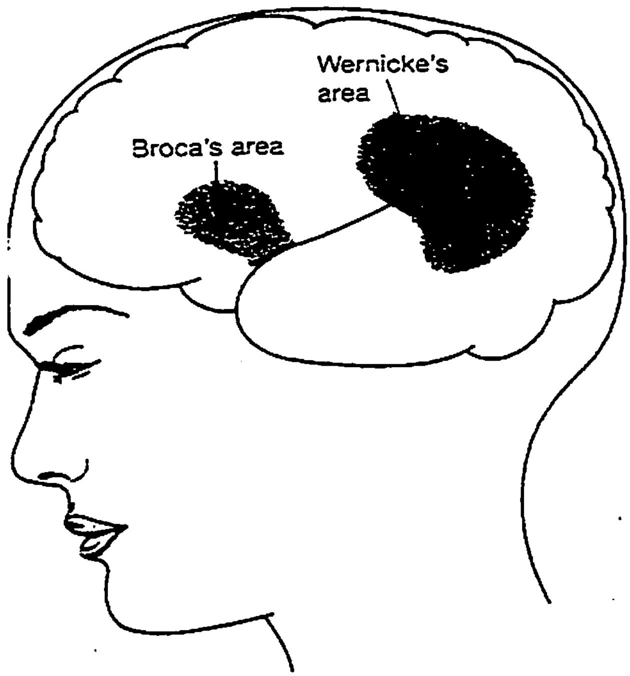
خلاصة:

يغلِب على الذين يعانون من مشكلات في إنتاج الكلام- مثل مرضى "حُبْسة فقـد الصحة النحوية"- أن يكون تلف المخ لديهم واقعًا صَوْبَ الجزء الأمامي منه. وأما الذين يعانون من مشكلات في الفهم، مثل مـرضى "حبـسة الطلاقـة"، فيغلِـب أن يكون تلف المخ- لديهم- واقعًا صَوْبَ الجزء الخلفي منه.

وقد بدأ هذا الخلاف بشأن موقع مراكز اللغة بالمخ في القرن التاسع عشر، حـين عيَّن الجراح الفرنسي "بول بروكـا" **Paul Broca** [١٨٢٤ - ١٨٨٠م] منطقـةً بعينهـا لمراكز اللغة، تقع أمام الأذن اليسرى، وفويقها. وذَكَرَ "بروكا" أن الفحص التـشريحي

(١) أو "شغِّل مخك"، كما نقول نحن المصريين. [المترجم].

لمخ اثنين من المرضى، كانا – إبّان حياتهما- يكابدان مشقة جِدّ بالغة في التكلم، قد أظهر وجود تلف في المنطقة العامة المعروفة بـ"منطقة بروكا" **Broca's area**. وحتى اليوم، تشير الإحصائيات إلى أن وقوع تلف في هذه المنطقة من المخ، ربما يفضى إلى حدوث مشكلات جِدّ حادة في عملية التكلم. بل إن الكلام الذي تُعْوِزه الصحة النحوية، ما زال يسمَّى أحيانًا بـ"حبسة بروكا" **Broca's aphasia** (الرسم التوضيحي رقم ١١-١).



(الرسم التوضيحي ١١-١)

وبعد عدة سنوات من ظهور ادّعاءات "بروكا" تلك، ذَكَرَ طبيب ألماني متخصص في الأمراض العصبية، اسمه "كارل فيرنيك" **Karl Wernick** [١٨٤٨-١٩٠٥م] أن عددًا متنوعًا من المرضى، ممن تُعْوِز كلامَهم الإفادةُ بالرغم من طلاقته، مصابون بتلف فاحش صَوْبَ مؤخرة المخ، في المنطقة الواقعة تحت الأذن اليسرى

محيطة بها. وقد غدت هذه المنطقة تُعرف باسم "منطقة فيرنيك" **Wernick area**. كما غدا المصابون بـ"حُبْسة الطلاقة" يوصفون أحيانًا بأنهم يعانون من "حبسة فيرنيك" **Wernick's aphasia** (الرسم التوضيحي ١١-١).

ولكن أجزاء المخ لا يمكن تعيينُ حدودها تعيينًا دقيقًا، كما هو متاح مع أعضاءٍ أخرى من بدن الإنسان، كالقلب، أو الكبد. ولذا فقد تبين- عبر السنين- أن ثمة مرضى يستطيعون التحدث بفصاحة تامة، على الرغم من إصابة كلٍّ منهم بتلف في "منطقة بروكا" تلك. كما وُجِدَ - في المقابل - أن ثمة أشخاصًا لا يطيقون التكلم، على الرغم من تمتع هذه المنطقة لديهم بالسلامة التامة. وقد احتج بعض علماء "اللسانيات العصبية" بمثل تلك الحالات للقول بأن مراكز اللغة تتفاوت في مواقعها تفاوتًا طفيفًا، من إنسان إلى آخر. في حين ذهب آخرون منهم إلى الزعم بأنه لا يمكن حصر المناطق المعنية بالترابطات **connections** الواقعة داخل المخ في مناطق بعينها.

وقد شرعت التقنياتُ الحديثة الخاصة بتصوير المخ، تستكمل معلوماتنا بشأن مواقع مراكز اللغة داخل المخ. فالإنسان أنّى تكلم، يتدفق الدم خلال مخه. ثم إن تيار الدم المتدفق هذا، يمكن رؤيته، وقياسه، عن طريق حقن سائل مُشِعّ في مجرى الدم. وقد تبين- من خلال ذلك- أن ثمة مناطقَ مختلفةً من المخ، تنشط لدى أداء الإنسان للمهام اللغوية المختلفة. كما تبين أن عملية اختيار الأفعال المناسبة هي عملية معقّدة، تتوزّعها مناطقُ مختلفة في المخ. وفضلا عن ذلك، تبين أن استعمال التصريف الاعتيادي للزمن الماضي، مثل **climbed** (من **climb**: يتسلق)، يصحبه تيارُ دم يختلف في صورته عن صورة نظيره المصاحب لاستعمال التصريفات الشاذة لذلك الزمن، مثل **caught** (من **catch**: يُمسك). وتمثّل هذه المسألة مجالا مهمًا للدرس في أيامنا هذه.

لقد نظر فصلُنا هذا - إذن - في الكيفية التي يكتسب بها الإنسانُ الكلام، وينتجه، ويفهمه. كما عالج على نحو مجتزئ مسألة تداخُل دراسة العلاقة بين اللغة والعقل، مع دراسة العلاقة بين اللغة والمخ. وتشير الدراسات الحديثة في كلا الموضوعين، إلى أن البحث المستقبلي قد يكشف عن درجة أكبر من الارتباط بين كلٍّ.

فلنتذكر:

- اللغة سلوك إنساني تتحكّم فيه عمليةُ النضج **maturation**. أي أن للغة وقتًا بعينه في مراحل نمو الإنسان تظهر فيه، شريطة أن تتوافر لها البيئةُ اللغوية المناسبة.
- ثمة اختلاف بين علماء اللسانيات بشأن المقدرة اللغوية: هل تشتمل أمخاخ الأطفال خِلْقيًا على معلومات لغوية، أم أن الأطفال ما هم إلا معالجون مَهَرة للبيانات اللغوية التي تتردد حولهم؟
- يبدو أن لدى الأطفال وعيًا فطريًا بأن للغة الإنسانية قواعدَ تحكمها، وأن هذه القواعد تتميز بالاطّراد.
- يستغرق اكتسابُ الطفل للقواعد الجديدة، وترسُّخها في الاستعمال اللغوي لديهم، وقتًا يسبقه تأرجحٌ للقواعد الجديدة، ونظائرها القديمة، على ألسنتهم.
- يختلف الأطفال فيما بينهم اختلافًا كبيرًا، في الطريقة التي يكتسبون بها اللغة.
- حين يتعلّم الأطفالُ معاني الكلمات، فإنهم يقعون في نوعين من الإفراط: الإفراط في التعميم، والإفراط في التخصيص، وإن كان وقوعهم في الأول أكثر.
- يدرك عمومُ الناس معنى الكلام الذي يسمعونه، بالتقاط ملخَّص جزئي لبعضه، ثم تخمين معنى الباقي.
- يستطيع الدارسون أن يَعُوا الكثير بشأن (عملية) إنتاج الكلام، عبر دراسة ما يسمَّى بـ"زلّات اللسان".
- تُعَدّ حُبْسة "فقدان الصحة النحوية" أشهر أنواع "الحُبْسة" . وهي تقابل حُبْسة أخرى أقلَّ منها ذيوعًا، تُعرف بـ"حُبْسة الطلاقة".
- يكثُر أن يكابد المصابون في الجزء الأمامي من المخ صعوبةً في إنتاج الكلام، وأن يجد المصابون في الجزء الخلفي منه صعوبةً في فهم ما يقال لهم.

١٢

اللغة والأسلوب

يُعنَى هذا الفصلُ بدراسة "اللغة الأدبية"، ومناقشة مواضع التقاطع بينها وبين نظيرتها "العادية"، من ناحية، ومواضع الاختلاف بينهما، من ناحية أخرى. وكذا يُعنى بدراسة كلٍّ من: لغة الإعلان، ولغة الصحافة.

كان مما جرى به قلم "جون كيتس"[1] John Keats – أحد شعراء القرن التاسع عشر: "Philosophy will clip an angels wings" (الفلسفة سوف تَقُصّ أجنحة الملائكة)[2]. وكذا ألفينا كثيرًا من الباحثين ينفر من تحليل الأدب؛ خوفًا من أن يفضي ذلك إلى تدمير ما فيه من سحر وفتنة.

ولكن لغة الأدب ليست خليطًا عشوائيًا شاذًا من العقاقير – أو الوصفات السحرية – بل إنها تتداخل بقوة مع مستويات أخرى متنوعة من مستويات لغة الحياة اليومية. وقد كان يُظَنّ في زمن مضى، أن على "الأدب" أن يكْسِر قواعد "اللغة". وأما الآن، فقد ذَوَى الاعتقادُ بإمكانية تحديد القواعد "الحقيقية" للغة تحديدًا صارمًا، وتمييزها – من ثَمّ – عن قواعدها "المكسورة". فاللغة ظاهرة مرنة، وغائمة الحدود.

وفضلا عن ذلك، فقد أعيد النظر في معيار الحكم على ما يُعَدّ "أدبًا" مما لا يُعَدّ كذلك من الكتابات. فالأدب: "كتابة عالية القيمة" ، وغير الأدب: "كتابة منخفضة القيمة" . وذلك كما أن الأزهار نباتات محبوبة، وأن الأعشاب الضارة نباتات مرغوب عنها. والأحكام تتنوع بتنوع القضاة. بمعنى أن "القِيَم" تتغير من جيل إلى جيل: فما

---

(١) "جون كيتس" (١٧٩٥ – ١٨٢١م) شاعر بريطاني رومانسي. من أعماله الذائعة: ملحمة "هيبريون" "Hyperion". [المترجم].

(٢) أي أن من شأن التناول الفلسفي المنطقي للأدب أن يتحيَّف جانب الخيال والإمتاع فيه. [المترجم].

كان يقدَّر في أحد القرون، قد يُستَهجن في قرن تالٍ له. وفى كل الأزمان، يختلط الأدب "الجيِّد" بالأدب "الرديء"، دون حَدٍّ حاسم يفصل بينهما.

الأسلـوب وعلـم الأسلـوب:

يُطلَق على التحليل اللغويّ لـلأدب مـصطلح "علـم الأسـلوب" stylistics. ولكن هذا المصطلح ينطوي على قدر من التضليل: فقـد استُعملت كلمـة "styles" ذات يوم للدلالة على التنوعـات المختلفـة للغـة، مثـل: لغـة الـدين، ولغـة الوثـائق القانونية. ولكن هـذه التنوعـات يُطلَـق عليهـا حاليًـا مـصطلح register (الـسجِلّ اللغـويّ) (ينظـر: الفـصل العـاشر). وفى الوقـت نفسه، نجـد أن الكلمتـين style وstylistics قد اكتسبتا دلالةً متخصصة ضيقة، هي تطبيـق معطيـات "اللـسانيات" على "الأدب"

خلاصة: يُستعمل مصطلح "علم الأسلوب" للإشارة إلى التحليل اللغويّ للغة الأدبية.

ويكثر في اللغة الأدبية أن "تنحرف" deviate عن لغة الحياة اليومية. وبـالرغم من ذلك، فهي – في حَدّ ذاتها – ليست لغة "منحرفـة"، عـلى أى وجـه مـن الوجـوه. وحقيقة الأمر في هذه اللغة الأدبيـة أن ثمـة سـماتٍ بعينهـا يجـرى التركيـز عليهـا، أو وَضْعها في صدارة اللوحة الأدبية وبؤرة اهتمامها foregrounded، عبر إكسـاب هـذه الـسمات قـدرًا مـن الغرابـة اللافتـة للنظـر، في الغالـب. ويوظّـف مـصطلح foregrounding (التقديم إلى صدر الـصورة) للتعبـير عـن خصيـصتين متـشابكتين تسمان اللغة الأدبية في عمومها. فأما الـسمة الأولى، فتتمثّـل في إيثـار المبـدع استعمال عبارات وصور أدبية، تخالف توقعاتِ المتلقي، وَفْقًا لما اعتـاده في لغـة الحيـاة اليوميـة. وأما الخصيصة الثانية، فتتمثّل في إبـراز سـمات فنيـة بعينهـا، أو جَعْلهـا في الـصدارة، بحيث تأخذ بعيني المتلقي أخذًا داخل النص؛ لتحقيق تأثير معين. وكما هو واضح من الدلالة الأصلية لمصطلح foregrounding ، فإن بعض المتخصصين يعمـد إلى تـشبيه اللغة الأدبية بالفنون البصرية – أو المرئية – من حيث ميلُ الفنان في كثير من الحـالات

إلى التركيز على جوانبَ بعينها، دون غيرهـا، في الـصورة المرسـومة؛ لتوصـيل رسـالة بعينها إلى الناظرين.

خلاصة:

يجري في اللغة الأدبية التركيزُ على سمات فنية بعينها، بمعنى أن هـذه الـسمات تُـبرَزُ للمتلقي إبرازًا؛ بُغية إحداث تأثير خاص.

إن قصيدة بشأن الريح، يترجَّح أن تكون مختلفةً عن "حوار" بشأن حالة الجـوّ، مثلا. ولكن الشعر لا يجـب أن يُغـرِق في الغرابـة، وإلا اتَّخـذه القـراءُ، والمـستمعون، مهجورًا. ومهما يكن من أمر، فإن ما يمكـن أن يلحقـه التنـوعُ مـن مكونـات اللغـة، لا يمثل إلا قدرًا محدودًا ومتوقَّعًا من هذه المكونات. وتعالوا نبسُط القول في ذلك.

نفس النجوم الساطعة الصبورة:

كان مما جرى به قلـم الـشاعر الإنجليـزي "كيـتس" Keats في قـصيدته المعنونـة بــ "هَيْبريون" Hyperion: قولـه: "And still they were the same bright, patient stars' (وما زالت هي نفس النجوم الساطعة الصبورة). وفي اللغة الأدبية، نجـد أن الـسمات الصوتية، والبنية الـصرفية، وغالـب البنيـة التركيبيـة، هـي نفـس النجـوم الـساطعة الصبورة.

ودونـــك – مثالا على السمات الصوتية: قول السيد "ميلـر" Mr Miller، في روايـــة "أوراق بيكويـــك" Pickwick Papers، لـ"تـشارلز ديكنـــز"[1] Charles Dickens: 'Be wery carefull O ' vidder (widows) all your life'[2]. (اعتنِ بالأرامل ما حييت). فقد نوّه المؤلف باللَّكْنة الـ"كُكْنيـة" cockney للمـتكلم، عن طريق استبدال صوت الـ v بضوت الـ w. وهكذا، فإن اللكنـات غـير الفـصيحة تُمثَّل عادةً عبر التغيير العرضي للهجاء المعتاد فحَسْب، كما هو الشأن هنا.

---

(١) "تشارلـــز ديكنــز" (١٨١٢ – ١٨٧٠م): روائـــي بريطاني معروف. من أعماله الذائعة: A Tale of Two Cities (قصة مدينتين). [المترجم].

(٢) "O" هي اختصار لـ "of". ينظر: Oxford Advanced Learner's Dictionary. [المترجم].

وفيما يتصل بالبنية الصرفية، فإن المورفيمات التصريفية inflectional morphemes - وهي أجزاء الكلمات ذات المعنى التام التي تغير علاقة الكلمة بباقي مكونات الجملة (ينظر: الفصل السادس) - لا تتغير إلا نادرًا، إذا استثنينا الشعر الفكاهيَّ. ومن أمثلة ذلك التغير في هذا الشعر: قول "أوجدن ناش"[1] Ogden Nash:

Tell me o octopus, I begs[2]

(أخبرني يا أُخْطُبوط، إليك أتوسل)

Is those things arms, or is they legs?

(هل هذه الأشياء أذرع، أم أنها أرجل؟)

وأما الانحراف التركيبي، فربما تكون أمثلته أكثر من أمثلة نظيره الصرفي، وإن كان الغالب على هذا الأول أن يكون انحرافًا ثانويًا غير ذي بال. ومن أمثلته: قول "أ. إ. هوسمان[3]" A. E. Housman:

About the woodlands[4] I will go

(سأمشي هنا وهناك، في الغابات)

To see cherry hung with snow

(لأبصر "الكَرْزَ" معانقًا حبّات البَرَد)

وقول "بيرسي بيش شللي"[5] Percy Bysshe Shelley:

---

(١) "أوجدن ناش" (١٩٠٢ - ١٩٧١م): شاعر أمريكي، تميز بشعره الفكاهي والهجائي. [المترجم].

(٢) يتمثل محل الشاهد، كما هو واضح، في استعمال اللاحقة (s) مع الفعل المضارع beg (أتوسل)، على الرغم من أنه مسند إلى ضمير المتكلم المفرد، لا إلى ضمير الغائب المفرد، على ما تقضي به (قاعدة) استعمال هذه اللاحقة مع الفعل المضارع. [المترجم].

(٣) "ألفرد إدوارد هاوسمان" Alfred Edward Housman (١٨٥٩ - ١٩٣٦م): شاعر وعالم بريطاني معروف. [المترجم].

(٤) سيأتي بيان الترتيب (الصحيح) أو المعتاد لمكونات هذا التركيب -وكذا في المثالين الآتيين- بعد قليل. [المترجم].

(٥) "بيرسي بيش شللي" (١٧٩٢ - ١٨٢٢م) شاعر بريطاني رومانسي معروف. من أعماله الذائعة: المسرحية الغنائية Prometheus Unbound (بروميثيوس طليقًا). [المترجم].

And Like a dying lady, lean and pale,

(ومثل امرأةٍ مهزولة شاحبة تُودّع الحياة)

Who tootters forth, wrapped in a gauzy veil,

(تترنح قُدُمًا، ملتفةً في خِمار شَفِيف)

وقول "جون كيتس":

I see a lily on thy brow,

(أرى سَوْسَنةً على جبينك)

With anguish moist and fever dew,

(مُخَضَلَّةً بالألم المبرِّح وعَرَقِ الحُمَّى السَّخين)

ففي الأمثلة السابقة، نلاحظ أن ما فيها من تنوع تركيبيّ هو تنوع ثانويّ: فالعبارات- وكذا الكلمات - المكتوبة بخط سميك، قد جاءت في مواقع تركيبية تختلف اختلافًا هينًا، عن نظائرها في الكلام المعتاد. وهاكم تفصيل ذلك:

'I will go about the woodlands'.

'Like a lean and pale dying lady'.

'moist with anguish and fever dew'.

وأما الانحرافات التركيبية الحادة، فإن أمثلتها جِدُّ محدودة. وعند وقوعها، فإنها تعطّل الفهم تعطيلا بالغًا.

خلاصة:

لا تتعرض البنيةُ الصوتية، أو الصرفية، أو التركيبية، إلى تغييرات مهمة في اللغة الشعرية. وإن حدث ذلك، تأثر الفهمُ تأثرًا جِدًّ بالغ.

التعامل مع الكلمات:

تمثّل الكلماتُ خيوط الصوف التي يُنسَج منها "الأدب". ويغلِب على الكلمات الواردة في الكتابات الأدبية، أن تكون من الكلمات الجارية في الاستعمال اللغويّ، منظومةً على نحو جديد. وأما الكلمات التامة الجِدّة، فيندُر وجودها نسبيًا في الكتابات الجادة.

خلاصة:

النظم الجديد للكلمات الموجودة بالفعل هو الخصيصة اللغوية الأساسية للغة الأدبية.

وثمة مجموعة من الكلمات القديمة، يُنظَر إليها أحيانًا على أنها كلمات شعرية. وذلك مثل: **quoth** (قال)، و **fain** (بسرور)، و **behold** (يشاهد). وكذا الشأن في بعض الاختصارات المتفق عليها، من مثل: **o'er**، و**'twas**، و**ne'er**(1). ولكنني ألفت – بعد- إلى أن هذه الكلمات والاختصارات لم تَشِعْ قطّ في الاستعمال اللغويّ. وقد غدا استعمال أكثرها الآن مستغربًا، حتى في الكتابات الأدبية.

إن الكتّاب هم أشبه ما يكونون بحائكي الثياب؛ من حيث إنهم يحاولون ابتكار "نماذج تفصيل" جديدة. وهم يتنكّبون التعبيرات المعروفة المكرورة، من مثل: **black despair** (اليأس الأسود)، أو **green fingers** (الماهر في الزراعة)(2)، أو **purple patch** (فقرة مكتوبة بأسلوب جِدّ منمّق)(3). ويحاولون ابتكار تعبيرات جديدة أصيلة، من مثل قول "شكسبير" [١٥٦٤- ١٦١٦م]: **'And then the lover, / Sighing like a furnace'.** (ثم إن المُحِبّ/ متنهدًا كتنّور كبير).

ووَصْف "ديلان توماس"(4) **Dylan Thomas** لسنوات طفولته بقوله: **'Birds the color of red-flannel petticoats whisked past the harp-shaped hills'** (الطيور –التي يشبه لونها لون التنّورات التحتية الحمراء النسيج- بَرَقَتْ عابرةً التلالَ القيثارية الشكل).

---

(١) o'er هي اختصار لـ over، و'twas اختصار لـ it was، وne'er اختصار لـ never، كما جاء في Macmillan English Dictionary . [المترجم].

(٢) والمعنى الحرفي لها هو: الأصابع الخضراء. [المترجم].

(٣) والمعنى الحرفي لها هو: رقعة (في ثوب) أرجوانية اللون. [المترجم].

(٤) "ديلان توماس" (١٩١٤- ١٩٥٣م): شاعر معروف من "ويلز". تُعَدّ قصائده الغنائية من أجمل ما قيل من شعر رومانسي في القرن العشرين. [المترجم].

وقـول الـشاعر "فيليـب لاركـين"[1] Philip Larkin - في شـــأن طائـــر "الـشُّمنة"[2] وغنائـه:'Its fresh-peeled voice Astonishing the brickwork' (وصوته المَجْلُوّ النَّدِيّ/ يُدهش الجدران الطُّوبية).

إن الأمثلة السابقة تشتمل على ما يُطلَق عليه مـصطلح trope (المجـاز). وهـو مصطلح تخصصي قديم، ينتمي إلى "البلاغة" rhetoric، ويدلّ على فنونها التي تنـتظم المعنى، من تشبيه، واستعارة، وغيرهما. وترتبط هذه الفنون البلاغيـة ارتباطًـا تقليـديًا بالمعاني الشعرية. فتعالوا ننظُر في أهم تلك الفنون.

لـيّ الكلمـات:

ترجـع كلمـة trope (مجـاز) إلى كلمـة يونانيـة بمعنـى: الـليّ، أو التحويـل. وربما يكون "التـشبيه" simile أوضـح أنـواع المجـاز، وأقربهـا إلى الـذهن. وينـتظم "التشبيه" مقارنـةً صريحـة واضـحة بـين شـيئين متغـايرين، كـما في قـول "فرنـسيس بيكون"[3] Francis Bacon: 'fame is like a river' (الشهرة مثل النهر). وربما تكون "الاستعارة" metaphor أشـهر فنـون "المجـاز". وقـد عرَّفهـا -يومًـا- الفيلـسوف اليوناني "أرسطو"[٣٨٤ق. م- ٣٢٢ق. م] بأنها "استعمال لفظ متصل بـشيء بعينـه، في التعبـير عـن شيء آخـر". ومـن ذلـك: قـول الـشاعر "أوسـتن دوبـسون[4]" Austin Dobson: 'Fame is a food' (الشهرة غذاء). (أي أن الـشهرة هـي الغـذاء الذي يقتاته الإنسان الميت). هذا، في حين أن من الواضح أن الشهرة ليست شـيئًا ممـا يمكن أن يلتهم على الحقيقة.

---

(١) "فيليب لاركن" (١٩٢٢- ١٩٨٥م): شاعر وروائي بريطاني معروف. اشتهر - كـذلك - بتخصصه في نقــد موسيقــى الـ"جاز" Jazz. [المترجم].

(٢) الشُّمنة thrush : نوع من الطيور المغردة. تتميز - فيما تتميز - بلونها البني، وبوجود بقـع لونيـة مخالفـة في مقدمها. [المترجم].

(٣) "فرنسيس بيكون" (١٥٦١- ١٦٢٦م): فيلسوف ورجل دولة بريطاني. يُعَدّ مؤسـس مـنهج الاسـتقراء العلمي scientific induction. [المترجم].

(٤) "هنري أوستن دوبسون" (١٨٤٠- ١٩٢١م): شاعر بريطاني. لـه كتابـات في النقـد، والـسيرة الذاتيـة كذلك. [المترجم].

ويُنظَر – أحيانًا – إلى "الاستعارة" على أنها ذاتُ طبيعة شعرية، في المقام الأول. ويصدّق ذلك فعلا احتشادُ الشعر بالاستعارات. ولكنّ هذا الارتباط بين "الشعر" و"الاستعارة" ليس ضَرْبة لازب؛ فلغة الحياة اليومية تحتشد كذلك بالاستعارات. ويشهد واقع الحال – فعلا – بأن "الاستعارة" تمثّل جزءًا لا مَعْدَى عنه من كلامنا اليومي. وذلك من مثل:

Pauline's a gold – digger.

("بولين" صائدة الأغنياء)(١)

Felix tried to get his ideas across.

(حاول "فيليكس" أن يُنْفِذَ أفكاره [في العقول])(٢)

Marigold shot down his arguments.

("ماري جولد" أسقطتْ حُجَجَه)(٣)

That marriage is dead.

(ذلك الزواج ميت)

Students shouldn't be spoon – fed.

(يجب علينا ألا ندلل الطلاب)(٤)

Henry is fighting a grim battle with illness.

("هنري" يخوض حربًا ضروسًا مع المرض)

وغير تلك الأمثلة أمثلة أخرى جِدُّ كثيرة. إننا لا يمكن أن نستغني عن "الاستعارات" في كلامنا، وخاصة الكلام المتعلق بمجالات قليلة الإثارة، كأخبار المال والاقتصاد. ومن أمثلة ذلك:

---

(١) والمعنى الحرفي لها: "بولين" ممن ينقّبون عن الذهب. [المترجم].
(٢) فهذا عبور معنوي، مأخوذ من العبور الحسي من حيّز إلى آخر. [المترجم].
(٣) وكأن تلك الحجج طائرة – أو نحوها – أصابتها قذائف "ماري جولد"؛ فأسقطتها. [المترجم].
(٤) وكأن المعنى الحرفي: يجب علينا ألا نلقّم الطلابَ المعارف بالملاعق، بل يجب أن يدرَّبوا على إعمال الفكر، واكتساب المعارف بأنفسهم. [المترجم].

- **The dollar tumbled to a new low.**

([سعر] الدولار هَوَى إلى انخفاض جديد)

- **Will our bubble economy go pop?**

(هل اقتصادنا المتفخ كالفقّاعة في سبيله للفرقعة ؟)

ولكننا نلاحظ – في المقابل – أن كثيرًا من الاستعارات الجارية في كلامنا اليومي، تُعْوِزها الجِدّة والحيوية، وأنها قد تحولتْ إلى تعبيرات مكرورة مبتذلة (كليشيهات clichés)[1]؛ حتى لقد سُميت بـ "الاستعارات الميتة" 'dead metaphors'. وأما الاستعارات الشعرية، فتتميز إجمالا بالجِدّة والابتكارية، وتستثير – على نحو أكثر من نظيراتها الجارية في كلام الناس – مشاهدَ كاملةً جديدة. وذلك على نحو ما نجد في السطر الشعري الذائع الآتي – وهو من نظم "شكسبير" –:

Sleep, which knits up the ravelled sleeve of care.

(النوم الذي يرتُق رُدْنَ الهموم المنسول)

فـ"النوم" – هاهنا – لا يرتبط بكلمة واحدة بعينها، بل ثمة رَصْد خيالي لمشهد نُسجت كلُّ تفاصيله. فـ"الكيف"، لا "الكَمّ" – إذن – هو ما يميز المجازات الشعرية، عن نظيراتها الجارية في الحياة اليومية.

خلاصة: تتميز الاستعاراتُ الجيدة بالجمع بين "الجِدّة"، و"مناسبة مقتضى الحال". إنها تدهش القارئ، ولكنها تنأى عن الإفراط في الإغراب.

نَظْـم الكـلام

The moan of doves in immemorial elms,

(نَوْح الحمام على شجر "الدردار"[2] العتيق)

---

(١) في "معجم مصطلحات الأدب" (ص٧٢): "cliché (العبارة المبتذلة): عبارة أكل عليها الدهرُ وشرب، حتى فقدتْ ما كان يكمن فيها من حيوية، وأصالة، ومعنًى طريف". [المترجم].

(٢) الدردار: شجر ضخم، ذو أوراق مستديرة، تتساقط في فصل الشتاء. [المترجم].

And murmuring of innumerable bees.

(وطَنِين النحل الذي لا يبلُغه العَدُّ)

Lord Alfred Tennyson.

(اللورد ألفريد تينيسون)(1)

يشيع في كتابات الدارسين التمثُّل بالسطرين الشعريين السابقين على نوع "الكتابة الشعرية". وفى هذين السطرين محاولةٌ لمحاكاة صوت "هديل" الحمام، و "طنين" النحل. وهذا ما يطلق عليه في الدرس اللساني مصطلح **onomatopoeia** (المحاكاة الصوتية). ويُعزَى إلى "التكرار" **repetition** - في المقام الأول - السبب في ذلك التأثير المُهْدِهِد لطنين النحل هذا. وفى حالتنا هذه تحديدًا: تكرار صوتي الـ **m**، والـ **r** .

إن "التكرار" يمثل "الغِراء" الذي يساعد في أن يصبح العمل الأدبي قوامًا متماسك الأجزاء، أو مترابطًا ترابطًا منطقيًا **cohere**. وإذا كانت أحاديثنا اليومية تحتشد بـ"التكرار" احتشادًا ربما يبلغ حد الإملال - من مثل: "كرة القدم، كرة القدم، كل الناس تداوم الحديث عن كرة القدم" - فإن ما يميز "التكرار" في الأعمال الأدبية، عن نظيره في تلك الأحاديث اليومية، هو أنه "تكرار" منهجيّ، منظَّم، هادف.

وتمثّل "القافية" **rhyme**، و"الوزن" **metre** - بعد - ضربين آخرين من ضروب "التكرار"، يرتبطان ارتباطًا أساسيًا بالشعر. فالالتزام بـ"التقفية" يقضي بـ"تكرار" نهايات الكلمات. وذلك مثل قول "بيرسي بيش شللي":

That orbed maiden with white fire laden,

(تلك العذراء اللَّفّاء ذات الوَهَج الأبيض)

Whom mortals call the moon,

(تلك التي يدعوها البشر الفانون بالقمر)

---

(1) "ألفريد تينيسون" (1809 - 1892م): شاعر بريطاني معروف. يوصف بأنه أكثر الشعراء تأثيرًا في العصر الفيكتوري. [المترجم].

Glides glimmering o'er my fleece- like floor,

(تتزلّج وامضةً فوق جِرْمي الصوفي الناعم)

By the midnight breezes strewn.

(ذاك الذي مزَّقتْه نسماتُ منتصف الليل)

وأما الوزن الشعري **metre**، فربما تبدو عليه – للوهلة الأولى – مَسْحَةُ التكلف؛ من حيث اقتضاؤه تَكْرَار ضروب من التفعيلات[1] **foots** (التفعيلة: وحدة إيقاعية **unit of rhythm**). ولكننا نلفت إلى أن الشعر لا يستعمل "طرقات إيقاعية"[2] **beats** مخترعةً شاذة، بل إن بنيته الإيقاعية مؤسَّسةٌ في الأصل على اللغة المنطوقة. وبيان ذلك: أن شطرًا غير قليل من النتاج الشعري يُنظَم على الإيقاع **dum- di dum –di**

(Monday , Tuseday...' 'bread'n butter)

وهو الإيقاع الشائع الوجود في الكلام اليومي، كما في قول: "وليام بليك"[3] **:William Blake**

Tyger! Tyger! Burning bright

(أيها النَّمِر! أيها النَّمِر! المتَّقِدُ بالضياء)

In the forests of the night...

(في غابات الليل...)[4]

---

(١) في "معجم مصطلحات الأدب" (ص١٧٧): "[تتألف التفعيلة] في العروض اليوناني واللاتيني ... من مقاطع قصيرة وأخرى طويلة... وقد حاول الشعراء الإنجليز أن يخضعوا شعرهم للنظام اليوناني اللاتيني في حالات كثيرة، ولكن محاولاتهم لم تحظ بالنجاح المطلوب؛ لافتقار اللغة الإنجليزية في موسيقاها الإيقاعية إلى نظام المقاطع الطويلة والقصيرة، واعتمادها بدلا من ذلك على (النبر)". [المترجم].

(٢) هذه هي ترجمة د. مجدي وهبة للمصطلح beat في "معجم مصطلحات الأدب". وفيه (ص٤٢) أن الطرق الإيقاعي: "حركة الأيدي أو العصي مُظهِرةً الإيقاع في الموسيقى، وخاصة بإبراز النبر فيها. وقد طُبقت على الشعر بقصد إظهار المقاطع المنبورة في البيت". [المترجم].

(٣) "ويليام بليك" (١٧٥٧ – ١٨٢٧م) شاعر بريطاني معروف. من أشهر أعماله: Songs of Innocence (أغنيات البراءة) (١٧٨٩م)، و Songs of Experience (أغنيات الخبرة) (١٧٩٤م). [المترجم].

(٤) هذه هي ترجمة حاتم الجوهري الواردة (ص١٢٩) ضمن ترجمته لديواني الشاعر المذكور: "أغاني البراءة"، و"أغاني الخبرة". وقد طبعت هذه الترجمة تحت عنوان "أغنيات البراءة والتجربة". وتكملة هذا الجزء من قصيدتنا هذه المعنونة بـ"النمر" هي: =

وإن كنا نلاحظ – في ا لمقابل – أن ثمة أوزانًا شعرية أخرى متنوعة، شـديدة التعقيـد، يُنظَم عليها الشعر أحيانًا.

ويتمثّل أهمُّ أوجه الاختلاف بين كلٍّ من الأوزان الشعرية، و إيقاعـات اللغـة المنطوقة، في أن الأوزان الشعرية أكثر تكرارًا، وأكثر انتظامًـا واطّـرادًا. وبـالرغم مـن ذلك، فإن مـــن شـــأن حصول "كَسْر" مفـاجئ مقـصود في الـوزن الـشعرى، أن يحدث تأثيرًا خاصًا. وذلك كمـــا يحـدث حين يندفع أحد القـوارب فـوق الأمـواج (dum- di dum- di dum – di)، ثم يرتطم بها فجـأة (dum, dum, dum). ودونـك مثالا من نظم "جون ما سفيلد"[1] John Masefield، فتأمله:

Dirty British coaster with a salt –caked smoke stack

(سفينة ساحلية متّسخة ذات مِدْخَنة تَكَلَّس عليها الملح)

Butting through the channel in the mad march days...

(تمخُر عُبابَ القناة في أيام "مارس" المجنونة...)

كـرِّر القـولَ متلطفـًا:

يقول "هنري و. لونجفلو"[2] Henry W. Longfellow:

By the shores of Gitche Gume

(بجوار شواطئ بحيرة "جيتش جُومي")[3]

= أية يد أو عين خالدة
يمكن أن تحيط بتناغمك المخيف؟

(١) "جون ماسفيلد" (١٨٧٨ – ١٩٦٧م): شاعر بريطاني معروف. كان شاعر البلاط الملكي بدءًا من العـام (١٩٣٠م) حتى وفاته. مـن قـصائده المشهورة: The Everlasting Mercy (الرحمـــة الأبـديـــة) (١٩١١م). [المترجم].

(٢) "هنـري وادسـورث لونجفلـو" Henry Wadsworth Longfellow (١٨٠٧ – ١٨٨٢م): شـاعر وعـالم أمريكي. تميز – دون سائر معاصريه من الشعراء الأمريكيين – بقدرته الفذة على كتابة الأسـاطير، وخلـق شخصيات غدت من التراث الأمريكي المعتبر. [المترجم].

(٣) "جيتش جومي" Gitche Gume هو الاسم الذي أطلقته قبائل الـ "أوجيبـوي" Ojibwe –مـن الـسكان الأصليين لأمريكا الشمالية – على كبرى البحيرات العظمى الخمس (Lake Superior). ومعنـى الكلمـة بلغة تلك القبائل هو: الماء العظيم. وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى في السطر الشعري الثاني. ينظر http: //en.wikipedia.org/wiki/Lake_Superior [المترجم].

By the shining Big- Sea- Water,

(بجوار ذلك الماء اللُّجّيِّ الساطع)

Stood the wigwan of Nokomis,

(ينتصبُ الكُوخُ البيضويُّ لـ"نوكوميس")(١)

Daughter of the Moon, Nokomis...

ابنةِ القمر، "نوكوميس"...

إن السطور الشعرية السابقة المأخوذة من قصيدة"هايواذا" **'Hiawatha'**، تشتمل على تكْرار صريح. ولكننا نجد – في المقابل – أن شطرًا كبيرًا من النتاج الأدبي، تترابط أوصاله عبر وسائل تكْرار أخرى أقلّ صراحة. ففي القصيدة السابقة نفسها:

Dark behind it rose forest

(سامقةً انتصبت الغابةُ خلفها الظلام)

Rose the black and gloomy pine-trees,

(سامقةً انتصبت أشجارُ الصَّنَوْبرِ العابسة السوداء)

Rose the firs with cones upon them...

(سامقةً انتصبت أشجارُ التَّنُّوب(٢) تُجلّلها كيزانُها المخروطية...)

إن كُلا من "التَّنُّوب" **fir**، و"الصَّنَوْبر" **pine**، يمثل نوعًا بعينه من الأشجار. ثم إن اجتماع شجرة إلى أخرى يكوّن "غابة" . ويفترض الشاعر أن القراء يعرفون كلَّ ذلك.

---

(١) "نوكوميس" Nokomis هو اسم جَدّة "هايواذا" Hiawatha- وهو إحدى الشخصيات المهمة في قصيدة "لونجفيلو" الملحمية هذه- ومعنى الاسم بلغة قبائل الـ"أوجيبوي"، هو "ابنة القمر". وقد أشار الشاعر إلى ذلك في السطر الشعري الرابع. ينظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Nokomis ([المترجم].

(٢) أشجار التنُّوب: أشجار طويلة، ذات أوراق رفيعة حادة، لاتسقط في فصل الشتاء... [المترجم].

ودونك – بعد– مثالا ثانيًا، مـن نظـم "رود يـارد كيبليـنج"[1] **Rudyard Kipling**، فتأمله معي:

They shut the road through the woods

(أغلَقوا الطريقَ الذي يخترق الغابات)

Seventy years ago.

(من سبعين عامًا خَلَتْ)

Weather and rain have undone it again,

(والجوّ والأمطار فتحاه ثانيةً)

And now you would never know

(والآن لن تعرف أبدًا)

There was once a path through the woods

(أنه كان ثمّة ممرٌّ يخترق الغابات)

Before they planted the trees.

(قبل أن يغرسوا الأشجار)

إن السطور الشعرية السابقة تبدو واضحةً مباشرة. كما أن اشتمالها عـلى كلـمات جِدِّ متواشجة – من مثل **road** (طريق) و **path** (ممر للسير داخل حيز مـن الأرض)، و**trees** (أشـجار)، و **woods** (غابـات)، و **rain** (مطـر)، و **weather** (الجـو)- قـد ساعد على ربط كلِّ سطر شعري بالآخر.

(١) "روديارد كيبليـنج" (١٨٦٥ – ١٩٣٦م): أديـب بريطـاني مـشهور. كتـب الـشعر، والروايـة، والقـصة القصيرة التي يعد واحدًا من أهم كتابها عبر العصور. حصل على جائزة "نوبـــل" في الأدب في العــام (١٩٠٧م). [المترجم].

وألفتُ – بعد – إلى أن "التكرار" – أو "شبه التكرار" – لا يسهم إلا إسهامًا جزئيًا في تماسك العمل الأدبي وإنجاحه. إن نجاح العمل الأدبي يعتمد – في المقام الأول – على وجود بنية هيكلية ضمنية ينهض عليها. وكذا الشأن في كثير من ضروب الكتابات الأخرى. وهذا ما سنلخّص القولَ فيه توًّا.

البحث عن بنية هيكلية: القصيدة والخبر الصحفي:

تُشبه كلماتُ اللغة اللحم الذي يكسو الهيكلَ العظمى. وعظام ذلك الهيكل تتفاوت من حيث درجة صلابتها. وكذا نجد أن بعض ضروب الشعر تتمتع ببنية هيكلية محكمة صارمة: فـ"السُّونيتة" **sonnet** تتألف من بنية ذات أربعة عشر سطرًا شعريًا. والـ"لِمريكية" **limrick** تتألف من بنية ذات خمسة سطور شعرية[1]. وذلك من مثل قول "إدوارد لير"[2] **Edward Lear**:

There was an Old Man of the coast,

(كان ثمة رجلٌ مُسِنٌّ من أهل السواحل)

Who placidly sat on a post,

(يجلس مسترخيًا على مِنَصّة سارية)

But when it was cold,

(ولكن حين صار الجو باردًا)

He relinquished his hold,

(تخلَّى عن موقعه الحصين)

And called for some hot buttered toast.

(وطلب بعضًا من الخبز المحمَّص الساخن المدهون بالزُّبْد)

---

(١) سبق التعريف بها في الفصل الخامس (القوالب الصوتية) (ص ١٠٤). [المترجم].

(٢) "إدوارد لير" (١٨١٢ – ١٨٨٨م): فنان وكاتب شعر للأطفال، بريطاني الجنسية. لقب بـ"شاعر البلاط الملكي للمريكية limerick". [المترجم].

وأما ضروب الكتابات الأخرى، فذاتُ أبنية هيكلية أقلّ وضوحًا وصرامة. ودونك – مثلا – كتابة التقارير الصحفية. إن ثمة شكوى متكررةً من "الأسلوب الصحفي" 'Journalese'. ولكنها في الحقيقة شكوى غير مسوَّغة: فمفردات هذه التقارير تتميز بالسهولة، وأسلوب كتابتها يتسم بالوضوح. وذلك لأنه يجرى نصحُ الصحفيين الجدد– ممن هم قيد التدريب– باتباع "قواعد" الكتابة الواضحة التي اقترحها الكاتب "جورج أورويل"[1] George Orwell. وهى تتضمن – فيما تتضمن:

- لا تستعمل ألْبتَّةَ كلمةً طويلة، إذا أمكن أن يقوم مقامها كلمةٌ قصيرة.
- إذا أمكن حذفُ كلمة، فاحذفها دائمًا.
- لا تستعمل ألْبتَّةَ الفعلَ المبنى للمجهول، إذا أمكن استعمال الفعل المبنى للمعلوم بدلا منه. وَهَلُمّ جَرًّا.

وأما ما هو معقّد حقًّا، فالبنية الهيكلية التي ينهض عليها سرد الوقائع المتصلة بالأحداث المختلفة: فالمعلومات الجديدة تأتى أولا، مكتوبةً في شكل ملخص يشتمل على إجابات للأسئلة: ماذا – أين – (متى) – مَنْ – كيف– (لماذا). وهذا يعنى أن يأتي ما يُعرَف بـ 'hard news' (الأخبار المتعلقة بالموضوعات والأحداث الرسمية ذات الشأن) في صياغة توجّه القارئ سريعًا إلى: ماذا حدث، وأين حدث، ومن المشارك في الحدث، وكيف حدث، ولماذا حدث. وأما المعلومات المتعلقة بزمان وقوع الحدث (= متى)، فتُغفَل عادة؛ إذ يُفترض في الأخبار أن تكون جديدةً وآنية. كما أن المعلومات المتعلقة بسبب وقوع الحدث (= لماذا)، لا تكون معروفة دائمًا؛ مما يسوّغ إغفالها – كذلك – من هذا الملخص.

ودونك – بعد – مثالا على هذا الملخص:

At least 26 people were killed and more than 200 injured when a huge car bomb ripped through the centre of Omagh, County Tyron, yesterday afternoon.

---

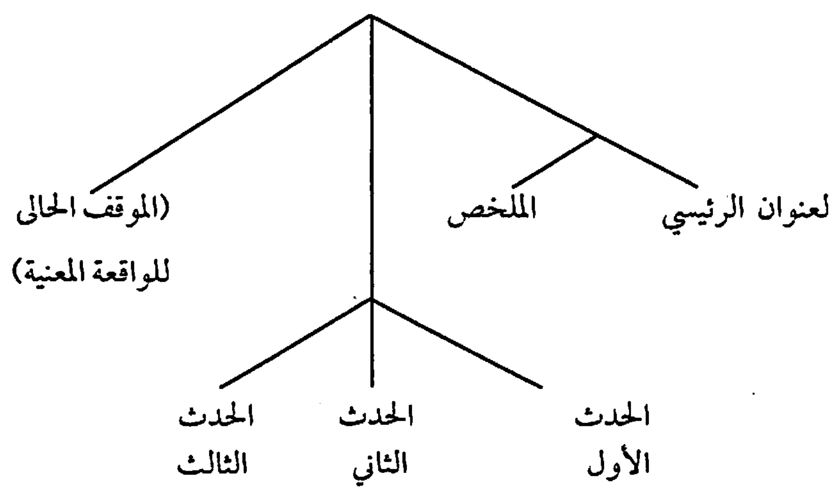
(١) "جورج أورويل" (١٩٠٣– ١٩٥٠م): روائي وكاتب مقال بريطاني الجنسية. يُعَدّ أحد أهم كتاب النثر في بريطانيا [المترجم].

(قُتل ستة وعشرون شخصًا على الأقل، وجُرح أكثر من مائتين، حين اندفعتْ سيارة كبيرة مفخخة، بسرعة جِدّ كبيرة، مخترقةً وَسَطَ مدينة "أوما"، بمقاطعة (تيرون)[1]، مساء أمس).

ففي هذا المثال، نجد أن قدرًا هائلا من المعلومات المهمة، قد جرى حَشْدُه حشدًا محكمًا في تلك الجملة الأولى، التي تقدم وصفًا موجزًا للحدث برمته. ولا يطيق كتابةَ مثلِ هذا التلخيص بغير عَنَت إلا المَهَرَةُ من الصحفيين. ومنه يؤخذ العنوان الرئيسي عادة.

وبعد الملخص، يأتي سرد أحداث الواقعة المعنية حدثًا حدثًا. ولا يلزم أن يكون سرد أحداث الواقعة مطابقًا لترتيب حصولها، بل يأتي أحدثُها أولا. ويتطلب تقديم هذه المعلومات تقديمًا واضحًا من جهة، وفى صورةٍ عصرية من جهة أخرى، مستوًى عاليًا من المهارة. ثم تأتى في النهاية الجملةُ الأخيرة ملخِّصةً الموقف الحالي للواقعة محلِّ الخبر. على أنه يلزم ألا تشتمل هذه الجملة الأخيرة ألبتَّةَ على معلومات مهمة حاسمة؛ لأنها قد تُحذف إذا ضاق عن استيعابها الحيِّزُ المخصَّص للخبر (الرسم التوضيحي ١٢-١).

سَرْد الخبر الخاص بإحدى الوقائع



(الرسم التوضيحي ١٢-١)

---

(١) بأيرلندا الشمالية. [المترجم].

خلاصة:

في أغلب الحالات، يبدأ الصحفيون سرد الوقائع بصياغة الأحداث والموضوعات الرسمية المهمة، صياغةً تجيب عن الأسئلة: ماذا – أين – (متى) – من – كيف – (لماذا).

لغة الإعلانات

Musk. The missing link between animal and man. Earthy, Primitive. Fiercely masculine. (Cosmetic advertisement).

(المِسْك. الحلْقة المفقودة بين الحيوان والإنسان. طبيعي، بدائي. ضاري الذكورة). (إعلان عن أحد مستحضرات التجميل).

Outspan. The great taste of grapefruit. Cool, refreshing, full of flavour. Wholesome, natural grapefruit- the colour of the sun. Puts the rest in the shade. (Fruit advertisement).

("أوتْ سبَان". المذاق الرائع للـ "جريب فروت". بارد، منعش، مليء بالنَّكْهة. "جريب فروت" صحي وطبيعي – بلون الشمس. لا وجه للمقارنة). (إعلان عن فاكهة).

يلزم كاتبي الإعلانات – مثلهم في ذلك مثل الصحفيين- أن يقدّموا رسائلهم باختصار، وعلى نحو يخطف الأبصار.

خلاصة:

ثمة ثلاث رسائل أساسية يستعين بها كاتبو الإعلانات؛ لإحداث التأثير المنشود: كتابة الإعلان بخط كبير، والاختصار، وعرض الإعلان على نحو يجذب الانتباه جذبًا.

إن الإعلانين المقتبسيْن آنفًا قد وردا في إحدى المجلات مكتوبيْن بخط أكبر من الخط المعتاد؛ مما يقلل جدًا من احتمالية عدم الالتفات إليهما، لدي تصفح المجلة تصفحًا سريعًا عابرًا. وذلك كما يبعُد ألا يلتفت أحدُنا إلى إعلان معلّق على إحدى حاملات الإعلانات الضخمة المثبتة على جانب الطريق؛ فيقرأه، ولا يغفله.

ويُلاحَظ في لغة الإعلان – كذلك – حذفُ الكلمات غير المؤثرة في "رسالة" الإعلان. وهذا ما يفسّر خلوَّ معظم "جمل" الإعلانات من "الأفعال".

وانظر معي إلى مَسْحَة الرتابة التي كانت ستكسو الإعلان الأول- مقارنة بصياغته الإعلانية – لو ضمنّاه الأفعالَ المحذوفة:

'Think about musk. It is the missing link between animal and man. It is earthy. It is primitive. Its is fiercely masculine'.

(تأمل في شأن المسك. إنه الحلقة المفقودة بين الحيوان والإنسان. إنه طبيعي. إنه بدائي. إنه ضاري الذكورة)[1].

فإذا حدث أن استُعملت الأفعال في "رسالة" الإعلان الأساسية، فيغلِب أن تجيء في صيغة الطلب. وذلك مثل:

Drinka pinta milka day.[2]

---

(١) يلاحظ أن محل الشاهد – وهو كثرة الأفعال- أوضح في النص الإنجليزي منه في الترجمة العربية. وذلك لأن جُلّ جمل النص الإنجليزي لا تشتمل من الأفعال إلا على فعل كينونة (to be) رئيسي. ومثل هذه الجمل تترجم عادة إلى العربية في صورة جمل اسمية؛ لا توظف غالبًا مثل هذا النوع من الأفعال. [المترجم].

(٢) كان هذا الشعار واحدًا من شعارات "هيئة تسويق الحليب" Milk Marketing Board ببريطانيا في الخمسينيات من القرن الماضي.

ينظر: http://en.wikipedia.org/wiki/milk_Marketing_Board [المترجم].

(اشرب كوبًا من الحليب كلَّ صباح)

Go to work on an egg.[1]

(اذهب إلى العمل على بيضة)

Have a break, have a kitkat.

(احصل على استراحة، احصل على "كتكات")

فإذا لم تأت هذه الأفعال في صيغة الطلب، فإنها تكاد تلزم صيغة المضارع. ولا تأتي منفية إلا نادرًا. وذلك من مثل:

Persil washes whiter.

("برسيل" يغسل أكثر بياضًا)

Oxo gives a meal man appeal.

("أوكسو"[2] يُكسب الطعامَ إعجابَ الرجال)

You can take a White Horse anywhere take.

(بوسعك أن تصطحب "وايت هورس"[3] أينما ذهبت)

وأما في الإعلانات الطويلة نسبيًا فإن الصياغة تقفو الخطة التالية: تأتي الكلمةُ المفتاحية أولا، ثم تتلوها سلسلةٌ من الكلمات:

'Musk. The missing link between animal and man'

---

(١) كان هذا الشعار واحدًا من شعارات "هيئة تسويق البيض "Egg Marketing Board" ببريطانيا في الخمسينيات من القرن الماضي كذلك. والمقصود به التنويه بأن تناول بيضة واحدة في وجبة الإفطار هو أفضل طريقة لاستهلال أيام العمل.

ينظر: http://en.wikipedia.org/wiki/Go_to_work_on_an_egg [المترجم]

(٢) Oxo (أوكسو) اسم لـ "مرقة" دجاج بريطانية. وقد جرى الإعلان عنها، أول ما جرى، في العام (١٩٥٦م). ينظر:

http://www.headington.org.uk/adverts/food.htm [المترجم].

(٣) White Horse (وايت هورس) اسم لأحد أنواع الخمور الأسكتلندية. وقد جرى الإعلان عنها، أول ما جرى، في العام (١٩٥٥م). ينظر:

http://www.vintageadsandstuff.com/adsliquorscoch.html . [المترجم].

ثم تأتي سلسلةٌ من العبارات القصيرة الجذابة. وتُشفَع الكلمات المهمة بكلمات أخرى "شبه مرادفة" لها:

'Earthy. Primitive' (طبيعي . بدائي)

'Cool, refreshing' (بارد ، منعش)

'Wholesome, natural' (صحي ، طبيعي)

كما يكثر – في أثناء الإعلانات– التلاعبُ بالألفاظ التي لكلٍّ منها أكثر من معنى، أو المتجانسة لفظًا والمتباينة معنى. وذلك مثل:

' The colour of the sun –puts the rest in the shade.(1)

(لون الشمس – لا وجه للمقارنة)

ويسهل علينا أن نقف على أمثلة أخرى مبتكرة، لمثل هذا التلاعب بالألفاظ، في الإعلانات السائرة. من مثل:

- (في الإعلان عن سيارة): **Better in jams than strawberries**(2)
- (وفي الإعلان عن "سجائر"): **Players please**(3)

ولا يجري توظيفُ الطرق السابقة؛ من أجل حفز الناس على شراء "شامبوهات" وعطور معينة فحسْب. بل يوظّفها السياسيون كذلك. وهذا على نحو ما نجد في شعارات الأحزاب السياسية، من مثل:

Let's go with Labour. (فلننضم إلى حزب العمال)

---

(١) المعنى الحرفي لـ "puts the rest in the shade" هو: "يضع الآخرين في الظل". والمراد أن ظهوره يخفي الآخرين، أي أنه لا يقارن بغيره (= خارج المنافسة). [المترجم].

(٢) محل شاهد التلاعب هنا هو كلمة jam التي تُستعمل للدلالة على "المُرَبَّى". وتستعمل – كذلك – للدلالة على حصول ازدحام شديد للسيارات، على سبيل المجاز. [المترجم].

(٣) محل الشاهد هنا هو كلمة please التي تُستعمل بمعنى "من فضلك" (interjection=)، وتُستعمل كذلك بمعنى "يُسعد" (verb). فعلى المعنى الأول تكون صورة العبارة هي: "!Player's, please"، أي: "من فضلك أعطني سجائر من (ماركة) Player's". وعلى المعنى الثاني تكون صورة العبارة هي: "Player's please"، أي: "السجائر من (ماركة) Player's تجعل الناس سعداء". ينظر:

http://forum.thefreedictionary.com/postst27136_Players_Please.asp [المترجم].

وهو أحد شعارات حزب "العمال" **Labour party**.

ومثل:

(حزب العمال لا طائل من ورائه/ لا يعمل) **Labour isn't working.**

وهو أحد شعارات حزب "المحافظين"[1] **Conservative**.

ولكن "الإعلان" لا يجري دائمًا على هذا النحو من الوضوح والمباشرة. فثمة طرق أخرى أقلّ شفافية، وأكثر خطورة، يوظِّفها السياسيون في كلامهم، كالاستعارات المختلفة. إن التوظيف الدقيق الماهر للاستعارات قد يؤثِّر على أفكار الناس، دون وَعْي منهم بذلك. ومن الأمثلة التقليدية على ذلك: **'arms race'** (سباق التسلُّح). ويتظاهر السياسيون أحيانًا بأن بلادهم تخوض منافسةً رياضية مع البلاد الأخرى، على الرغم من أنه لا وجود لذلك ألبتَّة إلا في خيالهم. لقد نوَّه "ريتشارد نيكسون" **Richard Nixon**- أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية السابقين - مرارًا، بمدى أهمية "الفوز" في "السباق" ضد الدول الأخرى. ومن ذلك قوله:

> **'This nation cannot stand still because we are in a deadly competition... we're ahead in this competition... but when you're in a race the only way to stay ahead is to move ahead'.**
>
> (إن هذه الدولة لا يمكن أن تبقى ساكنةً بلا حراك؛ لأننا نخوض منافسة مميتة... ونحن نتصدر هذا السباق... ولكنك حين تكون في منافسة، فإن السبيل الوحيد كي تظلّ في الصدارة، هي أن تتحرك قُدُمًا للأمام).

خلاصة:

يوظِّف السياسيون أحيانًا آلياتٍ معيّنةً في إعلاناتهم؛ حتى يُنْفِذوا رسائلهم. ولا يدرك كلّ الناس ما تنطوي عليه هذه الرسائلُ من حيل لغوية وسياسية.

وفي عصرنا هذا، تجتذب الأسلحةُ النووية عددًا كثيرًا من الاستعارات. حيث يجنح السياسيون إلى الإشارة إلى هذه الأسلحة البشعة الخطورة بعبارات استعارية، من مثل: **'nuclear shields'** (الدروع النووية)، أو **'nuclear deterrents'**

---

(١) حزب "العمال" وحزب "المحافظين"، هما أكبر حزبين سياسيين في بريطانيا، كما هو معروف. [المترجم].

(الروادع النووية)، أو 'nuclear umbrella' (المِظَلّة النووية). وهذا ما يقود عمومَ الناس إلى التصديق بأن هذه الأسلحة ضرورية حقًا (كلنا نحتاج إلى المظلات)، وأنها ذات أغراض دفاعية خالصة (دروع)، وأنها -كذلك – تفيد في تثبيط عزائم الدول الأخرى عن شَنّ حروب عليهم. إن هذه المعتقدات ربما تكون صحيحة، أو غير صحيحة. ولكن اللغة المستعملة في مناقشة العتاد الحربي النووي، تتكفّل بالحيلولة دون عموم الناس والنَّظَرَ إلى ما وراء تلك اللغة المطمئِنَة؛ فيُخفِقون في إدراك المخاطر التي تبطِّن هذه المسألة. وفي عالم مثالي، سيكون في وسع كل إنسان أن يدرك وسائلَ التلاعب بالألفاظ، وأن يميّز بين ما ينقُل منه الحقيقة، وما يورِّى عنها.

لقد أوضح فصلُنا هذا – إذن- بعضَ الوسائل التي يستعين بها المَهَرَةُ من "ناسجي" الكلمات –وخاصة: الشعراء، والصحفيين، وكاتبي الإعلانات- في سبيل إحداث الأثر المنشود. وكذا أوضح الكيفية التي ربما يتحايلون بها على أصحاب الوعي المحدود من الناس.

فلنتذكر:

- يُطلَق على التحليل اللساني للغة الأدبية مصطلح "علم الأسلوب" .
- تعطى اللغةُ الأدبية اهتمامًا خاصًا لسمات فنية بعينها. وهو ما يُطلَق عليه مصطلح **foregrounding** (التقديم إلى صدر الصورة).
- لا تتعرض البنيةُ الصوتية، أو الصرفية، أو التركيبية، إلى تغييرات حادة في اللغة الأدبية. فإنْ حدث ذلك، تأثر الفهم تأثرًا بالغًا.
- النظم الجديد للكلمات المستعملة بالفعل، هو السمة المفتاحية للغة الأدبية.
- تشيع "التشبيهات" و"الاستعارات" في اللغة الأدبية. ولكنها تشيع – كذلك – شيوعًا كبيرًا في الكلام العادي.
- يسهم "التكرار" في إحداث ترابط بين أبيات القصيدة الشعرية. وينتظم هذا "التكرار" كلا من "القافية"، و"الوزن الشعري" .
- لدى سرد الأخبار الصحفية، تأتي – أولا – الأحداثُ والموضوعات الرسمية المهمة (**'hard news'**) مصدَّرة بملخَّص يتضمن إجاباتٍ عن الأسئلة: ماذا – أين – (متى) – من – كيف – (لماذا). وذلك بهدف توصيل "رسالة" سريعة بعينها إلى القرّاء.
- يُراعَى في كتابة الإعلان: الكتابة بخط كبير، والاختصار، والعرض الآسر.
- يشيع في الإعلانات استعمالُ الألفاظ المتجانسة لفظًا، المتباينة معنىً. وكذا استعمال الأفعال في صيغة الطلب .
- يوظِّف السياسيون في إعلاناتهم حيلا لغوية؛ لإقناع الناس بـ"رسائلهم".

القسم الرابع
التغيرات والمقارنات

إن التغير والبِلَى يعتريان سائر الموجودات من حولنا.ولكنّ حصول "التغير"، أي تغير، لايدلُ - بالضرورة- على حصول "بِلى". وكذا فإن بعض "البِلَى" تُنفخ فيه الروح؛ فيستهلُ حياةً جديدة.

د. ج. إنريت[1]

D. J. Enright

(١) "دينيس جوزيف إنريت" Dennis Joseph Enright (١٩٢٠ - ٢٠٠٢م): شاعر وروائي بريطاني معروف. [المترجم].

١٣

تغـــيُّر اللغـــة

يُعنَى هذا الفصلُ بدراسة الكيفية التي تتغير بها اللغة، والأسبابِ التي تقف من وراء هذا التغير. وكذا يعرض للمناهج الرئيسية التي يوظّفها علماءُ اللسانيات؛ من أجل إعادة تشكيل المراحل القديمة للغات التي تتميز بأن آثارها القديمة المكتوبة: إما نادرة، وإما غير متاحة.

تخضع اللغاتُ الإنسانية للتغير المستمر في كلٍّ من أصواتها، وتراكيبها، ومعاني ألفاظها. ولا يفطِن أهلُ اللغة غالبًا لهذا التغير اللغوي التدريجي؛ لأن أصوات اللغة وتراكيبها خاصة تعطى انطباعًا ظاهريًا بأنها ثابتة لم تتغير. وعلى الرغم من ذلك، تُظهر النظرة العَجْلي –بَلْهَ المتأنية– إلى أعمال "تشوسر"[١]، و"شكسبير" [١٥٦٤–١٦١٦م]– مثلا– أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت تغيرًا كبيرًا في زمان قصير نسبيًا.

إن النظر المدقّق في اللغة الإنجليزية المعاصرة، يُظهر لنا أن عددًا من أصواتها، وتراكيبها، قد شرع في التبدل. فالصوت [j]– وهو المشابه للصوت y الواقع قبل الصوت [u:] في الكلمات: **tune** (نغمة/ لحن)، و **muse** (تأمُّل)، و **duty** (واجب)– يبدو في سبيله إلى التقهقهر من ساحة الاستعمال اللغوي. بل لقد اختفى فعلا من بعض الكلمات، مثل: **rule** (قاعدة)، و **lute** (عود العزف). وعما قريب، ربما يندثر هذا الصوت تمامًا، كما حدث في المنطقة الأنجلزية الشرقية من بريطانيا .

---

(١) جيفري تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٣ تقريبًا – ١٤٠٠م): شاعر بريطاني مشهور. يُعَدّ أعظم شخصية أدبية في العصور الوسطى ببريطانيا، وواحدًا من أهم المؤلفين في الأدب العالمي عبر العصور. من أعماله المشهورة: The Canterbury Tales (حكايات "كانتربري"). [المترجم].

ويصاحب ذلك التغير الصوتيَّ في الإنجليزية المعاصرة، تغيُّرٌ تركيبي يتعلق باستعمال الضميرين I و me. فقد دَرَجَ الاستعمالُ اللغويُّ على تصويب أن نقول: "It's-I". ولكنّ معظم الناس الآن يقولون: "It's me". وهكذا نرى أن الاستعمال اللغوي يميل الآن إلى استعمال (me) بعد الفعل، واستعمال (I) قبله. و ثمة شواهد على أن هذه القاعدة آخذة في الانتشار، بحيث يستأثر الضمير (I) بالوقوع في الموقع التركيبي السابق لموقع الفعل مباشرة.والسطر الشعري: 'Me and the elephant, we still remember you'، الذي تتضمنه إحدى الأغاني الشعبية، لا يمثّل في جانب منه إلا دعابة. فهذه الجملة، وأمثالها- إذن- تجسّد هذا الضربَ من التغير في قواعد اللغة الإنجليزية.

ويُعنَى المشتغلون بهذا الفرع من فروع اللسانيات- في المقام الأول- بدراسة الكيفية التي تتغير بها اللغة، وبالوقوف على الأسباب التي تقف من وراء ذلك. وكذا يُعْنَون بإعادة تشكيل الصورة التي كانت عليها اللغةُ في مراحلها القديمة. وهي الصورة التي يُعْوِزها وجودُ آثار – أو وثائق مكتوبة- تدلّ عليها.

الكيفية التي تتغير بها اللغات:

حتى وقت حديث نسبيًا، كان تغير اللغة يمثّل ظاهرةً غامضة، غير ملحوظة، تتسلل إلى الاستعمال اللغوي دون أن نتنبه إليها. مثلها- في ذلك- مثل حركة الأجرام السماوية التي كانت تُعَدّ من الظواهر العصيّة على الاكتشاف بحواس الإنسان المجردة وحدها. ولكنّ التقدم الذي تحقق في مجال "اللسانيات الاجتماعية" قد أفضى إلى تنامي الفهم للآليات التي تقف من وراء كلٍّ من: انتشار التغير اللغوي من شخص إلى آخر، ثم شيوع ذلك التغير في بنية اللغة كلِّها.

وقد كان الأمريكي المتخصص في اللسانيات الاجتماعية "وليام لابوف"(1) William Labov [١٩٢٧ - ...] واحدًا من الباحثين الروّاد الذين عُنُوا – على نحو مفصّل – بالنظر في الكيفية التي ينتشر بها التغير اللغويُّ بين أهل اللغة. فقد لاحظ "لابوف" أن ثمة نطقًا جديدًا يتسلل إلى ألسنة السكان الدائمين لجزيرة

(١) سبق التعريف به في الفصل العاشر (اللغة والمجتمع) (هامش ص٢٤٥). [المترجم].

"مازْثَز فِنْيارْد" Marthas Vineyard. وهى منتجع مشهور يقع على ساحل ولاية "ماسَتْشِيوسِتسْ" Massachusetts. فقد تبين له – وَفْقًا لتوصيفات سابقة لكلام أهل هذه الجزيرة- أن السماتِ الصوتيةَ للصوائت في كلمات مثل: I ، و me ، و out ، وabout ، قد شرعت في التغير. وبيان ذلك: أن النطق بها صار يصحبه درجةُ انفتاح للفم أقلّ من درجة انفتاحه لدى التزام النطق الأمريكي. وقد أنجز "لابوف" بحثًا ميدانيًا موسّعًا بشأن هذه الصوائت. وأجرى - في سبيل ذلك- مقابلاتٍ مع أهل تلك الجزيرة، طالبًا منهم أن يقرأوا فِقْراتٍ تشتمل على بعض الكلمات الحاسمة الدلالة على حصول هذا التغير الصوتيّ.

وقد تبين لـ"لابوف" أن هذا التغير اللغويَّ ربما يكون قد انبثق من جماعة الصيادين. وهى الجماعة التي يُنظَر إليها على أنها تجسّد السماتِ الأصليةَ القديمة لهذه الجزيرة، بخلاف زوارها الطارئين المكروهين، ممن اعتادوا ارتيادها في الصيف. وقد لوحظ منذ وقت بعيد، أن السمات النطقية لكلام هؤلاء الصيادين تختلف اختلافًا يسيرًا عن سمات النطق الأمريكي الفصيح، بيد أن شُقّةَ هذا الاختلاف قد زادت في السنوات الأخيرة. وما يترجَّح حدوثُه هو أن الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين عامًا- ممن عقدوا العزم على استيطان تلك الجزيرة – كانوا يتلقّفون ذلك النطق غير الفصيح للحركات من أفواه أولئك الصيادين، ثم يشرعون في محاكاته.

ولم تكن الصوائتٍ الغريبة التي ينطق بها هؤلاء الصيادون ابتداعًا كاملا من لَدُنْهم، بل كانت مجرد تلفُّظ مبالغ فيه للصوائت الموجودة بالفعل. وربما حاول السكان الآخرون لهذه الجزيرة، في تواصلهم مع هؤلاء الصيادين، أن يحاكوا لا شعوريًا طريقتهم في النطق، جاهدين في ذلك؛ حتى يُهيِّأ لمحادثيهم أنهم من السكان الأصليين لهذه الجزيرة. ويبدو أن هذا النطق المستعار لتلك الصوائت، والنطق الأفصح لها، قد تأرجحا في بادئ الأمر على ألسنة تلك المجموعة من السكان غير الأصليين لتلك الجزيرة. ثم ما لبث هذا النطق المستعار أن كُتبت له الغلبة تدريجيًا على ألسنتهم. ومن تلك المجموعة الثانية من سكان هذه الجزيرة، انتشر هذا النطقُ بين من خالطوهم، وتواصلوا معهم، وهكذا.

وعلى ذلك، يتضح لنا جانبٌ من صدق وجهة النظر القائلة بأن التغيرات اللغوية "مُعْدِية". ويشكو الآباء والأمهات أحيانًا من أن أبناءهم يلتقطون سماتٍ نطقيةً رديئة من زملائهم بالمدرسة. ولكن الأطفال لا تصيبهم عدوى ضدَّ إرادتهم، بل لابد أنها صادفتْ قبولا عندهم. ويميل الناس – لا شعوريًا على الأقل – إلى محاكاة من يُعجَبون

بهم، أو من يتوقون إلى الارتباط بهم. ومثلما يستحيل علينا أن نحول بين أطفالنا ورغبتهم في ارتداء ملابس بعينها، أو بينهم وبين الإعجاب بنجوم موسيقى الـ"بوب" pop، فكذا يستحيل علينا أن نقف في وجه اكتسابهم للسمات النطقية لكلام زملائهم.

خلاصة:

يرجع انتشار التغير اللغوي من شخص إلى آخر - في غالب حالاته- إلى ميل الناس للتحدث بالطريقة التي يتحدّث بها من يتمتعون بإعجابهم واحترامهم.

وتقع بعضُ التغيرات اللغوية "من أعلى"، أي "من أعلى مستوى الوعي". وذلك حين يحاول الناس عمدًا أن يحاكوا بعض السمات النطقية لكلام الآخرين. فمثلا: ربما يقرر نَفَرٌ من أهل الإنجليزية البريطانية، ممن ينتمون إلى مناطق يسقط فيها صوت الـ [h] من بدايات الكلمات، مثل **hot** و **high** - أن يلتزموا تدريجيًا بنطقها؛ ليوافقوا النطق الأشيع. وتأتي تغيرات أخرى - في المقابل- "من أسفل"، أي "من أسفل مستوى الوعي". وذلك كما في التغيرات التي حدثت في جزيرة"مارْثَر فِنْيارد". فربما يكون أولئك الذين جرى التغير اللغوي على ألسنتهم غير واعين بأجزاء الكلام التي أصابها هذا التغير.

ولكننا يجب أن نلاحظ - بعد- أنه سواء وقعت التغيراتُ اللغوية "من أعلى"، أم "من أسفل"، فإن آليات انتشار هذه التغيرات تبدو متماثلة: تتسلل السماتُ النطقية الجديدة على استحياء من الأشخاص المحيطين بنا عادة، ثم لا تلبث أن تَحُلَّ تدريجيًا محلّ السمات النطقية القديمة.

خلاصة:

تدلّ الملاحظةُ المتكررة لحالات التغير اللغوي، على أن هذا التغير لابد أن يشتمل - حال اشتغاله - على صيغ متنوعة للكلمات محلِّ التغير. وعلى ذلك، فإن اشتمال الكلام على صيغ متنوعة لبعض الكلمات، يدل على أن ثمة تغيرًا قد شرع يسرى في أوصال الاستعمال اللغوي.

انتشار التغير في اللغة:

أتى على اللسانيين زمانٌ كانت مسألة انتشار التغير في اللغة، تمثل لهم مسألة أكثر غموضًا من مسألة انتشاره بين أهل اللغة. وكان من الظواهر التي حيّرت الباحثين ظاهرة "الاطّراد" المزعوم للتغير الصوتي. بمعنى أنه إذا حَلّ صوت ما محلَّ صوت

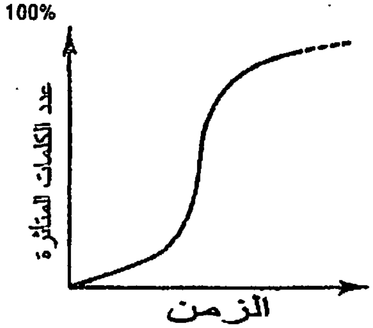
آخر في كلمة ما، فإن هذا الصوت البديل لا يحُلّ محلَّ ذلك الصوت الأصلي في تلك الكلمة فحسب، بل في كل كلمة أخرى تشتمل على ذلك الصوت الأصلي. وعلى ذلك، نجد في اللغة الإنجليزية أن كلمة **wyf** قد أصبحت **wife**، مثلما تغيرتْ **lyf** إلى **life**، و**bryd** إلى **bride**. وكلها أمثلة تكشف عن تغير صوت الـ (**i :**) إلى صوت (**aI**) .

وقد زعم بعضُ اللسانيين في القرن التاسع عشر، أن التغيرات الصوتية التي تعرضتْ لها بعض الأصوات، كانت "قوانين" اشتغلتْ في تلك الأصوات، وَفْق "ضرورة حتمية"، مكتسحةً كلَّ ما يقع أمامها، وكأنها محاريث الثلج. ولكنّ القول بهذه (القوانين) قد جابهته مشكلةٌ خطيرة يجسِّدها هذا السؤال: فكيف – إذن – أفلتت بعضُ الكلمات الشاذة من رِبْقة هذه القوانين؟ لقد قيل – مثلا – بأن من التغيرات الصوتية التي وقعت في الإنجليزية البريطانية: تغير الصوت [æ] إلى [a:]، قبل صوت الـ [s]، كما في الكلمات: **pass** (يمر)، و **fast** (سريع...)، و **disaster** (كارثة). والسؤال – بعد: لماذا – إذن – ما زلنا نجد كلمات مثل: **gas** (غاز)، و **mass** (قدر كبير)، و **aster** (زهرة بعينها)، و**tassel** (شُرّابة)؟ ولابد أننا سنقع في قدر من التناقض، إذا قلنا إن هذه (القوانين) المكتسحة يجب أن تشمل كلَّ المفردات المتماثلة في سياقها الصوتيّ، وإن كان يحدث أحيانًا أن تخطئ هذه القوانينُ بعضَ الكلمات؛ فلا تصيبها .

وربما يجيب بعض القائلين بحتمية هذه (القوانين) على هذا التساؤل، بإنكار أنه كانت هناك فعلا استثناءاتٌ في شمولية هذه (القوانين). ويفترضون –بدلا من ذلك– أن مثل هذه الكلمات كانت كلماتٍ مقترضةً من لهجات مجاورة. فمثلا: ربما يكون الصوت [æ] الذي تشتمل عليه الإنجليزية البريطانية– في كلمات مثل **gas**– وافدًا من الإنجليزية الأمريكية. ولم يحظ هذا التفسير الواهي بالقبول. ولكن الدرس اللساني المعاصر – مستعينًا باستبيانات وافية، ودراسات ميدانية شاملة– قد قدَّم تفسيرًا أفضل لوجود مثل هذه الكلمات (الشاذة).

لقد أوضح علماءُ اللسانيات حديثًا، أن التغيرات الصوتية لا تصيب كلَّ الكلمات المعنيّة في نفس الوقت. بل إن هذه التغيرات تسرى في كلمات اللغة، كلمة تِلْو الأخرى. مثلها في ذلك مثل ثمار التفاح على أشجارها: تنضَج في أوقات متقاربة، ثمرة قَفْو الأخرى، ولا تنضَج كلها في نفس الوقت. وحين نضع هذه التغيرات على رسم بياني، نجد أن معدَّل التقدم في حصول هذا التغير يتخذ خصائص المنحى **(S- curve)**

S : حيث يسير مؤشر الزمن بمحاذاة القاعدة، ومؤشر الكلمات المتأثرة بالتغير نحو الأعلى (الرسم التوضيحي ١٣ – ١).



(الرسم التوضيحي ١٣-١)

ففي البدء، يصيب التغير عددًا قليلا نسبيًا من الكلمات، ويؤثّر فيها، ولكنْ على نحو غير مطّرد. بمعنى أن النطق الجديد قد يتعايش على الألسنة مع نظيره القديم قدرًا من الزمن. ففي حالة الصوائت التي تغيرت في جزيرة "مارْثَز فِنْيارد"– مثلا– نجد أن كلمة I قد كانت من الكلمات التي وقع فيها التغيير مبكرًا. ولكنّ النطق "الجديد" لها، لم يكن يُلتَزم في كل مرات النطق بها، بل في بعضها فقط. ولا يَعْدو هذا النطقُ "الجديد" في هذه المرحلة، أن يكون مجرد نزعة خافتة يمكن أن تُستبدل، بل حتى أن تتلاشى تمامًا. وقد لاحظ الدارسون أن الكلمات التي تسبق غيرها في التأثر بالتغير الصوتي، تكون أحيانًا هي الكلمات الأشيع في الاستعمال اللغوي، وإن كان للعوامل الصوتية دورٌ مهم في هذا الصدد أيضًا. ومن ذلك: حالة جزيرة "مارْثَز فِنْيارد". فقد لاحظ الدارسون أن الكلمات التي تبدأ بأحد الصوائت كانت هي الكلمات الأكثر والأسرع تأثرًا بالتغيرات الصوتية. وعلى ذلك، وجدنا أن الكلمتين I ، و **out**، كانتا من الكلمات التي خضعت للتغير في وقت مبكر؛ بسبب من شيوعهما، من جهة، وبسبب من تكوينهما الصوتيّ، من جهة أخرى.

إن المرحلة المبكرة للتغير اللغوي – تلك التي يتأثر فيها عدد قليل من الكلمات تأثرًا غير مطّرد بهذا التغير – قد تستمر لأمد طويل. ولكنّ هذا التغير قد يُكتب له

الانتشار والسيرورة في مرحلة تالية. وأيًا كانت الاحتمالات، فإن هذا التغير لن يلبث أن ينتقل سريعًا إلى عدد جِدّ كبير من المفردات، كما يُظهر الجزء الشديد الانحناء من المنحنى S في الرسم التوضيحي (١٣ - ١). وقبيل النهاية، يشرع هذا التغير في فقدان دافعيته، ليتلاشى تدريجيًا، مخلِّفًا كلماتٍ قليلةً لم تصل إليها يداه. وهكذا نرى أن هذا التصور المفصَّل للمراحل التي يقطعها التغير اللغوي في تسلله من كلمة إلى أخرى، يفسّر لنا اتصاف هذا التغير - في جُلّ حالاته - بالشمولية والاطّراد، من جهة، ويفسّر لنا تفلُّتَ بعض المفردات من قبضته، من جهة أخرى. وتُعرَف هذه (العملية) بـ"**الانتشار المعجمي**" **lexical diffusion**. فالكلمات التي يصيبها التغير تتأرجح - في البداية - بين النطق الجديد، ونظيره القديم، ثم ما يلبث هذا الجديد أن تُكتَب له الغلبة في نهاية المطاف.

خلاصة:

يحدث التغير اللغويُّ عبر (عملية) تُسمَّى بـ"الانتشار المعجمي". بمعنى أن هذا التغير يتسلّل من كلمة إلى أخرى على مَهَل في بداية حدوثه، ثم ما يلبث أن يتزايد معدّل انتشاره، أسرع فأسرع، ثم يعود - كما بدأ - بطيئًا، في نهاية رحلته.

أسباب تغير اللغة:

كان مما جرى به قلمُ أحد اللسانيين المعروفين: "لا نستطيع أن نقول في أسباب تغير اللغة، أكثر مما نستطيع قولَه بشأن اشتمال الـ"جواكت" **Jackets** على ثلاثة أزرار في عام، ثم على زِرّين في العام التالي". وهو يقصد بذلك تقرير أن كلّ صور تغير اللغة، لا يمكن عَزْوها إلا لعوامل اجتماعية تصادفية. وليس تَصِحّ وجهةُ النظر هذه؛ لسببين: **أولهما**: ما نعاينه من وجود تغيرات لغوية متشابهة، يتكرر وقوعها في كلّ أنحاء العالم، بحيث يمكننا القول بأن هناك نزعاتٍ - أو ميولا - بعينها متأصِّلة في كلّ اللغات. وهذه النزعات ربما تستثيرها عواملُ اجتماعية. ولكنها - أي تلك النزعات - تظلّ قابعةً منتظرة في "الكواليس" - إن جاز التعبير - تتطلّع إلى من يَنْشِطها من عِقالها. وذلك كما هو الشأن في الانهيار الثلجي: فلا شك في أنه يمكننا أن نعيِّن متزلِّجا واحدًا بعينه قَلْقَلَ الثلج، فكان عمله هذا هو السببَ اللحظيَّ لحصول هذا الانهيار.

ولكنّ هذا الانهيار ما كان ليقع لولا توافرُ عوامل أخرى آصل وأعمق، قبل وصول هذا المتزلج.

وفضلا عن ذلك، نجد أن القوالب اللغوية التركيبية التي تنتظم مفرداتِ اللغة، لا يُعطِبها التغير اللغويُّ أبدًا. وهذا هو السبب الثاني الذي يدحض وجهة النظر القائلة باعتباطية (عملية) تغير اللغة، وإعوازها للتبرير المنطقي. إن من شأن هذه القوالب التركيبية التي تتضمنها اللغة، أن تمكننا من "معالجة" قدر كبير من "البيانات" اللغوية، دونما كبير جهد. ولو كان التغير اللغوي يتسم بالجزافية، ويقع كيفما اتفق، لانهار النظام اللغويُّ برمّته. وكذا سيُحمَّل العقل بما لا يطيق من ركام البيانات العشوائية، وسيستحيل التواصلُ إذن.

خلاصة:

لا تقع ضروبُ التغير اللغوي على نحو جُزافي. وذلك لأسباب. منها: أننا نلاحظ حدوثَ تغيراتٍ لغوية متشابهة في كل أنحاء العالم، بلغاته المختلفة. ومنها – كذلك – أن حدوث أي من هذه التغيرات لم يُفْضِ قطّ إلى فقدان اللغة لقوالبها الأساسية التي تنتظم مكوناتِها المختلفة.

إن هذه العوامل مجتمعةً ترفِدنا بسببين رئيسين لحصول التغير اللغوي: الأول: وجود نزعات أساسية في اللغة، يمكن أن تستثيرها عواملُ اجتماعية معينة. والثاني: اشتمال اللغة على نزعة علاجية، أي نزعة للضبط والتعديل؛ من أجل إصلاح ما قد يقع من كَسْر لقوالب اللغة التركيبية المقبولة. ودعونا – بعد – ننظر في هذه "النزعات" نظرًا لا نُفيض فيه.

النّزَعات الطبيعية:

تشتمل اللغة على عدد هائل من النزعات الطبيعية التي تتفاوت قوةً وضعفًا. وقد تستثار بعض هذه العوامل بتأثير عوامل اجتماعية معينة، وقد تبقى مكبوتةً لقرون طويلة، بتأثير وجود نزعات أخرى مضادة لها، تحول دون ظهورها.

وتمثّل النزعةُ إلى اختفاء نهايات الكلمات، إحدى النَّزعات الوافرة الشيوع في هذا الصدد. وإن كنا نقف على مفارقة إزاء هذه النَّزعة: ففي الحالات التي تحققتْ فيها هذه النزعةُ بالفعل تحققًا واسع المدى، كما هو حاصل في اللغات البولينيزية(١) Polynesian، والإيطالية، والفرنسية، نجد أن كثيرًا من أهل الإنجليزية يزعمون أن مثل هذه اللغات "تبدو جميلة"، وأنها "تمتلك أصواتًا متدفقة". ولكن حين تبدأ هذه النَّزعة نَفْسُها في الزحف نحو الإنجليزية، فيهمل بعضُ أهلها نطقَ صوت الـ[t] في نهايات بعض الكلمات، مثل: hot، و what، ويستبدلون بها "وَقْفةً حنجرية" glottal stop دون إصدار لصوت فعلي – فإننا نجد كثيرًا من الناس تزعجهم هذه الطريقة في النطق، ويصفونها بـ"تسييل النطق"، و"الابتلاع المشين للأصوات". ولكننا نلفت – في المقابل – إلى أن هذا الضرب من النطق لا يمكن يقينًا وَصْفه بأنه ضَرْب من "تسييل" النطق؛ إذ إن إنتاج الوقفة الحنجرية يتطلب نفس القدر من الجهد الذي يتطلّبه النطقُ بالصوت الذي حلّت تلك الوقفة محلّه، أعني صوت الـ[t]. وفضلا عن ذلك، نجد أن هذا الضرب من التغير في النطق يزحف على الألسنة، زحفًا يصعب إيقافه، حتى على ألسنة الذين ينتقدونه. فهم ربما لا ينتبهون إلى أنهم – أَنْفُسَهم – قد يستبدلون بصوت الـ[t] وقفةً حنجرية، في عبارات من مثل: football، و hot milk، و a bit more. بل لقد أصاب هذا التغير في مناطق أخرى صوتَ الـ [k] كذلك. وكذا أصاب – وإن على نحو أقل انتشارًا – صوتَ الـ [p] أيضًا. وفي ضوء المعدل الذي ينتشر به هذا التغير، نستطيع القول بأن أصوات الـ[p]، والـ[t]، والـ (k)، قد تختفي من نهايات الكلمات في اللغة الإنجليزية البريطانية، نحوًا من منتصف القرن الحادي والعشرين.

خلاصة:

يمثّل فقدان الـ[t] من نهايات الكلمات في اللغة الإنجليزية نَزْعةً طبيعيةً، يوجد مثيلها بالفعل في لغات أخرى كثيرة. وليس ينبغي أبدًا أن يَقْلَقَ الناسُ بشأن هذه الظاهرة. وإن كان يلزم المتكلّمين دائمًا أن يُعنَوْا بجعل كلامهم مفهومًا للآخرين. وكذا يلزمهم أن يتمهلوا في حديثهم، وأن يلتزموا بنطق صوت الـ[t]، إذا كانوا يتحدثون إلى شخص يعالج صعوبةً في فهم المحادثة.

ولا تتمتع كلّ "النزعات" بالأهمية الكبيرة، وبالقابلية للملاحظة. فبعض هذه النزعات ثانوية، يقتصر تأثيرها على صوت بعينه في موقع بعينه. فالصوت [e] مثلا

(١) تمثل اللغات البولينيزية Polynesian أحد فروع فصيلة اللغات الأسترونيزية Austronesian. ويضم هذا الفرع نحوًا من ثمان وعشرين لغة. ويتركز الناطقون بالبولينيزية في شرق المحيط الهادئ وجنوبه. ومن لغات هذا الفرع: الهاوية Hawaiian والتاهيتية Tahitian. ينظر: Trask. The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics.p. 258. [المترجم].

يميل إلى أن يصبح [ɪ]، قبل الـ [ŋ]. وعلى ذلك، نجد أن كلمة England تنطق الآن كما لو كان هجاؤها هو Ingland. وكذا نجد أن صوت الـ [b] يميل إلى أن يفخم بين صوتي الـ[m] والـ [l]. وعلى ذلك، يقرر الدارسون أن كلمة bramble (نبات العُلَّيْق) قد تحدّرت من سلفها bremel. وهكذا.

وربما يكون لبعض "النزعات" أثرٌ يَعُمّ اللغة كلَّها، كما هو الشأن في سقوط نهايات الكلمات. وهذا ما يعنى أن لغة – كاللغة الفرنسية مثلا – ينبغي أن تُطوّر وسيلة بديلة للتعبير عن الجمع. وبيان ذلك: أنه يلزم – في هذه اللغة – أن نضع [le] les قبل الكلمات المجموعة، كما في قولنا: les chats [le ʃa] (القطط). وذلك لأن كلمة chat (قطة) – مستقلةً بنفسها – تُنطق النُّطْقَ نَفْسَه حال كونها في صيغة المفرد، أو في صيغة الجمع. وعلى ذلك، يلتزم الفرنسيون الآن بإنجاز هذه التفرقة بين صيغتي المفرد والجمع، بوضع "المحدِّد" determiner المناسب قبل الكلمات المعنية.

التغيرات العلاجية (التصحيحية):

تنهض التغيراتُ العلاجية بمهمة إصلاح القوالب اللغوية patterns التي كسرتْها تغيرات سابقة. ويرفِدنا استعمالُ القياس analogy بعدد من الأمثلة الواضحة في هذا الصدد. والقياس هو تلك القدرة على تكوين حُكْم ما، بشأن حالة ما، بالنظر إلى حالات مناظرة لها. وهو –بهذا المفهوم– يمثّل خصيصةً أساسية للغة الإنسانية. وتتضح (عملية) القياس – أكثر ما تتضح – في لغة الطفل حين يكوّن أفعالا في الزمن الماضي، من مثل: taked(١)، وdrinked(٢)، بعد سماعه لنظائر لها من مثل: baked (خَبَزَ)، و blinked (طَرَفَتْ عينُه).

ويجنح "القياس" – في عملية التغير اللغوي – إلى إعادة التشابه بين صيغ الكلمات التي فرّقتْ بينها التغيراتُ الصوتية. فمثلا: أدت التغيرات في نظام الصوائت إلى فصل صيغة الصفة (old) عن صيغتها في حال المفاضلة (elder). ثم رأينا الاستعمال اللغوي يكوّن صيغة التفضيل الجديدة (older) قياسًا على صيغ أخرى، من مثل young – younger، حيث يكون الجزء الأول من كلتا الكلمتين متماثلا.

---

(١) بدلا من: took. [المترجم].

(٢) بدلا من: drank. [المترجم].

وأما الصيغة القديمة (elder)، فقد تقلَّصت الآن في الاستعمال اللغوي، لتقتصر على مجالات وعبارات خاصة وقليلة، من مثل: **elders of church** (آباء الكنيسة)، و **his elder brother** (أخيه الأكبر).

خلاصة:

إذا سلّمنا بأن "القياس" هو (عملية) استنباط من حالات موازية، فإن واقع الحال يشهد بأنه قد ينجح في ترميم بعض "القوالب اللغوية" التي كسرها الاستعمالُ اللغويّ.

ولكننا نخطئ إذا نظرنا إلى القياس على أنه مجرد وسيلة لإصلاح "القوالب اللغوية" المكسورة؛ إذ إننا – بذلك – نُفرط في تبسيط دوره في اللغة. فهذا الدور لا يقتصر على تلك الوظيفة "العلاجية" فحسْب، بل يجاوز ذلك إلى تعطيل بعض التغيرات الصوتية أحيانًا. فمثلا: كنا نتوقع أن نجد الصوت [d] في وسط كلمة **father** – كما في الكلمة القوطية(1) :**fadar**– ولكن ما حدث هو أن كلمة **father** قد تأثرت بكلمة **brother**؛ مما أفضى إلى ظهور صوت الـ[d] المتوقَّع، مجسَّدًا في الصورة النطقية [ð]. وفضلا عن ذلك، يجب ألا نغفل عن أن للقياس أنواعًا مختلفة. إنه مقولة ذات عناصر متباينة، يمكن توظيفُها لتفسير عدد متنوع من التغيرات اللغوية. وعلى ذلك، يتبين لنا أننا نتنكّب جادَّة الصواب، حين نُطلق ادعاءاتٍ عامةً مُلْبِسة بشأن القياس، اللهمّ إلا إذا ضيقنا حدود مجال تلك الادعاءات.

التغيرات اللغوية التي تقع واحدةً تِلْو الأخرى:

يمثّل ما يُعرَف بـ"سلسلة التغيرات [الصوتية]" **chain shifts** – دون سائر ضروب التغيرات – ظاهرة "علاجية" شائقة. والمقصود بهذه "السلسلة": تلك التغيرات التي يبدو لنا أنها تقع في شكل سلسلة حلقات متصلة. فمثلا: نجد أن كلمة

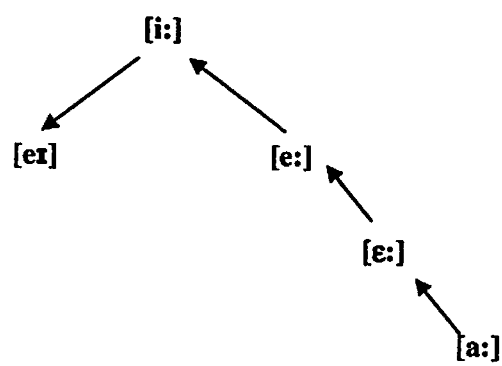
---

(1) القوطية Gothic: لغة جرمانية بائدة. وتُعَدّ اللغة الوحيدة المعروفة من الفرع الشرقي للغات الجرمانية. وكان يتكلم بها كثير من الغزاة الذين دمروا الإمبراطورية الرومانية. ينظر: Trask, The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, p. 138. [المترجم].

life' lyf– في عصر "تشوسر" [ت١٤٠٠م] – كانت تُنطق هكـذا (li:f)، أي كـالنطق الحالي لكلمة leaf. وهذا ما يعني أن الصائت [i:] قد تغير إلى [eɪ] (ثم أخيرًا إلى [aɪ]). ولكن هذا التغير الصوتيَّ لم يستقلّ بالحدوث وحده. ففي حوالي هذا الوقـت تغـيرتْ كل الصوائت الطويلة الأخرى على النحو التالي [من اليمين إلى اليسار]:

[e:]	أصبحت	[i:]
[ɛ:]	أصبحت	[e:]
[a:]	أصبحت	[ɛ:]

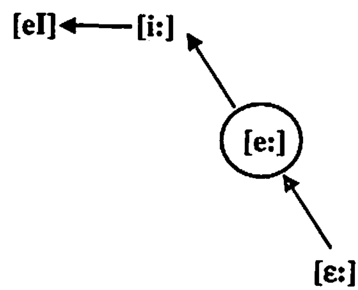
وبدا الحال وكأن كلّ صائت يُدفَع ليملأ الفراغ الذي خلّفه الصائتُ الذي أمامه (الرسم التوضيحي ١٣-٢).



(الرسم التوضيحي ١٣- ٢)

وألفتُ النظر– بعد– إلى أن الحال لا يكون بالـضرورةٍ عـلى هـذا القـدر مـن البساطة التي ظهر عليها مثالنا السابق، وإن كان هو نَفْسُه محل خلاف وجـدال. ففـي كثير من الحالات، تتحرك أصواتٌ عديدة في الوقت نفـسه، بحيـث يـصعُب علينـا – والحال هكذا – أن نقـرر أرْجَحِيَّـة أحـد الاحتمالـين الآتيـين: الأول: أن يكـون أحـد الأصوات قد جُرّ إلى مكان خالٍ. والثاني: أن يكون قد زُحزح عـن مكانـه الـصحيح المناسب. ففي الرسم التوضيحي (١٣– ٣) تُرَى: هـل جُـرّ الـصائت [e:] إلى المكـان الذي خلّفه الصائت [i:] ؟ أم أن الصائت [ɛ:] هو الذي زحزحه إليه؟

وثمة جدل بين الدارسين حول الآلية الفعلية التي تؤثّر بها الأصواتُ بعضُها في بعض. والحقيقة الوحيدة المؤكَّدة في هذا الصدد، هي أن التغيرات الصوتية قد تقع في شكل سلاسل ذات حلقات متصلة. وأنها – في وقوعها على هذا النحـو المتسلسل – تحافظ على القوالب الأساسية للغة الإنسانية.



(الرسم التوضيحي ١٣- ٣)

خلاصة:

تقع التغيرات الصوتية أحيانًا في صورة سلسلة متوالية الحلقات. ويصعب علينـا – في مثل هذا النوع من التغيرات – أن نحدّد الصوت الـذي تحـرَّك أولا؛ وبالتـالي أن نقرر: هل نحن نتعامل مع (عملية) صـيانة لأحـد القوالـب اللغويـة عـبر سلـسلة تكوَّنتْ بآلية "الجَرّ أو السحب"، أم عبر سلسلة تكوَّنتْ بآلية "الدفع"؟

وقد ذهب بعـضُ اللـسانيين إلى افـتراض أن "سلـسلة التغـيرات" لا تـصيب أصواتَ اللغة فحسْب، بل تصيب تراكيبهـا كذلك. فمثلا: نجد أن بعـض اللغـات تشتمـل على جُمَيْلات الصلة relative clauses – أعنـى: الجمـيلات التـي تبـدأ بـ which و that – واقعةً قبـل الأسماء المتـصلة بهـا. فيقـال في مثـل هـذه اللغـات: 'Which is sour wine'، في حـين يقـال في الإنجليزيـة: 'Wine which is saor' (الخمر التي هي حاذقة).

ثم نجد أن مثل هذه اللغات تميل – كذلك – في تراكيبها إلى استعمال المفعول به سابقًا على الفعل. وعلى ذلك، فالترجمة الحرفية للجملة الإنجليزية:

'Harry dislikes wine which is sour'

("هاري" يكره الخمر التي هي حاذقة)

ربما تكون: **Harry [which is sour wine] dislikes.**

وفى المقابل، إذا طرأ تغير لغوى أفضى إلى تحرك جميلات الصلة، لتصبح في موقع تركيبي تالٍ للأسماء التي تشتمل عليها تلك الجميلات، فربما يتبادل الفعلُ والمفعول موقعيهما التركيبي كذلك. ومرّةً أخرى، نجد أن معظم الدارسين يتفقون على وجود نوع من الارتباط بين التغيرات اللغوية، بيد أنهم يختلفون حول الآلية الدقيقة لحدوث هذا الارتباط.

التغيرات اللغويـة التفاعليـة:

اتسمت التغيراتُ اللغوية التي عرضنا لها – حتى الآن- بقدر من البساطة وقلّة التعقيد. ولكنّ هناك أنواعًا أخرى من التغيرات تتميز بأنها أكثر تعقيدًا من تلك بكثير. وحتى نتيح قدرًا من التصور بشأن العوامل الكثيرة التي قد تسهم في إحداث التغير اللغوي، دعونا نختتم بدراسة بعض التغيرات التفاعلية **interacting changes**. ففي المثال الآتي، نجد أن فقدان نهايات الكلمة قد تركّب مع تغيرات في ترتيب الكلمات؛ ليتسببا في حدوث أمرين: اختفاءِ تركيب، وتغيرٍ في المعنى.

إن الكلمة التي بشّرتْ بالكلمة الإنجليزية **like**، كانت هي كلمة **lician**. وكانت تجسد "فعلا" يُستَعمل بمعنى "يُسعد". وقد شاع هذا الفعل في الاستعمال اللغوي في اللغة الإنجليزية، إبّان شيوع مجيء المفاعيل سابقة للفعل، ولم يكن "فاعل الجملة" يأتى بالضرورة في أول الجملة، على نحو ما تمثله الجملة الآتية تمثيلا صادقًا:

tham	**cynage**	**licodon**	**peran**
to the	**king**	**gave pleasure**	**pears**

'pears pleased the king'. (الكمثرى أسعدت الملك)

ثم مرت من بعد ذلك قرونٌ متطاولة، وقع في غضونها أمران: الأول: إسقاط نهايات الأسماء والأفعال. وأصبح the king يمثل الشكلَ الصحيح للاسم. وأُسقطت النهاية الدالة على الجمع من الفعل. وقد أفضى كلّ هذا إلى إنتاج النمط التركيبي الآتي: The king liked pears (الملك أحبَّ الكمثرى).

وفي تلك الأثناء، أخذ الاستعمال اللغوي يألف تدريجيًا وضع الفاعل [أو المسند إليه] قبل الفعل، ووضع المفعول به بعد الفعل. وعلى ذلك، أعيد تفسير جملة 'The king liked pears' – التي كانت تَعني في الأصل: 'to the king were a pleasure pears' – لتُفْهَم على النحو الآتي: 'The king took pleasure in pears' (الملك سُرّ بالكمثرى).

وعلى ذلك، فقد أفضى فقدانُ نهايات الكلمات، وتغيُّر ترتيب الكلمات، إلى اقتداح تغيرين لغويين آخرين: الأول: فقدان النمط التركيبي: 'to someone, something is a pleasure'. والثاني: حصول تغير في معنى كلمة like ليصبح: 'to take pleasure in' (يُسَرّ بـ)، بدلا من 'to give pleasure to' (يُسعد). فمثالنا هذا يُظهر – بعد – حقيقةً مهمة تتعلّق بالتغير اللغوي. وهي أن هذا التغير – في جُلّ أنواعه – لا يقف من ورائه عاملٌ واحد، بل عواملُ جِدُّ كثيرة.

إعادة تشكيل [اللغات] Reconstruction:

استطاع اللسانيون حديثًا الوقوف على قدر كبير من المعلومات بشأن التغير اللغوي، عبر ملاحظتهم ودراستهم للتغيرات اللغوية التي في طور الحدوث. ولما كان التغير اللغوي لا يُنجَز سريعًا، بل يستغرق أمدًا طويلا، فإننا نحتاج – كذلك – إلى دراسة الكيفية التي تغيرت وَفْقها اللغاتُ الإنسانية عبر القرون. بيد أن ما بين أيدينا من وثائق مكتوبة لم يزل – دونما شك – غير كافٍ لتحقيق ذلك الغرض. وحتى يُستكمل هذا النقص، يوسّع علماء "اللسانيات التاريخية" مجال معارفهم، عبر إعادة تشكيل المراحل التي مرّت بها بعض اللغاتُ التي لا تتوافر لها وثائقُ مكتوبة.

وثمة أنواع مختلفة من (عمليات) إعادة التشكيل تلك. وأشهر هذه الأنواع هو ما يعرف بـ"إعادة التشكيل الخارجي" external reconstruction، أو

بـ"اللسانيات التاريخية المقارنـة" comparative historical linguistics. وفي هـذا النوع من إعادة التشكيل، يقارن اللسانيُّ بين أبنية الكلمات في اللغات المترابطة تاريخيًا genetically. أعنى تلك اللغات التي تحدَّرت من مصدر عام واحد؛ حتى يصل - بهَدْي من تلك المقارنة- إلى استخلاص السمات اللغوية لذلك الجَدّ الأول المفترض. وسوف نعود إلى مناقشة هذا النوع من (عمليات) "إعادة التشكيل" مرَّة أخرى في الفصل الآتي. هذا، وقد كان يُطلقَ على هذا الضرب من الدرس قديمًا مصطلح "الفيلولوجيا المقارنة" comparative philology. وهي التسمية التي كانت تتسبب أحيانًا في إحداث قدر من اللبس في المصنفات اللغوية. وذلك لأن مصطلح philology كان يوظَّف في الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا، وألمانيا، للإشارة إلى دراسة النصوص الأدبية عادة.

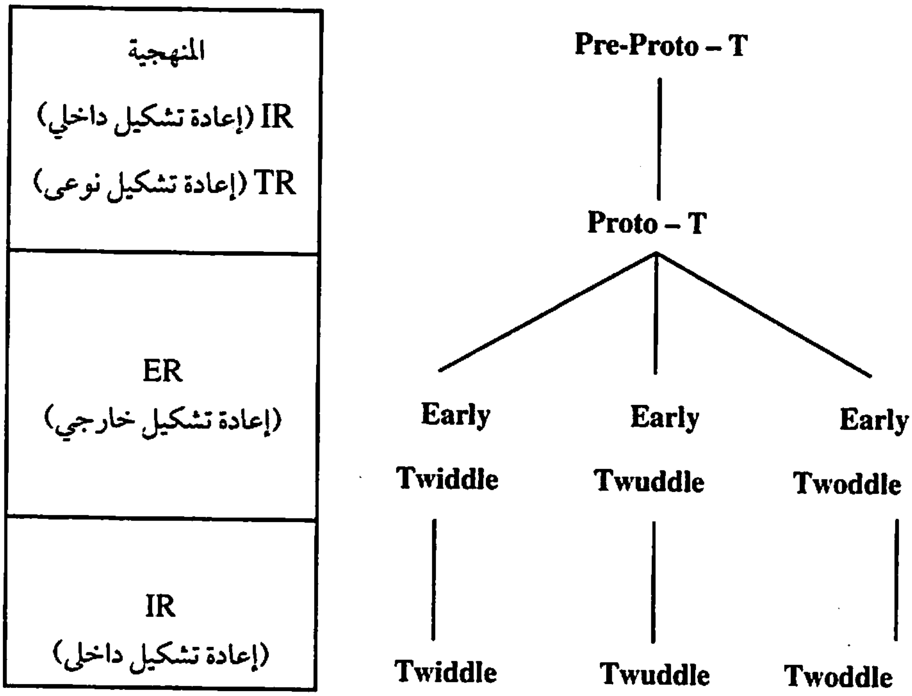
وثمة نوع ثانٍ من أنواع (عمليات) إعادة التشكيل، يُعرَف عادة باسم: "إعادة التشكيل الداخلي" internal reconstruction. ويدرس اللسانيون في هذا الضرب من "إعادة التشكيل"، الحالةَ التي كانت عليها إحدى اللغات، في مرحلة زمنية واحدة بعينها. وعبر مقارنة العناصر اللغوية التي يرجِّح الدارسون أنها تتقاسم أصلا مشتركًا واحدًا، يتمكن هؤلاء الدارسون غالبًا من استخلاص بعض النتائج المتعلقة بالأشكال القديمة لهذه العناصر. ودونك مثالا بسيطًا لتوضيح ذلك: تأمل معى الكلمتين long و longer. فكلٌ من /lɒŋ/ و /lɒŋg/ (بالصوت/ g/ في آخره) هو "ألوموروف" للمورفيم long. وهذا ما يدفعنا إلى افتراض أنهما كانا في الأصل متطابقين، وأن كلمة long كانت تنطق في زمان ما بصوت الـ [g] في آخرها (وهو النطق الذي مازال مسموعًا في بعض الأجزاء من بريطانيا، مثل "ليفربول" Liverpool).

وأما النوع الثالث من أنواع (عمليات) "إعادة التشكيل"، فهو "إعادة التشكيل النوعي" typological reconstruction. وهو نوع أحدث نسبيًا من سابقيْه. فقد جعل اللسانيون يتمكنون من تقسيم اللغات إلى أنواع مختلفة، ومن إدراك السمات الأساسية الخاصة بكل نوع منها. ويُعرَف هذا الفرع من فروع اللسانيات بـ"علم التصنيف النوعي للغات" language typology. فمثلا: نجد أن اللغات التي يقع فيها الفعل بعد المفعول به- كاللغة الهندية - يغلِب عليها - كذلك - أن تضع الفعلَ المساعد بعد الفعل الرئيسي. وفى المقابل، نجد أن اللغات التي يقع فيها الفعلُ قبل

المفعول به - كاللغة الإنجليزية- يغلِب عليها - كذلك - أن تضع الفعلَ المساعد قبل الفعل الرئيسي. وعلى ذلك، فلو أتيح لنا أن نعثر على آثار لإحدى اللغات، ثم وجدنا في تلك الآثار أن الفعل المساعد يقع بعد الفعل، إذن لساغ لنا التوقع بأن المفعول به يقع في هذه اللغة قبل الفعل، ولو لم يتوافر لنا دليلٌ مباشر على ذلك.وسوف نعود إلى مناقشة هذا التصنيف النوعي مرة أخرى، في الفصل الآتي.

وتعالوا بنا - بعد - ننظر في الكيفية التي قد نوظِّف بها هذه الأنواعُ الثلاثة من (عمليات) "إعادة التشكيل". وسوف نفترض - في سبيل ذلك - أن لدينا ثلاث لغات متواشِجة، هي: **Twiddle** ، و **Twuddle** ، و **Twoddle**. وكذا سنفترض أننا لا نمتلك أيَّ سجلات قديمة لهذه اللغات، بل كل ما لدينا بشأنها هو سجلّات لها في حالتها الراهنة. فإذا شرعنا في المعالجة، فإننا - أولا - سنوظف (عملية) "إعادة التشكيل الداخلي" - وسنرمز لها بـ (IR)؛ لنعيد تشكيل إحدى الحالات - أو الصور - القديمة التي كانت عليها كلٌّ من هذه اللغات. أعني: **Early Twiddle**، و **Early Twuddle**، و **Early Twoddle**. وفى الخطوة الثانية، سنوظف عملية "إعادة التشكيل الخارجي" - وسنرمز لها بـ (ER)؛ لنعيد تشكيل "اللغة الأم" **Proto-T** لتلك اللغات، أي المصدر القديم المشترك لها. وفى الخطوة الأخيرة، سنعاود تارة أخرى توظيف (عملية)" إعادة التشكيل الداخلي"، ولكنْ مركّبة هذه المرة مع (عملية) "إعادة التشكيل النوعي" - وسنرمز لها بـ(TR)؛ لنعيد تشكيل صورةٍ أقدم للغة الأم لهذه اللغات **Proto - T** ، أعني صورة لما قبل اللغة الأم **Pre-Proto-T** (الرسم التوضيحي ١٣-٤)

وبهذه المنهجية، ربما نستطيع أن نعيد تشكيل المراحل التاريخية المحتملة لهذه اللغات. وهى المراحل التي قد تمتد إلى مئات من السنين، بل ربما الآلاف.



(الرسم التوضيحي ١٣- ٤)

لقد عُنى فصلنا هذا – إذن- بدراسة الكيفية التي تتغير بها اللغـاتُ الإنـسانية، والنظرِ في الأسباب التي تقف من وراء حصول هذا التغير. وكذا عُنـى بتقـديم درس موجز للكيفية التي يعيد بها اللسانيون تشكيل المراحل اللغوية القديمة التـي تُعْوِزهـا الوثائقُ المكتوبة. وسوف نناقش (عمليـة) "إعـادة التـشكيل" هـذه تـارةً أخـرى، في الفصل الآتي.

فلنتذكر:

- شاع بين الدارسين ذات يوم أن "التغير اللغوي" يمثّل ظاهرةً غامضة، وغير قابلة للتنبؤ.
- يُعَدّ اللساني الأمريكي "وليام لابوف" أوّلَ من درس ضروب التغير اللغوي التي كانت في طور الحدوث في عصره.
- تنتشر ضروبُ التغير اللغوي من شخص إلى آخر؛ لعدّة أسباب. أهمها: رغبة الناس في التحدث على النحو الذي يتحدث به من يتمتعون بإعجابهم واحترامهم.
- يَعْمَد الناسُ أحيانًا إلى تغيير الطريقة التي يتحدثون بها. ولكنهم – في أحيان أخرى- يصنعون ذلك غير عامدين إليه.
- يكثر أن ينتشر التغير اللغويُّ داخل بنية اللغة عبر ما يُسمَّى بـ(عملية) "الانتشار المعجمي". حيث يتسلل هذا التغير من كلمة إلى أخرى، فثالثة... إلخ.
- يسلِّم اللسانيون بأن "التغير اللغوي" لا يقع على نحو عشوائي. وذلك لعدة أسباب. منها: ما نلاحظه من حصول ضروب متماثلة من التغير في كل أنحاء العالم، بلغاته المختلفة. ومنها – كذلك – أن أيًّا من ضروب هذا التغير لم يُفْض إلى فقدان اللغة لقوالبها الأساسية التي تنتظم مكوناتِها المختلفة.
- يمكن للعواملِ الاجتماعية المختلفة أن تَقْتَدِح أحد ضروب التغير اللغوي. وهذا التغير المُقتَدح ربما تسبَّب في إحداثه على المدى الطويل: إما نزعات طبيعية عميقة تشتغل في اللغة محلِّ التغير، وإما نزعات علاجية. أعني: تلك الحاجة إلى ترميم "القوالب اللغوية" التي "كسرها" الاستعمالُ اللغوي.
- تتَّسم بعضُ ضروب التغير اللغوي بالتعقد؛ حيث لا يقف من وراء حصولها سببٌ واحد بعينه، بل أسبابٌ متعددة، تفاعل بعضُها مع بعض.
- يستطيع الدارسون أن يتبيّنوا قدرًا أكبر من المعلومات بشأن ضروب "التغير اللغوي"، عبر النظر في نظائرها مما وقع من زمان طويل مضى.
- يوظِّف اللسانيون وسائلَ متنوعة؛ لإعادة تشكيل المراحل القديمة للغات التي لا تتوافر لها نصوصٌ مكتوبة.

١٤

المقارنة بين اللغات

يلخِّص هذا الفصلُ القولَ في الوسائل المختلفة المتبعة لدى المقارنة بين اللغات، ويبحث في مصادر سماتها المشتركة. ثم يعرض للمعالم الرئيسية لفرضيات علم "اللسانيات التاريخية"، ومناهجه، ولمسألة إعادة تشكيل اللغة الأم **proto-language** التي تولدتْ- وكذا تطورتْ – من رحمها لغاتٌ أخرى. وينظر هذا الفصلُ – أخيرًا – في وسائل إضافية تهدُف إلى توسيع معرفتنا بالأطوار الغابرة للغة الإنسانية

تتباين التقديراتُ المتعلقة بعدد اللغات المختلفة في العالم تباينًا كبيرًا. ويرجع أحد أسباب هذا التباين إلى وجود اختلاف بين علماء اللسانيات حول التعريف الدقيق لكلمة "لغة" (يراجع: الفصل العاشر). ويقع العدد الذي يتردد في جُلّ التقديرات، في هذا الصدد، ما بين الأربعة آلاف لغة إلى الثمانية آلاف. وتُعنَى طائفة قليلة من اللسانيين بإنجاز دراسات يتعلّق كلٌ منها بلغة بعينها. في حين نجد طائفة أخرى، أكبر من سابقتها، منهمكةً في إنجاز دراسات أخرى تقارن بين أزواج من اللغات، أو مجموعاتٍ منها. وتهدُف تلك الطائفةُ الكبيرة من وراء عقد هذه المقارنات، إلى التعيين الدقيق لمواطن الاختلاف بين هذه اللغات تارة (**contrastive linguistics**: اللسانيات التقابلية)، وإلى تحديد مواطن الاتفاق بينها تارةٌ أخرى. وقد ترجع مواطن الاتفاق إلى عوامل عالمية، أو تاريخية وراثية **genetic**، أو جغرافية **areal**، أو نوعية **typological** .

اللسانيات التقابلية:

يُطلَق على الفرع المعرفي المعنيّ بالمقارنة بين اللغات؛ بغية الوقوف على مواطن الاختلاف بينها، مصطلح: "**اللسانيات التقابلية**" **contrastive linguistics** .

وينهض بهذا الضرب من الدرس -في المقام الأول- اللسانيون التطبيقيون **applied linguists**. وهو الوصف الذي يوسم به اللسانيون المعنيّون بتطبيق مبادئ اللسانيات في مجال تعليم اللغة. ولا شك في أننا نفيد من المعرفة المسبقة بالصعوبات التي قد يواجهها الراغبُ في تعلم إحدى اللغات. وهي الصعوبات التي يغلِب أن تتركز في المجالات التي تختلف فيها اللغةُ المستهدفة اختلافًا جِدّ كبير عن اللغة الأم لهذا المتعلم. فمثلا: تمتلك اللغة الهندية وسيلةً أساسية جِدّ بسيطة للتعبير عن النفي. وهي وضع كلمة النفي وحدها قبل الفعل الذي يقع بدوره في نهاية الجملة:

Bill Hindustani nahi hai.

Bill Indian not is

'Bill is not Indian'. ("بِلْ" ليس هنديًا)

وبسبب من ذلك، يصعب- في أحيان كثيرة- على متعلمي اللغة الإنجليزية من الهنود، أن يتكيفوا مع تفضيل اللغة الإنجليزية لاستعمال وسائل النفي في بداية الجملة؛ فيكثر إصدارهم جملا من مثل:

All of these pens don't work. (كل هذه الأقلام لا تعمل)

في حين يفضّل أهل الإنجليزية أن يقولوا – بالمعنى نفسه:

Non of these pens work.

ويُعنَى علماء "اللسانيات التقابلية"- كذلك- بإنجاز مقارنات مفصَّلة بين أزواج اللغات المختلفة؛ ليعيّنوا أوجه الاتفاق بينها تعيينًا دقيقًا؛ مما يمكّنهم من التنبؤ بالصعوبات التي قد يواجهها متعلمو هذه اللغات. ثم إن الوقوف على هذه الصعوبات المحتملة يؤثّر بدوره على إعداد المادة التعليمية المناسبة.

أوجه الشبه بين اللغات:

يكاد البحثُ عن أوجه التشابه بين اللغات – بالمفهوم الأوسع له – يكون محلّ اهتمام جميع علماء "اللسانيات" تقريبًا. وذلك لأن البحث عن الكليات اللغوية **language universals** يمثّل واحدًا من المهام الرئيسية للسانيات. ولكن واقع الحال

يشهد بأن جمهرة اللسانيين يجتزئون بدراسة السمات المميزة التي تتوزّعها مجموعاتٌ بعينها من اللغات، دون دراسة اللغات جميعها. وتقف من وراء تقاسُم بعض اللغات لسمات لغوية بعينها أسبابٌ عديدة، أهمها ثلاثة: أسباب تاريخية (وراثية) **genetic**، وأسباب جغرافية **areal**، وثالثة نوعية **typological**. فأما أوجه التشابه المؤسسة على السبب التاريخي (الوراثي)، فتحصُل حين تكون اللغات المعنية متحدرةً من أصل قديم واحد. وأما أوجه التشابه المؤسَّسة على العامل الجغرافي (أو الإقليمي)، فترجع إلى حصول تواصل بين اللغات المتجاورة. وأما أوجه التشابه المؤسسة على العامل النوعي، فتتحقق حين تكون اللغات المعنية منتميةً إلى نفس "النوع" اللغوي العام. ودعونا – بعد- نفرد كلا بدرس مستقل.

أوجه التشابه التاريخية المنشأ:

كان يُنظَر إلى علم اللسانيات في القرن التاسع عشر، على أن أهم مهامه تتمثّل في البحث الجاد عن اللغات المترابطة تاريخيًا، ومحاولة إعادة تكوين اللغة الأم الافتراضية التي تحدَّرتْ منها تلك اللغات (الفصل الثالث). وفي عصرنا هذا، تمثّل اللسانيات التاريخية المقارنة فرعًا من علم اللسانيات التاريخية، ويتيح لنا هذا الفرعُ المعرفي المقارن أن نتتبَّع ضروب التغيرات التي تعرّضتْ لها لغة ما، بداية من أية مرحلة من مراحلها التاريخية، وأن نميّز ما هو أصيل من سماتها عما هو جديد طارئ عليها.

وليس يتأتّى الحكمُ الصحيح على وجود صلة تاريخية بين لغتين- أو أكثر- أو عدم وجودها، من النظرة العَجْلَى لكلٍّ. فمثلا: تبدو اللغة الويلزية **Welsh**، والإسبانية، والروسية، للوهلة الأولى لغاتٍ جِدّ مختلفة. وبالرغم من ذلك، فهي جميعًا لغات هندية أوربية. فلا مَعْدَى لنا –إذنٍ- عن البحث عن **أوجه التطابق النظامية systematic correspondences** بين كلٍّ من اللغات المعنيّة، بدلا من البحث عن الكلمات التي تبدو متشابهة في كلٍّ؛ فإن هذا الضرب الأخير من البحث ربما يكون مُضلِلًا في هذا النوع من الدرس. فالمصادفة المجردة وحدها هي التي تفسّر لنا –مثلا– وجود تشابه بين الفعل **haben** (بمعنى: يملك) في اللغة الألمانية، والفعل **habere** بالمعنى نفسه في اللغة اللاتينية. كما أن التشابه البيِّن بين الكلمة التركية **plaz** (بمعنى: شاطئ)، والكلمة الفرنسية **plag** بالمعنى نفسه، إنما مردّه إلى أن الكلمة التركية مقترضة من اللغة الفرنسية. وفى المقابل، ربما ندهش حين نعلم أن الكلمتين **beef** (لحم بقر)،

و cow (بقرة)، مترابطتان تاريخيًا. وكذا قد نعجب حين يئول بنا التتبعُ التاريخي للكلمات paradise (جَنّة)، و dough (كعكة)، و fiction (قصة أدبية)، إلى تبين أنها جميعًا ترجع إلى كلمة في اللغة الهندية الأوربية الأم بمعنى: make (يصنع)، و mould (يزيّن)، و build (يبنى).

وثمة فرضيتان أساسيتان يتأسس عليهما بحثُنا عن أوجه التطابق النظامية بين لغتين، أو أكثر. فأما الفرضية الأولى، فهي أن الرموز اللغوية رموز اعتباطية arbitrary في المقام الأول. أي أنه لا توجد علاقة بين أصوات كلمات اللغة، وبين معاني تلك الكلمات، إلا في عدد محدود من الكلمات التي تصادف أن حاكت أصواتُها دلالاتِها onomatopoeic words، على نحو ما أوضحنا في الفصل الثاني(١). وعلى ذلك، فإذا أعْوَزنا تفسيرُ وجود أوجه تشابه بين عدد من اللغات، في ضوء اقتراض إحداها من الأخرى، فإن هذه المشابهة قد تكون راجعةً إلى وجود أصل واحد مشترك تحدرتْ منه هذه اللغات.

وأما الفرضية الثانية، فهي أن التغيرات الصوتية تتميز في جُلّ حالات وقوعها بالاطّراد. فإذا حدث أن تغير صوت ما، فإن كلَّ الأصوات المماثلة له سوف تتغير - كذلك-إذا وقعتْ في نفس السياق الصوتي، وفى نفس المنطقة الجغرافية. فعلى هَدْى من هاتين الفرضيتين - إذن- ربما نستطيع أن نضع أيدينا على أوجه تطابقٍ نظامية، وذات مصداقية، بين اللغات المتعددة المترابطة تاريخيًا.

خلاصة:

ثمة فرضيتان أساسيتان تتأسس عليهما "اللسانيات التاريخية المقارنة". أولاهما: أن العلاقة بين الأصوات ومعاني الكلمات علاقة "اعتباطية". والثانية: أن التغير الصوتي يتسم بالاطّراد. بمعنى أنه إذا تعرّض أحد الأصوات للتغير، فإنّ كل الأصوات المماثلة له تخضع لنفس هذا التغير، إذا وقعتْ في نفس السياق الصوتي، وفى نفس المنطقة الجغرافية.

إن أوجه التماثل التي نبحث عنها: إما أن تُلتَمس في مجال الأصوات، أو في مجال النظام الصرفي، للغات المدروسة. ويتميز التشابه في هذا المجال الأخير بأنه أصدقُ

---

(١) فصل "ما اللغة؟" (ص٥٢). وقد قلت في التعليق على سمة "الاعتباطية" هذه، إن العربية تتمتع بخصائص دلالية، ربما يفضي القول بها، والتأمل فيها، إلى إعادة النظر في التسليم بهذه "الاعتباطية"، ولو فيما يخص العربية وحدها، على الأقل. (ينظر تفصيل ما قلته في الهامش رقم (١) من (ص٥١) من هذا الفصل. [المترجم].

دلالةً على وجود وشيجة تاريخية بين اللغتين – أو اللغات – المدروسة؛ إذ ينـدُر أن تستعير لغةٌ ما النظام الصرفيَّ للغة أخرى، وإن كان ذلك غير مستحيل الحدوث. ويعرض الرسم التوضيحي (١٤-١) أمثلةً للتشابه في مجال الأصوات بين كلٍّ من اللغتين الإنجليزية، والألمانية:

اللغة الألمانية			اللغة الإنجليزية
/d/			/ θ/
dick	fat	⟷	thick
Ding	thing	⟷	thing
Bad	bath	⟷	bath
/ʃv/			/sw/
schwimen	swim	⟷	swim
Schwingen	swing (يتأرجح)	⟷	swing
Schwan	swan (بجعة)	⟷	swan

الرسم التوضيحي (١٤-١).

فهذا التناظر الصوتي المطّرد بين الكلمات ذات المعاني المتماثلة، أو المتشابهة، يقدح الشرارة الأولى للقول بوجود علاقة بين لغتين، أو أكثر. وكلما ازدادت أمثلةُ هذا التناظر الصوتي، زادت أرْجَحِيَّة القول بوجود هذه العلاقة. ففي المثال المقتبس توًّا من اللغتين: الإنجليزية والألمانية، يبدو جليًا أن الكلمات جِدّ متشابهة. بيد أن هذا القدر من التشابه لا يمثّل شرطًا لازمًا للقول بوجود صلة بين لغتين – أو أكثر – كما سبق ذِكْره. فمثلا: يمكننا أن ندرك الصلة بين اللغتين: الإنجليزية واللاتينية، استهداءً بالتناظر الصوتي الحاصل بين كلمات من مثل:

الإنجليزية		اللاتينية
father		pater 'father'
foot		pes 'foot'

حيث يناظر صوت الـ (p) في اللغة اللاتينية، صوت الـ (f) في اللغة الإنجليزية، تناظرًا مطّردًا.

ولكننا لا يجب أن نسلّم دائمًا بدلالة أمثلة التناظر الصوتي بين بعض اللغات على وجود علاقة بينها دونما تمحيص، وإمعان نظر. فربما يتكشّف لنا أحيانًا أننا بإزاء سلسلة من الكلمات المقترضة التي اعتراها شيء من التغيير بعد اقتراضها. فمثلا: يبدو أن ثمة تناظرًا ظاهريًا بين الكلمات الآتية في كلٍّ من اللغتين: الفرنسية، والإنجليزية:

الإنجليزية		الفرنسية
mutton	(لحم غنم...)	mouton 'sheep'
button	(زِرّ)	bouton 'button'
glutton	(نهم)	gluton 'glatton'

بيد أن البحث يكشف عن أن هذه الكلماتِ كلَّها كلماتٌ مقترضة من اللغة الفرنسية إبّان الغزو النورماندي(١). وأما التشابه – أو التناظر – في النظام الصرفي، بين لغتين – أو أكثر – فهو أوثق دلالةً على وجود صلة بينها. ويتضمن الرسم التوضيحي (١٤-٢) مثالا على هذا التشابه في النظام الصرفي بين اللغتين: الألمانية، والإنجليزية.

---

(١) وقع هذا الغزو في العام (١٠٦٦م). وكان النورمانديون يتحدثون الفرنسية، أو ما يُسمَّى بـ"الفرنسية النورماندية". وترتب على ذلك أن حلّت هذه الفرنسية محلَّ الإنجليزية، بوصف تلك الفرنسية لغة المقامات الرفيعة، لمدة قرنين من الزمان. ثم أعادت الإنجليزية فَرْض نفسها، ولكن بعد أن اكتسبت الآلاف من الكلمات المقترضة من "الفرنسية النورماندية"، خلال ذَيْنك القرنين. ينظر: Trask, The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, p. 105. وللمزيد: The Oxford History of English, pp. 63-69. [المترجم].

اللغة الألمانية

No suffix (بدون لاحقة)	/ə/		/ste/
klein	Kleiner	⟷	Kleinste
schnell	schneller	⟷	schnellste
reich	reicher	⟷	reichste

اللغة الإنجليزية

No suffix	/ə/		/est/
small	smaller	⟷	smallest
quick	quicker	⟷	quickest
rich	richer	⟷	richest

الرسم التوضيحي (١٤-٢).

إن مثل هذا التشابه يبرهن بلا أدنى ريب على أن ثمة صلةً بين هاتين اللغتين. وفي مطلع القرن العشرين، صُنفت اللغة الحيثية[1] **Hittite** على أنها لغة هندية أوربية؛ تأسيسًا على التشابه في النظام الصرفي، على الرغم من أن مفردات هذه اللغة تتألف – في معظمها– من كلمات غير "هندية أوربية".

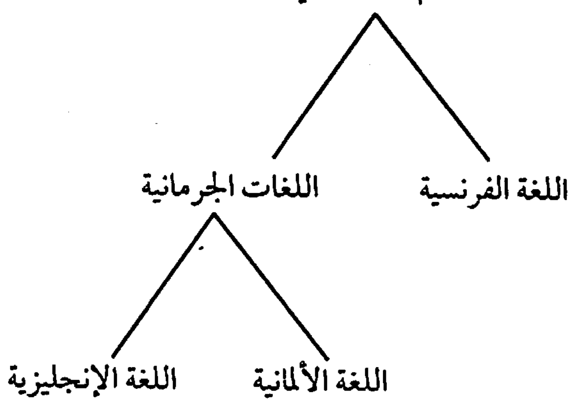
تكوين شجرة عائلة لغوية:

حين نفرُغ من إثبات وجود ارتباطات بين عدد من اللغات، فإن ما يجب أن يعقُب ذلك هو أن نطرح فَرَضِيّة تَصِفُ الكيفية التي ارتبطتْ بها هذه اللغاتُ وصفًا دقيقًا. فإذا وقفنا على أن ثمة ارتباطًا – أو نَسَبًا **cognate**– بين لغات ثلاث: كالألمانية، والإنجليزية، والفرنسية– مثلا– فإننا مطالبون –بعد– بالإجابة عن السؤال الآتي:

---

(١) سبق التعريف بها في الفصل الثالث (اتجاهات دراسة اللغة) (ص٧٣). [المترجم].

هل هذه اللغات الثلاث تمثّل ثلاثة أفرع منفصلة نَبَتَتْ من أمّ واحدة، أم أن اثنتين منها – وهذا هو الصحيح المختار في حالتنا هذه- قد تولّدتْ إحداهما من الأخرى، في مرحلة تالية؟ (الرسم التوضيحي ١٤-٣).



(الرسم التوضيحي ١٤-٣)

ثم إن من شأن إقرارنا لهذا الاحتمال الثاني أن يؤثّر على (عملية) إعادة تشكيل اللغة الأم؛ إذ سيلزمنا حينئذ أن نعيد – أولا- تشكيلَ الأصل الذي تحدّرتْ منه اللغتان: الألمانية، والإنجليزية، قبل أن نتقدم إلى المرحلة التالية. أعني مرحلة إعادة تشكيل الأصل العام المشترك.

إعادة تشكيل اللغة الأم:

يمكننا – حين نفرغ من تأسيس شجرة إحدى العائلات اللغوية – أن نبدأ في إعادة تشكيل **reconstructing** اللغة الأم لهذه العائلة اللغوية. ويتأتّى لنا إنجازُ ذلك بالنظر في ما يُسمَّى بـ"حكم الأغلبية" في المقام الأول. أعني أننا ننظر في الأصوات الموجودة في اللغات الشقيقة ذات العمر المتقارب، ثم يقفو ذلك طَرْحُنا للفرضية الأولى. وهي أن الأصوات التي تتوزَّعها أغلبيةُ هذه اللغات، ربما تمثّل الأصواتَ الأصلية لهذه العائلة اللغوية. فمثلا: حين ننظر في اللغات الهندية الأوربية نجد أن كلا من الكلمات الآتية: **sapte** في اللغة السَّنْسكريتية، و **hepta** في اللغة اليونانية،

وseptem في اللغة اللاتينية، يدلّ على معنى واحد هو الرقم "سبعة". وتأسيسًا على ذلك، يمكننا أن نفترض أن اللغة الأم، ربما كانت تشتمل على الكلمة [septa] أصلا تحدّرتْ منه كلماتُ هذه المجموعة.

وأما خطوتنا التالية، فيجب أن تكون التحقُّق من افتراضنا الأوَّلي السابق. ويتأتّى ذلك بالنظر في التغيرات التي افترضنا حصولها: أهي سائغة صوتيًا، أم غير سائغة؟ فنحن نفترض مثلا أن صوت الـ [s] في اللغة اليونانية، قد تغير إلى [h]. وأن صوت الـ [e] في اللغة السَّنْسكْريتية، قد تغير إلى [a]. وأن هذا الأخير في اللغة اللاتينية، قد تغير إلى [em] . فهل مثل هذه التغيرات – بعد- ممكنة، أم راجحة ؟ أما في حالتنا هذه، فستكون الإجابة "نعم"، بشأن تغير [s] إلى [h] ، وتغير [e] إلى [a]. ولكنها ستكون "لا"، بشأن تحول [a] إلى [em]؛ فهذا افتراض بعيد الاحتمال. وربما يكون الأكثر أرْجَحِيّة هو تحوُّل [em] إلى [a]. فهل يمكننا- إذن – أن نطرح [septem] أصلا للكلمات السابقة، بدلا من [septa] ؟

بل إننا حين نُمعن في تحقيق هذه المسألة، نتبين أن اللغتين: اليونانية، والسَّنْسكريتية، لا يطّرد فقدُهما لكل أثرٍ للصوت (m) في نهايات الكلمات. فلابد- إذن – من وجود شيء ما غير صحيح، هنا أو هناك. وربما يكون الاحتمال الأكثر قبولا – أو معقولية- أن المقطع الأخير كان في أصله شديد الشَّبَه بذلك الصوت الذي يُسمَع أحيانًا في نهاية كلمة madam، في اللغة الإنجليزية. حيث تبدو طريقة نطق هذا الصوت مشابهة لطريقة نطق الصوائت. فهذا الصوت المشابه للصوائت – وهو يكتب أحيانًا: (m̩)- يشيع تحوله: إما إلى [a] أو [em]. وعلى ذلك، تنتهي بنا عملية إعادة تشكيل هذه الكلمة الدالة على الرقم "سبعة"، في اللغة الأم المفترضة، إلى ترجيح أنها كانت (septem̩).

خلاصة:
حين نشرع في (عملية) إعادة تشكيل كلمات اللغة الأم، فإننا نسترشد – في المقام الأول- بـ"حكم الأغلبية"، وبالاحتمالات الصوتية.

وفضلا عن شروعنا في التشكيل التدريجي لصورة اللغة الأم، فإننا نحتاج – كذلك- إلى التحقق مِنْ أنّ الصورة التي انتهينا إليها يمكن أن تمثّل فعلا لغة أمًّا لعدد من اللغات، في ضوء معرفتنا بعموم اللغات الإنسانية. فإذا تبين لنا أن هذه الصورة لا

تكاد تمتّ بشبه لأية لغة نعرفها، لزمنا أن نتشكك في نتائج عملنا، وأن نعيد النظر في المقدمات التي أفضت إليها.

افتقاد (عمليات) إعادة تشكيل اللغة الأم للموثوقية:

مما يُؤسَف له أن جهود اللسانيين المبذولة في سبيل إعادة تشكيل صورة صحيحة دقيقة للغة الأم، لا تكلَّل ضرورةً بالنجاح. وذلك لعدة أسباب. منها: أنه توجد دائمًا فجوة جِدّ كبيرة في الأدلة المتاحة لنا. ففي عملية إعادة تشكيل اللغة الهندية الأوربية الأم – مثلا– أفرط اللسانيون في الاعتماد على اللغات: اليونانية، واللاتينية، والسَّنْسكريتية؛ بسبب توافر عدد كثير من الآثار الباقية المكتوبة بهذه اللغات. بيد أن وقوفنا على آثار كتابية مماثلة للغة الألبانية، أو الأرمينية، قد يغيّر الصورة تغييرًا لم يخطُر للسانيين على بال. وأما ثاني هذه الأسباب، فهو أنه لا يتاح لنا دائمًا أن نستنبط النُّطْق الفعلي من خلال النصوص المكتوبة. وبالرغم من ذلك، نجد أن جهودنا في عمليات إعادة التشكيل تعتمد – في المقام الأول – على هذه النصوص. وأما السبب الثالث، فهو أنه لا تكاد توجد لغة من اللغات الأم، تتميز بتألفها من بنية موحَّدة متجانسة. فواقع الحال يشهد بأن بنية أي من اللغات الإنسانية تنتظم تنوعاتٍ لهجية مختلفة. وعلى ذلك، يترجح أن تنتظم (عملية) إعادة التشكيل هذه، كلماتٍ خليطًا ترجع إلى لهجات متعددة. وأما السبب الرابع، فهو أن اللغات الشقيقة تخضع أحيانًا لضروب من التغيرات المستقلة، والمتوازية، التي قد تفضي إلى إعطاء صورة غير صادقة للغة الأم. فمثلا: لو لم يكن لدينا سوى اللغات: الإنجليزية، والروسية، والإيطالية، فقط، لكنا قد استنبطنا خطأً أن اللغة "الهندية الأوربية الأم" كانت تتميز بما يُسمَّى بـ"النبر الارتكازي" stress accent في حين أن ما حدث هو أن النبر قد تطوَّر على نحو مستقل في هذه اللغات الثلاث، بعد انشعاب اللغة الأم. وأما السبب الخامس – والأخير– فهو أن "الاقتراض" من اللغات المجاورة قد يفضى إلى إعطاء صورة غير صادقة للغة الأم كذلك.

ويتكشّف لنا – أخيرًا – أن عملياتِ إعادة التشكيل هذه، لا تمثّل إلا أفضل "التخمينات" التي يمكن أن نكوّنها بشأن اللغة الأم، في ضوء المعارف المتاحة لنا حاليًا. ولا يمتلك أحدُنا – في عصرنا هذا– تلك الثقة التي تلبَّسها أحدُ علماء القرن

التاسع عشر، حين حاول أن يترجم إحدى خرافات "إيسوب"[1] Aesope's fables إلى اللغة الهندية الأوربية الأم! إن أهمية عمليات إعادة تشكيل اللغة الأم تتمثل – في المقام الأول – في أنها تَرْفِدنا بخلاصة مناسبة، تتضمن السماتِ اللغوية الموروثة المحتملة؛ مما يتيح للسانيين أن يميزوا بين ما هو أصيل مُعْرِق من السمات اللغوية، وما هو جديد مُستحدَث منها.

المناطــق اللغويــة:

حين نقف على وجود بعض أوجه التماثل بين عدد من اللغات المتجاورة، يجب أن نفترض أن ما يُسَمَّى بـ "الاقتراض" يقف سببًا من وراء ذلك. فواقع الحال يشهد بأن اللغات التي يقع بينها قَدْرٌ من التواصل، يكثُر أن تستعير إحداها من جاراتها الأخرى بعضَ سماتها اللغوية. وتتميز المفردات المقترضة في عمومها بأنها من المفردات الشائعة في الاستعمال اللغوي. فمثلا: نجد أن اللغة الإنجليزية قد اقترضت عددًا جِدَّ كثير من المفردات المتعلقة بالطعام، من اللغة الفرنسية، مثل: **courgettes** (كوسة)، و **aubergines** (باذنجان)، و **pâté** (فطيرة محشوّة). وأما اقتراض التراكيب، فيغلِب حصولُه إذا كانت اللغات متشابهةً في خصائصها التركيبية. بل حتى تلك غير المتشابهة تركيبيًا، قد يتسرب إلى بعضها بمرور الزمن، وعلى نحو تدريجي، عددٌ من الخصائص التركيبية للبعض الآخر. فإذا ما ذاعت سماتٌ لغوية بعينها، في زمام مكاني متراحب، ذيوعًا لا تخطئه الملاحظة، فإن اللسانيين يوصِّفون ذلك على أننا بإزاء "مناطق لغوية".

وثمة سببان يقفان من وراء دراستنا للسمات اللغوية المشتركة التي تشيع في مناطقَ جغرافية بعينها. فأما أولهما، فهو أن من شأن معرفتنا بالكيفية التي يمكن أن تؤثّر بها لغة في أخرى، أن يوسّع أفق فهمنا لعملية التغير اللغوي. وأما ثانيهما، فهو أن من المهم أن نعيّن السمات اللغوية التي تتوزَّعها اللغاتُ بسبب من عامل الاقتراض؛ فلا نخلط بين هذه السمات – إذن– وبين سائر السمات التي تقاسمتها بعضُ اللغات بسبب من العامل "التاريخي" **genetic**، والعامل "النوعي" **typological**.

---

(١) "إيسوب" Aesop (٦٢٠– ٥٦٠ ق. م تقريبًا): كاتب يوناني شبه أسطوري، يُنسَب إليه تأليف مئات من الخرافات، أو الحكايات الرمزية التي تجرى على ألسنة الحيوانات. وتتميز حكاياته بأهدافها التربوية الأخلاقية، حيث ينتهي جُلّها بحكمة أخلاقية. [المترجم].

إن السماتِ اللغويةَ الجغرافية يمكن أن تنتظم أية ظاهرة لغوية. فمثلا: نجد أن اللغات: الصينية، والتايية Thai، والفيتنامية، تتميز جميعها بأنها لغات تتكلم بها شعوبٌ تعيش في الشرق الأقصى. ثم تتميز جميعها- كذلك - بأنها لغات نغمية(١) tone languages. ويبدو جليًا أن اشتراك هذه اللغات في هذه السمة اللغوية، قد تأتّى من حصول تواصل بين الشعوب المتكلمة بها. وفى الهند توجد لغات متباينة الأصول أشدَّ التباين. ولكنها جميعًا طورتْ نوعًا خاصًا من الأصوات، يُعرَف بـ"الصوت الالتوائي" retroflex. وهو الصوت الذي يصحب النطقَ به التواءُ اللسان للخلف صَوْبَ الحنك الصُّلب(٢).

ونقف - كذلك - في عدد من اللغات بمنطقة البلقان على أوجه من التشابه، يبدو أنها راجعة إلى التقارب المكاني بين الشعوب المتكلمة بهذه اللغات. واللغات: الألبانية، والبلغارية، والرومانية، كلُّها تشتمل على ما يُسمَّى بـ"أداة التعريف" :(the)، واقعةً مباشرة بعد الاسم. فمثلا: يقال في اللغة الرومانية: munte - le بمعنى: mountain- the. ويبدو واضحًا أن التركيب- بترتيبه هذا- مُقترَض من اللغات المجاورة لها. وذلك لأننا نجد أن اللغات التي ترتبط بها اللغة الرومانية ارتباطًا أوثق، يُعكَس فيها ترتيب مثل هذا التركيب. فمثلا: يقال في اللغة الفرنسية - وهى لغة مرتبطة تاريخيًا بالرومانية-: le monte ، أي the mountain (الجبل). ونلاحظ- كذلك- أن هذه اللغاتِ الثلاثَ نَفْسَها- وكذا جارتها اليونانية المعاصرة- تشتمل على تركيب يناظر في ترتيب مكوناته قولَنا في اللغة الإنجليزية: Give me that I eat، في حين أننا كنا نتوقع - تأسيسًا على ما في اللغات الأوربية الأخرى - أن يتحقق هذا التركيب في هذه اللغات بالترتيب التالي: Give me to eat.

---

(١) اللغات النغمية هي اللغات التي توظِّف درجة النغمة- أو مستواها- للتمييز بين المعاني المعجمية للمفردات، وكذا للتمييز بين الفصائل النحوية.ينظر: Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, p. 390 . وقد سبق التنويه بمثل هذا النوع من اللغات، في الفصل الخامس من كتابنا هذا (القوالب الصوتية)، (ص ١٢٠). [المترجم].

(٢) الحنك الصلب palate : هو الجزء الخشن من سقف الفم، التالي للثة الأسنان العليا. ويتلوه الحنك اللين. وهو الجزء الناعم من ذلك السقف الذي ينتهي باللهاة. وسوف يأتي - في آخر الكتاب - عرض لجهاز النطق الإنساني. [المترجم].

ويبدو – بعد – أن هذه السمات اللغوية الخاصة، قد انتشرت إبّان القرون التي كانت الثقافة البيزنطية خلالها قوة موحِّدة، في هذا الجزء من العالم.

خلاصة:

حين تنتشر في إحدى المناطق سماتٌ لغوية متماثلة عبر الاقتراض، فإننا نكون بإزاء ما يسمَّى: "منطقة لغوية".

ولا يحصُل انتقالُ السمات اللغوية من لغة إلى أخرى بطريق الاقتراض دَفْقةً واحدة، بل يحصُل خفيًا بطيئًا. وهذا ما قاد إلى توسيع زمام البحث في هذا المجال، بحيث يشمل عمليات الاقتراض الأقدم زمانيًا. إن السمات اللغوية التي تشترك فيها مجموعاتٌ بشرية تعيش في أكثر من منطقة جغرافية في عالمنا هذا، ربما تيسّر لنا فهم الهجرات السكانية في مرحلة ما قبل التاريخ. ويُعرَف هذا الاتجاه البحثي الآن باسم "التصنيف النوعي للسكان" **population typology**. فمثلا: تفرِّق بعض اللغات بين نوعين من الضمير (we): الأول: (we) الشمولي. وهو الذي يدل على الناس المشاركين في المحادثة وقت التكلم. والثاني: (we) الحصري. وهو الذي يستبعدهم. فعند قولنا– مثلا: **Yesterday we arrived.**

فإن عَدّ (we) من النوع الأول (الشمولي)، يجعل تفسير هذا الضمير شاملا للمتحدث وسائر الموجودين في وقت النطق بهذه العبارة. وأما عَدّ (we) من النوع الثاني (الحصري)، فيجعل مفهومه محصورًا في المتحدث وآخرين من غير الموجودين في وقت التكلم. أي أنه يستبعد الموجودين في ذلك الوقت.

ولا تكاد توجد لغةٌ أوربية تشتمل على هذه التفرقة، في حين أنها توجد في عدد جدّ كبير من اللغات التي يتكلمها الناسُ في جنوب آسيا، وشرقها. وكذا توجد في معظم اللغات الأسترالية. وهذا ما يجعلنا نفترض أن هذه السمة اللغوية ربما كانت سمة مُعْرِقةً في القِدَم، انتشرت انتشارًا بطيئًا صَوْبَ الغرب عبر القرون.

التصنيف النوعي للغات:

قد يقع التشابه في السمات التركيبية بين بعض اللغات الإنسانية؛ بسبب من انتماء تلك اللغات إلى نفس الصنف اللغوي النوعي. ومثلما يستطيع المتخصصون أن

يقسّموا البشر إلى أجناس عِرْقية مختلفة، معتبرين في ذلك التقسيم سماتٍ بعينها، مثل: بنية العظام، ولون البشرة، وفصيلة الدم، وغيرها. فكذا يستطيع اللسانيون تقسيم اللغات إلى مجموعات نوعية مختلفة.

وقد كان الفشلُ في الوقوف على عدد كبير من "الكليات اللغوية" ، أحدَ الأسباب التي أسهمتْ في ظهور الاهتمام الحديث بالتصنيف النوعي للغات. فقد ثبت أن ثمة صعوبةً في تعيين "الكليّات المطلقة". أعني تلك السمات اللغوية التي تتقاسمها كلُّ اللغات. وقد انتهى المطاف بكل أولئك الذين حاولوا تَعداد تلك الكليّات المطلقة، إلى تقرير مقولات مجملة مبهمة، من مثل: "كل اللغات تمتلك وسائل لتكوين الأسئلة". وحين حاول الدارسون أن يفسّروا تلك المقولات تفسيرًا دقيقًا مفصّلا، من مثل البحث في الكيفية التي تكونتْ بها الأسئلة، اتضح لهم أن ثمة وسائل بعينها تتكرر في اللغات الإنسانية، غير أن اللغات المختلفة قد آثرتْ تراكيب مختلفة.

وما من شك في أن الملاحظة القائلة بأن اللغات المختلفة تستعمل تراكيب متباينة، لا تمثّل – بأية حال– ملاحظةً جديدة. ولكن الجديد هو الاهتمام الحديث بكل من الكليّات والميول الاستتباعية **implicational universals and implicational tendencies**. بمعنى أنه إذا اشتملتْ إحدى اللغات على تركيب بعينه، فإننا نتوقع لها أن تتصف – كذلك– بسمات لغوية أخرى استتباعًا. ومثلما يستطيع أحدُنا أن يقرر أنه إذا امتلك حيوان ما ريشًا، ومنقارًا، فالمتوقع له – كذلك – أن يمتلك جناحين. فكذا يستطيع آخر أن يكوّن مقولاتٍ لغويةً من مثل: "إذا اشتملت لغة ما على قالب تركيبي أساسي مؤلف من: فاعل، وفعل، ومفعول به، فيُتوقَّع لها –كذلك– أن تشتمل على "حروف جر قبلية" **prepositions** (بدلا من حروف الجر البعدية **postpositions**)".

المعيار الصرفي لتصنيف اللغات:

تُرى: ما المعيار الذي يجب أن يكون الأساسَ المعتبر في عملية تصنيف اللغات؟ هناك جدل كبير حول الإجابة عن هذا السؤال. وقد تأسست الجهودُ اللسانية المبكرة في القرن العشرين، في هذا الصدد، على الطريقة التي تُعالَج بها المورفيمات **morphemes**.

ويتفاوت عدد هذه المورفيمات التي تشتمل عليها الكلمة، من لغة إلى أخرى. وكذا تتنوع الطرقُ التي تتركّب بها هذه "المورفيمات" داخل الكلمة. وفي القرن التاسع عشر، حاول العلماء أن يوظّفوا هذا المعيار؛ من أجل تقسيم اللغات إلى أنواع مختلفة. وقد أفضت بهم تلك المحاولاتُ إلى التمييز بين ثلاثة أنواع- على الأقل- من اللغات:

الأول: اللغات العازلة **isolating** (أو التحليلية **analytical**). وهي اللغات التي يغلِب على مفرداتها أن تتألف من مورفيم واحد. وهو ما عليه غالب الحال في اللغة الإنجليزية، كما في المثال الآتي:

Will you please let the dog out now?

(من فضلك، هل يمكن أن تترك الكلب في الخارج الآن؟)

النوع الثاني: اللغات الإلصاقية **agglutinating** (المصطلح مأخوذ من كلمة لاتينية بمعنى: يلصق شيئين معًا بالغِراء). وهي تلك اللغات التي تتميز مفرداتها بإمكانية التجزؤ إلى مورفيمات دونما صعوبة. ومن اللغات المشهورة بهذه الخصيصة الإلصاقية: اللغة التركية، واللغة السواحلية[1] **Swahili**. كما أن اللغة الإنجليزية تستعمل عملية "الإلصاق" هذه، وإنْ على نطاق محدود، من مثل:

lov-ing-ly (بِحُبّ).

faith-ful-ness (إخلاص).

النوع الثالث: اللغات الصاهرة **fusinal**. ويشمل تلك اللغات التي تصهَر المورفيمات معًا، على نحو يصعُب معه تمييز هذه المورفيمات في صورة عناصر منفصلة، كما هو الشأن في اللغة اللاتينية[2]. فمثلا: نجد في هذه اللغة أن المورفيم (**-us**) الواقع في نهاية كلمة **taurus** (بمعنى: ثور)، يدل على أن هذه الكلمة في حال: التذكير،

---

(١) سبق التعريف بها في الفصل الرابع (من أين نبدأ؟)، (هامش رقم ١ ص٩٢). [المترجم].

(٢) وكذا تصنّف العربية لغة "صاهرة" (أو اشتقاقية)؛ من حيث إن مفرداتها الأصيلة (أي غير المعرّبة ولا الدخيلة) تتألف من أحرف أصول (= جذور roots) يرتبط بها معنى معجمي عام، وتمتزج بها صوائت (قصيرة أو طويلة)، وأحرف زوائد، في هيئات منضبطة بعينها (= "صيغ" اسمية وفعلية)؛ للتعبير عن تحقق هذا المعنى المعجمي العام، في كيفيات وأزمان مختلفة. فالجذر الثلاثي الأصول (ف هـ م) -مثلا- يرتبط به معنى معجمي عام- وهو الإدراك الذهني لأمر ما- ثم قد تمتزج به فتحة قصيرة بعد حرفه الأول (الفاء)، وكسرة قصيرة بعد حرفه الثاني (الهاء)، وفتحة قصيرة بعد حرفه الثالث (الميم)- وهو ما يعبّر عنه بصيغة "فَعِلَ" (= فَهِمَ)- للتعبير عن تحصُّل هذا الإدراك الذهني (لشخص غائب) في زمان مضى. أو قد تمتزج به الألف والسين والتاء بهيئة خاصة (= صيغة "استفعل" = "استفهم") للتعبير عن طلب تحصيل هذا الإدراك الذهني (لشخص غائب) في زمن مضى... وهكذا. (ينظر: د. عبد الكريم محمد جبل: العلل الاشتقاقية لألفاظ الشجاعة والجبن ص٢٣٣- ٢٣٧). [المترجم].

والإفراد، والفاعلية. بيد أن هذه السمات الثلاث منصهرة؛ بحيث لا يمكن تفكيكُها إلى مكونات مستقلة. ومن الأمثلة العَرَضية لسمة "الصهر" هذه في اللغة الإنجليزية:

went = go + الزمن الماضي

لقد كان يُظَنّ في وقت مضى، أن اللغات الإنسانية قد اقتفت في تطورها عبر الزمن، نهجًا محددًا ثابتًا. حيث تكون في المرحلة الأولى من مراحل هذا التطور لغاتٍ عازلة، ثم تصير إلصاقيةً، لتنتهي إلى لغات صاهرة في المرحلة الأخيرة. وكذا كان الدارسون يتحدثون عن اللغتين: اليونانية، واللاتينية، حديثًا مشوبًا بالعاطفة، بوصفهما يمثّلان النموذج الأرقى والأكمل للغة الإنسانية. وكان يُنظَر إلى أي نماذج أخرى عدا ذلك النموذج، على أنها تمثّل ضربًا من الانحراف عن ذلك النموذج، أو على أنها عَرَضٌ من أعراض الانحطاط والبلى. وقد صوَّر اللساني والأنثروبولوجي الأمريكي "إدوارد سابير"(1) **Edward Spair** المغالطة في وجهة النظر هذه، تصويرًا دقيقًا بديعًا بقوله: "إن اللساني الذي يصرّ على الحديث عن النموذج الصرفي للغة اللاتينية، وكأنه كان يمثّل بالضرورة العلامة المائية **water mark**(2) العليا للتطور اللغوي، يُشْبه عالِم الأحياء الذي يرى في العالم العضوي **organic world** مؤامرةً هائلة لتطوير حصان السِّباق، أو بقرجزيرة (جِرْزي)(3) **Jersey**".

إن الخطأ الأساسي في هذا النوع من التصنيف الذي لخصناه توًّا، هو أنه لاتوجد لغة تتبنّى نظامًا صرفيًا واحدًا بعينه فقط. وقليلة هي اللغات التي يناسبها تصنيفٌ نوعي صرفي بعينه دون غيره. وأما أكثر اللغات، فتشتمل على عمليات صرفية

---

(1) "إدوارد سابير" (١٨٨٤ – ١٩٣٩م): لساني أمريكي مشهور. عُني بدراسة اللغات الأمريكية الهندية، ودراسة العلاقة بين اللغة والثقافة. وقد افترض أن تراكيب اللغة ومفرداتها ربما تؤثر على الطريقة التي يدرك بها الناس اللغة. وهي الفرضية التي طورها "ورف" Whorf، وصارت تعرف بـ"فرضية سابير – ورف" Sapir – Whorf hypothesis. ومن أشهر مؤلفاته: كتابه المعنون بـ Language. [للمزيد ينظر: جورج مونان: علم اللغة في القرن العشرين (ص٨١ – ٩٥)، وإفيتش: اتجاهات البحث اللساني (ص٢٧٥ – ٢٧٧)، وغيرهما جِدّ كثير)]. [المترجم].

(2) العلامة المائية هي العلامة التي تُظهر درجة ارتفاع مياه النهر (وغيره)، أو انخفاضه. [المترجم].

(3) تقع تلك الجزيرة في القنال الإنجليزي، جنوب بريطانيا، وشمال غرب فرنسا. ويقف من وراء شهرة أبقارها عدّة أسباب. منها: غزارة دَسَمِ ألبانها. [المترجم].

تتوزَّعها عددٌ من هذه التصنيفات السابقة. ويسبب من ذلك، يوظِّف معظم اللسانيين في زماننا هذا، معايير أخرى لتصنيف اللغات إلى أنواع مختلفة.

معيار ترتيب الكلمات داخل الجمل:

تعتمد اللغةُ الإنجليزية ترتيبَ الكلمات داخل الجملة، وسيلةً تركيبية أساسية في نظامها اللغوي. فإذا وظَّفْنا المصطلحَ اللساني الخاص بهذا الشأن، قلنا إن اللغة الإنجليزية لغة ترتيبية **configurational language** (ينظر: الفصل السابع). وربما كان هذا هو السبب في وجود قدر جِدّ كبير من الاهتمام بـ"ترتيب الكلمات"، بوصفه سمة نوعية تتمايز اللغات وَفْقًا لها. ولا يوجد بين أوجه الترتيب المحتملة للكلمات داخل الجملة إلا عددٌ محدود، هو الذي يشيع استعماله في اللغات المختلفة. ولكل وجه من أوجه الترتيب هذه سماتٌ معيَّنة، يمكن التنبؤ بها.

وأكثر التصنيفات الأولية شيوعًا في هذا الصدد: التصنيف الذي يعتبر ترتيب الفاعل **subject** (ويرمز له بالرمز: **S**)، والفعل **verb** (ويرمز له: **V**)، والمفعول به **object** (ويرمز له: **O**) في الجملة. ولدينا في هذا الصدد ستةُ احتمالات ممكنة من الناحية النظرية، على النحو الآتي [من اليسار إلى اليمين]:

المفعول به أولا	الفعل أولا	الفاعل / أو المسند إليه أولا
OVS	**VSO**	**SOV**
(مفعول به – فعل – فاعل)	(فعل – فاعل –مفعول به)	(فاعل – مفعول به – فعل)
OSV	**VOS**	**SVO**
(مفعول به – فاعل – فعل)	(فعل – مفعول به – فاعل)	(فاعل – فعل – مفعول به)

فإذا اعتبرنا واقع الحال، وجدنا أن الاحتمالات التي على اليسار (أي: حيث يقع الفاعل/ المسند إليه أولا) أكثر شيوعًا – بكثير جدًا – من تلك الاحتمالات التي في الوسط (أي حيث يقع الفعل أولا). وأما الاحتمالات التي على اليمين (أي حيث يقع

المفعول به أولا)، فشديدة الندرة. بل إننا – في واقع الحال – لم نعثر على أمثلة مؤكدة لهذا الترتيب الأخير. كما أن الأمثلة القليلة التي عُثر عليها للترتيب OVS (مفعول به + فعل + فاعل) قد تمركزت في أمريكا الجنوبية.

وهاكم – بعد – أمثلةً للغات التي يناسب كلا منها نَمَطٌ من الأنماط التركيبية السابقة، مع ذكر الترتيب الحرفي الذي ستتبعه كلٌّ من هذه اللغات لو أنها عبَّرتْ عن جملة:

The dog killed the duck . (الكلب قتل البطة)

(اللغة التركية):	**the dog the duck killed.**	**SOV**
اللغة الإنجليزية):	**the dog killed the duck .**	**SVO**
(اللغة الويلزية):	**killed the dog the duck.**	**VSO**
(اللغة المدغشقرية **Malagasy**):	**Killed the duck the dog.**	**VOS**
(اللغة الهِشكرينية **Hixkaryana**):	**the duck killed the dog.**	**OVS**

(الهِشكرينية هي إحدى اللغات المستعملة في أمريكا الجنوبية).

(اللغة الأبورينية **Aburina**):	**the duck the dog killed.**	**OSV**

(الأبورينية هي إحدى اللغات المستعملة في أمريكا الجنوبية).

خلاصة:
حاولت بعضُ الجهود الرائجة في مجال التصنيف النوعي للغات الإنسانية، أن تُصنِّف هذه اللغاتِ وَفْقًا للترتيب الذي تعتمده لكلٍّ من: الفاعل/ المسند إليه، والمفعول به، والفعل.

إن هذا التصنيف الأوَّلي تصنيف مفيد. ولكنه ينطوي – كسابقه – على بعض المشكلات. وأوضح تلك المشكلات وجود عددٍ من اللغات التي لا يمكن تسكينُها بسهولة في واحد من التقسيمات السابقة؛ لأسباب عديدة. منها: أنه ربما يستحيل علينا أن نعين النظام الأساسيَّ لترتيب الكلمات في بعض اللغات، كاللغتين الأستراليتين:

الدِّرْبلية" Dyirbal، و"الوُلْبِرية" walbiri. فهاتان اللغتان تبدوان بعيدتين كلَّ البعد عن اللغات الترتيبية؛ إذ تتمتع الكلمات في كل منهما بقدر جِدّ كبير من الحرية والمرونة في حركتها داخل الجمل. كما نجد في لغات أخرى أن نظام ترتيب الكلمات فيها يجمع بين الثبات والاختلاط. ففي اللغة الألمانية –مثلا– نجد أن ترتيب الكلمات في الجمل الأساسية هو SVO (فاعل – فعل – مفعول به)، ولكنه يتغير إلى SOV (فاعل – مفعول به – فعل) في الجمل الفرعية. فالألمان يقولون:

The dog killed the duck (SVO جملة أساسية).

في مقابل:

I heard that [the dog the duck killed] (SOV جملة فرعية)

وفضلا عن ذلك، فإننا نصادف في لغات أخرى عديدة صعوبةً بالغة في تعيين "فاعل" الفعل. ودونك – مثلا – الجملتين الآتيتين:

The dog killed the duck . (الكلب قتل البطة)

The dog ran away. (الكلب هرب)

ففي اللغة الإنجليزية، سيُنظَر إلى **(the dog)** على أنه الفاعل **subject** في كلتا الجملتين. ولكننا نجد في لغات أخرى، مثل اللغة الـ"إنويتية" **Innuit**- وهي إحدى لغات شعب الاسكيمو – أن **(the duck)** سوف يُعطَى في الجملة الأولى نفس النهايات التصريفية التي سيعطاها **(the dog)** في الجملة الثانية. فمثل هذه الحالات تصعّب علينا أن نقرر – على نحو يوثق به – ماهية "الفاعل"، وماهية "المفعول به". فإذا عدنا إلى لغة الـ "إنويت" لنقف على العلّة في حالتها التي عرضنا لها عرضًا مبسطًا، وجدنا أن هذه اللغة تشتمل على نهاية معيارية تضاف إلى معظم الأسماء. ولكن هذه النهاية المعيارية تتغير في الحالات التي تشتمل فيها الجملةُ على اسمين، لا اسم واحد. ففي مثل تلك الحالات، يُعطَى المشارك الأنشط منهما – أي: الفاعل الحقيقي **agent**- نهاية خاصة. وهكذا نرى أن بعض الحالات مثل تلك السابقة تُصعّب علينا أن نصل إلى آراء حاسمة ذات موثوقية بشأن ماهية "الفاعل".

وفضلا عن ذلك، نجد أن اللغات المسماة بـ"اللغات المسقطة للضمائر" pro-drop languages تطرح مشكلاتٍ أخرى. فهذه اللغات تتميز بجواز إسقاط الضمائر في تراكيبها. ويكثر أن تكون هذه الضمائر ضمائر الفاعل. ففي اللغة اللاتينية- مثلا- كان استعمال cano (sing-I) (أغنِّي - أنا) أشيع من استعمال ego cano (I sing-I) (أنا أُغنِّي- أنا)، حيث لا يضاف الضمير إلا إذا كان ثمة حاجة إلى مزيد من التركيز عليه. ففي مثل تلك اللغات، لا يحصُل بالضرورة تطابقٌ بين ترتيب الفعل والمفعول به عند إسقاط الضمير، وبين ترتيبهما حين يكون كلٌّ من الفاعل [أو المسند إليه]، والفعل، والمفعول به، مذكورًا.

إن هذه المشكلات تُظهر لنا أن التصنيفاتِ اللسانيةَ المؤسَّسة على ترتيب الكلمات، لا يمكن الوثوقُ بها ثقةً مطلقة. وبالرغم من ذلك، نجد أن ثمة احتمالاتٍ بعينها في السمات التركيبية للغات المختلفة، يمكن أن تنبثق من مثل هذه التصنيفات. فمثلا: اللغة التي تترتَّب فيها الكلماتُ على النحو SVO (فاعل/ مسند إليه+ فعل + مفعول به)، يُتوقَّع لها أن تشتمل على أفعال مساعدة متقدمة على الفعل، وأن تشتمل على حروف جر سابقة للاسم prepositions، لا تالية له، وأن يقع المضاف إليه genitive تاليًا للاسم. في حين يُتوقَّع للغة التي تترتب فيها الكلمات على النحو SOV (فاعل/ مسند إليه + مفعول به + فعل) أن تشتمل على أفعال مساعدة تالية للأفعال، وأن تشتمل على حروف جَرّ تالية للاسم postpositions، لا سابقة له، وأن يقع المضاف إليه فيها سابقًا للاسم. ودونك - بعد- أمثلةً من اللغة الإنجليزية، والتمثيل المناظر المتوقَّع لها في لغة من لغات الـ SOV (الأولى على اليسار والثانية على اليمين):

SVO	**Bill eats potatoes**	**SOV**	**Bill potatoes eat.**
AUX V	**Marigold can go.**	**V AUX**	**Marigold go can.**
PREP	**On Saturday.**	**POST P**	**Saturday on.**
N GEN	**Queen of Sheba.** (ملكة سبأ)	**GEN N**	**Of Sheba queen.**

ونظرًا لأن اللغة دائمة التغير، فقليلة هي اللغات التي يمكن وَصْفها بأنها تمثّل نوعًا خالصًا بعينه. بمعنى أنها تجسِّد نموذجًا كاملا للاحتمالات الإحصائية التي أشرنا إلى بعضها منذ قليل. إن جُلّ اللغات ينطوي على قدر من عدم الاطّراد، وقَدْرٍ من الثنائيات **doublets** (= الاحتمالات الثنائية). ففي الإنجليزية – مثلا- يمكننا أن نقول: **Sheba's queen**، وكذا أن نقول: **queen of Sheba**.

خلاصة:

لا يمثّل إنجازُ قائمة بـ "الاحتمالات الإحصائية" إلا الخطوة الأولى في سبيل فرز أنواع اللغات. وأما الخطوة الثانية، فهي أن نتبين السببَ الذي يقف من وراء حدوث هذه الاحتمالات.

إن اكتشاف العِلّة من وراء حدوث هذه الاحتمالات يمثّل الخطوة الأهم. وهى الخطوة التي ما تزال محلا للدرس والتمحيص. وثمة فرضِيات عديدة متداخلة بشأنها. ومنها تلك الفرضية القائلة بأن اللغات الإنسانية تشتمل على مبدأ يُسمَّى بـ"مبدأ الانسجام بين أقسام الكلام" **principle of cross-category harmony**. بمعنى: أن أقسام الكلام المختلفة- من مثل: الأسماء، والأفعال، وحروف الجر (القبلية) **prepositions**- تتقاسم قدرًا من التشابه في مسلكها اللغوي. فمثلا: نجد أن الكلمات الرئيسية – أو كلمات الرأس **head**- يغلِب عليها أن تقع في مواقعَ تركيبيةٍ متناظرة، في كل أنماط العبارات التي تشتمل عليها اللغة. وعلى ذلك، فإذا كان معتاد حال الفعل أن يقع في بداية العبارة الفعلية، كما في قولنا – في اللغة الإنجليزية: **eats peanuts**، فالمرجَّح- إذن- أن يقع حرف الجرّ القبلي في بداية العبارة التي تتضمنه، كما في **on Saturday**، وأن تقع في الصفة في بداية العبارة التي تتضمنها، كما في **red in the face**، وكذا أن يقع الاسم في بداية العبارة التي تتضمنه، كما فى: **father of the family**. ويثير العَجَب هاهنا أن هذه النتيجة – أعنى اقتفاء اللغات لهذا المسلك في نظامها التركيبي- قد انتهى إليها- كذلك- علماءُ اللسانيات النظرية، في محاولاتهم لتقديم وصف لأنماط الجمل (ينظر: **X- bar syntax**، الفصل السابع)، ودونما تأثر بجهود نظرائهم المعنيين بالتصنيف النوعي للغات.

وكذا يمكــن للاحتمالات المؤسَّسة على أن وجود نمطٍ تركيبي ما يقتضي غالبًا وجودَ نمط تركيبي آخر، أن توظَّف في عملية إعـادة تـشكيل الحـالات المبكّـرة التـي كانت عليها بعض اللغات. وبذا يكون هذا الضرب مـن الـدرس مكمِّـلا ، ومعـزِّزًا، للأنواع الأخرى من عمليات إعـادة التـشكيل، في "اللـسانيات التاريخيـة" (الفـصل الثالث عشر). فمثلا: إذا وجدنا في لغة قديمة آثارًا يقع فيها الفعـل بعـد المفعـول بـه، وتتضمن حروفَ جرٍّ بعدية **pospositions**، فـربما أمكننـا أن نـرجّح عـلى هَـدْى مـن الإحصاءات المتعلقة بهذه السمات التركيبية، أن هذه اللغـة كانـت تتميـز - كـذلك - بوقوع المضاف إليه سابقًا للأسماء المضافة.

وحتى وقتنا هذا، ما يزال هناك الكثير جـدًا ممـا يجـب إنجـازه بـشأن الـسمات النوعية اللازمة لتصنيف اللغات، وصلات الارتباط الضمنية الناجمة عن وجود بعض هذه السمات. وقد شرع "تشومسكي" وأتباعه حديثًا في الاهـتمام بهـذا الـضرب مـن الدرس. وسوف نناقش لاحقًا بعضًا من جهودهم في هذا الصدد.

فلنتذكر:

- يُعنَى علماء اللسانيات بالمقارنة بين اللغات؛ لإنجاز أغراض شتى.

- يحاول مدرسو اللغات، وعلماء اللسانيات التطبيقية، أن يقفوا على أوجه الاختلاف بين اللغات.

- يحاول اللسانيون الآخرون أن يقفوا على أوجه التماثل بين اللغات.

- يسعى علماء اللسانيات التاريخية إلى تعيين اللغات المترابطة تاريخيًا، وإلى إعادة تشكيل مكونات اللغة الأم. ومثل هذا الجهد هو موضوع الفرع المعرفي الموسوم بـ "اللسانيات التاريخية المقارنة".

- لا تتمتَّع (عمليات) إعادة التشكيل هذه- في حد ذاتها- بالموثوقية. وقُصاراها تلخيصُ أفضلِ التخمينات بشأن اللغة الأم، في ضوء معارفنا المعاصرة.

- تنتشر بعض السمات اللغوية بين لغات مختلفة عبر (عملية) الاقتراض اللغوي. وتوصف المنطقة التي يقع فيها مثلُ هذا الانتشار بأنها "منطقة لغوية".

- يمكن تقسيمُ اللغات الإنسانية إلى أنواع مختلفة.

- حاولت الجهود الأولى في مجال التصنيف النوعي للغات، أن تقسّم اللغاتِ إلى أنواع مختلفة، بالنظر إلى أنظمتها الصرفية.

- يسعى بعضُ اللسانيين الآن سعيًا ذائعًا إلى تقسيم اللغات إلى أنواع، وَفْقًا للترتيب الأساسي الذي تعتمده الكلماتُ داخل الجمل. هذا، مع ملاحظة أن ثمة لغاتٍ قليلةً لا تمثّل نوعًا محضًا بعينه من هذه الأنواع.

- يبذل بعض اللسانيين الآن جهودًا شاقة، في بحث موضوع "الكليّات الابستلزامية" **implicational universals**، بمعنى أنه إذا اشتملت إحدى اللغات على السمة اللغوية (X) ، فالمرجَّح أن تشتمل – كذلك- على السمة اللغوية (Y) .

١٥

المواقف إزاء تغير [اللغة]

* يناقش هذا الفصلُ وجهة نظر الذين يقلقهم حالُ اللّغة. أعني: أولئك الذين يخشون من انحطاط اللغة الإنجليزية. وكذا يدرُس الأسباب التي تفضي إلى ظهور هذا القلق. ثم يوضح – أخيرًا- فكرة "اللغة الفصحى" **standard language**.

كان مما جرى به قلمُ أحد القراء المُخْتَقِين لإحدى الصحف: "إن اللغة التي يتلهف العالم على تعلّمها، تعاني السَّقَم في عُقْر دارها". وترتفع أصواتُ الذين يُقِضّ مضاجَعهم حالُ اللغة الإنجليزية، مرّةً تلو الأخرى؛ تخوفًا على صحتها على الألسنة. ويزعم هؤلاء الذين استبدّ بهم وِسْواسُ الخوف على اللغة الإنجليزية، أنهم ينافحون عن لغة تهوى إلى حالة من الفساد والتحلل.

ولكن واقع الحال يشهد بخلاف ما يزعم أولئك الموسوسون: فاللغة الإنجليزية لا تتحلّل، بل تتوسّع وتتنامى. والناس يتكلمون بها في كل بلاد العالم تقريبًا. وعددهم يتزايد عامًا بعد عام.

فما المشكلة إذن؟ إن فصلنا هذا معنيّ – أولا- بدراسة الأسباب التي تقف من وراء ظهور القلق على اللغة. ثم هو معنيّ – أخيرًا – بتوضيح فكرة "اللغة الفصحى".

تاريخ القلق على حال اللغة:

لا يكاد يخلو زمان من أولئك الذين يقلقهم حالُ اللغة. فها هو ذا "صمويل جونسون[1]" **Samuel Johnson** يقول- في مقدمة معجمه الشهير للغة الإنجليزية

(١) "صمويل جونسون" (١٧٠٩ - ١٧٨٤م): شاعر، وناقد، وكاتب مقال، ومعجمي بريطاني مشهور. بدأ في صناعة معجمه المشهور في العام ١٧٤٤م، وانتهى منه في العام ١٧٥٥م. وطبع في ==

الذي طُبع لأول مرة في العام (١٧٥٥م): "إن لدى اللغات – شأنها شأن الحكومات– ميلا طبيعيًا للتدهور". لقد كان الأمل يحدوه في بادئ الأمر، أن يوقف هذا التدهور المزعوم. ولكنه حين أكمل عملَه هذا، تبين أن محاولة "تكبيل الكلمات" لا جدوى منها، وأن الجهود المبذولة في سبيل ذلك أشبه بمحاولة "صَفع الرياح".

وربما يمكننا أن نتفهّم وجود هذا القلق على حال اللغة إبّان القرن الثامن عشر. ففي ذلك الوقت كانت اللغة الإنجليزية تعالج حالةً من التقلب النسبي. وكانت – لذلك– في حاجة إلى قدر من الاستقرار والتثبيت، وَفق ما كان يعتقد كثير من الباحثين في ذلك الزمان. وقد زامن هذا القلقَ على حال الإنجليزية حالةٌ من الإعجاب باللغة اللاتينية التي بدت آنذاك متمتّعةً بقدر وافر من الاستقرار والثبات.

ولكن: من الذي كان يتعيّن عليه أن يقرّر ما يُعَدّ إنجليزية صحيحة، وما يعدّ بخلاف ذلك؟ لقد ظنّ عدد من كبار رجال الكنيسة أنهم يستطيعون النهوض بهذه المهمة: ففي العام (١٧٦٢م)، شكا "روبرت لوث" **Robert Lowth** (أسقف مدينة "لندن") من أن اللغة الإنجليزية "لم تحرز تقدمًا في مسألة الصحة النحوية" طوال المائتي عام الأخيرة. بل لقد انتقد "أفضل كتّابنا"؛ لأنهم قد "أذنبوا بالوقوع في أخطاء واضحة تتعلق بقواعد اللغة".

وقد حاول – هو نفسه– أن يعالج تلك الثغرة؛ فألّف كتابًا في قواعد اللغة الإنجليزية. ولكنّ "وصفته العلاجية" قد تأسّستْ – للأسف– في جانب منها على اللغة اللاتينية، وفى جانب آخر على ما رآه الأفضلَ من وجهة نظره الخاصة. فمثلا: لاحظ أن حرف الجر القبلي **preposition** الواقع في نهايات الجمل، كان شيئًا مما "تميل إليه لغتنا ميلا قويًا". ولكنه زعم أن من "الأليق" أن نتنكّب ذلك النمط التركيبي. وبالرغم من ذلك، لم يستطع – هو نفسه– أن يلتزم بنصيحته تلك دائمًا.

لقد كان "لوث"– إذن– واحدًا من فصيل كبير، من ذوى النوايا الطيبة، أقلقهم حالُ اللغة الإنجليزية؛ فشرعوا يخترعون – من عند أنفسهم– قواعد غريبةً لهذه اللغة. وقد تحوّلتْ بعض هذه القواعد إلى بقايا متحجّرة، في كتب القواعد التي يدرسها التلاميذ بالمدراس.

== مجلدين من القطع الكبير، بعنوان A Dictionary of English Language. وظل لمدة قرن من الزمان المصدر الأساسي لمعاجم اللغة الإنجليزية. [المترجم].

التقدم ومغالطات التدهور:

قاد الفخر بالامبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر، إلى تكوّن اعتقاد خاطئ بأن اللغة الإنجليزية أفضلُ من غيرها من اللغات. بيد أن وجهات النظر قد اختلفت حول مناط هذه الأفضلية.

فقد عَزَتْ إحدى وجهات النظر السببَ في ذلك، إلى إحراز اللغة الإنجليزية تقدمًا أكثر من غيرها من اللغات التي بقيت على حالتها البدائية. ومما يجسِّد وجهة النظر هذه: التساؤلُ التالي الذي طرحه "دين فرر" Dean Farrar (أحد مشاهير رجال الكنيسة) في العام (١٨٦٥م): "ما الذي سنقوله بشأن "الفيوجيين"(١) Fuegians الذين تشبه لغتهم قَرْق(٢) الدجاج المبهم؟ أو بشأن "الفديين"(٣) Veddahs المستوحشين من سكان جزيرة "سيلان" Ceylan الذين لا يمتلكون لغة، بل مجرد أصوات حَلْقية gutturals، وتعبيراتٍ مختلفة بقَسَمات الوجه".

وثمة وجهة نظر أخرى ترى أن الله [تعالى] حين خلق اللغات الإنسانية، خلقها على مستوى واحد من المزايا، بيد أن بعض هذه اللغات قد انحطّ بمرور الزمن عن ذلك المستوى الأول. وممن تبنّى وجهة النظر هذه: "ريتشارد تشينيفكس ترنش" Richard Chenevix Trench [١٨٠٧ - ١٨٨٦م)، أحد كبار أساقفة "دبلن" Dublin المؤثّرين. حيث يُؤثَر عنه قوله: "المفزع حقًّا هو طابع التدهور الذي يَسِمُ لغة الشعوب الهمجية". وكان ذلك في سياق استهجانه لبعض اللغات التي افترض – هو ومن على رأيه- أنها قد فقدتْ الكلمة الدالة على "الربّ الأعلى".

---

(١) "الفيوجيون" هم السكان الأصليون لجزيرة تدعى Tierra del Fuego بأقصى جنوب قارة أمريكا الجنوبية. وهم قبائل تتكلم لغات عِدّة. [المترجم].

(٢) في معجم "لسان العرب" لابن منظور (ت ٧١١هـ) (ق ر ق) (٥/ ٣٦٠٢): "القَرْق: صوت الدجاجة إذا حَضَنتْ". [المترجم].

(٣) الفديون هم السكان الأصليون لجزيرة "سيلان" (= جزيرة سريلانكا حاليًا). وهم أصحاب ثقافة بدائية. [المترجم].

خلاصة:

كانت وجهة النظر الثانية هذه، هي الوجهة الأبلغ ضررًا في مسألة النظر إلى طبيعة اللغة؛ حيث عزّزتْ ثلاث أفكار جِدّ غريبة، وغير صحيحة. أولاها: أن هناك ارتباطًا وتشابكًا بين اللغة ومقوّمات السلوك المحمود. وثانيتها: أن اللغة الإنسانية يمكن أن تتحلّل وتتفسّخ. وثالثتها: أن الاحتراس الشديد الدائم أمر مطلوب؛ لمنع حصول الانهيار اللغوي.

وكما يُفترض أن يُرشد مسمار مفقود، إلى حِذْوة فرسٍ مفقودة، ثم إلى فرس مفقود، ثم إلى فارس مفقود. فكذا – تمامًا – اقتيدت أجيالٌ من الشباب نحو الاعتقاد بأنهم يحتاجون إلى الاهتمام بالتفاصيل اللغوية الدقيقة؛ حتى يحافظوا على لغتهم، ويصونوها من التغير. ولكن واقع الحال يشهد بأن مثل هذا الاهتمام لا جدوى من ورائه؛ فاللغات الإنسانية تسلُك في حياتها مسلكًا يُشبه "المثبِّت الحراري" **thermostate**، وتمتلك آلياتٍ للحفاظ على قوالبها الخاصة بها (يراجع الفصل الثالث عشر).

السلوك اللائق اجتماعيًا:

ظهرتْ في القرن التاسع عشر همومٌ مقلقة أخرى. حيث تم إقناع سكان "بريطانيا" بوجود "طريقة لائقة" للسلوك. وطُبعت كتب في "آداب السلوك" **etiquette** تتضمن قواعد صارمة، تمثّل مقوّمات السلوك المقبول في أحداث الحياة اليومية. وذلك من مثل: "لا تشربْ من صحن فنجانك"، و"لا تلبس الماس في الصباح"، و"لا تنجز مراسلاتٍ عبر البطاقات البريدية **postal cards**"[1].

(١) البطاقة البريدية هي بطاقة صغيرة، تتضمن عادة صورة أو رسمًا على أحد جانبيها، ومساحة صغيرة للكتابة على جانبها الآخر، ثم ترسل عبر البريد بدون ظرف. ومعتاد أمر هذه البطاقات أن تُكتب عليها عبارات قصيرة- أو ربما تكون هذه العبارات مكتوبة عليها مسبقًا- لأغراض التهنئة المختلفة، أو غير ذلك. ولا يسوغ – إذن- أن يكتب عليها مرسلُها رسالةً تتضمن مطالبة المرسل إليه أن يفعل شيئًا، أو أن يتركه... إلخ. [المترجم].

وقد افتُرض أن اللغة تمثّل مقوّمًا من مقومات هذا "السلوك اللائق". وتم الترويج لعدد متنوع من "المحظورات اللغوية"، من مثل: "لا تقل: **gents** بدلا من **gentlemen**، ولا تقل: **pants** بدلا من **pantloons** فهما كلمتان سوقيتان، لا يُغتفر التلفظ بهما". و"لا تستعملْ ضمير جمع حين يكون استعمال ضمير المفرد هو الاستعمال الصحيح المناسب. وقولهم: **'Every passenger must show their ticket'** يمثل أحد الأخطاء الشائعة في هذا الصدد". و"لا تقل **(It is him)**، وقل: **(It is he)**". وغير ذلك.

وقد شاع اعتقاد خاطئ بوجود شيء يسمى بـ"اللغة الإنجليزية الصحيحة"، وأن ذلك الشيء مرتبط بوجه ما بالسلوكيات الأخلاقية المحمودة. وذلك على نحو ما جاء في أحد الكُتيّبات المدرسية الإرشادية في القرن التاسع عشر: "اللغة هبة من الله [تعالى] ...والالتزام الدائم بالتلفظ بلغة إنجليزية صحيحة... فضلا عن التحلّي بالأخلاق الحميدة...هما من أفضل الأشياء في هذه الحياة".

ولكن التحديد الدقيق لمكونات تلك"اللغة الإنجليزية الصحيحة" لم يكن واضحًا. وقد جنح أولئك المعتقدون بوجودها إلى تقديم عدد متنوع من عبارات المنع، إزاء أشياء يجب عليك- في رأيهم- ألا تنطق بها، على النحو الذي سبق لنا توضيحه آنفًا.

اللغة الإنجليزية الفصحى:

استمر خلال القرن العشرين الاعتقادُ بوجود ما يسمى بـ"الإنجليزية الصحيحة، أو اللائقة" **proper English**، مرتبطًا بفكرة "اللغة الفصحى".

وتتسم كلمة **standard** هذه بقدر من الغموض: فهي تَعنِي -تارةً- "القيمة" التي ينبغي لها أن تستوفى، كما هو الحال حين يتكلم الناس عن **'keeping up standards'** (المحافظة على المعايير)، أو عن **'reaching the required standard'** (الوصول إلى المعيار المطلوب). ثم إنها تدل -تارةً أخرى- على "الطريقة المعتادة الذائعة لعمل شيء ما"، كما في قولنا: **'the standard way to make tea is as follows...'** (الطريقة المعتادة لعمل الشاي هي كما يأتي...).

خلاصة:

يكثر أن يتداخل المعنيان اللذان تُستَعمل كلمة **standard** للدلالة عليهما (المعيار أو القيمة المطلوب استيفاؤها/ الطريقة المعتادة لصنع شيء ما)، على نحو ما نجد في نص الزعم الآتي الذي قال به أحد كتّاب منتصف القرن التاسع عشر:

'The common standard dialect is that in whicn all marks of a particular place of brith and residence are lost'

(اللهجة المعتادة المعيارية هي اللهجة التي تختفي منها أية إشارة تدل على مكان خاص للميلاد أو للإقامة [لمن يتلفظ بها]).

وأما من الناحية العملية، فقد شاعت فَرَضِيّة في زمان مضى، تقول بأن اللغة الإنجليزية الفصحى هي لغة "أكسفورد"- أو ما يُسمَّى بـ **"Oxford English"** – وكذا لغة المدارس العامة الكبيرة. وعلى ذلك فقد صار يُنظَر إلى تلك الإنجليزية الفصحى آنذاك، على أنها "إنجليزية المتعلمين" **educated English** . ومما يمثل تلك الرؤية: قول هنري وايلد"[1] **Henry Wyld**، في العام (١٩٠٧م): "اللغة الإنجليزية الفصحى... يتكلمها أناس ذوو قدر متماثل من التعليم والتثقيف، في كل أنحاء القطر".

فمصطلح "اللغة الإنجليزية الفصحى"- إذن- يشير في المقام الأول إلى تلك اللغة في صورتها المكتوبة الملتزمة بالقواعد، على نحو ما أوضح "هنري وايلد". وتتنوع هذه الصورة المكتوبة تنوعًا طفيفًا من منطقة إلى أخرى، وإن كان المتكلمون بها في هذه المناطق قد يختلفون في سماتهم النطقية، وفى المفردات التي تجرى على ألستهم. إن "اللغة الإنجليزية الفصحى" لم تكن قطّ لَكُنة **accent** بعينها. وأولئك الذين يتكلمون باللكنة الأسكتلندية، أو الويليزية **Welsh**، أو "اليورك شيرية" **York Shire**، يستعملون – على الأرجح- "اللغة الإنجليزية الفصحى" نَفْسَها.

ويُنظَر إلى "اللغة الإنجليزية البريطانية" عادة على أنها تمثّل "اللغة الإنجليزية الفصحى". بيد أننا نرى – في وقتنا هذا- أن اللغة الإنجليزية قد انتشرتْ في كل أنحاء

---

(١) "هنري وايلد" (١٨٧٠ – ١٩٤٥م): عالم "فيلولوجيا" philology، ومعجمي بريطاني مشهور. من مؤلفاته: A Short History of English (تاريخ موجز للغة الإنجليزية). [المترجم].

العالم؛ فمن الأدق – إذن- أن نتحدث عن الإنجليزية البريطانية الفصحى، والإنجليزية الأمريكية الفصحى، والإنجليزية الهندية الفصحى، والإنجليزية السنغافورية الفصحى، وغيرها. فكلٌ من هذه (اللغات) قد طوّرت قوالبَ تركيبيةً نحوية خاصة بها، يقبلها أهلُ تلك اللغة. ففي الإنجليزية الهندية – مثلا- نجد أنه لا يلزم من استعمال كلمة enjoy أن تُتبع باسم. وعلى ذلك، قد يقول بائع "الآيس كريم": **'Please enjoy'** لشخص يشترى قطعة منه. ولكن الحال يختلف في كلٍّ من بريطانيا وأمريكا، إذ الشائع فيهما أن يقال: **'I hope you enjoy it'**.

اللغة الإنجليزية غير الفصحى:

لا شك أن هناك كثيرًا من الناس يتكلمون بإنجليزية توصف بأنها ليست هي الفصحى. وقد ظهر قدر كبير من الاهتمام- وكذا الغضب- حين سُمح باستعمال ما يُسمَّى بـ **Ebonics**– وهى نوع من الإنجليزية السوداء[1] **black English** – في بعض مدارس "كاليفورنيا". وفى خِضَمّ هذا الصخب، فقد كثيرون القدرة على تبيُّن قليل من الحقائق البسيطة.

فأما أولى هذه الحقائق، فأن الـ"إيبونكس" ليست لغةً جديدة، بل هي مجرد "تنويعة" **variety** غير لائقة اجتماعيًا للغة الإنجليزية. وأما ثانيتها، فأن الـ"إيبونكس" لا ينبغي النظر إليها- بأية حال – على أنها لغة معيبة؛ لا لشيء إلا لمجرد أنها لا تتطابق مع اللغة الإنجليزية الأمريكية الفصحى. إن مشكلة الـ"إيبونكس" لا تتعلّق بأسباب لغوية، بل بأسباب اجتماعية. وبرهان ذلك أن بعض السمات اللغوية للـ"إيبونكس" تتميز بأنها أكثر انتظامًا واطّرادًا من تلك التي للغة الفصحى. فمثلا: نجد أن فعل الكينونة (**to be**) قد جرى عليه في الـ"إيبونكس" ما وفّر له قدرًا من النظامية؛ بحيث صار تصريفه على النحو الآتي: **I be – you be – he be – we be – they be**.

وأما ثالثة هذه الحقائق، فأن السمة الأوضح والأهم للـ"إيبونكس" هي مفرداتها الخاصة بها. وبالرغم من ذلك، نجد أن هذه المفردات تدخل في نطاق ما يمكن فهمه

---

(١) يُستعمل مصطلح Ebonics للدلالة على الإنجليزية الأفريقية الأمريكية English (=الإنجليزية التي يتكلم بها الأمريكيون الذين هم من أصل أفريقي). والمصطلح منحوت من الكلمتين ebony + phonics ، بمعنى: "الأصوات السوداء". ينظر: Romaine, Language in Society, p. 221. [المترجم].

من مفردات اللغة الإنجليزية. وذلك مثل: 'feel forggy' بمعنى: 'want to fight' (يريد أن يقاتل)، و 'knock, boots' بمعنى: 'have sex' (يمارس الجنس). وأما الحقيقة الرابعة – وهي الأخيرة- فأن من شأن الحكم بصحة استعمال إحدى تنويعات اللغة الإنجليزية – كالـ"إيبونكس" – أن يشوّق الناس إلى إلْف تنويعاتٌ أخرى، ربما تكون أكثر عصرية.

إن خلاصة ما يمكن أن نقرره – بعد- هو أن كل تنويعات اللغة الإنجليزية تتقاسم قدرًا متساويًا من الصحة. بمعنى أنّ كلا منها يجسّد لغةً كاملةَ المقومات، لا لغةً معيبة، أو فاسدة. ولكنها – في المقابل – لا تتساوى في درجة أليقيتها لمقامات الكلام المختلفة. فالـ"إيبونكس" ربما تكون وسيلة اتصال مناسبة، لدى التحادث مع الزملاء في "كاليفورنيا". ولكنّ استعمالها لهذا الغرض ربما لا يكون مناسبًا في مكان آخر، مثل "لندن"، التي قد يصعُب على أهلها فهم هذه اللغة. وذلك كما أن المُعْرِقين في التحدث باللكنة الـ"كُكْنية"(١) Cockney accent، قد يجابهون صعوبةً في إفهام مرادهم حين يكونون في "كاليفورنيا".

خلاصة:

لا شكّ في أن التصور المثالي لما نحن بصدده، أن يكون كلُّ الناس على قدر من الإلْف باللَّكَنات، واللهجات المتنوعة، بحيث يستطيعون التفاهم على النحو المناسب في أيّ مكان. وذلك ما يشبه -كلّ الشبه- حال مَنْ شأنه التَّرحال الدائم هنا وهناك؛ إذ يلزمه أن يتزود بجَعْبة ملأى باللغات المختلفة.

(١) سبق التعريف بهذه اللهجة في الفصل العاشر (اللغة والمجتمع)، (ص٢٣٤). [المترجم].

فلنتذكر:

- أفضى القلقُ على حال اللغة الإنجليزية في القرن الثامن عشر، إلى ظهور الرغبة في إكساب المكونات المختلفة لبنيتها صفةَ الثبات وعدم التغير.
- تأسست الرغبةُ في إكساب اللغة الإنجليزية صفةَ الثبات وعدم التغير على الافتتان باللغة اللاتينية، التي ظَنّ بعض الدارسين خطأً أنها تتمتع بهذه الصفة.
- حاول عدد من المتحذلقين - ممن لا يُعْوِزهم حسن النوايا، وإن كان ينقصهم الوعي بطبيعة اللغة، من مثل الأسقف "لوث" **Lowth** - أن يضعوا بعض "القواعد"، آملين في أن تُكسِب اللغةَ الإنجليزية صفةَ الثبات وعدم التغير.
- اعتقد "لوث" وآخرون خطأً أن اللغة قد سِيطتْ بالسلوكيات الأخلاقية المحمودة، وأن اللغات يمكن أن تتحلل، وأن اليقظة الدائمة مطلوبة؛ للحيلولة دون حدوث انهيار لغوى.
- شاع في القرن التاسع عشر اعتقادٌ بوجود ما يُسمَّى بـ"آداب السلوك" **etiquette**، انعكس صداه في صدور عدد من الكتب تتناول هذه "الآداب". وقد تضمنتْ تعليماتٍ تتعلق بتناول الطعام، وبالملابس، وشئون الحياة اليومية، وكذا باستعمال اللغة.
- ارتبطتْ فكرة "اللغة اللائقة" في القرن العشرين بفكرة "اللغة الفصحى".
- تتسم كلمة **standard** بقدر من الغموض؛ من حيث إنها تُستَعمل أحيانًا للدلالة على "القيمة التي يجب الحفاظ عليها"، وأحيانًا أخرى للدلالة على "الممارسة المعتادة" لشيء ما.
- تتقاسم تنوعاتُ اللغة الإنجليزية كلُّها قدرًا متساويًا من الصحة. ولكنها ربما تتفاوت في مدى أَلْيَقِيّتها لمقامات الكلام المختلفة.

القسم الخامس

نَحْوَ نَحْوٍ كُلّيّ

إنّ من يفهم "نحو" لغةٍ من اللغات، يستطيعُ أن يفهم -
كذلك - "نحو" اللغاتِ الأخرى، إذا كنا نقصد بـ"النحو"
سماتِه الأساسية، لا تفاصيلَه الدقيقة

روجر بيكون[1]

Roger Bacon

(١) "روجر بيكون" (١٢١٤ تقريبًا - ١٢٩٢م): فيلسوف وعالم بريطاني، اهتم بالعلم التجريبي. [المترجم].

١٦

البحث عن إطار مناسب [من القواعد]

يبحث هذا الفصلُ في الأسباب التي جعلت اللسانيَّ المعروف "نعوم تشومسكي" يضع "النحو التحويلي" ذا المستويين التركيبيين: العميق، والسطحي. كما يستكشف هذا الفصلُ – كذلك – السماتِ الأساسيةَ لهذا "النحو".

ربما يكون"نعوم تشومسكي" أكثر الباحثين تأثيرًا في مجال اللسانيات في القرن العشرين. وقد أسفرتْ جهوده في ذلك المجال عن إسهامين رئيسيين. فأما أولهما، فهو أنه الذي استهلّ عصر "اللسانيات التوليدية" generative linguistics؛ حيث وجّه اهتمام الدرس اللساني شَطْر القواعد التي تتأسس عليها معرفةُ الشخص بلغته. فالشخص الذي يعرف لغة يكاد يُشْبه لاعب "الشَّطْرنج"؛ من حيث إنه يلزم هذا الأخير – حتى يمارس هذه اللعبة – أن يتعلّم القواعد التي تحدد له الجائز من الحركات، وغير الجائز منها. وهذه القواعد تُبلوِر لُبّ اللعبة. وبالمثل: نجد أن مجموعة القواعد rules – أو ما يُطلَق عليها مصطلح grammar– التي تتأسس عليها اللغة الإنسانية، تتبوّأ من وجهة نظر "تشومسكي" أهميةً أكبر من أية منطوقات فعلية، تصادف أن تلفظ بها بعض الأشخاص.

> **خلاصة:**
>
> استهلّ "تشومسكي" عصر "اللسانيات التوليدية"، التي تُعنَى بالبحث في القواعد الباطنية الأساسية التي تقوم عليها ظاهرة اللغة الإنسانية، ولا تُعنَى بالبحث في المنطوقات الفعلية التي تجرى على الألسن في حدّ ذاتها.

وأما الإسهام الآخر لـ"تشومسكي"، فهو أنه قد أحيا اهتمام الدارسين بـ"الكليات اللغوية" language universals. فقد كان هذا الموضوع مهملا إلى حد

ما، في بدايات القرن العشرين؛ حيث شاع إبّان هذا الوقت افتراضٌ عام يقول بـ "أن اللغات تتباين تباينًا لا حدّ له، وعلى نحو لا يمكن التنبؤ به". لقد حاول "تشومسكي" أن يبرهن على أنه لا يلزم اللسانيين أن يبالغوا في التركيز على اكتشاف المكونات components التي تتوزّعها كلُّ اللغات – وقد تكون مكوناتٍ قليلة العدد– بل إن ما يلزمهم هو التركيز على اكتشاف الحدود – أو القيود constraints– التي تشتغل اللغةُ في نطاقها.

ولم يكتف "تشومسكي" بتقديم كلام مجمل غامض بشأن الحاجة إلى "القواعد التوليدية"، و"القيود الكلية"، بل لقد قدّم عددًا من الأطروحات المفصَّلة بشأن تصور "إطار كليّ" للغة الإنسانية. وإنه لمن سوء حظّ ذلك الرَّهْط من الدارسين الذين حاولوا عرض أفكاره، وتحليلها، أنه قد غيّر رؤيته لكثير من جوانب نظريته، منذ أن طرحها لأول مرة في خمسينيات القرن العشرين . وقد بدأتْ هذه النظريةُ في صورة "النحو التحويلي" transformational grammar. وسوف نشرح في هذا الفصل الكيفية التي تمكّن بها "تشومسكي" من التوصل إلى هذا النوع الخاص من "النحو"، مع تقديم عرض مجتزئ للسمات الأساسية له. ثم يلي ذلك دَرْسٌ للأسباب التي جعلتْ "تشومسكي" ينقّح، ويصحح، أفكاره الأصلية. ثم يتبع ذلك – أخيرًا – تناولٌ موجز لعدد من أحدث أطروحاته.

نماذج مبسَّطة من القواعد:

دعونا الآن نفترض أننا قد كنا في الموقف الذي كان فيه "تشومسكي" من بعض سنوات خلت. أي موقف لسانيٍّ حاول أن يضع إطارًا من القواعد الكلية يصلح لكافة اللغات الإنسانية. فتُرى: من أين يلزمنا أن نبدأ؟ إن إحدى السُّبُل القريبة التي يمكن أن نسلكها في هذا الصدد، أن نبدأ – أولا – بوضع "نَحْو" اللغة التي نعرفها. ولتكن فرضًا اللغة الإنجليزية. فإذا ما نجحنا في إنجاز ذلك، صار في وسعنا – بعد – أن ننظر في مدى إمكانية توظيف ذلك "النحو" في دراسة لغات أخرى كذلك.

وفي وضعنا لـ"نحو" اللغة الإنجليزية، سوف نتبنّى المنهج الذي يستعمله كلُّ علماء العلوم الاجتماعية. أي أننا سوف نطرح تخمينة، أو فرضيةً بعينها، تتعلق –هاهنا– بالقواعد المتأصّلة لدى بعض من يعرفون اللغة الإنجليزية. ثم نختبر صحةَ

تلك الفرضية، بتجريبها على مادة أولية، هي – ها هنا – جمل اللغة الإنجليزية. فإذا لم تُفْضِ بنا تلك القواعدُ المفترضة إلى تكوين جمل إنجليزية صحيحة، فلا مَعْدَى لنا حينئذ عن نبذها، أو تنقيحها.

ونحن حين نصنع ذلك، فلسنا نسعى إلى وضع "نموذج" للطريقة التي يسلكها البشرُ من أجل إعداد الجمل للنطق بها. إن "نحو" اللغة يمثل – في المقام الأول– وسيلةً لتحديد الجمل المركَّبة تركيبًا صحيحًا، وغير المركَّبة كذلك. وهو يلخِّص القواعد التي تعيّن الجمل الممكنة في اللغة، بغضّ النظر عن الكيفية التي تتجمع بها تلك "الممكنات".

خلاصة:

لم يكن جهد "تشومسكي" محاولةً لوضع "نحو" يصف الكيفية التي يُعِدّ بها البشر الجمل؛ من أجل التلفظ بها، بل كان "نحوه" يسعى لتعيين الجمل الممكنة، وغير الممكنة، في اللغة.

إن مهمتنا الأساسية – إذن– هي أن نضع "نحوًا" يقدِّم لنا نفس الناتج الذي يقدّمه الإنسان، وإنْ لم يكن ثمة ما يضمن أن يقدِّم لنا هذا "النحو" قواعد تمثل نسخةً مطابقة لتلك التي في عقول البشر. وإذا كان هناك احتمالٌ لأن نقف على قَدْر من التداخل بين القواعد التي يضعها اللساني، وتلك المتأصِّلة فعليًا في عقول البشر، فيبعُد أن يكون هناك تطابقٌ في الآليات بين كلٍّ.

دعونا الآن ننظر في الكيفية التي يمكن أن نتبناها؛ لتكوين فَرَضِيَّة قد تفسّر لنا "نحو" اللغة الإنجليزية. وربما يكون أفضل سبيل لإنجاز ذلك: أن نبدأ بطرح فَرَضِيَّة جِدّ بسيطة، بل ربما مفرطة في البساط، ثم ننظر – بَعْدُ– في أوجه النقص التي تشتمل عليها. وفى ضوء ما يتكشّف لنا، نستطيع أن نواصل العمل، فنطرح فرضيةً ثانية أكثر تعقيدًا، ثم ثالثة، فرابعة، إلخ.

إن أبسط فرضية محتملة يمكن طَرْحها، هي أن الكلمات تترابط معًا في سلسلة طويلة،حيث تكون كلّ واحدة منها مرتبطةً ومتعلقة بالتي تليها. فمثلاً: قد يتصل المحدِّدان :the، و a، بمجموعة من الأسماء، مثل **camel** (جمل)، و **elephant** (فيل).

ثم قد يتصل هذان الاسمان بدورهما بمجموعة من الأفعال، مثل: swallow (يبتلع)، و ate (أكل). وهكذا دواليك (الرسم التوضيحي ١٦-١).

The	elephant	swallowed	the	banana
A	camel	ate	a	bun (كعكة)

(الرسم التوضيحي ١٦- ١).

بيد أننا سَرْعانَ ما ستتبين أن علينا أن نتنكَّب هذا النموذج البسيط. فلا الإنجليزية، ولا أية لغة أخرى، تشتغل بهذه الكيفية؛ إذ إن الكلمة لا ترتبط بالضرورة بالكلمات المتاخمة لها، بل يغلِب أن ترتبط بكلمة أخرى بعيدة عنها، كما في الجملتين الآتيتين:

Either learn to play the trumpet properly or take up yoga.

(إما أن تتعلّم العزف بالبوق كما ينبغي، أو تبدأ في ممارسة "اليوجا")

Petronella fell and hurt herself

("بِتْرونِلا" وقعتْ، وجرحتْ نفسها)

فكلمة **or** التي ترتبط ارتباطًا حتميًا بكلمة **either** لم تقع تاليةً لها مباشرة، بل فَصَلَتْها عنها عدّةُ كلمات. وكذلك نجد أن كلمة **herself** تقع بعيدة عن كلمة **Petronella**، على الرغم من ارتباطها بها. وثمة مشكلة أخرى تجابه نموذج "السِّلْسلة" هذا. وتلكم أنه يُنظَر إلى كلمات "السلسلة"، على أن كلّ كلمة فيها ترتبط بالتي تليها، ارتباطًا متساويًا في درجته. وتلك نظرة غير صائبة. ودونك -مثلا- الجملة الآتية:

The camel swallowed an apple. (الجمل ابتلع تفاحة)

فهذا النموذج يخفق في إظهار أن الكلمتين **the** و **camel** تترابطان ترابطًا أوثق من ترابط الكلمتين **swallowed** و **an**. وعلى ذلك، فلا مَعْدَى لنا عن هجر هذا النموذج.

وثمة نموذج آخر يبدو أكثر ملاءمةً من سابقه. وهو النموذج الذي يعالج جُمَل اللغة على أنها تتألف من بنية ذات طبقات، على نحو ما مثّلنا ذلك بالمخططات الشجرية في الفصل السابع(١). ويُفترض في هذا النموذج أن اللغات الإنسانية تمتلك قوالبَ تركيبيةً أساسية متعددة تنتظم الجمل. ثم إن كل قالب تركيبي يتألف بدوره من عدد مختلف من "المواقع" slots يمكن أن توسَّع – أو تتمدد- بطرق مختلفة.

فالقالب التركيبي المؤلَّف من مكوّن اسمي NP يتلوه مكوّن فعلي VP ، يمثّل قالبًا تركيبيًا أساسيًا للجملة الإنجليزية. ويمكن لهذا القالب أن يوسَّع بطرق متعددة (الرسم التوضيحي ١٦ – ٢).

NP (مكون اسمي)	VP (مكون فعلي)
Ducks (البط)	bite (يعض)
Ducks (البط)	bite burglars (يعض اللصوص)
The duck (البطة)	bit the burglar (عضت اللص)

(الرسم التوضيحي ١٦-٢).

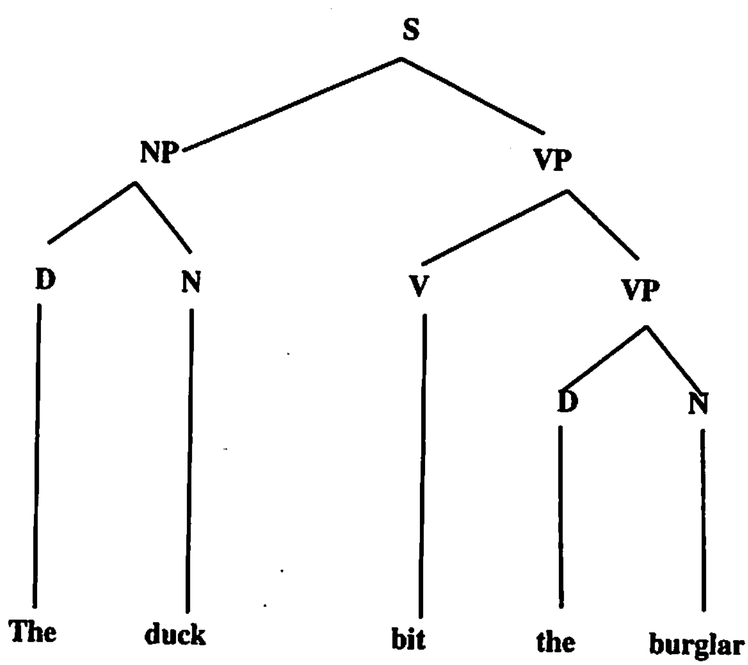
إن مثل هذا "النحو" – وهو يُعرَف عادة بـ "نحو تركيب المكونات / العبارات phrase structure grammar- يشتمل على سلسلة من القواعد المتعلقة بتركيب المكونات(٢). وتتجسد تلك القواعدُ غالبًا في شكل "قواعد إعادة الصياغة"

(١) أي فصل: "القوالب التي تنتظم جمل اللغة"، (ص١٥٤ – ١٥٧)، وقد تضمن – في هوامشه – تعريفًا بالمصطلحات التي تدل على الرموز المستعملة هنا، كالمكون الاسمي noun phrase (NP)، والمكون الفعلي verb phrase (VP)، والمحدِّد determiner (D)، وغيرها. [المترجم].

(٢) "وهي تشبه طريقة التحليل الإعرابي في النحو العربي إلى حد كبير". (د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث ص١٣٢).

rewrite rules التي تُظهر التوسيعاتِ المتعاقبةَ للقوالب التركيبية، كما في الرسم التوضيحي رقم ١٦-٣ (وانظر- كذلك: الفصل السابع).

S	→	NP	VP
(الجملة)		(مكون اسمي)	(مكون فعلى)
VP	→	V	(NP)
(مكون فعلى)		(فعل)	(مكون اسمي اختياري)
NP	→	D	N
(مكون اسمي)		(محدد)	(اسم)



(البطة عضت اللص)

(الرسم التوضيحي ١٦-٣)

وثمة قدر كبير من الاتفاق بين اللسانيين على أن بعض آليات التوسيع هذه، يجب أن تكون مضمَّنة في "نحو" أية لغة. وبالرغم من ذلك، نجد أن "تشومسكي" يَسِمُ هذا "النموذج" بالنقص؛ من حيث انطواؤه على عيبين خطيرين، على الأقل. فأما العيب الأول، فأن هذا النموذج يستلزم منا أن نضع عددًا هائلا من القواعد؛ حتى نولِّد كلَّ الجمل التي تشتمل عليها اللغةُ الإنجليزية. وأما العيب الثاني، فهو أن هذا النموذج يجمع – وكذا يسوّى- بين جملٍ متباينة، ويفرّق بين أخرى متشابهة. ودونك – مثلا- الجملتين الآتيتين:

Hezekiah is anxious to help.

("هِزِكايا" توّاق إلى المساعدة)

Hezekiah is difficult to help.

("هِزِكايا" صَعْب المساعدة)

ففي نظر من يعرفون الإنجليزية، تُعَدّ هاتان الجملتان جملتين جِدّ مختلفتين: حيث يخطِّط "هِزِكايا" في الجملة الأولى لتقديم مساعدة، في حين نجده في الجملة الثانية هو المرشح لأن تقدَّم له المساعدة. وبالرغم من ذلك، نجد أن ثمة قالبًا تركيبيًا واحدًا، من تلك القوالب ذات "المواقع"، ينتظم كلا من هاتين الجملتين المتباينتين (الرسم التوضيحي ١٦-٤).

NP (مكون اسمي)	**V** (فعل)	**ADJ** (صفة)	**INF** (مصدر)
Hezekiah	**is**	**anxious**	**to help**
Hezekiah	**is**	**difficult**	**to help**

(الرسم التوضيحي ١٦-٤).

وثمة مشكلة مشابهة تشتمل عليها الجملة الآتية (وأمثالها):

Hezekiah is ready to eat.

حيث يستطيع أيُّ متحدث باللغة الإنجليزية- بقليل من التفكير - أن يفسّر هذه الجملة تفسيرين مختلفين: الأول: أن "هِزِكايا" جائع، ويريد أن يتناول عشاءه. والثاني: أن "هِزِكايا" ربما يكون قد وقع في قبضة نَفَر من آكلي لحوم البشر، وتم تقييده وتتبيله، بحيث صار جاهزًا للتناول. وعلى الرغم من التباين الحادّ بين هذين التفسيرين، نجد أن نموذج "المواقع" لا يستطيع أن يُجلّي لنا هذا التباين بسهولة.

والمشكلة العكسية تظهر مع أمثال أزواج الجمل الآتية:

To swallow safety pins is quite stupid.

(ابتلاع دبابيس الأمان غباء تام)

It is quite stupid to swallow safety pins.

(إنه من الغباء التام ابتلاع دبابيس الأمان)

Yesterday it snowed. (بالأمس أمطرت السماء ثلجًا)

It snowed yesterday. (أمطرت السماء ثلجًا بالأمس)

فأي متحدث باللغة الإنجليزية سينظر إلى زوجي الجمل السابقين، على أن جملتي كلّ زوج منهما جملتان جِدّ متماثلتين. وبالرغم من ذلك، نجد أن نموذج القواعد الذي نحن بصدده يخفق في تجلية هذا التماثل؛ لأن كلا من هذه الجمل يتطلب قالبًا من القوالب ذات "المواقع" مخالفًا للقالب الذي تتطلبه الجمل الأخرى.

لقد ذهب "تشومسكي" إلى أن "النحو" الذي يقدِّم قالبًا تركيبيًا واحدًا فقط، لمجموعة من الجمل يشعر أهل اللغة أنها جمل متباينة، ويقدِّم قوالبَ تركيبيةً متباينة لجمل أخرى يشعرون أنها متماثلة - هو "نحو" تُعْوِزه الكفاية. ثم زعم "تشومسكي" أن في وسع النموذج التحويلي أن يتغلب على مثل هذه المشكلات.

البنية العميقة والبنية السطحية

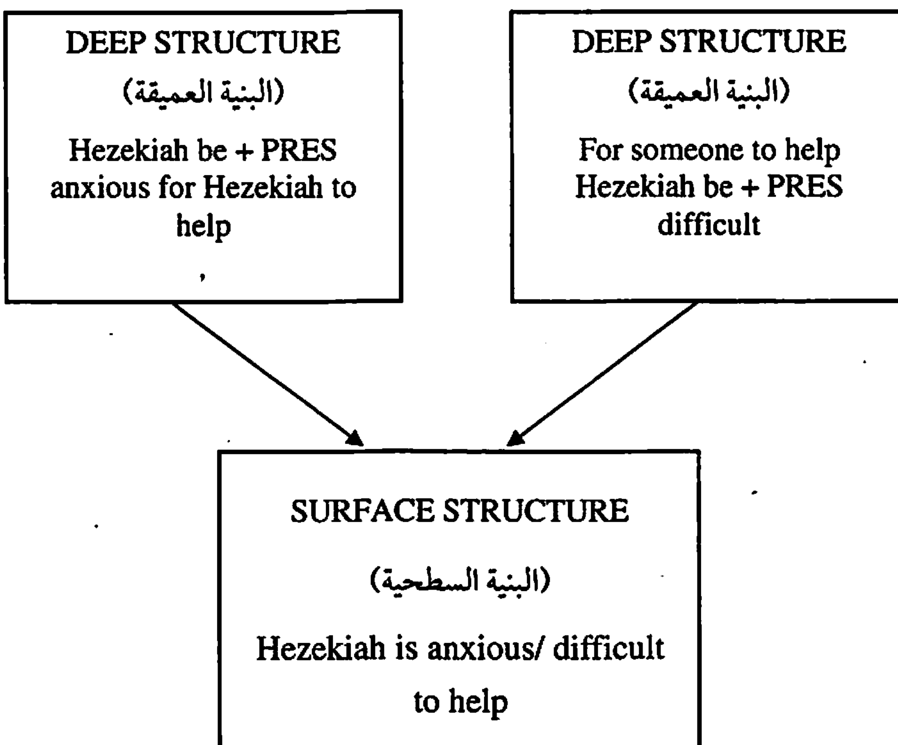
تمثّل حلّ "تشومسكي" للمشكلة السابقة، ونحوها، في طرح فَرَضِيّة تقول بأن لكلّ جملة بنيتين تركيبيتين: إحداهما واضحة على السطح **surface**، والأخرى عميقة

deep ومجرَّدة. فتعالوا بنا –إذن– ننظر في الكيفية التي تعمل بها هذه الفرضية، فيما يتعلّق بالجملتين اللتين درسناهما آنفًا. لقد فسَّر "تشومسكي" الاختلاف بين الجملتين الآتيتين:

Hezekiah is anxious to help. ("هِزِكايا" توّاق إلى المساعدة)

Hezekiah is difficult to help. ("هِزِكايا" صعب المساعدة)

بافتراض أننا نتعامل مع جملتين تتفقان في بنيتها التركيبية السطحية، وتختلفان في بنيتها العميقة (ينظر: الرسم التوضيحي ١٦–٥، حيث تمثل الحروف **PRE** اختصارًا للمصطلح **'present tense'**: الزمن المضارع).



(الرسم التوضيحي ١٦– ٥)

إن البِنَى التركيبية العميقة التي نناقشها في هذا الفصل، تمثل صورًا أبسط من تلك التي اقترحها "تشومسكي"، فيما أسماه بـ"النظرية النموذجية" Standard Theory للنحو التحويلي، تلك التي لخّص القولَ فيها في كتابه[1] Aspects of the Theory of Syntax (الصادر في العام ١٩٦٥م).

وبالمثل، تفسّر لنا فرضيةُ البنية العميقة الغموضَ الحاصل في جملة:

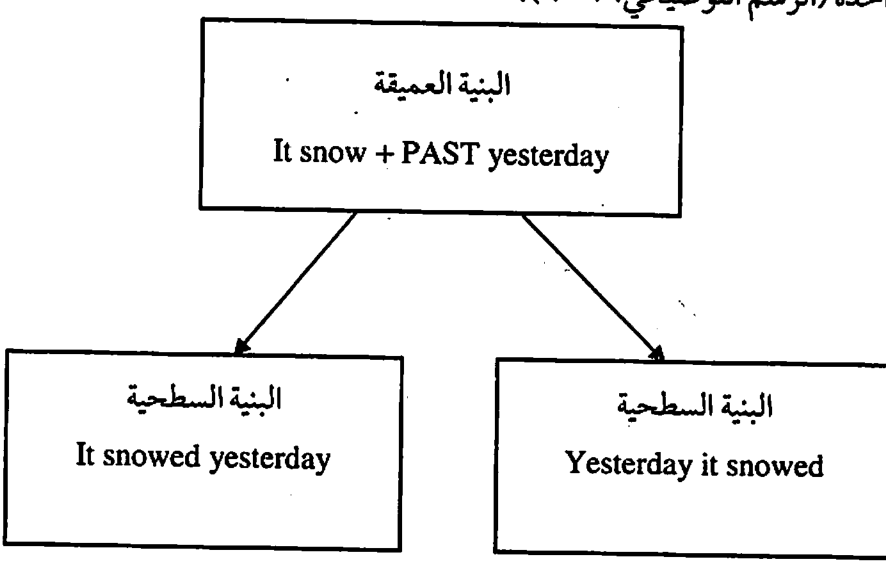
Hezekiah is ready to eat.

حيث يوجد لدينا بنيتان عميقتان متباينتان، تحقّقتا في صورة بنية سطحية واحدة في واقع الاستعمال اللغوي. ثم يصبح الموقف عكسيًا مع أزواج الجمل التي من مثل:

Yesterday it snowed. (بالأمس أمطرت السماء ثلجًا)

It snowed yesterday. (أمطرت السماء ثلجًا بالأمس)

فنحن هاهنا بإزاء بنيتين تركيبيتين سطحيتين مختلفتين، تتقاسمان بنيةً عميقة واحدة (الرسم التوضيحي١٦- ٦).



(الرسم التوضيحي ١٦-٦)

(١) ترجمه د. مرتضى جواد باقر بعنوان: "جوانب من نظرية النحو"، ونشرته جامعة البصرة (١٩٨٥م). [المترجم].

فإذا كان لكلّ جملة مستويان تركيبيان من البِنَى (عميق –سطحي)، فلابـد مـن وجود ما يربط بينهما، على نحو من الأنحاء. وقد افترض "تشومسكي" في هذا الصدد، أن البِنَى العميقة ترتبط بالبِنَى السطحية عبر عمليات تُسمَّى بـ"القواعـد التحويليـة" transformations. وبيان ذلك: أن البنية العميقة تتحول إلى البنية السطحية المرتبطـة بها، عبر تطبيق واحدة، أو أكثر، من تلك القواعد التحويلية. فمثلا: نجـد أن الجملـة الآتية: **It snowed yesterday.**

قد تطلبت قاعدة تحويلية واحدة، هي إلحاق الزمن بنهاية الفعل. وأما جملة:

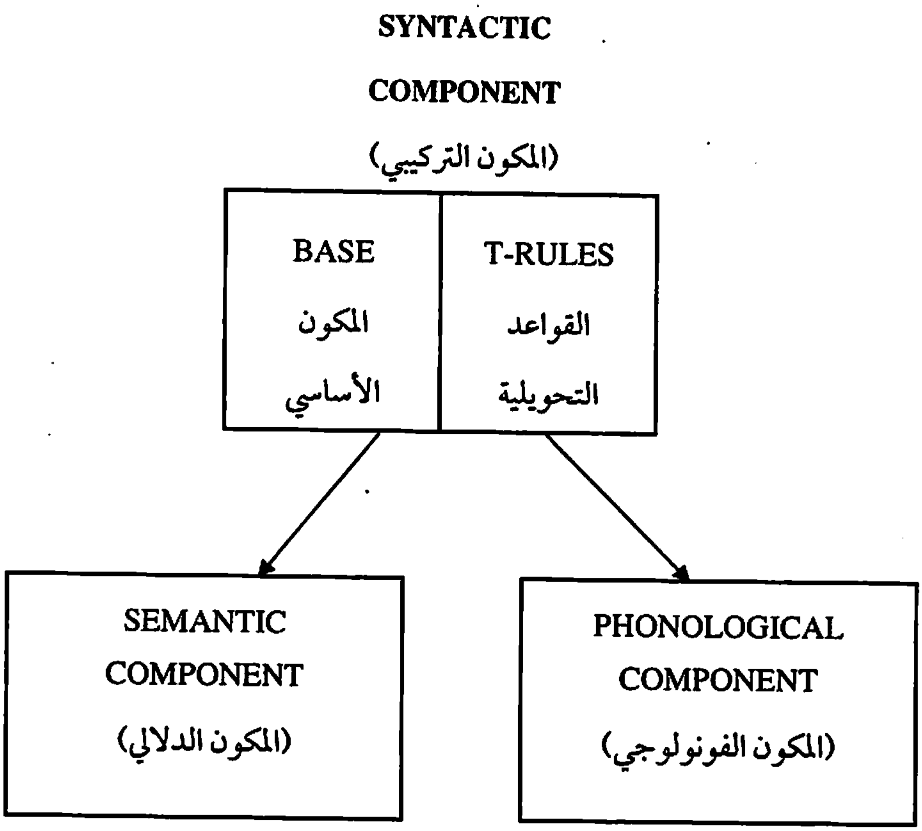
Yesterday it snowed.

فقد تطلبتْ قاعدة تحويلية إضافية، وهي تلك التي حرّكـت الظـرف **yesterday** من نهاية الجملة إلى بدايتها.

النحـــو التحويـلـي:

> **خلاصة:**
>
> نستطيع الآن أن نعرف "النحـو التحـويلي" بأنـه: "النحـو" الـذي يقـول بوجـود مستويين من البنية التركيبية، ويربط بيـنهما عـبر عمليـات تُعـرَف بالعمليـات – أو القواعد– التحويلية.

اشتمل "النحو التحويلي" – مثله في ذلك مثل الأنـواع الأخـرى مـن "الأنحـاء" – على ثلاثة مكونات مهمة: المكون التركيبي (يتعامل مع التركيب)، والمكون الفونولـوجي (يتعامل مع الأصوات)، و المكون الـدلالي (يتعامـل مـع المعنـى). ولكنـه – في المقابـل – اختلف عن غيره من "الأنحاء"، من حيث إن المكـون التركيبـي في النحـو التحـويلي قـد انشطر إلى مكونين، هما: المكون الأساسي **base**، والقواعد التحويليـة **transformational rules** التي يرمز لها بالرمز **T- RULES** (الرسم التوضيحي ١٦ – ٧).



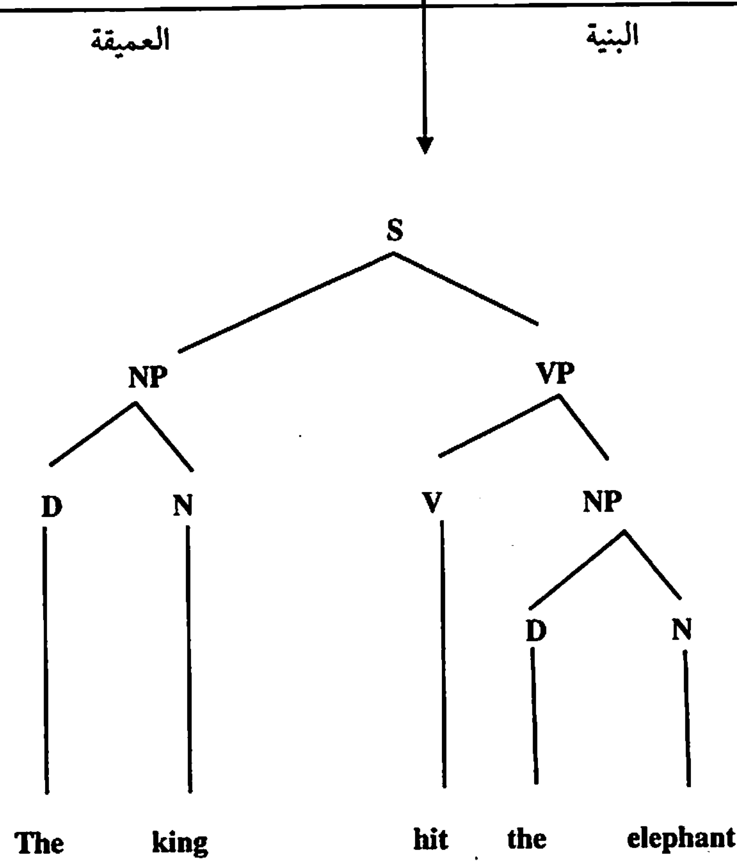
(الرسم التوضيحي ١٦- ٧)

وقد اشتمل "المكون الأساسي" في النظرية النموذجية **Standard Theory** على قواعد بنية المكونات **phrase structure rules-** ويرمز لها بـ **(PS)**– من أجل تكوين البِنَى العميقة. واشتمل – كذلك – على "المعجم" الذي تأتى منه الكلمات لتُسكَّن في "الناتج" من قواعد بنية المكونات **(PS)** (الرسم التوضيحي ١٦ – ٨).

المكون الأساسي مبسطًا

المعجم	قواعد بنية المكونات/ العبارات
elephant N	S → NP VP
king N	VP → VP NP
Hit V [- NP]	NP → D

البنية العميقة



(الملك ضرب الفيل)

(الرسم التوضيحي ١٦-٨)

ثــم لا تلبــث البِنَــى التركيبيــة العميقــة أن تُمــرَّر إلى القواعــد التحويليــة (T- RULES)؛ حتــى تتحــول إلى بنَــى ســطحية. ونلاحــظ أن البنيــة الــسطحية لم تـزل حتـى الآن بنيـة مجـردة؛ إذ لم تُعْـطَ -بَعْـدُ- صـورتَها الـصوتية. وقـد تمـت معالجـة ذلـك بـالمكوّن الفونولـوجي الـذي حـوَّل كـلَّ بنيـة سـطحية إلى صـورتها الـصوتية، التـي يـتلفَّظ بهـا أهـلُ اللغـة في واقـع الاسـتعمال اللغـوي. وفي تلـك الأثناء، نجد أن العمليـات التحويليـة لم تـستطع أن تغـيِّر المعنـى؛ ولـذا فقـد جـرى تـسكينُ البِنَـى العميقـة مبـاشرةً في المكـوّن الـدلالي الـذي قـدّم التفـسير الـدلالي المناسب لكل بنية منها (الرسم التوضيحي ١٦-٩).

البنيـــة العميقـــة:

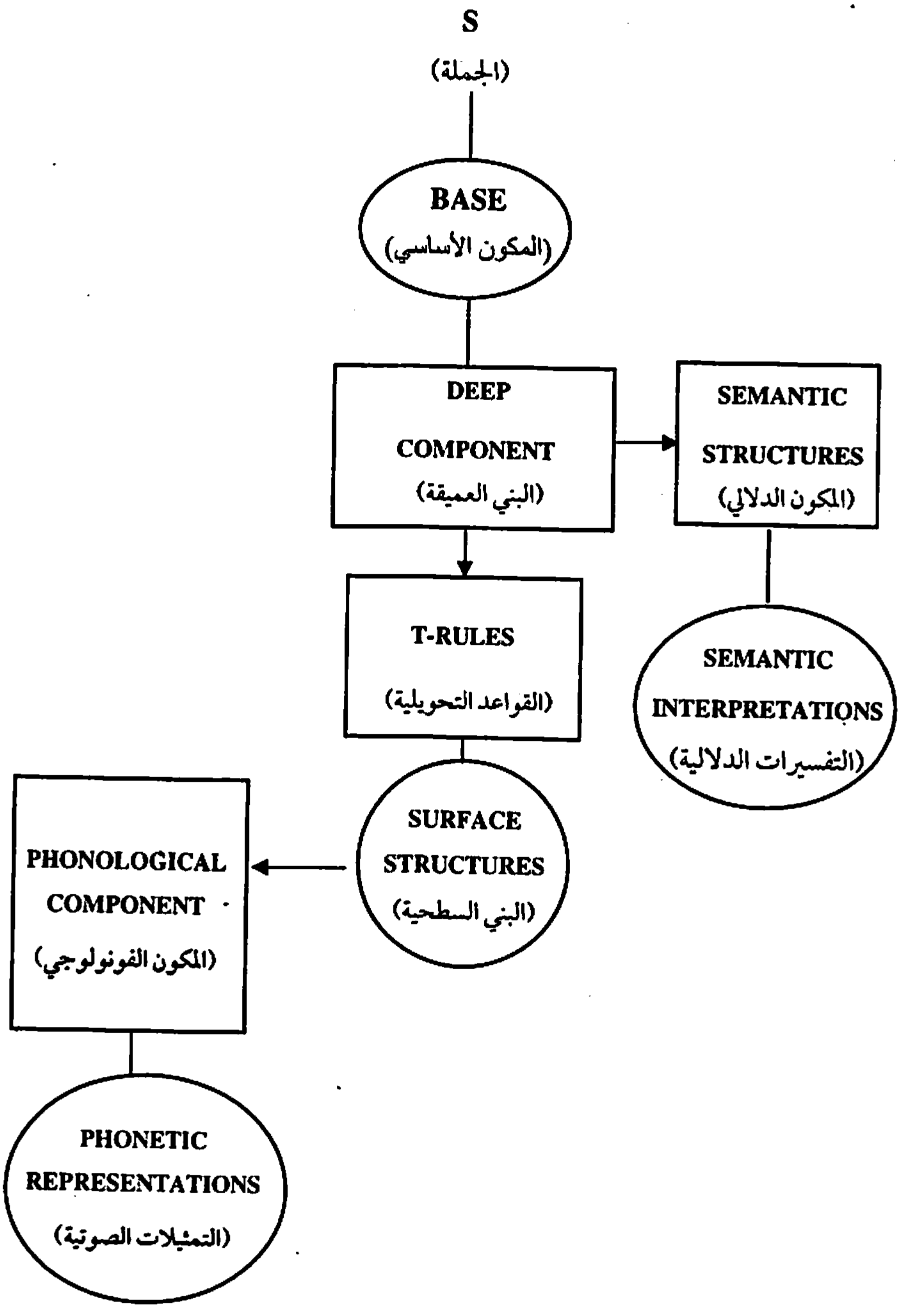
لم يؤسِّس "تشومسكي" زعمه بأن هناك مـستويين مـن البنيـة معتـبرًا الفكـرة الواهية المتمثلة في "حَدْس" أهل اللغة الأصليين فقط، بـل اعتـبر – كـذلك- أسـبابًا أخرى أكثر فنية.

وقد تأسست أهمُّ احتجاجاته في هذا الـصدد عـلى حركـة مكونـات الجملـة. حيث يُلاحَظ- في بعض الحـالات- أن بعـض هـذه المكونـات تُرحَّـل عـن مواقعهـا المناسبة المفترضة لها. وانظر معي في الجملة الآتية:

Petronella put the parrot in a drawer.

("بِتْرونِلّا"وضعت البَبْغاء في دُرْج)

فهذه الجملة تشتمل على الفعل **put**. وهو- كما رأينا في الفصل السابع- يجب أن يُتبَع بمكون اسمي **NP**، ومكون آخر ذى حرف جَرٍّ قبلى **PP** (الرسم التوضيحي ١٦-١٠).



(الرسم التوضيحي ١٦-٩)

PP (مكون ذو جار قبلي)	NP (مكون اسمي)	V (فعل)	NP (مكون اسمي)
in a drawer	the parrot	put	Petronella

(الرسم التوضيحي ١٦- ١٠).

وعلى ذلك، فنحن لا نستطيع أن نقول:

*** Petronella put in the drawer.**

ولا أن نقول: *** Petronella put the parrot.**

ولكن انظر – بعد – إلى الجملتين الآتيتين:

What did petronella put [-] in the drawer?

What did petronella put the parrot in [-] ?

فهاتان الجملتان تبدوان لنا وقد كسرتا ما يتطلّبه الفعلُ **put** من وَجوب أن يُتبَع بمكوّن اسمي، وآخر ذي جار قبلي، حيث تضمنتا – بدلا من ذلك المتطلب – أداة الاستفهام **what** واقعةً في بدايتيهما، وتكوّنتْ فجوة في الموقع الذي قد يتوقع الواحد منا أن توجد فيه كلمة مثل **parrot** ، و **drawer**. كيف يمكننا أن نتعامل مع مثل هذه الجمل؟إن أحد الحلول المتاحة في هذا الصدد، أن نعقّد المدخل المعجمي للفعل **put**، ونقرر أنه يتيح عددًا من البدائل المتنوعة، كالآتي:

- NP put NP PP

(Petronella put the parrot in the drawer.)

- What NP put PP

(What did Petronella put in the drawer?)

-What NP put NP P

(What did Pertonella put the parrot in?)

ولكن مثل هذه الإضافات الزائدة للمدخل المعجمي، سوف تتعقد في نهاية الأمر تعقدًا مفرطًا؛ إذ سيصبح لزامًا عليها أن تضع في الاعتبار الحالات التي ستتضمن جملا فرعية إضافية بين what، والجملة الأصلية، كما في:

What [did you say] [the police alleged] Petronella had put in the drawer?

(ما الذي قلته بشأن ما ادّعت الشرطة أن "بِتْرونِلّا" وضعتْه في الدُّرْج؟)

ولا شكّ في أننا كنا سنتحمّل هذا المدخلَ المعجمي (put)، على ما فيه من تضخُّم، وإعواز للانضباط، لو أنه كان الوحدة المعجمية الوحيدة التي تسمح بمثل هذا الحراك اللفظي. ولكنّ الأمر ليس كذلك: فمن شأن كلّ فعل يُتبَع عادةً بمكوّن اسمي أن يتيح مثل هذا الحراك اللفظي العجيب، كالآتي:

Felix grabbed the canary.("فِيليكس" اختطف طائر الكناري)

What did Felix grab? (ماذا اختطف "فِيليكس"؟)

What [did Angela claim) Felix grabbed?

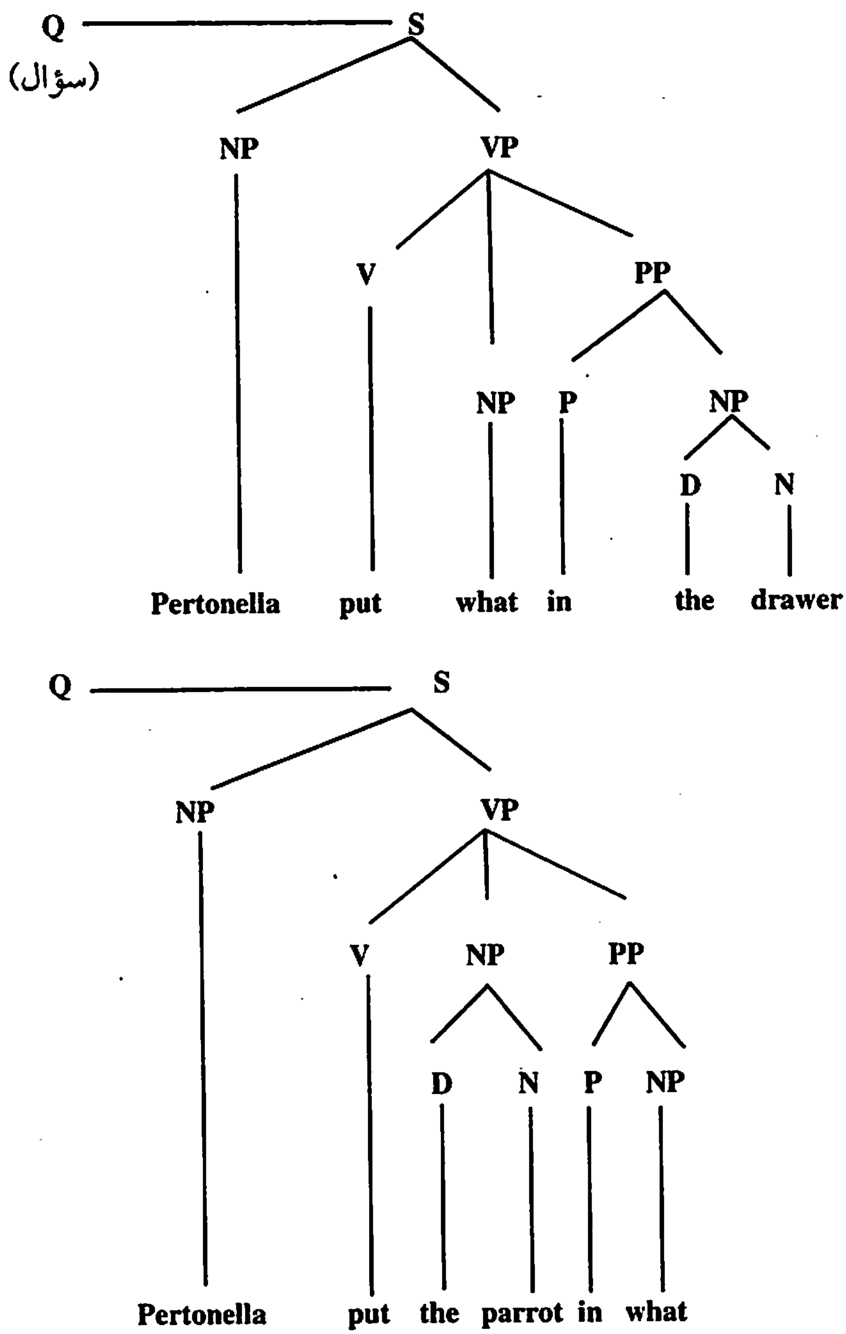
(ما الذي زعمت "أنْجِلا" أن "فيليكس" اختطفه؟)

وبسبب من شيوع هذا الأمر- أعنى ترك فجوة حيث يُتوقَّع أن يتموضع مكون اسمي، ووضع what في بداية الجملة- ساغ لنا منطقيًا أن نستخلص وجود قاعدة تركيبية عامة تقضى بالآتي: "حتى تكوّن نمطًا من أنماط الاستفهام الشائعة، ضع what في موضع مكوّن اسمي، ثم انقُل what إلى بداية الجملة"

فإذا ما تبنَّينا هذا الحلّ، فقد يفترض أحدُنا أن البنية التركيبية العميقة لهذه الجمل كانت شيئًا مقاربًا للآتي (مع افتراض أن Q اختصار لـ question) (الرسم التوضيحي ١٦-١١).

Q Petronella put what in the drawer

Q Petronella put the parrot in what



(الرسم التوضيحى ١٦- ١١)

ثم إن إحدى العمليات التحويلية نقلت what إلى المقدمة، لتتجسد الجملة – أخيرًا- في واقع الاستعمال اللغوي، كالآتي:

what did Petronella put in the drawer?

(ماذا وضعت "بِتْرونِلّا" في الدُّرْج؟)

What did Petronella put the parrot in?

(في أي شيء وضعتْ "بِتْرونِلّا" البَبْغاء؟)

إن مثل هذه الحجج التي قدّمها"تشومسكي"، قد أقنعت كثيرًا من الدارسين بأن لكلٍّ من جمل اللغة بنيتين تركيبيتين: بنيةً عميقة، وأخرى سطحية، تربطهما معًا قواعدُ تحويليةٌ مختلفة.

القواعـــد التحويليـــة:

دعونا الآن ننظر عن كَثَب في الشكل الذي تتخذه القواعدُ التحويلية **transformations** – وتُعرَف كذلك اختصارًا بـ **T- rules** - في النظرية النموذجية **Standard Theory** للنحو التحويلي، كما بلورها "تشومسكي" في كتابه **Aspects of the Theory of Syntax** (جوانب من نظرية النحو)[1]. الذي صدر في العام (١٩٦٥م). تتميز هذه القواعد التحويلية – على خلاف قواعد "إعادة الصياغة" التي ناقشناها في الفصل السابع- بأن كلّ قاعدة تحويلية منها قد تألفتْ من شقّين: فأما أولها، فهو "اختبار قابلية التطبيـق" – ويسمَّى عادة بـ **"التحليل التركيبي" structural analysis (SA)**- وهو الذي يحدِّد البنية التركيبية التي يمكن للقاعدة التحويلية أن تطبَّق عليها. وأما ثانيهما، فهو "الأوامر" التي تتعلق بالتغيير الذي تحدثه هذه القاعدةُ في هذا التركيب – ويسمَّى بـ **"التغيير التركيبي" structural change (SC)**- (الرسم التوضيحي ١٦-١٢).

---

(١) سبق التنويه في (هامش ص ٣٩٠) من هذا الفصل، بأن د. مرتضى جواد باقر قد ترجم هذا الكتاب بهذا العنوان [المترجم].

1	**STRUCTURAL ANALYSIS (SA)** (التحليل التركيبي) **(ap.plicability check)** (اختبار قابلية التطبيق)
2	**STRUCTURAL CHANGE (SC)** (التغيير التركيبي) **(Change brought about)** (التغيير الحادث)

(الرسم التوضيحي ١٦- ١٢).

خلاصة:

في التصور الخاص بـ"النحو التحويلي" الذي اشتملتْ عليه "النظرية النموذجية" (١٩٦٥م)، نجد أن كلّ قاعدة تحويلية قد انتظمت شقين: الأول اختبار قابلية التطبيق (أو ما يُعرَف بـ"التحليل التركيبي"). والثاني: التغيير التحويلي المطلوب (أو ما يُعرَف بـ "التغيير التركيبي").

وانظر معي في القاعدة التحويلية التي حرَّكت الظروف [أو الأحوال] إلى بدايات الجمل – وهى القاعدة المعروفة باسم **T- adverb preposing -** في مثل الآتي:

Bill shrieked suddenly. ⟶ Suddenly Bill shrieked.

("بِل" صرخ فجأة)　　　　(فجأة صرخ "بِل")

لقد كنا في حاجة إلى "التحليل التركيبي" (SA)-أي: اختبار قابلية التطبيق - للتأكد من أن الجملة قد اشتملتْ على ظرف / حال. وقد قضى هذا التحليلُ - في كلمات أكثر فنية ورسمية - بالأمر الآتي: "تحقَّقْ من أن الجملة تشتمل على ظرف/ حال". وفور التحقق من ذلك، يتحدد التغيير التركيبي المناسب. وقد قضي هذا الجزءُ من القاعدة التحويلية - في كلمات أكثر رسمية وفنية كذلك - بالآتي: "انقُلِ الظرف / الحال إلى المقدمة".

فإذا ما أردنا التعبير عما سبق تعبيرًا صوريًا (رمزيًا)، أمكننا ذلك كالآتي:

SA **X - ADV**

SC **X - ADV** ⟶ **ADV - X**

حيث يرمز الحرف **X** هاهنا إلى "المتغير" **variable**، بمعنى أن بنيته تقبل التنوع. وبعبارة أخرى، يقرر التحليل التركيبي (**SA**) الآتي: "يمكن للجملة أن تتضمن أي شيء تريده، ما دامت تنتهي بظرف/ حال". وأما التغير التركيبي (**SC**) فيقرر: "**X** متبوعًا بظرف / حال يتحول إلى ظرف / حال متبوعًا بـ **X**".

وتشتمل "النظرية النموذجية" للنحو التحويلي على نحو من أربع وعشرين قاعدة من هذه القواعد التحويلية. وكلّ قاعدة منها تستأثر ببنية تركيبية بعينها تُطبَّق عليها. ففضلا عن القواعد التي تُحرّك بعض مكونات الجملة، نجد قواعد أخرى تحذف هذه المكونات. فمثلا: يفترض بعض اللسانيين أن "طلبًا" مثل فعل الأمر (**Come!**) يعكس بنية تركيبية أعمق، هي: **IMP** **you will come**

(حيث ترمز الحروف **IMP** إلى **'imperative'** طلب).

ثم إن القاعدة التحويلية الخاصة بـ"الطلب" قد حذفت الكلمتين **you** ، و **will**، كما حذفت الطلب **IMP**. وثمة قواعدُ تحويلية أخرى تضيف وحداتٍ إلى الجملة. فمثلا: يُفترض أن الجملة الآتية:

There is a dodo in the garden. (ثمة "دودو"[1] في الحديقة)

---

(١) الـ"دودو": طائر كبير الحجم، منقرض، لا طاقة له على الطيران. [المترجم].

تعكس بنيةً تركيبية آصل، هي: A dodo be + PRES in the garden

ثـم إن القاعـدة التحويليـة الخاصـة بزيـادة there (T- there insertion) قـد أضافته إلى الجملة.

وفى ستينيات القـرن المـاضي، ظـنّ بعـضُ اللـسانيين ممـن أفرطـوا في الثقـة في أنفسهم، أننا سوف نستطيع - إنْ آجلا أو عـاجلا - أن نـضع قائمـةً كاملـة بالقواعـد التحويلية في اللغة الإنجليزية، مع تفاصيلَ وافيـةٍ بالكيفيـة التـي اشـتغلتْ بهـا هـذه القواعد. ولكنّ هـذا الظـنّ الطّمـوح لم يتحقّـق - للأسـف - قـطّ. وذلـك لأسـباب سنناقشها في فصلنا الآتي.

فلنتذكر:

- استهلّ "تشومسكي عصر "اللسانيات التوليدية".
- يُعنَى "النحو التوليدي" - دون غيره من "الأنحاء"- بالبحث في القواعد الباطنية الأساسية التي تقوم عليها ظاهرةُ اللغة الإنسانية، لا بالبحث في المنطوقات اللفظية التي تجرى على ألسنة الناس في حَدّ ذاتها.
- أحدث كتاب "تشومسكي" الصغير الحجم **Syntactic Structures** (البِنَى النحوية)- وقد صدر في العام (١٩٥٧م)- ثورةً في "اللسانيات". وقد ناقش فيه "تشومسكي" بعضَ النماذج المطروحة لمعالجة اللغة الإنسانية بمكوناتها المختلفة.
- أوضح "تشومسكي" أن "النحو" الذي يعالج اللغة الإنسانية على أن كلماتها تَقْتدِح كلّ منها الأخرى (أو تستلزمها)، يُخفق في معالجة التراكيب اللغوية غير المترابطة الكلمات .
- لاحظ "تشومسكي"- كذلك – أن مما يؤخذ على "نحو بنية المكونات" **phrase structure grammar** أنه قد جمع بين الجمل غير المتماثلة، ولم يجمع بين الجمل التي يشعر أهلُ اللغة أنها جِدّ متقاربة، بحيث يمكن النظرُ إليها على أنها مجرَّد تنويعات أسلوبية.
- طرح "تشومسكي" نموذج "النحو التحويلي" لمعالجة بنية اللغة، بديلا عن النماذج الأخرى التي طرحها سابقون ومعاصرون له.
- يشتمل "النحو التحويلي" على مستويين للبنية التركيبية: مستوى البنية العميقة، ومستوى البنية السطحية، تربط بينهما قواعدُ (أو عمليات) تحويلية.
- قدّم "تشومسكي" تصوره الثاني المعدّل للنحو التحويلي، في كتابه الصادر في العام (١٩٦٥م)، بعنوان: **Aspects of the Theory of Syntax** (جوانب من نظرية النحو). وقد أسمى "تشومسكي" تصوره المعدَّل هذا بـ **Standard Theory** (النظرية النموذجية).
- اشتمل النحوُ التحويليُّ في صورته تلك التي قدّمها الكتابُ المذكور آنفًا، على عدد متنوع من القواعد التحويلية.
- يمكن لتلك القواعد التحويلية أن تتصرف في مكونات الجمل على أنحاء مختلفة: فتحرّك مكوناتٍ عن مواضعها تارةً، وتضيف مكوناتٍ، وتحذفها، تارةً أخرى.

١٧

مشكلات في مواجهة القواعد التحويلية

يناقش هذا الفصلُ المشكلاتِ التي تكشَّف عنها الـدرسُ الطويـل المستوعب للقواعد التحويلية. فقد تبين للدارسـين – بعـد جهـود متراكمـة – اسـتحالةُ تحجيم فاعلية هذه القواعد. وكان من جرّاء ذلك أن شرع "تشومسكي" في التفتيش عن قيود عامة - أو وسائل- تحول دون هذه القواعد والقدرةَ على إنجاز أي شيء، وكلِّ شيء.

لقد بدا أن النحو التحويلي قد غيّر مسار اللسانيات، وأنه ما على اللسانيين وَفْقًا لذلك، إلا أن يتوافقوا على الشكل الذي تتخذه البِنَى العميقة، تلك التي كان يُفترض أنها تتنوع تنوعًا نسبيًا من لغة إلى أخرى. وكذا بدا أن على اللسانيين هؤلاء، أن ينجزوا قائمةً دقيقة ونهائية بالقواعد التحويلية الجائزة. كان ذلك هـو المتأمَّـل عـلى الأقـل في ستينيات القرن الماضي. ولكن الأمر لم يَجْرِ على هذا النحـو؛ فقـد جعلـت المـشكلاتُ تظهر رويدًا رويدًا. فتعالوا بنا ننظر في الأسباب التي أفضت إلى ذلك.

التلاعب بعصا سحرية:

تمثلتْ أوضـح المـشكلات التـي جابهـت القواعـد التحويليـة – كـما جـسّدتْها "النظرية النموذجية" (١٩٦٥م)- في أن هذه القواعد قد بدت وكأنها عـصا سـحرية تستطيع أن تحوّل أية بنية عميقة إلى أي نوع من البِنَى الـسطحية، بأيـة وسـيلة كانـت. ولا ريب في أن هذه المَظِنَّة قد كانت ضربًا من العبث. إننا لم نكن نتغيًا وسيلةً تحوّل بنيةً عميقة، من مثل:

("بِلْ" ربى الـ"دودو"[١] في الحمام) **Bill Kept the dodo in the bath.**

---

(١) سبق التعريف بهذا الطائر المنقرض في الفصل السابق (هامش ص٤٠١). [المترجم].

إلى بنية سطحية، من مثل:

My gold fish eats bumble- bees.

(سمك الزينة الذي أملكه يأكل النحل الطنّان)

فلا شك- إذن- في أنه يجب أن تكون هناك بعضُ القيود على العمليات التي يمكن للقواعد التحويلية أن تُنجزها. وقد قاد البحث عن هذه "القيود" التي يجب أن توضع على هذه القواعد، في نهاية المطاف، إلى إحداث تغيير جوهري في بنية "النحو التحويلي". وسوف ندرس – عبر فصلنا هذا – الكيفية التي حدث بها ذلك، كاشفين عن بعض أوجه الخلل التي ظهرتْ في هذه النظرية التي بدت إبّان أول ظهورها نظرية جِدّ رائعة.

خلاصة: تبين للسانيين أنه لا ينبغي السماحُ للقواعد التحويلية أن تغيّر الجمل تغييرًا عشوائيًا، كيفما اتفق. وأن ثمة حاجةً إلى وضع قيود على "عمل" تلك القواعد في بنية اللغة.

الحفـاظ على المعنـى:

تمثّل القيدُ الأقوى الذي وُضع على القواعد التحويلية، في تصور "النظرية النموذجية" للنحو التحويلي، في وجوب عدم السماح لهذه القواعد بأن تغيّر المعنى. وعلى ذلك، يمكن لأحدنا أن يحوّل:

Bill kept a dodo in the bath. ("بِلْ" ربّى "دودو" في الحمام)

إلى: **A dodo was kept in the bath by Bill**

(ثمة دودو" ربّاه" "بِلْ" في الحمام)[1]

أو: **What Bill kept in the bath was a dodo**

(ماربّاه "بِلْ" في الحمام كان "دودو")

---

(١) يُلاحَظ أن الترجمة الحرفية إلى العربية لهذه الجملة الإنجليزية المبنية للمجهول، سوف يفضي إلى الجمع بين بناء الفعل للمجهول، وذكر الفاعل (رُبّي "دودو" في الحمام بواسطة "بِل"). وهو ما لا تسوّغه بنية الجملة العربية. [المترجم].

أو: **In the bath Bill kept a dodo**

(في الحمام "بِلْ" ربّى "دودو")

فهذه الجمل المحوَّلة لا تختلف فيما بينها إلا اختلافاتٍ أسلوبيةً جِدّ دقيقة؛ حيث ظلّت القضيةِ الرئيسية – وهي أن "بِلْ" قد ربَّى طائرًا من طيور الـ "دودو" في الحمام – ماثلةً في كلِّ من هذه الجملِ دونما تغيير. وكذا لم يحصُل تغييرٍ في الوحدات المعجمية، ولا تغيير فيمن فَعَل، وماذا فَعَل، ولمن فعل؛ فقد ظل "بِلْ" صاحب دور "القائم بالفعل" (agent)، أي الشخص القائم بالتربية. وظل الـ "دودو" هو القائم بدور "الخاضع لحدث ما"[1] patient، أي الكائن الذي خضع لفعل "بِلْ". وبالرغم من ذلك، فمن هاهنا كان مبدأ المشكلة: حيث تبيّن أن تطبيق قواعدَ تحويليةٍ بعينها يفضي إلى حصول تغيير في معنى البِنَى العميقة، كما يتكشّف من الأمثلة الآتية.

ولنبدأ بدراسة القاعدة التحويلية التي ربطت الجمل المبنية للمعلوم بنظيراتها المبنية للمجهول. وهي القاعدة التي تُعرَف اختصارًا بـ **T – Passive**. وانظر معي إلى هذا الزوج من تلك الجمل:

Many cowboys do not ride horses.

(كثير من رعاة البقر لا يركبون الخيل)

Horses are not ridden by many cowboys

(الخيل لا يركبها كثير من رعاة البقر)[2]

فوَفْقًا للنظرية النموذجية، يتوزَّع هذا الزوجَ من الجمل بنيةٌ عميقة واحدة؛ مما يستتبع أن يكون معناهما واحدًا كذلك. وبالرغم من ذلك، نجد أن كثيرًا من أهل اللغة الإنجليزية يرون أن لهاتين الجملتين تفسيرين مختلفين: فالجملة المبنية للمعلوم تدلّ ضمنيًا على ما يلي: بالرغم من أن كثيرًا من رعاة البقر لا يركبون الخيل، فإن كثيرًا منهم – كذلك – ما زالوا يركبونها. وأما الجملة المبنية للمجهول – في المقابل – فتدل ضمنيًا على أن القليل النادر من رعاة البقر يركبون الخيل.

---

(١) سبق التعريف بمدلولي هذين المصطلحين في الفصل السابع (القوالب التي تنتظم جمل اللغة)، (ص ١٨٢). [المترجم].

(٢) ينظر الملاحظة الواردة في الهامش رقم (١) من الصفحة السابقة من هذا الفصل. [المترجم].

إن هذه المشكلة ليست بالضرورة مشكلةً عديمة الحل. فمما يمكن القولُ به للخروج من هذه "الورطة"، أن نزعم أن لكلٍّ من هاتين الجملتين معنيين:

1- Many cowboys do not ride horses, although many still do.

(الكثير من رعاة البقر لا يركبون الخيل، بالرغم من أن كثيرًا منهم ما زالوا يفعلون ذلك).

2- Many cowboys do not ride horses, and hardly any still do.

(الكثير من رعاة البقر لا يركبون الخيل، والقليل النادر منهم مازالوا يفعلون ذلك).

إن موقع كلمة **many** في الجملة، هو الذي يوجِّه تفسير الجملة المبنية للمعلوم إلى المعنى الأول، ويوجّه تفسير الجملة المبنية للمجهول إلى المعنى الثاني. وبالرغم من ذلك، فلا شك في أن كلا المعنيين هذين، يمثّل – من الناحية النظرية – معنىً محتملا لكلٍّ من هاتين الجملتين.

ولكننا حين نشرع في النظر في قواعدَ تحويليةٍ أخرى، نجابه ضروبًا أخرى من المشكلات التي لا يمكن تفسيرها على هذا النحو من السهولة. ومنها: القاعدة التحويلية التي تحذف العناصر المتكررة في الجمل المتعاطفة بالحرف **and** حذفًا اختياريًا. وهي القاعدة المعروفة اختصارًا بـ **T – conjunction reduction** . وانظر معي في الجملتين الآتيتين اللتين تتوزَّعهما بنيةٌ عميقة واحدة :

Few women are rich and few women are famous.

(قليل من النساء غنيات، وقليل من النساء مشهورات)

Few women are rich and famous.

(قليل من النساء غنيات ومشهورات)

ففي الجملة الثانية، طُبقت القاعدة التحويلية **T- conjunction reduction** تطبيقًا اختياريًا؛ فأثمرتْ جملةً بمعنى مختلف(1). فلو صح أن القواعد التحويلية لا تغير المعنى، لما كان لمثل هذا أن يقع إذن.

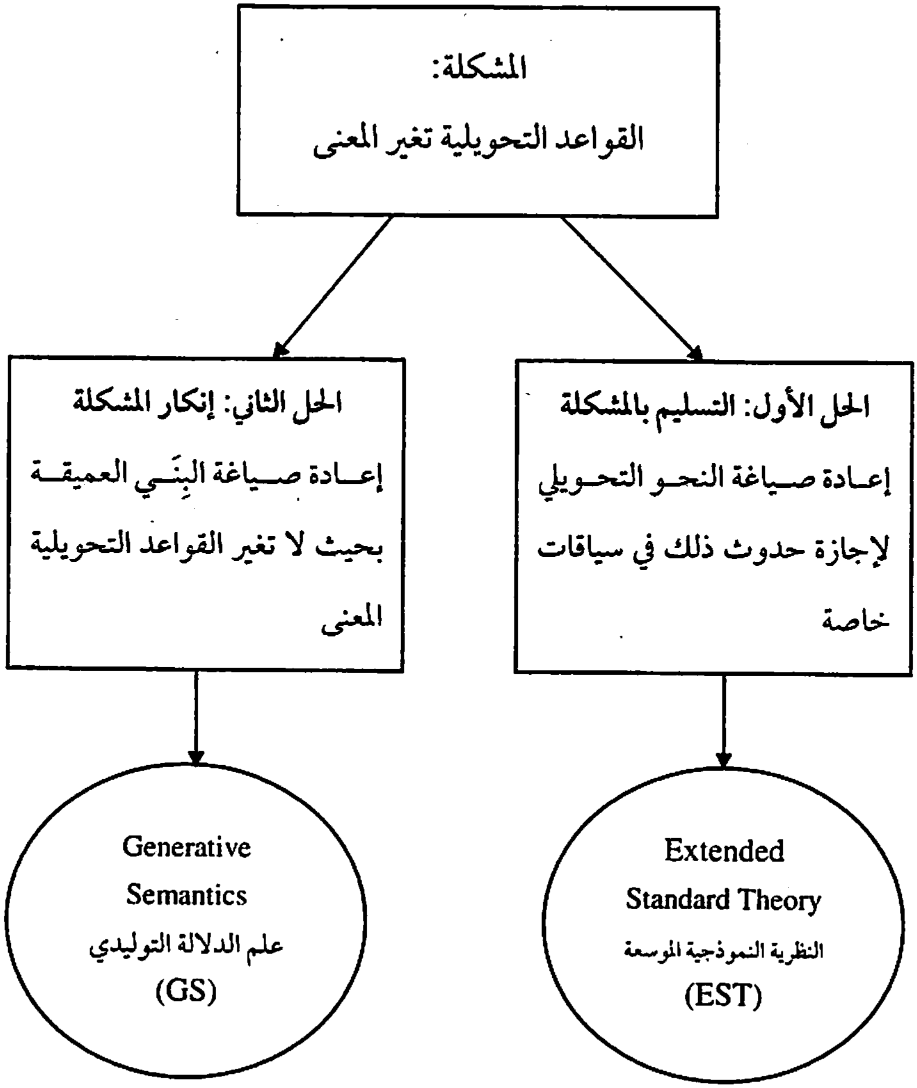
---

(1) وذلك لأن معنى الجملة الأولى هو: "قليل من النساء غنيات، وقليل منهن مشهورات". في حين أن معنى الثانية هو: "قليل من النساء يجمعن بين الغنى والشهرة". [المترجم].

إن هذه الأمثلة تُظهر لنا أننا بإزاء مشكلة خطيرة محيِّرة. فكيف نحُلّها إذن؟ لقد تمثل أحد الحلول في افتراض أن ثمة شيئًا طارئًا أضيف إلى الجمل التي تناولناها آنفًا. وذلكم هو اشتمال هذه الجمل على ما يسمّى بـ"الواصفات الكمية" **quantifiers**. وهي تلك الكلمات التي تعبّر عن "كميات"، من مثل: **many**، و **few**. وعلى ذلك، فيمكننا أن نفترض – في حالتنا هذه- أن القواعد التحويلية تغيّر المعنى في سياقات خاصة بعينها، منها: اشتمال الجمل على "واصفات كمية".

لقد كان هذا هو الحلّ الذي تبنّته جماعةٌ من اللسانيين. وقد أسموا "نحوهم" المنقّح هذا بـ"النظرية النموذجية الموسَّعة" **Extended Standard Theory** (تعرف اختصارًا بـ **EST**)؛ من حيث إنها تمثّل امتدادًا موسَّعًا للنظرية النموذجية، تلك التي كانت تقول بأن القواعد التحويلية لا يمكن أن تغيّر المعنى، على ما سبق ذِكْرُه.

وثمة حلّ متاح آخر، قال به فريق آخر من اللسانيين. وذلكم هو أن القواعد التحويلية تحافظ على المعنى، وأن سبب المشاكل التي نَجَمَتْ – بعد- هو أن البنية العميقة لدى أول القول بها، قد صيغت صياغةً غير صحيحة (الرسم التوضيحي ١٧-١). وقد عُرفت وجهة النظر هذه بـ "علم الدلالة التوليدي" **Generative Semantics** (تعرف اختصارًا بـ **GS**). وكان لهذه التسمية أسبابٌ ستتضح عما قليل.



(الرسم التوضيحي ١٧-١)

علم الدلالة التوليدي:

زعم فريق اللسانيين الذي رفض قبول "النظرية النموذجية الموسعة" **(EST)**، أن المشكلة في القواعد التحويلية، تلك التي بدا أنها تغيّر المعنى، لا تكمُن – في المقام

الأول- في هذه القواعد نفسها، بل تكمن في تصور "تشومسكي" لمفهوم البنية العميقة. حيث أكد هذا الفريقُ من اللسانيين أن هذا المفهوم قد اتّسم بقدر من الغموض المعيب. وذهبوا إلى أن هذا المفهوم يجب أن يوسَّع، بحيث يصبح لكل جملة من أزواج الجمل التي ناقشناها من قبل بنيةٌ عميقة مختلفة. فقد أنكر هؤلاء اللسانيون - مثلا- أن يكون لزوج الجمل الآتية بنيةٌ عميقة واحدة:

Few women are rich and few are famous.

Few women are rich and famous.

فإذا كان لهاتين الجملتين معنيان مختلفان، فلابد من أن يكون لهما - كذلك- "بنيتان تحتيتان" **underlying structures** مختلفتان (يُؤْثر علماء "علم الدلالة التوليدي" استعمال مصطلح "البنية التحتية" بدلا من مصطلح "البنية العميقة"). وعلى ذلك، فقد صار لزامًا على تلك "البِنَى التحتية" أن تتعامل بتفصيل أكثر مع أجزاء التراكيب التي تتأثر بوقوعها في محيط "الواصفات الكمية"، من مثل: **few**، و **many**. وتمثَّلت المشكلة الرئيسيةُ في هذا الصدد، في تقرير الصورة التي كانت عليها تلك "البِنَى التحتية" المعقدة والغامضة.

ولم يكتف علماءُ "علم الدلالة التوليدي" بالمحاججة عن الفرضية القائلة بأنه إذا كان لجملتين معنيان مختلفان، فلابد أنّ لهما بنيتين تحتيتين مختلفتين كذلك. بل لقد حاججوا عن صحة الفرضية المقابلة لتلك، وهي أنه إذا كان لجملتين معنىً واحد، فلابد أن لهما بنيةً تحتية واحدة كذلك. وذلك على عكس ما ذهبتْ إليه "النظرية النموذجية". وانظر معي في الجملتين الآتيتين: **Henry stopped Drusilla.**

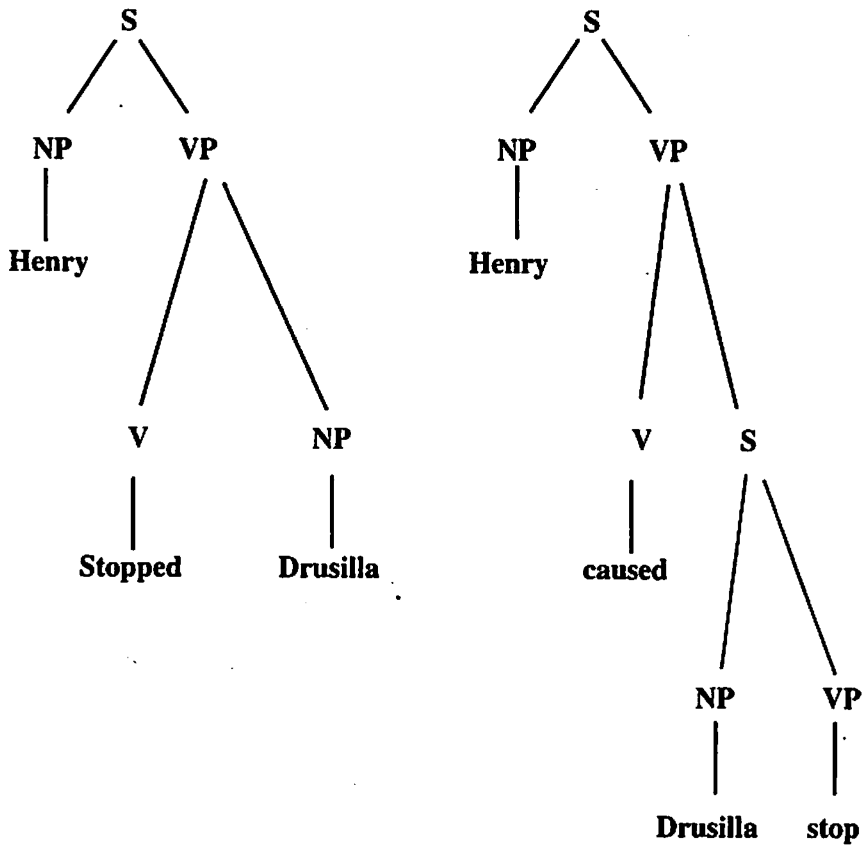
("هنري" أوقف "دروسلا")

Henry caused Drusilla to stop.

("هنري" تسبَّب في أن تقف "دروسلا")

فوَفقًا للنظرية النموذجية، ستتباين "البنيتان العميقتان" لهاتين الجملتين بعض التباين؛ إذ تتألف الأولى من "بنية تحتية" واحدة فقط، في حين تتألف الثانيةُ من اثنتين (الرسم التوضيحي ١٧-٢).

وأما علماء "علم الدلالة التوليدي"، فيرون أن الفرق بين الجملتين ليس إلا فرقًا جدّ سطحي. وأنه يمكن تمثيل التشابه الشديد بينهما إذا قمنا بتحليل الكلمات إلى أجزائها المكونة لها.أي أن هؤلاء العلماء قد أهملوا إحدى الفرضيات التي قالت بها "النظرية النموذجية"، وهي أن الوحدات المعجمية، في البنية العميقة، هي وحداتٌ غير قابلة للتحليل، أو التفكيك.



(الرسم التوضيحي ١٧-٢).

وبدلا من ذلك، وجدناهم يحللون كلمة مثل **stop**، في جملة **Henry stopped Drusilla**، إلى **CAUSE STOP** (يسبّب الإيقاف)؛ وكلمة مثل

kill (يقتل) إلى CAUSE DIE (يسبّب الموت)، أو – على نحو أدقّ – إلى CAUSE BECOME NOT ALIVE (يسبّب أن يصبح غير حيّ). وكلمة مثل remind (يذكّر) إلى STRIKE AS SIMILAR TO (يخطر بالبال بوصفه ممثلا لـ). ثم إن ضربًا خاصًا من التحويل يجمع تلك المكوناتِ المتعددة في كلمة واحدة.

وقد ترتّب على ما سبق أن علماء "علم الدلالة التوليدي" قد جعلوا يوسّعون "البِنَى التحتية"، حتى غدا من العسير أن نميّز تلك "البِنَى التحتية" من "البِنَى الدلالية". وقد كان لذلك نتائجُ جِدّ مهمة في رؤية "قواعد اللغة": فإذا ما صحّ أن "البِنَى التحتية" تماثل "البِنَى الدلالية"، فلا حاجة بنا – إذن – إلى تمثيل هذه "البِنَى التحتية" داخل منظومة "قواعد اللغة"، بوصفها مكونًا مستقلا من مكونات هذه القواعد. والمكون الأساسي base سوف يستهل – أو يولد generate – مجموعة من "البِنَى التحتية"، التي هي "البِنَى الدلالية" عينها. ومن أجل ذلك، عُرف هؤلاء الذين تبنَّوْا هذه النظرية، ونافحوا عنها، بـ"علماء علم الدلالة التوليدي" generative semanticists.

لقد بدت الفكرةُ التي نهض عليها "علم الدلالة التوليدي"، في ظاهرها، فكرةً جذّابة ومقبولة. فمن المنطقي – لدى كثير من الناس – أن تأتي المعاني أولا، ثم تَتْبعها الوسائلُ التركيبية التي تعبّر عنها. بيد أننا ينبغي أن نتذكر – في المقابل – أن هؤلاء اللسانيين لم يكونوا يتحدثون عن "العمليات" التي ينتظمها "إنتاج الكلام". لقد كان هدفهم الأساسي عند وضع "النحو"، أن يحدِّدوا ما كان صحيحَ التركيب من الجمل، وما كان غير صحيح منها، في اللغة الإنجليزية. وقد غدا تحقيقُ هذا الهدف – في إطار "علم الدلالة التوليدي" – أمرًا ما فتئ الدارسون يتبينون شيئًا فشيئًا صعوبةَ إنجازه.

لقد تمثلت المشكلةُ الأساسية في تعيين البِنَى التركيبية التحتية، التي جعلتْ صعوبة انقيادها للدارسين تتزايد أضعافًا مضاعفة. ولم يستطع اللسانيون أن يتفقوا على الصورة التي يجب أن تكون عليها هذه "البِنَى التحتية". وبدا أنها إنما تعكس – في المقام الأول – "تخمينات" اللسانيين الذين يضعونها، ولا تعكس أيَّ واقع موضوعي. وفضلا عن ذلك، فقد احتاج أصحابُ هذه الاتجاه إلى قواعد بالغة التعقيد؛ لإظهار الكيفية التي يجب أن تتجمع بها الأجزاءُ المتنوعة للبنية التركيبية التحتية. وقد آل الأمر

بمناصري هذا الاتجاه في نهاية المطاف، إلى التخلّي التدريجي عن تلك المهمة المستحيلة: مهمة تعيين تفاصيل تلك "البِنَى التحتية" للكلام.

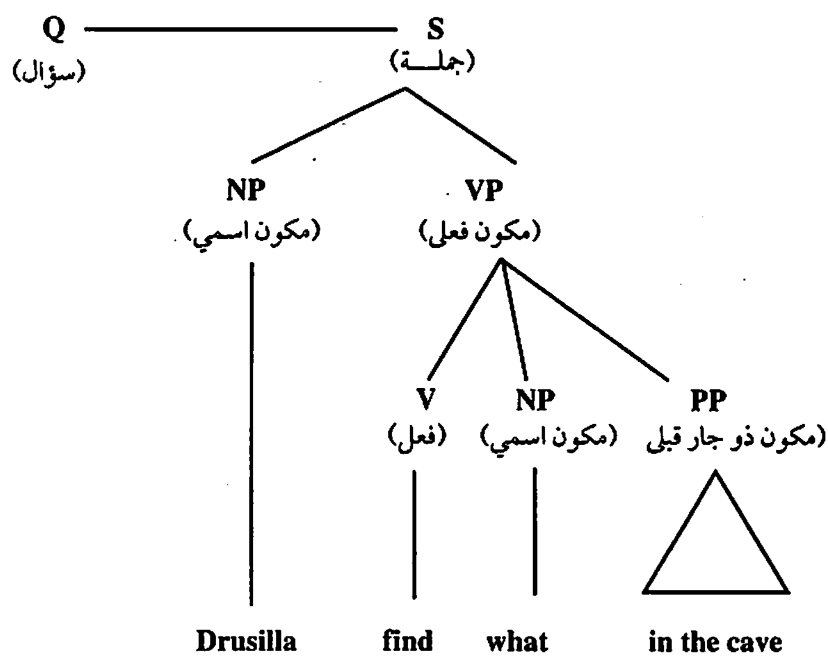
نظريــة الأثــر:

آل الأمر بجُلّ مناصري "النحو التحويلي" TG إلى الانصراف عن "علم الدلالة التوليدي"، مسلِّمين بأنه قد كان لبعض البِنَى السطحية على الأقل، دورٌ مهمّ في تفسير المعنى. وقد أفضى تثبيتُ هذه الإمكانية في بنية قواعد اللغة؛ إلى تكوين ما يعرف بـ"النظرية النموذجية الموسَّعة" Extended Standard Theory (EST)، كما ذكرنا من قبل. وأخيرًا، خلُص كثير من اللسانيين جرّاء الدرس المتواصل، إلى تقرير أن "البنية السطحية" وحدها كانت هي المسئولة عن "المعنى". وقد بات هذا "النحو" المعدَّل الناجم عن تلك الرؤية يُعرَف باسم "النظرية النموذجية الموسعة المنقحة" **Revised Extended Standard Theory** (وتعرف اختصارًا بـ **REST**).

وفي المقابل، كان لتلك الفرضية القائلة بأن البنية السطحية وحدها هي المسئولة عن "المعنى" تأثيراتٌ على باقي مكونات "نحو" اللغة. وأهم تلك التأثيرات أنه قد غدا من المهم أن نعرف المواقع التي تحرَّكت منها عناصر الجملة في "البنية العميقة". وقد كان هذا ضروريًا حتى يصبح "النحو" قادرًا على أن يتعامل مع معاني الجمل التي تشتمل على مكوّنات اسمية **NP** تحركتْ عن مواقعها الأصلية، كما حدث – مثلا – حين تحركتْ أداة الاستفهام **what** إلى موقع الصدارة في الجملة. وقد تأسس على تحرك المكونات الاسمية عن مواقعها فرضيةٌ تقول بأن هذه المكونات قد خلَّفتْ وراءها – في مواقعها الأصلية – أثرًا خافتًا **faint trace**. وقد اصطُلح على التعبير عن هذا الأثر بالحرف **t**، المأخوذ من كلمة **trace** (أثر). وعلى ذلك، فإن بنية عميقة من مثل:

Q Drusilla find what in the cave.

(ويمثلها الرسم التوضيحي ١٧-٣).

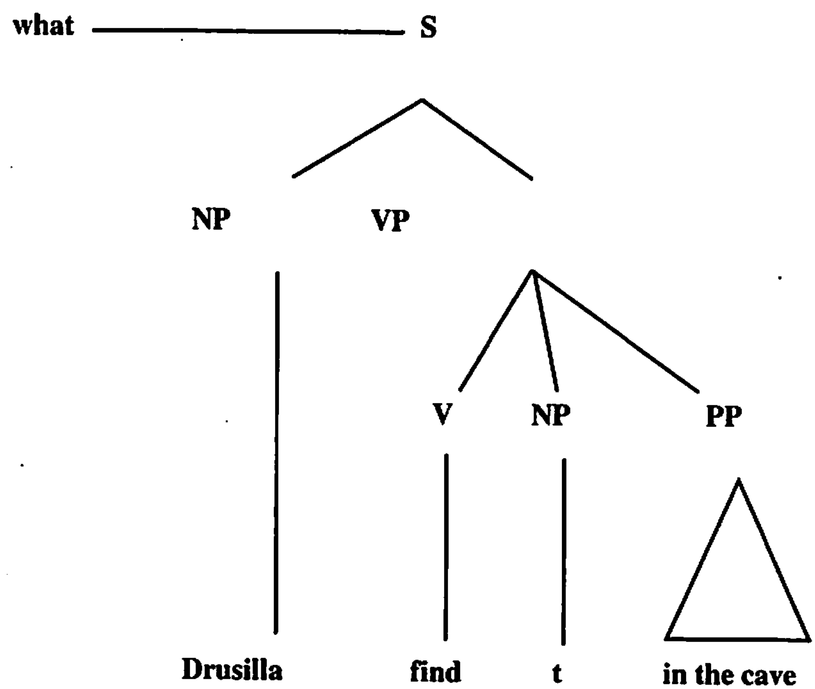


(الرسم التوضيحي ١٧-٣)

ستكون بنيتها السطحية نحوًا من:

What (did) Drusilla find t in the cave?

(ويمثلها الرسم التوضيحي ١٧ – ٤).



(الرسم التوضيحي ١٧-٤)

(يُلاحظ أن البنية العميقة والبنية السطحية قد بُسِّطتا تبسيطًا هاهنا، وكذا في سائر فصول الكتاب، حيث اجتُزئ من تفاصيلهما بما هو ذو صلة بالمسألة محلّ الدرس).

تقييد فاعلية القواعد التحويلية

تذكَّرْ أن القيد الرئيسي على القواعد التحويلية T- rules في "النظرية النموذجية، قد تمثّل في أن هذه القواعد لا تستطيع أن تغير المعنى. فالمعنى كاملا قد استقرّ في البنية العميقة، ولابد أن يُستبقى دون تغيير في البنية السطحية. ولكن الأمر قد تغير في "النظرية النموذجية الموسعة المنقحة" (REST) – وهى التجليّ الأحدث للنحو التحويلي TG - حيث قيل بأن البِنَى السطحية هي وحدها التي تزوّدنا بالتفسير الدلالي. وعلى ذلك، فقد انتهى اللسانيون إلى المشكلة التي بدءوا بها. فكيف يستطيعون – إذن– أن يقيّدوا قدرات القواعد التحويلية، ويمنعوها من تكوين رُكام مُلبس، وغير جائز، من الوحدات اللغوية المحرَّكة تحريكًا جزافيًا؟ لقد غدا من المهم في هذا الصدد تقديمُ إرشادات واضحة ومحددة، بشأن "أيّ" يمكن أن يتحرك إلى

"أين". وقد تمثّل أحد المقترحات بأن قدرة القواعد التحويلية تقتصر على تحريك الوحدات اللغوية، في زمام التركيب الذي أنجزته بالفعل "قواعدُ بنية المكونات" phrase structures rules فقط. أي أن هذه القواعد التحويلية لا يمكن أن تُوجِد مجموعةً من التراكيب الجديدة جِدَّة تامة. وبالمصطلح اللساني، يجب أن تكون هذه القواعد "حافظة للبنية" structure – preserving . وقد كان من الآثار الثانوية لهذا المقترح تغيير بعض "قواعد بنية المكونات".

ومن الاقتراحات الأخرى في هذا الصدد، أن تُقيَّد "المسافة" التي يمكن للوحدات اللغوية أن "تقطعها"، تقييدًا تصبح معه هذه الوحداتُ غير قادرة على أن "تثب" بعيدًا، بعدًا مفرطًا عن الجُمَيْلات الخاصة بها، إلا في سياقات استثنائية. ودونك- مثلا- هذه الجملة:

The discovery that the picture of the aardvark had been stolen was quite upsetting.

(اكتشاف أن صورة خنزير الأرض"(1) قد سُرقت كان أمرًا مزعجًا تمامًا).

فعبارة **the aardvark** (خنزير الأرض) لا يجوز أن تتخطى التركيب كلّه؛ فتقع خارجه، كالآتي:

*** the discovery that the picture had been stolen was quite upsetting of the aardvark.**

وهكذا، فقد غدا من الشواغل المهمة للمعنيين بـ"النظرية النموذجية الموسعة المنقّحة" (**REST**)، أن يستنبطوا وسائل لتقييد قدرات القواعد التحويلية، أو – تحديدًا- وسائلَ لمنع الوحدات اللغوية من الحركة الفوضوية في كل الاتجاهات. ولكنّ الافتقار إلى هذه القيود لم يكن وحده هو المشكلة.

تقسيم العمل:

كان من المميزات المهمة لـ"النحو التحويلي النموذجي" **Standard TG** أنه – على ما يتبدّى- قد أوضح الاضطرابَ الظاهريَ في بنية اللغة، وكذا بسَّطَه.

(1) "خنزير الأرض" : حيوان ثديي يعيش في جنوب قارة أفريقيا. يتميز – فيا يتميز – بأنف طويل، ولسان لزج طويل، يساعده في أكل النمل. [المترجم].

فقد استعاض هذا "النحو" عن مهمة وضع قائمة جِدّ طويلة بالقوالب التركيبية لجمل اللغة، بتعيين القوالب التركيبية الأساسية لهذه الجمل، ثم النظر إلى باقي هذه القوالب، على أنها صور فرعية لتلك الأساسية.

ولكنّ التعامل مع هذه الصور المتنوعة تعاملا ناجحًا، كان يستلزم النظر في عشرات من القواعد التحويلية التي عيَّنها بعضُ اللسانيين بالفعل، وعزَوْا إليها السبب في تكوين هذه الصور. وقد كان لهذا العدد الكبير من القواعد التحويلية مشكلاتُه الخاصة. وعلى رأسها: ما تبين من أن مهمة وضع قائمة بتلك القواعد التحويلية الكثيرة غير المحصورة، التي عيَّنت الكيفيةَ التي تم بها إنتاجُ تلك الصور المتنوعة المتولّدة من القوالب التركيبية الأساسية، لم تكن بالضرورة أقلَّ مئونةً، واقتصادًا، من مهمة وضع قائمة بالقوالب التركيبية المختلفة، في بداية الأمر.

ومن المشكلات الأخرى – كذلك – أن تطبيق بعض القواعد التحويلية المختلفة كان يفضي أحيانًا إلى حصول نفس الأثر. ولكن منظومة هذا الضرب من "النحو التحويلي" لم تتنبه إلى ذلك. ودونك – مثلا – الجملتين الآتيتين:

Marigold was impossible to please.

("ماري جولد" كان مستحيلا إسعادها)

Bill seems to be ill.

("بِلْ" يبدو أنه مريض)

فـ"الفاعل/ المسند إليه" **subject** في كلٍّ من هاتين البنيتين السطحيتين – أعني: "ماري جولد" و "بِل" قد دَفعتْ به إلى صدارة الجملة إحدى القواعد التحويلية. وبيان ذلك: أن البنية العميقة لكلٍّ من هاتين الجملتين تُشبه أن تكون كالآتي:

It was impossible to please Mairgold.

(كان مستحيلا إسعاد "ماري جولد")

It seems that Bill is ill.

(يبدو أن "بِلْ" مريض)

بيد أن القاعدتين التحويليتين كانتا متمايزتين تمامًا؛ لأنهما طبقتا على بنيتين تركيبيتين مختلفتين: ففي البنية التركيبية الأولى وقعتْ "مارى جولد" في موقع المفعول به للفعل **please**. في حين أن "بِل" قد وقع في البنية التركيبية الثانية في موقع الفاعل/ المسند إليه للفعل **is**. ولم يتضمن "النحو التحويلي" تنويهًا بأن القواعد التحويلية ربما تكون متمايزة، على الرغم من أنها تؤدى عملياتٍ متماثلةً.

إن هاتين المشكلتين- أعنى: هذا العدد الكبير من القواعد التحويلية المختلفة، ثم ما تبيَّن من أن لبعض القواعد التحويلية نَفْسَ الأثر- قد دفعتا اللسانيين إلى إعادة النظر في القواعد التحويلية قاعدةً قاعدةً. وقد خلَصوا من ذلك إلى نتيجتين عامتين: الأولى: أن تصنيف بعض القواعد على أنها قواعدُ تحويلية، لم يكن تصنيفًا صحيحًا. وأن العملياتِ التي أنجزتْها تلك القواعدُ يمكن التعاملُ معها على نحو أفضل، في إطار مكوّن آخر من مكوّنات منظومة قواعد اللغة. والنتيجة الثانية: أن بعض القواعد التحويلية المتبقية يمكن أن تُدمَج معًا. فدعونا – إذن – ندرس ما أنجزه اللسانيون في هذا الصدد، من "تخفُّف"، و"دَمْج"، درسًا موجزًا.

تخفيف الحمولة وإعادة توزيع المهام:

بدا للدارسين أن "المعجم"، و"المكون الدلالي"، هما المكونان اللذان لم يوظَّفا التوظيف المناسب المستحقّ، في منظومة "النحو التحويلي" المقترحة آنذاك. وعلى ذلك، فعلى عاتق كلٍّ منهما كان التخفّف من بعض القواعد التحويلية. وانظر معى في الجملتين الآتيتين:

Arabella gave the champagne to Charlie.

("أربِلّا" أعطت الشَّراب لـ"تشارلي")

Arabella gave Charlie the Champange.

("أربِلّا" أعطت "تشارلي" الشراب)

ففي "النحو التحويلي النموذجي" **Standard TG** يُنظَر إلى الجملة الأولى على أنها تكاد تمثّل البنية العميقة. ثم إن إحدى القواعد التحويلية قد أوقعت تبادلا بين

الكلمتين: champagne و Charlie، وحَذَفَت العنصر اللغوي الاعتراضي to ؛ حتى تُنجَز الجملة الثانية.

ولكن: ما هي القاعدة التحويلية التي أنجزتْ ذلك؟ لقد أثبت البحث أن دون تعيين تلك القاعدة قدرًا من الصعوبة. ومهما يكن من أمر، فلا شكّ لدينا في أن هذه القاعدة لا تمثّل قاعدةً عامة تنطبق على البنية التركيبية: (V NP PP V)؛ فأنت تستطيع – مثلا – أن تقول:

Arabella took the picnic to the wood.

("أرِبلّا" أخذت طعام النزهة الخلوية إلى الغابة)

Jim donated the book to the library.

("جِم" أهدى الكتاب إلى المكتبة)

The TV station transmitted the programme to Japan.

(محطة التلفاز بثّت البرنامج إلى اليابان)

بيد أنك – في المقابل – لا تستطيع أن تقول:

***Arabella took the wood the picnic.**

***Jim donated the library the book.**

***The TV station transmitted Japan the programme.**

وإجمالا، يمكننا أن نقرر أن هذه القاعدة التحويلية المقترحة لا تنطبق إلا على عدد قليل من الوحدات المعجمية، مثل: give (يعطى)، و tell (يأمر..)، و offer (يقدّم). وإذا كان من المفترض في القواعد التحويلية أن تمثّل قواعدَ تركيبيةً عامة، فليس يسوغ – إذن – أن يكون لدينا منها قاعدةٌ على هذا النحو من الضيق في مجالات تطبيقها. إن المعجم ربما يكون هو المحلّ الأنسب للمعلومات الخاصة بالتراكيب التي تقفو عددًا قليلا من الأفعال. وعلى ذلك، فقد أعيد تسكين بعض القواعد التحويلية، لتصبح من نصيب "المعجم".

وكذا أعيد تسكين طائفة أخرى من القواعد التحويلية لتصبح تابعةً للمكـون الدلالي. فمثلا: افترَض "النحو التحويلي النموذجي" أن البنية العميقة للجملة الآتية:

Antonio claimed that he was ill.

(زعم "أنطونيو" أنه كان مريضًا)

كانت شيئًا مقاربًا لما يلي:

Antonio claimed that Antonio was ill.

(زعم "أنطونيو" أن "أنطونيو" كان مريضًا)

ثم استَبدلتْ إحدى القواعد التحويلية بكلمة "أنطونيو" الثانية، الـضمير **he** . بيد أن في ذلك الافتراض قدرًا من التعقيد لا ضرورة له؛ إذ يمكننا أن نـستعيض عنـه ببديل أبسط، فنقول بوجود الضمير في البنية العميقة منذ البداية، على أن نضع مؤشرًا **index** للمكونات الاسمية **NPs** على حَسَب مواقعها، منبِّهين إلى ما كان منها "ثنـائي التأشير"، أي ما كان يشير إلى نفس الشخص، أو الشيء. إن من شأن هـذا الافـتراض البديل أن يتيح للمكـون الدلالي أن يكوّن التفسير الصحيح في مرحلة تاليـة، دون أي تعقيدات تحويلية إضافية.

وإجمالا، يمكننـا القـول بـأن "المكـوّن التحـويلي" قـد جعـل يـتقلَّص رويـدًا رويدًا،حيث جرى إعفاؤه من التعامل مع بعض المهام التي سبق إسنادها إليه، لتنهض بها مكوناتٌ أخرى في منظومة قواعد اللغة، وبخاصة "المعجم"، و"المكوّن الدلالي".

دمـج القواعــد التحويليــة:

بَقِيَ – بعد تنحية عدد متنوع القواعد التحويليـة- نوعـــان أساسـيان منهـا: الأول: القواعد التي حركتْ أدوات الاسـتفهام المبـدوءة بــ **wh** – مثـل: **which** - **what...**- إلى مواقع مقاربـة. والثـاني: القواعـد التحويليـة التـي حرَّكـت المكونـات الاسمية إلى مواقع مقاربة كذلك، على النحو الذي تمثله الجملتان الآتيتان:

What did Arbella buy? (ماذا اشترت "أربِلّا"؟)

Arabella was difficult to please. (أربِلّا" كان من الصعب إسعادها)

فالبنيتان العميقتان لهاتين الجملتين هما نحو مما يلي:

Q Arabella bought what.

("أربِلّا" اشترت ماذا) (سؤال)

It was difficult to please Arabella.

(كان من الصعب إسعاد "أربِلّا")

بل من الواضح أن حتى هذين النوعين من القواعد التحويلية يتقاسمان سماتٍ خاصةً مشتركة؛ من حيث إنهما قد حرّكا وحداتٍ لغويةً عن مواقعها، إلى الأمام. وربما كان هذا هو السببَ في وجود الافتراض القائل بأنه كانت هناك قاعدةٌ تحويلية أساسية واحدة فقط، تقول بأنه "يمكن تحريك الوحدات اللغوية عن مواضعها". وذلك بدلا من القواعد التحويلية الكثيرة المختلفة، التي استلزم القولُ بها تعيينَ كلٍّ منها بمعزل عن الأخرى. وما علينا بعد ذلك إلا أن نضُمّ هذه القاعدة التحويلية العامة، إلى بعض المبادئ الدقيقة المتعلقة بـ"أيٍّ" يمكن تحريكه إلى "أين". وقد مثّل هذا التطور انعطافًا مهمًا في منظومة قواعد اللغة، بحيث أصبحت هذه "القواعد" الآن أكثر اعتمادًا على المبادئ العامة، أكثر من اعتمادها على قواعدَ فرديةٍ خاصة.

القواعد التحويلية (بعد الحِمْية):

تعالوا بنا – بعد – نلخص القول في الكيفية التي استحالت بها القواعدُ التحويلية من جسد يتفتّق رِيًّا، ولحمًا، وشحمًا، إبّان أول ظهورها، إلى جسد بالغ النحولة كالطّيف، في نهاية المطاف.

لقد بدأ الدارسون النظر في المشكلة العامة التي أثارتها القواعدُ التحويلية. وهي أن هذه القواعد قد بدت قادرةً على إنجاز أي شيء. وفضلا عن ذلك، فقد تبيّن للدارسين وجودُ العشرات من هذه القواعد المتعاظمة الفاعلية والتأثير.

في بداية البحث عن حل لهذه المشكلات، كان يحدو اللسانيين أملٌ في أن تقيّد فاعلية هذه القواعد التحويلية، عن طريق عدم السماح لها بأن تغيّر المعنى. بيد أنه قد تبيّن للسانيين استحالةُ تحقيق ذلك؛ حيث تكشّف لهم بجلاء أن هذه القواعد

التحويلية قد غيَّرت المعنى بالفعل في عدد من الحالات. وقد أفضى ذلك إلى قَدْح زناد البحث عن قيود **constraints** – أو مبادئ – جديدة، تمنع هذه القواعدَ التحويلية من تغيير الجمل تغييرًا جزافيًا، كيفما اتَّفَق.

وقد أدرك اللسانيون حين شرعوا في البحث عن تلك "القيود" الجديدة أن القواعد التحويلية نَفْسَها كانت أشبه بركام اختلط فيه الضروري بغير الضروريِّ، وأن عددًا منها لابد أن يُحذف من "المكون التحويلي"؛ إذ تبيَّن أن من الأفضل أن تُنجَز المهام التي نيطت بهذه القواعد التحويلية، في إطار مكوّن آخر من مكونات "قواعد اللغة". وقد كان من نتيجة ذلك أن أصبح لكل من "المعجم"، و"المكون الدلالي" أهميةٌ أكبر من ذي قبل.

وفي هذه الأثناء، جَعَلَت القواعد التحويلية تتساقط واحدةً تِلْو الأخرى، بحيث لم يتبقَّ منها في نهاية الأمر سوى قاعدة تحويلية واحدة مهمة نافذة، تقول بأن "أي شيء يُمكن تحريكه"، غير أنه قد ضُمّت إليها قيود أخرى صارمة بشأن "أيٍّ" يمكن تحريكُه إلى "أين".

لقد عبَّدت هذه التغيراتُ الطريقَ أمام صورة جديدة من "النحو"، تختلف عن سابقاتها اختلافًا أساسيًا. وهذا ما سنلخّص القولَ فيه في فصلنا الآتي. وكذا سنلخص القول في المقترحات البديلة التي قدمها بعض الدارسين، ممن يتغيَّوْن هجر "اللسانيات التشومسكية" **Chomskyan linguistics** هجرًا تامًا.

فلنتذكر:

- تمتَّعت "القواعد التحويلية" إبّان أول ظهورها بفاعلية جِدّ نافذة. وبدا أنها قادرة على أن تتجاوز في عملها، وتأثيرها، حدود التصور، تجاوزًا فاحشًا.

- نمت لدى اللسانيين رغبةٌ -جرّاء ذلك- في وضع قيود تحجّم فاعلية القواعد التحويلية.

- حاول فقهاء القواعد التحويلية في بادئ الأمر، أن يقيّدوا تلك القواعد عن طريق عدم السماح لها بتغيير المعنى.

- باءت تلك المحاولةُ بالفشل؛ إذ ثبت – ثبوتًا يقينيًا- أن عددًا متنوعًا من تلك القواعد التحويلية قد غيّر المعنى.

- حاول بعضُ اللسانيين الآخرين علاج تلك المشكلة، بالقول بأن هناك حالاتٍ استثنائيةً بعينها، هي التي يتغير فيها المعنى. وذلك مثل حالة الجمل التي تشتمل على "واصف كمي" **quantifier**. و"الواصف الكمي": كلمة تعبّر عن كمية ما، مثل: **few** (قليل من)، و **many** (كثير من).

- رأى فريق ثالث من اللسانيين ضرورةَ الإبقاء على مقولة أن القواعد التحويلية لم تغيّر المعنى، على أن تُحزَر بِنًى عميقة جديدة للتراكيب التي قيل بأن القواعد التحويلية قد غيَّرتْ معانيها. ولكن البِنَى العميقة التي اقترحوها كانت بالغة التعقيد؛ مما حدا باللسانيين إلى أن يهجروا وجهة النظر هذه.

- كانت المشكلة الثانية للقواعد التحويلية- بعد مشكلة تغيير المعنى – أن هذه القواعد كانت بالغةَ الكثرة والتنوع. وكذا تبين للدارسين أن بعضًا من هذه القواعد قد تقاسم ضربًا واحدًا من التأثير.

- كان من المشكلات الإضافية للقواعد التحويلية، ما تبيَّن للدارسين من أن اقتراح بعض هذه القواعد، قد تأسس على الاحتياج إليها في معالجة المسلك التركيبي لوحدات معجمية قليلة بعينها. في حين أن المفترض في القاعدة، أية قاعدة، أن تتسم بقَدْر كبير من الاطّراد، وأن تنتظم عددًا وافرًا من الجزئيات لدى تطبيقها؛ مما يسوّغ النظر إليها على أنها حقًا "قاعدة".

- جعل اللسانيون- جرّاء ما سبق- ينقُلون مهامَّ بعض القواعد التحويلية إلى مكونات مختلفة أخرى، داخل منظومة قواعد اللغة.

- ترتّب على كلّ ما سبق، أن بقيتْ لدينا في نهاية المطاف قاعدةٌ تحويلية واحدة فقط.

١٨

العــودة إلى الأساسيــات

يـدرس هـذا الفـصلُ نمـطَ القواعـد الـذي قـرر "تشومـسكي"- أخـيرًا- أننـا في حاجـة إليـه. أعنـي: نمـوذج "المبـادىء والوسـائط"(١) principles and parameters model . ويلخّص القولَ في الأصول الأساسية التـي ينهض عليها هذا النمطُ من "القواعد".

من التعليقات الطريفة لأحد اللسانيين المشهورين: "ثمة ثلاثـة أشـياء في هـذه الدنيا، لا ينبغي أبدًا أن تجرى وراءها: الحافلة، والمـرأة، ونظريـة في النحـو التحـويلي. فإنك إن فعلتَ، فستلقى في التوّ من يسير إلى جوارك". لقد تميّز "نَحْـو" تشومـسكي الذي اشتغل به في ثمانينيات القرن المـاضي- وقـد أسـماه نظريـة "العمـل والـربط"(٢) [النحويين] Government and Binding (GB)بمباينته لـ"النظرية النموذجية" أشدَّ التباين. كما أن مقترحاته التـي عرضـها في تـسعينيات القـرن المـاضي- وقـد أسـماها

(١) من الترجمات الأخرى لهذا المصطلح: "المبادئ والمعايير" (ينظر: د. محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة ص١٣٢)، و"المبادئ والمقاييس" [ينظر: إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية (مختارات معربة بإشراف د.عز الدين مجدوب) ١/ ٢٥]. [المترجم].

(٢) ممن جرى قلمه بهذه الترجمة: د. مرتضى جواد باقر في كتابه "مقدمة في نظرية القواعد التوليدية" (ص٨٦)، ود. مصطفى غلفان في كتابه: اللسانيات التوليدية (من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي...) ص٢٩٧، وغيرهما. وثمة ترجمات أخرى لاسم هذه النظرية، منها: "الربط العاملي" (ينظر مثلا: د. عبد القادر الفاسي: اللسانيات واللغة العربية ٢/ ١٧١، والبناء الموازي ص١٩، ود. سمير استيتية: اللسانيات ص١٨٥)، و"الحاكمية والرباط" (ينظر: ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود للمعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة، بإشراف "دوكرو" و"شافار"). [المترجم].

بـ"برنامج الحد الأدنى"[1] Minimalist Program- كانت أشدَّ مباينةً لهذه النظريـة. بل لقد تخلّى "تشومسكي" في أحدث اجتهاداته، عن القواعد التحويلية أصلا.

وينظر هذا الفصلُ في أفكار "تشومسكي" الحديثة نَظَرَ طائرٍ محلِّق: فيوضِّح ما حاول "نحوه" الجديد إنجازَه، توضيحًا عامًا يتنكّب التفاصيل الفنية الدقيقة. كما يقدم كتابنا في آخره - حيث تقع الأعمال المقترحة للراغب في مزيد من الدرس- معلوماتٍ إضافيةً بشأن هذه التفاصيل الدقيقة.

النحـــو الكلـي[2]:

تحوَّل "تشومسكي" إلى الاهتمام بمشكلة القـدرة على التعلم learnability problem اهتمامًا خاصًا. وتتضمن هذه المشكلةُ السؤال المهمَّ الآتي: كيف ينجح الأطفالُ في تعلم اللغة على هذا النحو البالغ الكفاية؟ وقد افترض "تشومسكي" في هذا الصدد، أن الأطفال يولدون مزوَّدين بـ"نَحْوٍ كُلِّيّ" Universal Grammar- ويرمز له بـ UG- أي بذخيرة معرفية أساسية بالسمات اللغوية المفتاحية.

ولكن إذا كان "النَّحو الكليّ" يتسم حقًّا بأنه مغروز في المخ الإنساني، فلماذا تتباين اللغاتُ البشرية هذا التباين الكبير الذي نعاينه؟ لقد رجَّح "تشومسكي" أن يكون دور هذا "النَّحو الكُلِّيّ"، في النشاط اللغوي الإنساني، دورًا جزئيًا فحسْب. بمعنى أن الأطفال يولدون وهم مزوَّدون بمعرفة فطرية بالمبادئ principles اللغوية الأساسية، بيد أن هذه المبادئ تحتاج إلى قدر من التكميل والتعزيز. إن هذا الإطار الكُلِّي الموروث من القواعد لابد أن يُدعَم بـ "وسائط parameters يجب تثبيتها بالخبرة". والـ "وسيط" هو سمة أساسية مميزة ذات تنوع خِلْقي. وعلى سبيل التمثيل، نقول إن درجة الحرارة هي "وسيط" للطقس: فدرجة الحرارة لابد أن تكون موجودة على الدوام، ولكنها تسجّل كلَّ يوم مستوياتٍ مختلفة.

---

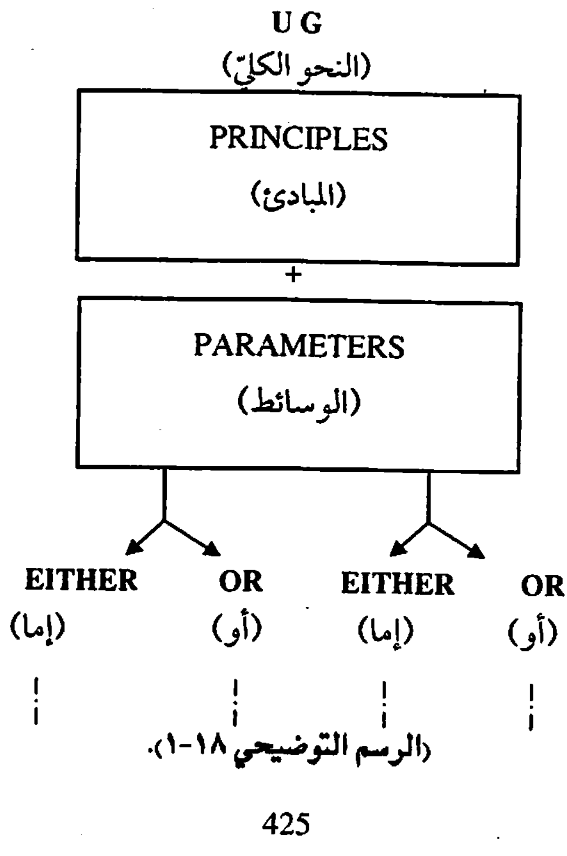
(١) أو: "البرنامج الأدنوي"(ينظر: الفصل الثالث المعنون بـ "[اتجاهات] دراسة اللغة"، (هامش رقم ٢ص٨٢). وممن جرى قلمه بالترجمة المذكورة: د. محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة ص١٣٢. [المترجم].

(٢) أو: النحو العالمي/ النحو الكوني/ الكليات اللغوية... إلخ (ينظر: الفصل الثالث السابق ذكره، هامش رقم ١ ص٨٢). [المترجم].

وافترض "تشومسكي" أن الأطفال ربما يواجَهون بطاقم من المفـاتيح اللغويـة linguistic switches التي ينبغي أن تُشغَّل بطريقة، أو بأخرى. وأنهم يدركون بالفطرة الاختيـاراتِ الأساسـية. ولكـنهم يحتـاجون إلى اكتـشاف أيّ هـذه الاختيـارات هـو الاختيار الذي انتقته اللغةُ التي شرعوا في تعلمها.

وفور اكتشافهم لهذه الاختيارات المنتقاة، يتوالى تحقُّق عددٍ من النتائج المختلفة. ويمكننا تشبيهُ هذه الحال بحال بعض الحيوانات التي كان عليها أن تختار بـين الهـواء والماء بيئةً أساسية تعيش فيها. فإن هذا الاختيار سوف يفضي بدوره إلى وقوع عدد من النتائج الحتمية. وعلى ذلك، نجد أن من شأن اتخاذ قرار يسير بانتقاء اختيار دون آخر، في نقطة معينة، أن يكون له توابعه في سائر القواعد. إننا ربما نحتاج إلى اتخـاذ قـرارات قليلة العدد نسبيًا من هذا النوع، ولكنها ستكون قراراتٍ عظيمة الأثر.

وقد أسمى "تشومسكي" هذا الإطار الكليَّ مـن القواعـد بــ"نمـوذج المبـادئ والوسائط" Principles and Parameterse model- ويرمز له بـ (Pand P)- ويبرز هذا النموذجُ في كل أعمال "تشومسكي" الحديثة (ينظر: الرسم التوضيحي ١٨-١).



(الرسم التوضيحي ١٨-١).

إن "نقاط" الاختيار المتاحة ما تزال في طور التخمين، وإن كان بعض اللسانيين قد طرحوا بعضَ الفرضيات بشأنها. فإذا أخذنا مكوّنات الجمل **phrases** – مثلا – فربما تتمثل إحدى "نقاط" الاختيار الممكنة في الاختيار بين وجود الكلمة الرئيسية **head** في بداية تلك "المكونات"، كما في اللغة الإنجليزية، في المكون ذي الجار القبلي **prepositional phrase**، من مثل: **up the tree**. وبين وجود هذه الكلمة الرئيسية في نهاية "المكوّن" كما في اللغة التركية، التي يقال فيها ما يساوى قولنا: **the tree up**. إن تبنّي أحد هذين الاختيارين سيكون له توابعه العظيمة الأثر على تكوين الجملة. فمثلا: نجد أن جملة في اللغة الإنجليزية من مثل:

The man who fell downstairs broke his leg.

(الرجل الذي سقط على دَرَجَ الطابق الأسفل كسر ساقَه)

سوف تئول في اللغة التركية إلى الجملة الآتية المترجمة عنها ترجمةً حرفية:

The downstairs- fell man his leg broke.

وربما يمثّل إسقاط الضمير **pro- drop** اختيارًا حاسمًا آخر من تلك الاختيارات المتاحة. فقد يكون من أوجه التفرقة المهمة بين اللغات، أن ثمة لغاتٍ تتيح للمتكلمين بها أن يُسقطوا الضمائر الواقعة في بداية الجملة، في مقابل لغات أخرى لا تتيح مثل ذلك. فمثلا: تتّسم اللغةُ الإيطالية بأنها من تلك اللغات التي تتيح لأهلها إسقاطَ الضمائر. ففيها يمكنك: إما أن تقول:

Io sono Inglese	أو	**Sono Inglese.**
I am English		* **am English**

وأما في اللغة الإنجليزية، فالاختيار الثاني – أعنى ذلك الذي يتضمن الضمير – هو الاختيار المتاح فقط. ثم إن هذا الاختيار الذي ستتبنّاه لغة ما، ستكون له آثاره على جملة قواعد تلك اللغة. وبعض هذه الآثار غير متوقَّع. فمثلا: انظر معي في الجملة الإنجليزية الآتية:

Angela thought that Hezekiah was stupid.

("أنْجِلا" ظنت أن "هِزِكايا" كان غبيًا)

والسؤال المطابق لهذه الجملة هو:

Who did Angela think was stupid?

(مَنْ الذي ظَنَّتْ "أَنْجِلا" أنه كان غبيًا؟).

وهكذا نجد أن ثمة سببًا غير معلوم قد أوجب حذفَ كلمة **that** في السؤال. فأنت لا تستطيع أن تقول:

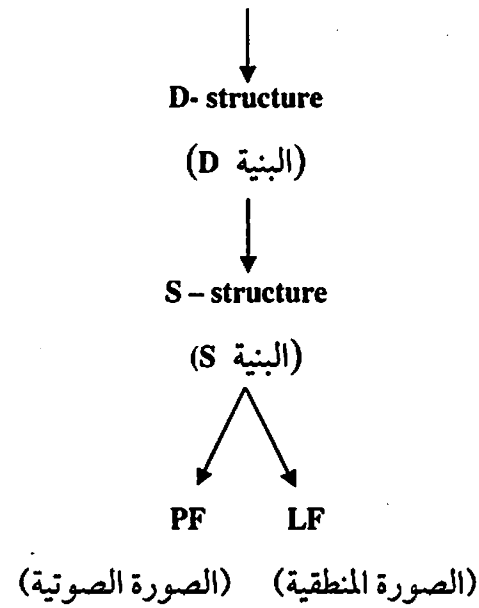
*** Who did Angela think that was stupid?**

إن هذه الحقيقة الغريبة تبدو سمةً مميزة للغات التي لا تُسقط الضمائر. وأما اللغات التي تُسقطها – من مثل اللغة الإيطالية– فتجيز ترك كلمة **that** في السؤال.

ويأمُل اللسانيون من أتباع "تشومسكي" على المدى البعيد، في أن يعيّنوا كلَّ "نقاط" الاختيار الحاسمة، وتوابعَ اختيار أيٍّ منها. ثم إن "نقاط" الاختيار هذه، وتوابعها، يجب أن تُسكَّن في موضعها المناسب ضمن الإطار العام للقواعد. فإذا وُفِّق اللسانيون يومًا ما في إنجاز ذلك، فإنهم – بذلك – يكونون قد قطعوا شوطًا طويلا في سبيل إنجاز هدفهم النهائي وهو تعيين مكوّنات "النَّحْو الكُلِّيّ" **UG**.

من البنية العميقة إلى البنية D:

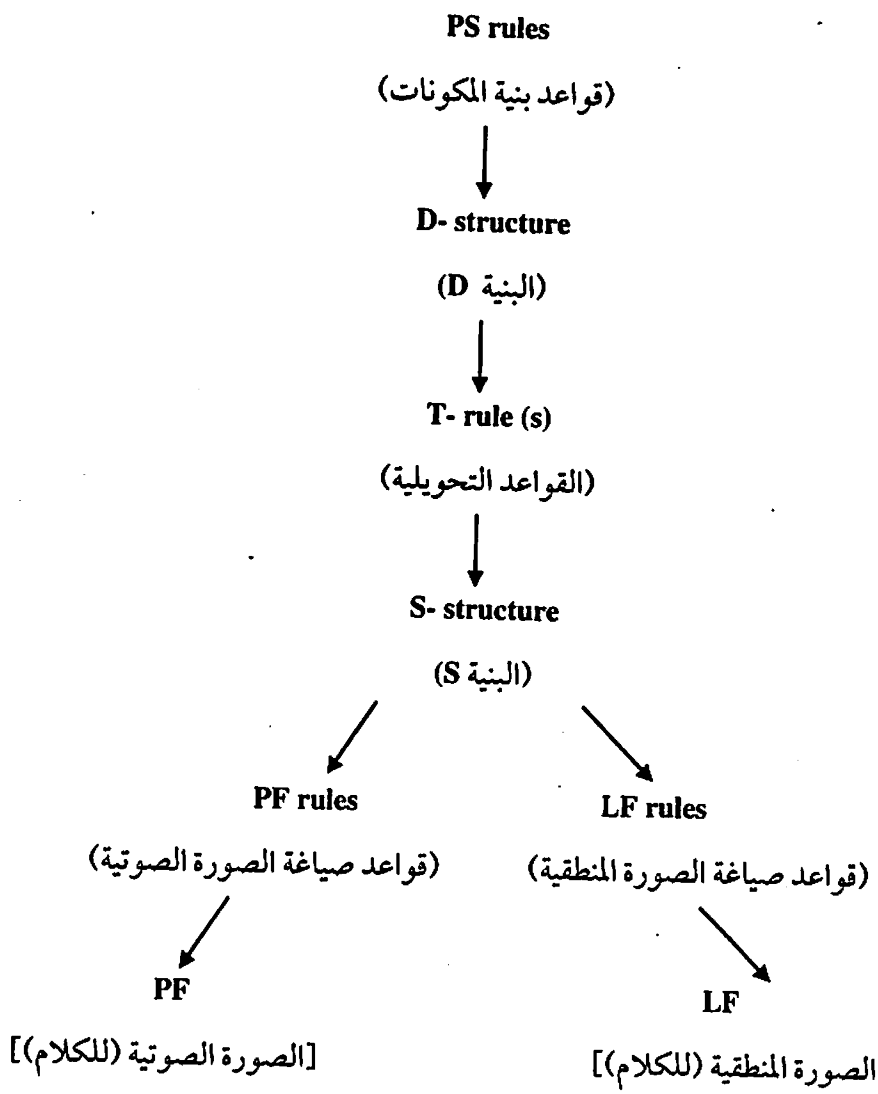
يبدو – من الناحية الشكلية – أن الفرق الأوضح بين مكوّنات النحو التحويلي **TG** الذي ظهر في الثمانينيات، من القرن الماضي، ومكونات النحو التحويلي النموذجي الذي ظهر في الستينيات من القرن نفسه، كان هو إعادة تسمية بعض العناصر الأساسية، بحيث لا تلتبس بنظائرها القديمة. فأُعيدَ تسمية البنية العميقة في صورتها البديلة، ليصبح اسمها **D- structure** . وأُعيدَ تسمية البنية السطحية في صورتها المنقَّحة، ليصبح اسمها **S–structure**. وأما التمثيل الدلالي القديم، فقد حلَّت محلَّه الصورةُ المنطقية **logical form** – ويُرمز لها اختصارًا بـ **LF**- كما أن التمثيل الصوتي قد صار يُطلَق عليه: الصورة الصوتية **phonetic form**- وتُعرف اختصارًا بـ **PF**- (الرسم التوضيحي١٨ – ٢).



(الرسم التوضيحي ١٨-٢)

وقد تم الربطُ بين هذه المستويات عبر عمليات اتّسمتْ بوجود أوجه شبه ظاهرية بعينها، بينها وبين النمط الأقدم للقواعد التحويلية TG: فقواعد بنية المكونات **PS rules** هي التي عيّنتْ البنية (D). وكذا فقد تم الربط بين البنية (D)، والبنية (S)، عبر عمليات تحويلية. وإن كان المكوّن التحويلي لم يَعْدُ أن يكون ظلا لذاته السابقة، كما أوضحنا في الفصل السابق. ثم إن قواعد صياغة الصورة الصوتية (**PF rules**) قد حوَّلت البنية (S) إلى صورتها الصوتية، وقواعد صياغة الصورة المنطقية (**LF rules**) حولت البنية (S) إلى صورتها المنطقية (الرسم التوضيحي ١٨-٣)

ولكننا نلاحظ – في المقابل– أنه لا يوجد تشابه حقيقي بين أيّ من هذه المستويات، ونظيره في الإطار القديم للنحو التحويلي.TG. وكذا لا تُشبه القواعدُ التي تشتغل على تلك المستويات نظائرَها في ذلك الإطار القديم لهذا النحو. فمثلا: نجد أن قواعد صياغة الصورة المنطقية **LF rules**، والصورة المنطقية (للكلام) **LF** ، تشتملان على قدر معتبر من "المادة" التي ارتبطت ارتباطًا صارمًا بالمكوّن التركيبي في "النحو التحويلي النموذجي" .



(الرسم التوضيحي ١٨-٣).

نظرية "العمل والربط" [النحويين]

قدَّم "تشومسكي" تصوُّرَه للشكل الجديد للقواعد في ثمانينيات القرن الماضي، عبر سلسلة من المحاضرات التي طُبعت في العام (١٩٨١م)، تحت عنوان:

Lectures on government and binding. وقـد ثبتـتْ هـذه التسمية، فأصبح هـذا الطَّـرْح الجديـد يُعـرف باسـم: نظريـة "العمـل والـربط" [النحـويين] government- binding theory، ويرمـز لـه اختـصارًا بـ GB. وربـما ترجـع هـذه التسميةُ التي تتسم بقدر من الغرابة، إلى أن نظرية "العمل والـربط" [النحـويين] قـد أَوْلَتْ اهتمامًا خاصًا لظاهرتين بعينيهما في "نحـو" اللغـة، تجاهلَتْهما عمليًا "النظريـةُ النموذجية". وهما: ظاهرة "العمل"[النحوي] government، مـن ناحيـة، وظـاهرة "الربط" [النحوي] binding، من ناحية أخرى. فأما ظـاهرة "العمـل" [النحـوي]، فانتظمتْ فكرةَ سيطرةِ أحد مكوّنات الجملة عـلى المكوّنـات الأخـرى. وأمـا ظـاهرة "الربط" [النحوي]، فقد تعاملتْ مع فكرة ارتباط مكونات الجملة بعضها مع بعض. فتعالوا بنا – بعد- نلخص القول فيما تنتظمه كلّ من هاتين الظاهرتين.

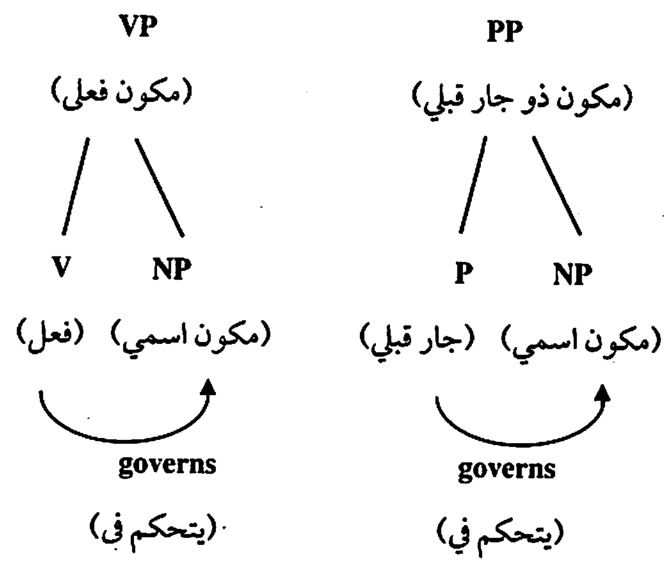
إن الفكرة العامة لظاهرة "العمل" [النحوي] هذه، كانت معروفةً في الدرس اللساني لمدة طويلة. أعني أنه كان هناك وعيٌ بأن لبعض الكلمات تـأثيرًا عـلى كلـمات أخرى، أو قدرةً على التحكم فيها. ففي قواعد اللغة اللاتينية – مثلا- نجـد أن بعـض علماء القواعد قد تكلم عن حروف الجر القبلية التي تتحكم في الأسماء؛ من حيـث إن حرف الجر القبلي- مـن مثـل contra (ضـد) – في نحـو قولنـا: fight against the Gauls (الحرب ضد "الغـاليين") قـد تـسبَّب في اشـتمال الكلمـة التاليـة لـه- وهـي Gauls- على نهاية خاصة[1]. وقد تغير توظيف مـصطلح government في الاسـتعمال الأحدث له، في الدرس اللساني، تغيرًا طفيفًا. حيث صار يُستعمل في سـياق الحـديث عن الكلمات الرئيسية للمكونات heads of phrases التي تؤثّر في الكلـمات الأخـرى المتاخمة لها. بمعنى أنّ وجود تلك الكلمات الرئيسية قد اقتضى وجـودَ تلـك الكلـمات الأخـرى. ففـي اللغـة الإنجليزيـة-مـثلا- نجـد أن فعـلا- مـن مثـل hit (يكـره)-

---

(١) ذهب بعض اللسانيين العرب المحدثين إلى القول بإمكانية الربط بين (نظرية) العمل النحوي government هذه، ونظرية العامل المعروفة في تراثنا النحوي. يقول د.سمير استيتية- مثلا: "ويمكن أن تُستوعَب جوانب نظرية العامل في النحو العربي، أو بعضها، ضمن التصور الذهني لفرضية العامل" (اللسانيات ص١٨٧).

وينظر – كذلك – د. مصطفى غلفان: اللسانيات التوليدية (من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي...) ص٣٢٩- ٣٣٠، وكتاب "الألسنية الحديثة واللغة العربية: دراسة تحليلية تطبيقية لنظرية الحكم النحوي والربط على اللغة العربية" للدكتور محيي الدين حميدي. والأمر محلّ نظر. [المترجم].

"يتحكم" في المكوّن الاسمي التالي لـه، كـما في قولنـا: **hit the donkey**. وكـذا نجـد أن حرف جر قبليًا – من مثل **up** – يتحكم في المكوّن الاسمي التالي له، كـما في قولنـا: **up the tree**. وتتميز عُقَد التفرع **nodes** التـي تنـتظم هـذه التراكيـبَ بأنهـا أخـوات متناظرة في الغالب. بمعنى أنها تمثّل بنات لنفس الأم (يراجع الفصل السابع، وينظـر: الرسم التوضيحي ١٨-٤).

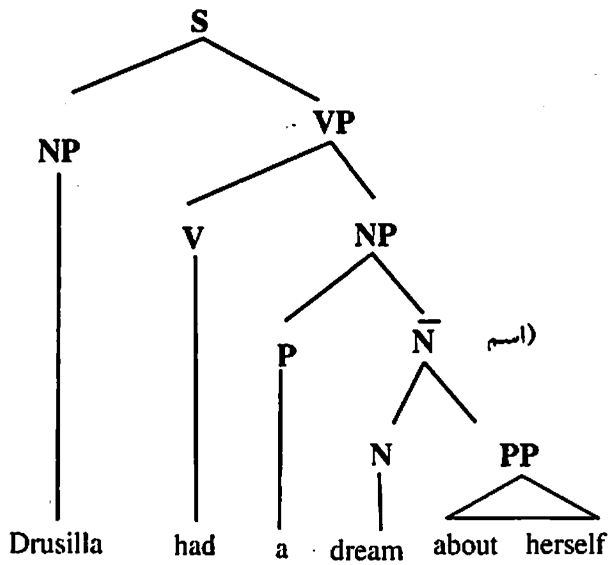


(الرسم التوضيحي ١٨- ٤)

ولكننا – في المقابل – نجد حالاتٍ كثيرةً يتحقق فيها ارتباطٌ مهم بين كلمات تتوزَّعها فروعٌ – وكذا مستويات – مختلفة، كما في الجملة الآتية:

Drusilla had a dream about herself.

(الرسم التوضيحي ١٨-٥) (لـ"دروسلا" حُلْم بشأن نفسها)



(الرسم التوضيحي ١٨-٥).

فكلٌّ من **Drusilla** و **herself** يقع في فرع – وكذا في مستوى – مخالف للآخر. وبالرغم من ذلك، فإن بينهما ارتباطًا جِدَّ وثيق. ويحتاج هذا الارتباطُ منا إلى قدر من العناية في تعيينه وتوضيحه، على نحو يحول دون إحداث تغيير عشوائي في مكونات تلك الجملة، وغيرها. فمثلا: لا يجوز لنا أن نقول:

*** Herself had a dream about Drusilla.**

ولا أن نقول:

*** Drusilla had a dream about Peter kissing herself.**

ويلزمنا – فضلا عن ذلك – أن نقف على "أيّ" يرتبط بـ"أيّ" داخل الجملة؛ حتى نفسّرها تفسيرًا صحيحًا. ودونك – مثلا – الجملتين الآتيتين:

Henry read the report about Toby stabbing himself.

("هنري" قرأ التقرير الخاص بطعن "توبي" لنفسه)

Henry read the report about Toby stabbing him.

("هنري" قرأ التقرير الخاص بطعن "توبي" له)

فلا مَعْدَى لك عن أن تدرك أن "توبي" هو من وقع عليه الطعنُ في الجملة الأولى، في حين أن "هنري" – أو ربما شخصًا آخر – هو من وقع عليه ذلك الطعنُ في الجملة الثانية.

لقد كان من الجوانب المهمة في نظرية "تشومسكي" الخاصة بـ"العمل والربط "[النحويين] (GB)، الاهتمامُ بالنظر في مكوّنات البناء الشجري للجمل، وتحديد أي هذه المكونات هو المؤثّر في الآخر، وكذا تحديد أيها يمكن أن يترابط معًا، حين نرغب في تقديم تفسيرٍ مناسب لتلك الجمل. وقد حاول "تشومسكي"، وتابعوه، أن يضعوا تصورًا أشمل لعملية "العمل" [النحوي] هذه. وأُطلق على هذا التصور مصطلح **command**. وهو يشتمل على مبدأ يعرف بـ"التحكم المكوِّني" (أو: التحكم في المكونات) **c- command** (من: **constituent command**) يحدِّد أيّ المكونات له "السلطة" على المكونات الأخرى، في البنية الشجرية الكلية لهذه المكونات.

لقد اختلف اللسانيون حول الكيفية الدقيقة اللازمة لتمثيل عملية "التحكم المكوِّني" هذه، تمثيلا ملائمًا دقيقًا. ويمكننا القولُ بوجه عام ومبسَّط، بأنهم قد انتهوا إلى تقرير أنه إذا تفرَّعتْ عقدةٌ شجرية، فإن وِحْدات الفرع الأول يكون لها قدر من التأثير في الوحدات التي تقع على الفرع الثاني، بغض النظر عن مدى علوّ، أو سفول الموقع الذي أتيا منه، من البنية الشجرية. وعلى ذلك، يمكننا القولُ بأن المكون الاسمي الأول (=**Drusilla**) (في الرسم التوضيحي ١٨–٥) يتحكَّم مكوِّنيًا في المكون الفعلي، وفى كل عقدة شجرية تحته. وبأن الفعل الرئيسي (=**had**) يتحكم مكوِّنيًا في المكون الاسمي التالي له، وفى كل عقدة شجرية تحته. وهكذا.

لقد مكّنتنا فكرةُ "التحكم في المكونات" من تعيين أوجه الارتباط بين الأجزاء المختلفة للجملة، وكذا من بيان القيود التركيبية التي تحكُم أجزاء هذه الجمل. فمثلا: يستطيع أحدُنا أن يقرر أن كلمة **herself** في الجملة المذكورة آنفًا – وهي الخاصة

بـ"دُروسِلا" **Drusilla** – يجب أن يتحكّم فيها مكوّنيًا الشخصُ الذي تشير إليه تلك الكلمة. وهذا ما سيحول تبعًا دون إنشاء جمل غير جائزة، من مثل:

*** Herself had a dream about Drusilla.**

وفضلا عن ذلك، يمكن توظيفُ هذه الفكرة مع تراكيب لغوية أخرى، من مثل:

The politicians argued with one another.

(تجادل السياسيون بعضُهم مع بعض)

فيمكن لأحدنا أن يقرر أن عبارة من مثل **one another**، يجب أن تتحكم فيها مكوّنيًا العبارةُ التي تحيل إليها تلك العبارةُ الأولى. وهذا ما يحول دون إنشاء جملة غير جائزة من مثل:

*** Each other argued with the politicians.**

وبوجه أعم، يستطيع أحدنا أن يقرر أن الكلمات التي تحيل إلى آخرين سابقين عليها – وهى الكلمات التي تعرف في المصطلح اللساني بـ **anaphors** (كلمات الإحالة)[1]– يجب أن يتحكم فيها مكوّنيًا الكلماتُ المحال إليها، وهى التي يُطلَق عليها مصطلح **antecedents** (الكلمات المحال إليها). وعلى ذلك، نجد أن علاقة تركيبية عامة، كعلاقة التحكم في المكونات، تتيح لنا أن نعيِّن – وببساطة شديدة – عددًا كبيرًا من القيود – أو الضوابط – التركيبية المتمايزة تمايزًا واضحًا. ثم إن علينا بعد ذلك أن نصوغ هذه القيود التركيبية قيدًا تِلْو الآخر، في إطار "نحو تحويلي" قديم الطراز.

---

(١) أو "العوائد" (ينظر: د. عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية ٢/ ٢٤٩). ويستعمل هذا المصطلح في الدرس اللساني الغربى – كما أوجزت المؤلفة – للإشارة إلى تلك الوحدات اللغوية التي لا تحمل بالضرورة معنًى في نفسها، وإنما تستمد تفسيرها – في المقام الأول – من وحدات لغوية أخرى، تقع في نفس الجملة، أو خارجها. ويُطلق على هذه الوحدات الأخرى مصطلح antecedents. ففي قولنا – مثلا: .I asked lisa to check the proofs, and she did it (طلبت من "ليزا" أن تراجع المسوّدات، وقد فعلت) تمثل الوحدتان (she) و (did it) كلمتي الإحالة – أو عبارتيها – المحال إليهما. وهما تستمدان تفسيرهما من الوحدتين المحال إليهما: (Lisa) و (check the proofs)، على الترتيب. والضمائر هي أكثر كلمات الإحالة ترددًا في كلمات أهل اللغة وكتاباتهم.

ينظر: Trask, A Dictionary of Grammatical Terms.... p. 15 [المترجم].

وأما "الربط" [النحوي] binding، فذو صلة وثيقة بفكرة "التحكم في المكونات". ويمكننا القول – إجمالا –بأن مبدأ "الربط" [النحوي] ينصّ على أنه إذا كان لدينا مكونان اسميان يشيران إلى نفس الشيء – أو الشخص – أي أنهما ذوا تأشير مشترك co-indexed، كما هو الشأن مع كلمتي Marigold و herself ، في قولنا: Marigold cut herself ("ماري جولد" جرحتْ نَفْسَها)، فإن السابق من هذين المكونين (أي Marigold هنا) يجب أن يتحكم مكوِّنيًا في الكلمة المحيلة (أي: herself). فإذا كان ذلك هو الحاصل فعلا، أمكننا القولُ بأن عملية "الربط" هذه، قد أُنجزتْ على نحو مقبول، أو أن نقرر – بعبارة أخرى- أننا بإزاء ارتباط صحيح بين المكونين الاسميين. وفى المقابل، نجد أن تتابعًا تركيبيًا من مثل:

*** Herself cut Marigold.**

سيكون غير ممكن؛ لأن عملية "الربط" بين herself وما تشير إليه لم تُنجَز على نحو مقبول. لقد ارتبط مبدأ "الربط" [النحوي] هذا – في المقام الأول – بعملية "تفسير" الجمل؛ من حيث إنه يُظهر لنا أي مكونات الجملة يجب أن تفسَّر في ضوء ارتباطها بمكونات معيَّنة، دون غيرها.

إنّ كلّ هذا الذي سبق، قد يبدو لنا – بعد- أمرًا تُمليه البديهةُ، في ضوء تلك الأمثلة البسيطة. وكذا قد يبدو الأمر – للوَهْلة الأولى – وكأن الواحد منّا ما عليه إلا أن يعيد صياغة كلِّ هذا الذي مضى، فيقرر أن الكلمات – أو العبارات – المحال إليها تأتى قبل الكلمات – أو العبارات- المحيلة. ولكنّ الحاجة إلى تحديد الارتباط التركيبي بين المكونات الاسمية تتضح حين نُواجَه بجمل أكثر تعقيدًا، من مثل:

Who did Mrigold claim cut herself?

(من الذي زعمتْ "ماري جولد" أنه جرحها؟)

فالبنية التركيبية السطحية لهذه الجملة ربما تكون على نحو مقارب لما يلي:

Who did Marigold claim t cut herself.

إننا نحتاج إلى آليات ذات قدر من التفصيل، حتى نحدّد الارتباط بين herself و t ، وبين t و who، بحيث يتاح لنا تفسير الجملة السابقة تفسيرًا تترابط فيه كلمتا

who و herself معًا، دون الكلمتين Marigold و herself (يُلاحَظ أن الحرف t يمثّل اختصارًا لمصطلح "trace" – أي: "الأثر" – الذي سبق تناوله في ص٤٢٥).

ويمكننا – بعد – تلخيص ما قلناه حتى الآن، على النحو التالي: عُنيتْ نظرية "العمل والربط" [النحويين] – من الناحية العملية – بمسألة الارتباط بين مكونات الجمل. وقد عيَّنتْ تلك (النظرية) أيّ هذه المكونات كانت له السلطة على المكونات الأخرى. والهدف العام من وراء ذلك، هو إظهار أي العُقَد nodes في البناء التركيبي الشجري كانت مترابطة، إظهارًا يجمع بين البساطة والوضوح. وقد تبيَّن أن ثمة ارتباطاتٍ بعينها – دون غيرها – كانت ممكنة، وأن اكتشاف هذه الارتباطات، ووَصْفها، قد أوضح المبادئ التي تقف من وراء تفسير جمل اللغة المعنية.

توسيع النطاق:

لقد كشف نموذج "العمل والربط" [النحويين] عن حصول تغيُّر في اتجاهات الدرس اللساني. ففي المراحل الأولى لظهور "النحو التحويلي"، كان يُنظَر للقواعد على أنها تمثل – في المقام الأول – وسيلةً لتحديد ما هو صحيح التركيب من الجمل، وما هو غير الصحيح منها. وأما القواعد في صورتها التي تجلّت في نموذج "العمل والربط" [النحويين]، فيتبدَّى منها أن "تشومسكي" قد وجَّه دَفّةَ اهتمام الدرس اللساني شطر المبادئ العامة المتحققة في بنية اللغة، وكذا علاقات الارتباط الحاصلة بين مكوناتها.

لقد مثَّل نموذج "العمل والربط" النموذج الأول داخل إطار "المبادئ والوسائط" Principles and Parameters (المعروف اختصارًا بـ P and P) (ينظر ص ٤٤٦). وقد اشتمل هذا النموذج على عدد من المكونات components- أو الوِحْدات الجزئية(١) modules – المختلفة، التي يؤدى كلٌ منها دورًا بعينه. فمثلا:

(١) من الترجمات الأخرى لمصطلح module: "القالب" [ينظر مثلاً: د. عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية ١/ ٧٥، و البناء الموازي ص٣٠، ود. محمد غاليم: في التصور القالبي (ضمن: أبحاث لسانية، المجلد الثاني، العدد الثاني) ص٤٩، ود. مصطفى غلفان: اللسانيات التوليدية (من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي..) ص٣١٩ (وغيرها)]. [المترجم].

نجد أن (نظرية)(١) الثيتا theta- theory، أو θ- theory – وهو الاسم التي تُعرَف به اختصارًا من thematic relations theory(٢): (نظرية) العلاقات المحورية – تتعامل مع مسألة: "مَنْ" فعل "ماذا" لـ"مَنْ". وذلك عبر تحديد "الأدوار" التي تؤديها المكوناتُ الاسمية، من مثل دور الفاعل (الحقيقي) agent، أو الواقع عليه الفعل theme (ينظر: الفصل السابع).

وقد اشتمل هذا النموذج كذلك على "مبدأ الفصيلة الفارغة"(٣) Empty Category Principle - ويعرف اختصارًا بـ ECP - وهو معنيّ بتحديد كيفية التعامل مع الفراغات الواضحة في التراكيب اللغوية، كما في قولنا:

Aloysius wants — to go

فالشخص الذي يرغب "ألوشيوس" في أن يذهب، لم يحدَّد تحديدًا صريحًا. وعلى الرغم من ذلك، يدرك أهل اللغة الأصليون أنه "ألوشيوس".

---

(١) يُلاحَظ كتابة كلمة "نظرية"، في عبارة: "(نظرية)" الثيتا" بين قوسين؛ تنويهًا بأنها ليست نظرية قائمة بذاتها، وإنما هي نظرية فرعية subtheory - من بين سبع نظريات فرعية – تشتمل عليها النظرية الأصلية: نظرية العمل والحكم النحويين (GB). والنظريات الفرعية الست الباقية هي: X – bar theory (نظرية) الشرطات، و government theory (نظرية) العمل (النحوي)، و binding theory (نظرية) الربط (النحوي) [وقد عرَّفتْ المؤلفة بها جميعًا]، و case theory (نظرية) الحالة (الإعرابية)، و bounding theory (نظرية) الحدود [= الحدود الضابطة لحركة مكونات الجملة]، و control theory (نظرية) المراقبة [تتعامل – فيما تتعامل – مع العبارات التي تشتمل على أفعال تفتقر إلى فواعل صريحة ملفوظة، وبالرغم من ذلك تفسّر دلاليًا على أنها تشتمل على فواعل (صريحة أو مقدرة) "تراقب" مواقعها الخالية فى تلك العبارات]. ينظر في كل ما سبق:

Horrocks, Generative Grammar, pp. 101- 147.

Trask, A Dictionary of Grammatical Terms, pp.120-121. وتشومسكى: معرفة اللغة (ترجمة محيي الدين حميدي) ص٢٥٤ – ٣١٧، ود. سمير استيتية: اللسانيات ص١٨٥ – ١٨٧ (استعمل لفظ "فرضية" مع تلك النظريات الفرعية تنويهًا بفرعيتها). [المترجم].

(٢) فالحرف اليونانى θ – وهو ينطق : theta (= ثيتا) – يمثّل اختصارًا لكلمة thematic (محوري)؛ من حيث إنها تبدأ به نطقًا .

(٣) يتصل هذا "المبدأ" بـ(نظرية) العمل [النحوي] government theory في المقام الأول.
ينظر: Horrocks, Genarative Grammar, p. 138. [المترجم].

ويلاحظ – بعد – أنه قد ثار جدل كثير بين الدارسين حول الدور الذي تؤديه كل وِحْدة – أو مكوِّن – من هذه الوِحْدات الجزئية modules. وطَرَحَ عدد من الباحثين المختلفين رؤىً متعارضة بهذا الصدد. كما أن "تشومسكي" نفسه قد اقترح بعض صور التنقيح على هذه النظرية في كتابه الموسوم بـ Barriers (الحواجز) الصادر في العام (١٩٨٦م). ولكنه قد تخلّى إلى حَدّ كبير عن تحديد المهام المنوطة بكل من هذه الوحدات الجزئية، في عمله الأحدث الموسوم بـ The Minimalist Program (برنامج الحدّ الأدنى) الصادر في العام (١٩٩٦م).

المعالم الأساسية (أو الضرورية) للغة الإنسانية:

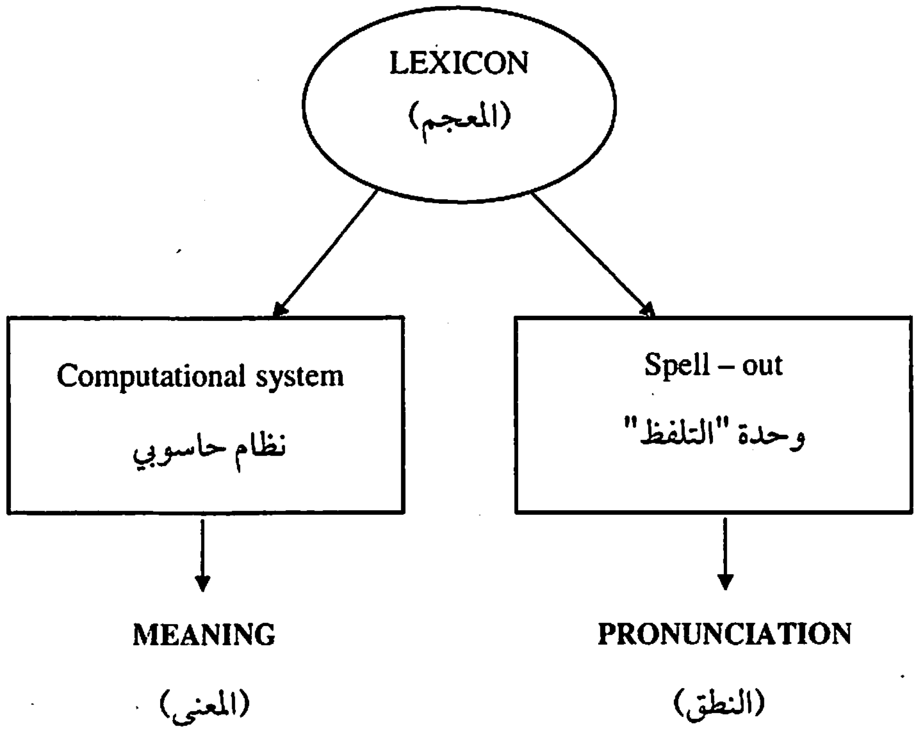
حاول "تشومسكي" أن يشذِّب نظريته على نحو تدريجي، بحيث تقتصر على المعالم الأساسية للغة. وهذا هو السبب في أنه قد أسمى كتابه الأخير بـ Minimalist Program (برنامج الحد الأدنى). ويحاول "تشومسكي" في جهوده الأخيرة تلك أن يقف على بعض القوانين الأساسية المتعلقة بـ"طبيعة" اللغة الإنسانية، كأن يقف – مثلا – على نظير لغوى لقانون الجاذبية الأرضية (ينظر الفصل الثالث).

والملمح الرئيسي الذي جَرَى استبقاؤه هو ملمح "الاختيارات المفتاحية البديلة" switch – setting الذي اشتمل عليه نموذج "المبادئ والوسائط". وهو المعروف اختصارًا بـ (P and P). وفى المقابل، أُلغى مستويان من البنية التركيبية: فالبنية التركيبية – D (وهى المتحدرة من البنية التركيبية العميقة deep structare)، وكذا: البنية التركيبية – S (وهى المتحدرة من البنية التركيبية السطحية surface structure)، لم يعد لهما ظهور.

وفى نموذج "المعالم الأساسية" bare bones هذا، يُغذَّى "نظام حاسوبي"[(١)] بـ"المعجم"، حيث ينهض هذا النظام الحاسوبيُّ بمهمة التحقق من أن سلاسل الكلام المتتابعة تتوافق مع المبادئ اللغوية الأساسية للغة محلِّ الدرس. وكذا تُغَذَّى بهذا "المعجم" وحدة "التلفظ" spell – out التي تحدد طريقة النطق. وفى نهاية طرفي هذا النموذج، يقع "المعنى" في ناحية، و"النطق" في الناحية الأخرى (الرسم التوضيحي ١٨-٦).

---

(١) المقصود: نظام حاسوبي يُفترَض أن الملكة اللغوية البشرية تشتمل عليه. [المترجم].



(الرسم التوضيحي ١٦-٨)

إن المبادئ اللغوية الأساسية التي توجّه النظام اللغويّ ما تزال مجملةً غير واضحة التفاصيل. ولكنها تمثل – في المقام الأول– مبادئ "الاقتصاد" **economy**، أو "البساطة" **simplicity**. وأكثرها وضوحًا وبساطة هو مبدأ **"الحركة الأقصر" shortest move**. وانظر معي في الجملة الآتية:

Angela has asked Henry to find her hat.

("أنْجِلا" طلبتْ من "هنري" أن يعثر على قُبّعتها)

فهَبْ أنك أردت أن تستعلم عمن (**who=**) سألتْ "أنْجِلا"، وماذا (**what=**) أرادت أن يوجد:

Angela has asked who to find what?

فمن المعتاد، أن تُجلَب أية كلمة تبدأ بـ wh [1] إلى صدارة الجملة. ولكننا نجد في هذه الحالة أن الكلمة المبدوءة بـ wh التي تتحرك المسافة الأقصر، هي وحدها التي يمكن أن تتقدم إلى الأمام. وعلى ذلك، فيجوز أن نقول:

Who has Angela asked to find what?

ولكن لا يتاح لنا أن نقول:

*** What has Angela asked who to find?**

إن هذا النمط من المبادئ اللغوية المتراجبة المدى، هو النمط الذي يأمل "تشومسكي" أن يعيِّنه، وإن كان قد أقرّ – هو نفسُه- بأنه ما زال هناك الكثير مما يجب إنجازُه في هذا الصدد، فيقول: "إن الصياغة المعاصرة لمثل هذه الأفكار ما تزال تتكشّف عن أوجه نَقْصٍ: جسيمة، وكثيرة".

ولا يمثّل "نموذج" تشومسكي لـ"اللغة"، النموذج الأوحد الذي يجرى النظرُ فيه، والنقاشُ حوله، على نحو ما أوضحنا في الفصل الثالث. وبالرغم من ذلك، فقد أولينا في هذا الكتاب"نموذج" تشومسكي خاصة أهميةً إضافية؛ نظرًا لما تتمتع به جهود ذلك اللساني، وأطروحاته المتلاحقة، من تأثير جِدّ كبير في اهتمامات الدرس اللساني. ولكن: أين المتوجَّه بعد؟ هذا ما سنحاول أن نلخّص القول فيه، بعد خاتمة هذا الفصل.

---

(١) أي تلك الكلمات التي توظَّف في اللغة الإنجليزية لإنشاء سؤال، من مثل: who (مـن)، و what (مـاذا)، و when (متـى)، و why (لمـاذا). ينظـر: Trask, A Dictionary of Grammatical Terms in Linguistics.pp.303-304. [المترجم].

فلنتذكر:

- تحوَّل "تشومسكي" بأَخَرَة إلى الاهتمام بمشكلات "القدرة على التعلم". أعني : النظر في الكيفية التي ينجح بها الأطفالُ في تعلم اللغات الإنسانية، على هـذا القدر الملاحَظ من الكفاية البالغة.

- افترض "تشومسكي" في هذا الصدد، أن الأطفال يولدون مـزوَّدين بــ"نَحْـوٍ كُلِّيّ"(UG) .

- اشتمل هذا "النَّحْو الكُلِّيّ" على معلومات أساسـية تتعلـق بالمبـادئ المفتاحيـة للغة.

- يحتاج هذا الإطار الكُلِّيّ الموروث من "النحو" إلى تكميل وتعزيز، عبر مجموعة من "الوسائط" parameters. وهي "الوسائط" التي لابد أنها قد ترسَّخَتْ – بدورها- بتأثير الخبرات اللغوية المتراكمة للأطفال.

- أُطلق على هذا التصور السابق اسم: "نموذج المبادئ والوسائط" Principles and Parameters model ، ويُرمَز لـه اختصـــارًا بـ (P and P) .

- الـ "وسيط" هو سِمَة مميِّزة أساسية ذاتُ تنوع خِلْقي.

- سُمِّي هذا النحو الجديد – بعـد- بـــ government- binding theory (GB) (نظرية "العمل والربط" [النحويين]).

- يُعنَى "العمل" [النحوي] بالنظر في الوحدات اللغوية التـي كانـت الكلـمات الرئيسية للمكوّنات سببًا في ورودها.

- ويُعنَى عنصر "الربط" [النحوي] بتقديم تفـسير للجمـل التـي تـشتمل عـلى "مكونات" يرتبط بعضُها ببعض.

- سُـميت رؤى "تشومـسكي" تلك بـ Minimalist Program (برنـامج الحـدّ الأدنى)؛ لأنها قـد اشـتملتْ – في ظَنّـه – عـلى المعـالم الأساسـية لبنيـة اللغـة الإنسانية.

أيــن نحــن الآن ؟

إذا كان "تشومسكي" قد عَدَلَ عن آرائه هذا العدول الحادّ، فما الذي يفعله اللسانيون الآن؟

لقد تابع كثير من اللسانيين "تشومسكي" متابعةً حماسية مخلصة، زُهاء نصف قرن من الزمان، يدرسون كتبه الأخيرة، ويشتغلون في إطار مُعطَياتها ومستخلصاتها، دونما كَلَل، ولا ملل. وقد أحسّ كثير منهم بالخِذْلان، حين عَدَل عن أفكاره هذا العدول الحادّ. وبدا الحال وكأن تشومسكي"- على نحو ما أوضح أحدُ اللسانيين- قد مارس مع أتباعه خُدعةَ "دوق يورك" التي تضمّنْتها إحدى أغنيات الأطفال القديمة:

The grand old Duke of York

(دوق يورك الأكبر المسنّ)

He had ten thousand men.

(كان لديه عَشْرةُ آلاف جندي)

He marched them up to the top of hill

(أمرهم بالصعود إلى قمة أحد التلال)

Then he marched them down again.

(ثم أمرهم بالنزول من عليه مرّةً أخرى)

لقد أحس كثير من اللسانيين، أن "تشومسكي" قد أمرهم بصعود تلّ "النحو التحويلي"، ثم أمرهم بالنزول من عليه ثانية. وفضلا عن ذلك، فقد لاحظ الدارسون أن كتب "تشومسكي" الأخيرة، قد اتسمتْ بالتزايد المطّرد في درجة صعوبتها، بالنسبة إلى عموم الطلاب. أيكون وقت التغيير قد حان، إذن؟

إن البشر – ولابد–قد جَرَى برمجتهم على نحو يؤهّلهم لاستعمال اللغة؛ من حيث إنّ أيّ طفل طبيعي يمكنه أن يتعلّم أية لغة، على ما يشهد به واقعُ الحال. ولكن إذا سلّمنا بهذا الاستعداد – أو التهيؤ – الفِطْري لاكتساب اللغة، فربما لا تكون اللغاتُ الإنسانية على هذا النحو من التعقيد والتجريد الذي افترضه "تشومسكي".

ويتمثل أحدُ الجهود المتطورة الشائعة في اللسانيات الآن، في الاشتغال بالبحث في موضوع "أصل اللغة"(عرضنا لهذا الموضوع عرضًا موجزًا في الفصل الثاني). وتتنامي حاليًا محاولاتُ اللسانيين لتقسيم اللغة إلى طبقاتها التاريخية، والوقوف من ثم على الطبقة القُدْمى منهَا. وذلك على نحو ما توضحه الفقرة التالية، من كلام "راي جاكندوف[1]" **Ray Jackendoff**، في كتابه الصادر في العام (٢٠٠٢م) بعنوان: **Foundations of language** (أسس اللغة) (ص ٢٦٤):

"إن المحصِّلة الإجمالية العامة، هي أن قواعد اللغة ليست نظامًا واحدًا أحاديَّ البنية، بل هي مجموعة من أنظمة أبسط... (عملية) تطور القدرة اللغوية يمكن النظر إليها على أنها إضافة للمزيد والمزيد من الحيل البسيطة، إلى ذخيرة القدرات المعرفية **cognitive** المتاحة للطفل، أثناء (عملية) اكتسابه للغة".

وقد عالج الفكرةَ نَفْسَها كلٌّ من "بيتر كُوليكَفَر"[2] **Peter Culicover**، و"راي جاكِنْدوف" **Ray Jackendoff**، في الكتاب الذي اشتركا في تأليفه، ونُشر في العام (٢٠٠٥م)، بعنوان **Simpler syntax** (نحو أبسط). حيث حاولا البرهنة في كتابهما هذا، على وجود "مَلَكة لغوية" أقلّ تعقيدًا مما افتُرِض بشأنها من قبل، وعلى أن هذه "المَلَكة" قد اندمجت في (عمليتي) "معالجة اللغة"، و"اكتسابها"– وكذا في (عملية) "التطور البيولوجي" للإنسان– اندماجًا كاملا ومناسبًا.

---

(١) سبق التعريف به في الفصل الثالث ([اتجاهات] دراسة اللغة)، (هامش رقم ١ ص٨٣). وكذا سبق للمؤلفة أن أوردت النصَّ المقتبس هنا من كلام "جاكندوف" في الفصل الثالث كذلك (ص٨٤). [المترجم].

(٢) يعمل "بيتر و. كُوليكَفَر" Peter W. Culicover أستاذًا للسانيات بجامعة "أوهايو" Ohio الأمريكية. وتشمل اهتماماته البحثية: النظرية النحوية، والقدرة على تعلم اللغة، وغيرهما. من كتبه: Basics of Language for Language Learners (أساسيات اللغة لمتعلميها) (٢٠١٠م) (بالمشاركة مع إليزابيث هيوم Elizabeth Hume). (ينظر الصفحة الرئيسية homepage له). [المترجم].

وفيما يتعلق بوجهات النظر المختلفة إزاء (عملية) "اكتساب اللغة"، حاول "مايكل توماسللو"[1] "Michael Tomasello"- في كتابه: Constructing a language (تركيب اللغة)- البرهنة على أنه لا ضرورة بنا إلى افتراض وجود "غريزة لغوية" قائمة بذاتها، ومخصَّصة لغرض بعينه. وحاول - بدلا من ذلك - البرهنةَ على أن قدرتنا اللغوية ممزوجة مزجًا بقدراتنا المعرفية الأخرى، وليست مستقلةً عنها.

ويشهد عصرنا هذا ظهورَ عدد كثير من الكتب التي تحمل العنوان العام الآتي: "cognitive linguistics" (اللسانيات المعرفية). وتحاول هذه الكتبُ جاهدةً البرهنة على أن ثمة مبادئ "معرفية" عامة هي التي تدير منظومة اللغة، وتتحكم فيها. وفى وُسْعك - أيها القارئ- أن تحصّل معلوماتٍ كافيةً عن هذا الموضوع، من بعض الكتب الواردة في القسم المخصص للقراءات الإضافية من كتابنا هذا. وهو القسم الآتي توًّا.

(١) سبق التعريف به في الفصل الثالث ([اتجاهات] دراسة اللغة)، (هامش رقم ٢ ص٨٤). وكذا اقتبست المؤلفة هناك (ص٨٤)، نصًا لـ"توماسللو" يحمل الفكرة التي لخصتها هنا. [المترجم].

قـراءات إضافيـة

تضم قائمةُ القراءات الإضافية الآتية عددًا متنوعًا من الكتب، يتميَّـز معظمهـا بالحداثة النسبية؛ حيث طُبع الكثير منها في العَقْد الأول من هذا القرن. ولا شك أنه قد صدر عدد جِدّ كثير من الكتب قبل ذلك التاريخ. ولكننـا قـد نجنـى قـدرًا أكـبر مـن الفائدة، إذا بدأنا بالنظر في الكتب المؤلفة حديثًا، ثم كَرَرْنا إلى نظيراتهـا المؤلفـة قـديمًا؛ فإن مَنْ يستهلّ عمله بدراسة "القديم"، لا يكاد يبلُغ "الحديث". وتبدأ هذه القراءاتُ المقترحة بالكتب ذات الموضوعات العامة، ثم تتحـرك قُـدُمًا نحـو الكتـب المؤلفـة في موضوعات أكثر تخصصًا. وقد رُوعى في ترتيب عرضها - في غالب الحال - الترتيبَ نَفْسَه الذي جاء عليه تناولها في كتابنا هذا.

مقدمات أخرى

- Aitchison, Jean, the language web: The power and problem of words (Cambridge: Cambridge University Press, 1977) (the BBC Reith lectures 1996)

(مقدمة إلى اللغة، سهلة القراءة، مؤسّسة على أحاديث إذاعية).

- Akmajian, Adrian, Demers, R. A., Farmer, A. K. and Harnish, R. M., Linguistics: an introduction to language and communication, 5th edition (Cambridge, MA: MIT Press,2001).

(مقدمة متعددة الموضوعات، ولكنها سهلة القراءة نسبيًا).

- Bauer, Lauire and Trudgill, P. (eds.), Language myths (London: Penguin, 1998).

(كتاب صغير الحجم، سهل القراء، يكشف زيف بعض المعتقدات الشائعة بشأن اللغة).

- Blake, Barry, All about language (Oxford: Oxford University Press, 2008)

(معالجة واضحة للكيفية التي تعمل بها اللغة)

- Crystal, David, How language works (London: Penguin, 2006).

(دراسة شاملة، موجزة).

- Fromkin, Victoria, Rodman, R.and Hyams, N., An introduction to language, 8th edition (New York: Thomson and Heinle, 2006).

(مقدمة عامة، سهلة القراءة، تستعين ببعض الرسوم "الكرتونية"، وبعض الاقتباسات المناسبة).

- Hudson, Grover, Essential introductory linguistics (Oxford: Blackwell, 2000).

(مرشد سهل الفهم، خالٍ من الغموض)

- **Mc whorter, John, Word on the street: Debunking the myth of a 'pure' standard English (Cambridge, MA: Perseus, 2000).**

(معلومات متقدمة ناضجة، بشأن صحة وقيمة بعض التنوعات غير الفصيحة للغة الإنجليزية)

- **O'Grady, William, Dobrovolsky, M. and Katamba, F., Contemporary linguistics: An introduction (London: Adddison Wesley Longman, 1997).**

(مقدمة واضحة، تشتمل على فصل جيد في علم النحو).

- **Pinker, Steven, The language instinct: The new science of language and mind (London: Allen Lane, The Penguin Press, 1994).**

(كتاب متعدد الموضوعات، يشتمل على معالجة عامة ملخّصة لموضوع "الغريزة اللغوية"، داخل إطار "بيولوجي")

- **Radford, Andrew, Atkinson, M., Britain, D., Clahsen, H. and Spencer A., Linguistics: An introduction (Cambridge: Cambridge University Press, 1999).**

(كتاب دراسي شامل، ذو طابع عملي، سهل الفهم).

- **Wardaugh, Ronald, Understanding English grammar: A linguistic approach 2nd edition (Oxford: Blackewll, 2003).**

(وَصْف سهل الفهم، خالٍ من الغموض)

- **Weisler, Steven and Milekic, S., Theory of language (Cambridge, Ma: MIT Press, 2000).**

(كُتب بلغة واضحة. ولكنه يتقحّم بعض القضايا البالغة التعقيد، على نحو تُعْوِزه الرويّة والتثبت).

- **Yule, George, The study of language, 4th edition (Cambridge: Cambridge University Press, 2010).**(مَسْح ملخّص، متعدد الموضوعات)

الكتب المشتملة على مقالات مختارة، والمعاجم، والموسوعات

- **Clark, Virginia, P., Eschholz, P. A. and Rosa, A. F. (eds.), Language: introductory readings, 7th edition (New York: Bedford St. Martin's Press, 2007).**

(مجموعة من المقالات المختارة، سهلة القراءة، تعالج موضوعات مختلفة: داخل نطاق "اللسانيات").

- **Crystal, David, A dictionary of linguistics and phonetics, 6th edition (Oxford: Blackwell, 2008).**

(دليل هادٍ، مفيد، إلى المصطلحات المستعملة في "اللسانيات" و"علم الأصوات").

- **Crystal , David, The Cambridge encyclopaedia of language, 2nd edition (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).**

(موسوعة سهلة القراءة، موجَّهة – في المقام الأول – إلى عموم القراء، ولكنها حافلة بالمعلومات المفيدة).

- **Fromkin, Victoria (ed.), Linguistics: An introducation to linguistic theory, 2nd edition (Oxford: Blackwell, 2000)**

(فريق من الباحثين، من "لوس أنجلس **Los Angeles**"، نهض بمهمة تحديث هذا الكتاب الدراسي الخالي من الغموض، بعد وفاة مؤلفه).

- **Heine, Bernd and Narrog, H., The Oxford handbook of linguistic analysis (Oxford: Oxford University Press, 2010).**

(مجلد ضخم، يشتمل على ما يربو عن ثلاثين مقالة مختلفة)

- **Malmkjaer, Kirsten (ed.),The linguistics encyclopaedia, 2nd edition (London: Routledge, 2002).**

(موسوعة تشتمل على نيِّف وسبعين مدخلا أساسيًا، تعالج معظم موضوعات "اللسانيات"، وتشتمل – كذلك – على مقترحات بقراءات إضافية).

- **Matthews, Peter, The concise Oxford dictionary of linguistics, 2nd edition (Oxford: Oxford University Press, 2007))**

دليل هادٍ، موثوق به، إلى مصطلحات "اللسانيات") .

- **Trask, Larry, Key concepts in language and linguistics. (London: Routledge, 1999).**

(مجموعة متنوعة مشروحة من مصطلحات "اللسانيات"، مع مقترحات بقراءات إضافية. ولكن مقدمة الكتاب ذات طابع قديم؛ نظرًا للوفاة المفاجئة لمؤلفه).

أصــل اللغــة

- **Aitchison, Jean, The seeds of speech: Language origin and evolution (Cambridge: Cambridge University Press, 1996; CUP Canto Edition, 2000).**

(يلخِّص نشأة اللغة، ونموها)

- **Anderson, Stephen R., Doctor Doolittle's delusion: Animals and the uniqueness of human language (New Haven: Yale University Press, 2004).**

(يستكشف الاختلافات بين كلٍّ من: التواصل الإنساني، والتواصل الحيواني، ويشرحها).

- **Hurford, James, The origins of meaning: Language in the light of evolution (Oxford: Oxford University Press, 2007).**

يناقش مسألة الارتباط بين كلٍّ من: الإدراك الإنساني، والإدراك الحيواني، ويشرح الكيفية التي انبثق بها "المعنى").

- **Jackendoff, Ray, Foundations of language: Brain, meaning, grammar, evolution (Oxford: Oxford University Press, 2002).**

(كتاب رائع، يحاول الربط بين كلٍّ من: "اللسانيات"، ونظرية "النشوء والارتقاء"، و"علم النفس").

- **MacNeilage, peter F., The origin of speech (Oxford: Oxford University Press, 2008).**

(وَصْف لنشأة الكلام، يؤكد دور المقاطع الصوتية في تلك النشأة).

تاريـــخ "اللسانيـــات".

- Matthews, Peter, Grammatical theory in the United States from Bloomfield to Chomsky (Cambridge: Cambridge University Press 1993).

(كتاب يفيد في الإحاطة باهتمامات علماء "اللسانيات" في القرن العشرين، وفهمها).

- Robins, Robert H., A short history of linguisitics, 4th edition (London: Longman, 1997).

(دراسة شاملة لأفكار علم "اللسانيات"، من عصر قدامى فلاسفة اليونان حتى القرن العشرين).

علم الأصوات والفونولوجيا :

- Clark, John, Yallop, C. and Fletcher, J., An introduction to phonetics and phonology, 3rd edition (Oxford: Blackwell, 2007).

(وَصْف شامل لمسائل علمي" الأصـوات"، و"الفونولوجيـا". ولكنـه أكثـر تميـزًا في تناوله لمسائل العلم الأول).

- Collins, Beverlery S. and Mees, I. , Practical phonetics and phonology: A resource book for students (London: Routledge, 2003). (دليل هادمفيد)

- Cruttenden, Alan, Gimson's pronunciation of English, 6th edition (London: Arnold, 1994).

(الدليل النموذجي المعتمد لأصوات اللغة الإنجليزية البريطانية).

- Goldsmith, J. (ed.), The handbook of phonological theory (Oxford: Blackwell, 1995).

(مجلد ضخم، يشتمل على نيِّف وثلاثين مقالة لأعلام "الفونولوجيا").

- Hardcastle, W. J. and Laver,J. (eds.), The handbook of phonetic sciences (Oxford: Blackwell, 1996).

(مجلد ضخم متعدد الموضوعات)

- International Phonetics Association, Handbook of the International Phonetics Association (Cambridge: Cambridge University Press, 1999).

(وَصْف صوتي للألفبائية الصوتية العالمية IPA مع أمثلة توضيحية من تسع وعشرين لغة مختلفة).

- Ladefoged, P., A course in phonetics, 5th edition (Boston: Thomson Heinle, 2005).

(مقدمة عامة، متراحبة، تتناول أصواتًا من عدد كثير من اللغات).

- Ladefoged, P. and Maddieson, I., The sounds of the world's languages (Oxford: Blackwell, 1996).

(استقراء شامل للأصوات التي تستعملها لغات العالم).

- Pullum, Geoffrey and Ladusaw, W. A., Phonetic symbol guide, 2nd edition (Chicago: Chicago University Press, 1996).

(استقراء مستقصٍ للرموز الصوتية المستعملة في كتب "اللسانيات").

- Reetz, Henning and Jongman, A., Phonetics: transcription, production, acoustics, and perception (Oxford: Wiley-Blackwell, 2008).

(دليل هادٍ، مفصل، واضح، إلى دراسة الكلام، والصوت).

- Roach, Peter, English phonetics and phonology: A practical course, 3rd edition (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(وَصْف خالٍ من الغموض)

- Roca, I. and Johnson, W., A course in phonology (Oxford: Blackwell, 1999).

(مادة دراسية معروضة عرضًا خاليًا من الغموض، تبدأ بدراسة الأصوات الأساسية، فدراسة النبر والمقاطع الصوتية، لتنتهي بدراسة أفكار أخرى أكثر تقدمًا).

- **Wells, J.C., Accents of English, vols. 1-3 (Cambridge: Cambridge University Press, revised edn. 2008).**

(استقراء شامل لـ"لكنات" اللغة الإنجليزية المختلفة في بريطانيا، وفى مناطق أخرى من العالم).

علم الصرف:

- **Bauer, Laurie, A glossary of morphology (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2004).**

(دليل هاد، واضح، مرتَّب ترتيبًا ألفبائيًا، إلى مسائل علم الصرف).

- **Spencer, Andrew and Zwicky, A. M. (eds.), The handbook of morphology (Oxford: Blackwell, 1997).**

(مجلد ضخم، يشتمل على مقالات تغطى الموضوعات التقليدية- وكذا الحديثة- في "علم الصرف").

الكلمات وصوغها (طرق تكوينها):

- **Adams, Valerie, Complex words in English (London: Pearson Education, 2001).**

(وَصْف ملخص، مفيد، لطرق تكوين الكلمة في اللغة الإنجليزية).

- **Aitchison, Jean, Words in the mind :An introduction to the mental lexicon, 3rd edition (Oxford: Blackwell, 2003).**

(وَصْف ميسَّر للكيفية التي يتعلّم بها الناسُ الكلمات، ويخزّنونها، ويسترجعونها).

- **Aitchison, Jean, A glossary of language and mind (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003).**

(دليل هادٍ، مرتب ترتيبًا ألفبائيًا، إلى المصطلحات الأساسية المستعملة في موضوع "اللغة والعقل").

- **Atkins, B.T.Sue and Rundell, M., The Oxford guide to practical lexicography (Oxford: Oxford University Press, 2008).**

(يشتمل على شرح للكيفية التي تُكتب بها المعاجم)

- **Ayto, John, Bloomsbury dictionary of word origins (London: Bloomsbury, 1990).**
- **Ayto, John, Encyclopaedia of surnames (London: A & C Black, 2007).**

(يشتمل على ما يزيد عن سبعة آلاف اسم من أسماء العائلات، مع معلومات بشأن مصادر نشأتها، وبشأن مدلولاتها).

- **Ayto, John, From the horse's mouth: Oxford dictionary of English idioms, 3rd edition (Oxford: Oxford University Press,2009).**

(يشتمل على ما يربو عن ستة آلاف تعبير اصطلاحي **idiom**، مرتَّبةً ترتيبًا ألفبائيًا، ومشروحة شرحًا واضحًا).

- **Ayto, John, Movers and shakers: A chronology of words that shaped our age (Oxford: Oxford University Press,2006).**

(طبعة مختصرة من كتاب "أيتو" **Ayto** الصادر في العام ١٩٩٩م، توضح اتجاهات الدرس اللساني المهمة، في موضوع أصول الكلمات).

- **Ayto, John, Oxford school dictionary of word origins (Oxford: Oxford University Press,2006).**

(طبعة مختصرة ومحدَّثة لكتاب "أيتو" الصادر في العام ١٩٩٠م).

- **Ayto, John, The Oxford dictionary of rhyming slang (Oxford: Oxford University Press,2002).**

(يشتمل على أشعار مقفّاة قديمة معروفة، وأخرى جديدة رائقة، مرتَّبة حَسَبَ الموضوعات).

- **Ayto, John, Twentieth century words (Oxford: Oxford University Press,1999).**

(وَصْف يتناول – عَقْدًا بعد عَقْد – الكلماتِ الجديدة التي دخلت اللغة الإنجليزية في القرن العشرين).

- **Ayto, John, Wobbly bits and other euphemisms (London: A & C Black, 2007).**

(يشتمل على ما يزيد عن ثلاثة آلاف عبارة من عبارات التلطف في التعبير، مرتبةً حَسَبَ الموضوعات المختلفة، من مثل: الجريمة، والجنس، والحرب).

- Ayto, John and Simpson, John, Stone the crows: Oxford dictionary of modern slang, 2nd edition (Oxford: Oxford University Press,2008).

(يشتمل على قائمة ألفبائية للكلمات العامية من القرنين: العشرين، والحادي والعشرين).

- Crystal, David, txting: the gr8 db8 (Oxford: Oxford University Press, 2008).

(دراسة شاملة، رائقة، للجدل الحاصل بين الدارسين حول مسألة الرسائل النصية القصيرة).

- Ljung, Magnus, Making words in English (Stockholm: Studentlitteratur, 2003).

(وَصْف مختصر لطرق تكوين الكلمات في اللغة الإنجليزية).

- Hitchings, Henry, the secret life of words: How English became English (London: John Murray, 2008).

(تناوُل موجز للمصادر المتعددة، المتباينة الجنسيات، التي ترجع إليها كلماتُ اللغة الإنجليزية).

- Plag, Ingo, Word formation in English (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).

(كتاب دراسي، قريب المُتناوَل، جيد التنظيم).

- Stockwell, Robert and Minkova, D., English words history and structure (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(استقراء شامل، حافل بالمعلومات المفيدة، بشأن مفردات اللغة الإنجليزية التي تجرى على ألسنة المتعلمين).

- Taylor, Jonn R., Linguistic categorization, 3rd edition (Oxford: Oxford University Press, 2003).

(الكلمات وطرق تصنيفها)

- Wray, Alison, Fromulaic language and the lexicon (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(يستكشف دور التعبيرات المسكوكة Formulae [= تعبيرات ثابتة البنية أو شبه ثابتة] في اللغة).

المواقف إزاء اللغة، بما فيها وجهات النظر المتعلقة باللغة الفصحى:

- **Baliey, Richard W., Images of English: A cultural history of the language (Cambridge: Cambridge University Press, 1992).**

(تاريخ وجهات النظر المختلفة بشأن اللغة الإنجليزية)

- **Bex, T. and Watts, R. J. (eds.), Standard English: The widening debate (London: Routledge, 1999).**

(يتناول قضية اللغة الفصحى من زوايا مختلفة)

- **Cameron, D., Verbal hygiene (London: Routledge, 1995).**

(يتناول المواقف الشائعة إزاء اللغة، وخاصة الموقفَ القائل بضرورة تطهير اللغة من شوائب الاستعمال اللغوي).

- **Crystal, David, The fight for English: How language pundits ate, shot and left (Oxford: Oxford University Press, 2006).**

(يناقش بعض المسائل التي تُقلق بعض الدارسين بشأن اللغة، من مثل الفاصلة العليا **apostrophes**، والكلمات المقترضة).

- **Machan, Tim W., Language anxiety: Conflict and change in the history of English (Oxford: Oxford University Press, 2009).**

(وَصْف لحالة القلق على اللغة الإنجليزية عبر أزمان، وأصقاع مختلفة).

- **Milroy, J. and Milory, L., Authority in language: Investigating language prescription and standardization, 2nd edition (London: Routledge, 1991).** (تناولُ عامّ موجز للاتجاه المتذمر من حال اللغة)
- **Mugglestone, L., Talking proper: The rise of accent as a social symbol (Oxford: Claredon Press, 1995).** (مَسْح سهل القراءة، موثوق به).

علم النحو [التراكيب] syntax (شاملا ما يخصّ اللغة الإنجليزية، وما يخصّ جهود "تشومسكي")

- **Börjars, Kersti and Burridge, K., Inroducing English grammar (London: Arnold, 2001).**

(مقدمة تشتمل على شروح واضحة، وأمثلة شائقة).

- Borsley, Robert D., Syntactic theory: A unified approach, 2nd edition (London: Edward Arnold, 1999).

(يتناول جهود مدارس اللسانيات المختلفة، في معالجة بعض الموضـوعات المهمـة، في علم النحو).

- Chomsky, Noam, edited by Belletti A. and Rizzi, L., On nature and language (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(يتناول وجهات نَظَر "تشومسكي" الخاصة، بما فيهـا أُطروحتـه عـن "برنـامج الحـد الأدنى" Minimalist Program).

- Cook, Vivian J. and Newson, M., Chomsky's universal grammar: An introducation, 2nd edition (Oxford: Blackewll, 1996).

(وَصْف موجز لجهود "تشومسكي" في الثمانينيات، والتسعينيات)

- Maher, John and Groves, J., Chomsky for beginners (Cambridge:Icon Books,1996)

(كتاب ميسَّر، مصحوب بصور كثيرة)

- Culicover, Peter W. and Jackendoff, R., Simpler syntax (Oxford: Oxford University Press, 2005).

(يبرهن على أن علم النحو قد غـدا علمًا بـالغ التعقيـد، ويقـترح معالجـةً بديلـة أقـل تعقيدًا).

- Lobeck, Anne, Discovering grammar: An introudcation to English sentence structure (Oxford: Oxford University Press, 2000).

(مقدمة كافية، واضحة، مصحوبة بعدد من الرسوم التوضيحية الجيدة لبنية الجملة).

- Palmer, Frank, Grammatical roles and relations (Cambridge: Cambridge University Press, 1994).

(وَصْف موجز، مفيـد، لـبعض "الأدوار" roles ، مـن مثـل القـائم بالفعـل agent، والخاضع لهpatient ، ولبعض العلاقات، مثل: الفاعلية، والمفعولية).

- Quirk, Randolph, Greenbaum, S., Leech, G. and Svartvik, J., A comprehensive grammar of the English language (London: Longman, 1985).

(كتاب مرجعي ضخم، يمكن الإفادةُ منه، دون شرط الإلمام بـ"اللسانيات")

- Radford, A., Syntax: A minimalist introduction (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

(طبعة مختصرة لكتاب آخر أكبر للمؤلف نفسه، بشأن أطروحة "تشومسكي" عن "برنامج الحد الأدنى". وقد طُبع الكتابان متزامنيْن).

المعنى: علم الدلالة

- Frawley, W., Linguistic semantics (Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1992).

(يحاول أن يربط "علم الدلالة" بـ"العالم الواقعي")

- Goddard, C., Semantic analysis: A practical introduction (Oxford: Oxford University Press, 1998).

(مقدمة متعددة الموضوعات، تتضمن – فيما تتضمن – بعض القضايا الثقافية).

- Hurford, James R.,Heasley B. and Smith, M. B., Semantics: A coursebook, 2nd edition (Cambridge: Cambridge University Press, 2007).

(يقدّم أساسيات "علم الدلالة" بطريقة واضحة، مترابطة منطقيًا)

- Saeed John I., Semantics, 3rd edition (Oxford: Blackwell 2008).

(كتاب دراسي، خالٍ من التعقيد، يغطّي مسائل "علم الدلالة" الأساسية).

- Taylor, John R., Linguitic categorization, 3rd edition (Oxford: Oxford University Press, 2003).

(وَصْف واضح لنظرية "النماذج الأصلية" prototype وللمشترك اللفظي الناجم عن تعدد المعنى polysemy).

- Ungerer, Friedrich and Schmid H. J., An introduction to cognitive linguistics about language (London: Person Longman 2006).

(كتاب يربط بين "علم الدلالة" و"علم النفس")

استعمال اللغة: التداولية، متضمنة "تحليل الحـــــوار"

- Davis, Steven (ed.). Pragmatics: A reader (Oxford: Oxford University Press, 1991).

(مجموعة مفيدة من المقالات، تتـضمن بعـض المقـالات التاريخيـة الأساسـية في هـذا المجال).

- Grudny, Peter, Doing pragmatics, 3rd edition (London: Hoddder Arnold, 2008)

(معالجة عامة، موجزة، ميسَّرة)

- Horn, Laurence R. and Ward, G. (eds.),The handbook of pragmatics (Oxford: Blackwell, 2004).

(مجلد ضخم، يتضمن مقالاتٍ كثيرةً متنوعة).

- Schiffrin, Deborah, Approaches to discourse (Oxford: Blackwell, 1993).

(يتناول – بالشرح – الاتجاهات المختلفة في تحليل الخطاب، ويقارن بينها).

- Schiffrin, Deborah, Tannen, D. and Hamilton, H. E., The handbook of discourse analysis (Oxford: Blackwell, 2001).

(كتاب كبير، متعدد الموضوعات، يتضمن نيِّفًا وأربعين مقالة)

- Tannen, Deborah, You're wearing that? Understanding mothers and daughters in conversation (New York: Ballantine, 2006).

(كتاب ذو طابع شعبي، يستفاد منه بوَصْفه مقدمةً لـ"تحليل الحوار").

اللغة والمجتمع: اللسانيات الاجتماعية:

- Camernon, Deborah, The myth of Mars and venus: Do men and women really speak different languages? (Oxford: Oxford University Press, 2007). (وجهة نظر منطقية، ميسَّرة، لموضوع يحتَفُّه الجدل)

- Champers, J. K. (Jack), Sociolinguistic theory (Oxford :Blackwell, 1995).

(دراسة شاملة، متعددة الموضوعات، للتنوع اللغوي، تتضمن – فيما تتضمن – المغزى "البيولوجي" لهذا التنوع).

- **Chambers, J. K., Trudgill, P. and Schilling – Estes, N., The handbook of language variation and change (Oxford: Blackwell, 2002).**

(مجلد ضخم، يتضمن تسعًا وعشرين مقالة، تعالج جوانبَ مختلفةً من قضية "التنوع اللغوي").

- **Cheshire, Jennifer and Trudgill, P. (eds.), The sociolinguistics reader, vol. 2:Gender and discourse (London: Arnold, 1998).**

(مجموعة مفيدة من المقالات. وانظر- كذلك - "ترودجيل" **Trudgill** و "تشيشر" **Chechire**، الجزء الأول).

- **Coates, Jennifer, Women, men and language, 3rd edition (London: Longman, 2003).**

(وَصْف واضح للجهود المعنية بقضية اللغة ونوع الجنس).

- **Downes, William, Language and society, 2nd edition (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).**

(معالجة عامة موجزة، تربط بين اللسانيات الاجتماعية، والتداولية).

- **Eckert, Penelope and Rickford, J. R. (eds), Style and sociolinguistics variation (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).**

(مجموعة مفيدة من المقالات، تتناول"التنوع الأسلوبي")

- **Holmes, Janet, An introduction to socicolinguistics, 3rd edition (London: Longman, 2008).**

(وَصْف واضح، يتناول ثلاث قضايا: التعددية اللغوية، وتنوع مستعملي اللغة، وتنوع الاستعمال اللغوي نَفْسِه).

- **McWhorter, John H., Defining creole (Oxford: Oxford University Press, 2005).**

(يعرِّف باللغات اللتى من نوع الـ"كريول"، ويناقش أهم قضاياها)

- **Myers- Scotton, Carol, Contact linguitics: Bilingual encounters and grammatical outcomes (Oxford: Oxford University Press, 2002).**

(يتناول ما يحدث للغات التي يتكلم بها أناس يتحدثون بلغتين)

- **Romaine Suzanne, Language in society: An introduction to sociolinguistics, 2nd edition (Oxford: Oxford University Press, 2000).**

(كتاب مختصر، ذو معالجات منطقية جيدة).

- **Seigel, Jeff, The emergence of pidgin and creole languages (Oxford: Oxford University Press, 2008).**

(استقراء شامل،مترابط منطقيًا)

- **Smith, Geoff P., Growing up with Tok Pisin: Contact, creolization and chang in new Guinea's national language (London: Battlebridge, 2002).**

(وَصْف دقيق، مصحوب بأمثلة جيدة، وبعض الإحصاءات).

- **Trudgill, Peter, Sociolinguistics, 4th edition (London: Penguin, 2000).**

(وَصْف موجز، واضح، لقضية "التنوع اللغوي")

- **Trudgill, P. and Cheshire, J., The sociolinguistics reader, vol.I: Multilingualism and variation (London: Arnold, 1998).**

(مجموعة مفيدة من المقالات. وانظر - كذلك - "تشيشر" **Chechire** و"ترودجيل" **Trudgill**، الجزء الثاني).

- **Wardhaugh, R., An introduction to sociolinguistics, 3rd edition (Oxford: Blackwell, 2005).**

(دراسة شاملة، موجزة، متعددة الموضوعات)

اللغة والعقل: اللسانيات النفسية psychoilinguistics

- **Aitchison, Jean, The articulate mammal: An introduction to psycholinguistics, 4th edition (London: Routledge, 2008).**

(مقدمة ميسَّرة إلى مسائل اكتساب الكلام، وفهمه، وإنتاجه)

- **Berko-Gleason, Jean (ed.), The development of language, 8th edition (New York: Allyn & Bacon, 2008).**

(دراسة شاملة مفيدة، تقدمها مجموعةٌ مختارة من المقالات، سهلة القراءة نسبيًا).

- Berko- Gleason, J. and Ratner, N. B. (eds.), Psycholinguistics, 2nd edition (New York: Harcourt- Brace, 1998).

(دراسة شاملة مفيدة أخرى، تقدمها -كذلك- مجموعة مختارة من المقالات).

- Beaumont, J. Graham, Introudction to neuropsychology, 2nd Edition (London: Guildford Press, 2008). (مقدمة واضحة، مبسّطة)

- Chiat, S., Understanding children with language problems (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

(استقراء شامل لما يمكن أن يصيبه الخللُ من لغة الأطفال)

- Fletcher, P. and Garman, M. (eds.), The handbook of child language (Oxford: Blackwell,1994).

(مقالات كتبها خمسة وعشرون متخصصًا في قضايا متنوعة).

- Gaskell, Gareth M., The Oxford handbook of psycholinguistics (Oxford: Oxford University Press, 2007).

(تسع وأربعون مقالة، تغطّي كلّ موضوعات "اللسانيات النفسية" تقريبًا).

- Ingram, John C., Neurolinguistics: An inttroduction to spoken language processing and its disorders (Cambridge: Cambridge University Press, 2007).

(عنوان الكتاب يحيط بمحتواه تمام الإحاطة)

- Lust, Barbara and Foley, C. (eds.), First language acquisition: The essential readings (Oxford: Blackwell, 2004).

(ثلاثون مقالة نفيسة، تشمل -تقريبًا- كلّ المقالات التاريخية القيمة، في موضوع اكتساب اللغة الأم).

- Obler, L. K. and Gjerlow, K., Language and the brain (Cambridge: Cambridge University Press, 1999).

(كتاب مختصر ميسّر، في موضوع العلاقة بين اللغة والمخ الإنساني، لدى كلّ من البشر الأصحاء، ونظرائهم ممن يكابدون تلفًا في المخ).

- O'Grady, William, How children learn language (Cambridge: Cambridge University Press, 2005).

(وَصْف مختصر، يجمع بين الإفادة والوضوح).

- Tomasello, Michael, Constructing a language: A usage-based theory of language acquisition (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003).

(خطوة نحو رؤية دقيقة، واضحة، لمسألة اكتساب اللغة).

اللغة والأسلوب: علم الأسلوب stylistics

- Bell, Allan, The language of news media (Oxford: Blackwell, 1991).

(مقدمة واضحة، بقلم صحفي سابق، أصبح الآن أستاذًا جامعيًا)

- Conboy, Martin, The language of the news (London: Routledge,2007).

(يستكشف سمات لغة الصحافة)

- Cook, Guy, The discourse of advertising, 2 nd edition (London: Routledge, 2001).

(يتناول لغة الإعلانات المعاصرة، تناولا يشمل علاقتها باللغة الأدبية).

- Fabb, Nigel, Language and literary structure: The linguistic analysis of form in verse and narrative (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(مقدمة واضحة)

- Myers, Greg, Ad worlds: Brands, media, audiences (London :Arnold, 1999).

(مقدمة سهلة الفهم، تبحث في الإعلانات، وفى الجمهور الذي تخاطبه).

- Short, M., Exploring the language of poems, plays and prose (London: Longman, 1996).

(يركّز – كما يشير عنوانه – على دراسة لغة النثر، والمسرحية، والشعر).

- Toolan, Mick, Language in literature: An introuduction to stylistics (London: Arnold, 1998).

(يناقش مجموعةً متنوعة من الموضوعات)

- Wales, K., A dictionary of stylistics, 2nd edition (London: Longman, 2001).

(معجم مفيد، يشتمل على المصطلحات الذائعة في مجال الدرس الأسلوبي).

تغير اللغة: اللسانيات التاريخية

- Aitchison, Jean, Language change: Progress or decay?, 3rd edition (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(دراسة شاملة، سهلة القراءة، للقضايا الأساسية في موضوع تغير اللغة، متضمنةً صلة ذلك التغير بالتنوع الاجتماعي).

- Barber, Charles, Beal, J. and Shaw, P. A., The English language: A historical introduction, 2nd edition (Cambridge: Cambridge University Press, 2009).

(دراسة شاملة، سهلة القراءة)

- Beekes, Robert S. P., Comparative Indo- European linguistics: An introduction (Amsterdam: John Benjamins, 1995).

(عنوان الكتاب يلخِّص محتواه)

- Campbell, L., Historical linguistics (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1998).

(معالجة عامة، موجزة، مفيدة، مصحوبة بأمثلة مستقاة من عدد كثير من اللغات، بما فيها اللغة الأمريكية الهندية).

- Growley, T., An introuduction to historical linguistics, 3rd edition (Oxford: Oxford University Press, 1997).

(كتاب جيد في موضوع إعادة التشكيل اللغوي، مصحوب بأمثلة مفيدة من اللغات البولينيزية Polynesian).

- Fox, A., Linguistic reconstruction: An introduction to theory and method (Oxford: Oxford University Press, 1995).

(معالجة عامة، موجزة، للمناهج المختلفة في (عملية) إعادة التشكيل اللغوي).

- Croft, William, Typology and universals, 2nd edition (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(معالجة عامة، موجزة، لموضوع التصنيف النوعي للغات، تركّز على دور التفسيرات التاريخية والوظيفية في هذا التصنيف).

- Haspelmath, Martin, Dryer, M., David, G. and Comrie, Bernard, World atlas of language structures [book and CD] (Oxford: Oxford University Press, 2005). (يضم قدرًا جدّ كبير من المعلومات)

قائمة بالرموز والمختصرات المستعملة في الكتاب

(يلاحظ أن الرموز الصوتية المستعملة في الكتاب قد سردت في الصفحة رقم ١٠٥ والصفحة رقم ١١١ وما بعدها).

[ ] يُستعمل في الكتابة الصوتية .

// يُستعمل في الكتابة الفونيمية.

( ) يدلّ على عنصر اختياري.

$\left\{ \begin{matrix} X \\ Y \end{matrix} \right\}$ يدلّ على البدائل (إما X أو Y)

* يدلّ على أن الجملة – أو الكلمة – غير صحيحة الصياغة.

! يدل على أن الجملة مستحيلة دلاليًا .

→ بمعنى: "أعِد الكتابة كالتالي".

ϕ بمعنى: "صفر"

يدل على حدود الكلمة.

/ بمعنى: "في السياق التالي".

S بمعنى: **sentence** (جملة).

N بمعنى: **noun** (اسم)

NP بمعنى: **noun phrase** (مكون إسمي)

V بمعنى: **verb** (فعل)

VP بمعنى: **verb phrase** (مكون فعلي)

A بمعنى: adjective (صفة)

AP بمعنى: adjective pharse (مكون وَصْفى)

P بمعنى: preposition (حرف جر قبلي)

PP بمعنى: preposition phrase (مكوّن ذو حرف جر قبلي)

علـم الأصـوات (Phonetics):

دراسة أصوات الكلام

يُعنَى الباحثون بدراسة أصوات الكلام: وصفًا، وتصنيفًا، من خيثيتين رئيسيتين:

- الحيثية النطقية articulatory (دراسة وسائل إنتاج الأصوات).
- الحيثية الفيزيائية acoustic (تحليل الموجات الصوتية).

وتتصل معالجتنا الموجزة الآتية لأصوات الكلام، بالحيثية النطقية وحدها.

الصوامت (consonants) والصوائت (vowels)

تتميز التفرقةُ التقليدية بين الأصوات التي من نوع "الصوامت"، وتلك التي من نـوع "الصوائت"، بأنها تفرقة مفيدة. وإن كان التحليل الـصوتي قـد كَـشَفَ عـن صـعوبة التفرقة بينهما تفرقّة حاسمة، وعن صعوبة تحديد طبيعة كلٍّ منهما تحديدًا واضحًا، عـلى عكس ما قد يبدو لأول وهلة.

صوامت اللغة الإنجليزية

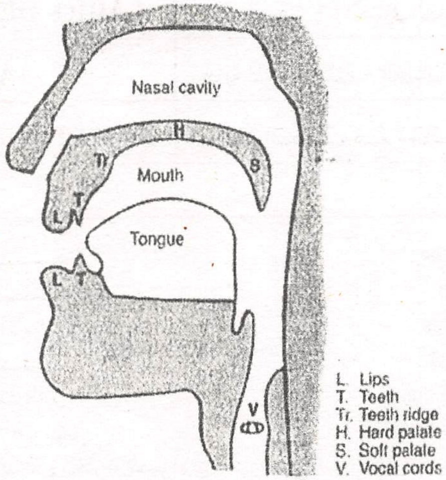
تتمثل صوامتُ اللغة الإنجليزية في تلك الأصوات التي يمكن – بقدر من السهولة – وَصْفُها وَفْقًا للمتغيرات الثلاثة الآتية:

- الجهر (والهمس) voicing .
- موضع النطق (المخرج) place of articulation .
- طريقة النطق manner of articulation .

الجهر (والهمس) Voicing

الوتران الصوتيان vocal cards هما وتران رفيعان من الأغشية، يقعان في الحنجرة (ينظر الرسم التوضيحي ١٩-١). وإذا تذبذب هذان الوتران حالَ النطق بأحد الأصوات، فإن هذا الصوت يوصف بأنه "مجهور" voiced. وذلك كما يحدث عند النطق بالصوامت الإنجليزية الآتية: [b d g v ð z ʒ dʒ m n ŋ l r w j]

ويمكننا الإحساسُ بهذا التذبذب، بوضع أحد أصابع اليد على الحنجرة من الخارج حال النطق بالصوت المجهور. وأما إذا لم يتذبذب هذان الوتران حال النطق بالصوت، فإنه يوصف بأنه "مهموس" voiceless. وذلك كما يحدث عند النطق بالصوامت الإنجليزية الآتية[1]: [p t k f θ s ʃ tʃ]



(الرسم التوضيحي ١٩-١)[2]

---

(١) جمع بعض أئمتنا الأصوات المهموسة في اللغة العربية في عبارة: "سَكَتَ فَحَثَّه شخص"، أي: السين، والكاف... إلخ. وما عداها فهو مجهور. هذا مع ملاحظة أن ثمة خلافًا يتعلق ببعض الأصوات، مثل: الطاء، والقاف، فهما مجهوران في وصف القدماء، مهموسان في الأداء النطقي الفصيح المعاصر، ممثلا في قراءة القرآن الكريم. [المترجم].

(٢) التجويف الأنفي : Nasal cavity -

الفـــــم : Mouth - =

موضع النطق (المخرج)

يصف موضعُ النطق (= مخرج الصوت) النقطةَ التي يتلامس عندها عضوان من أعضاء النطق تلامسًا فعليًا، أو يتقاربان كأقصى تقارب لهما. ودونك- في الجدول الآتي (١٩ -١)- عرضًا لأهمّ مواضع النطق بصوامت اللغة الإنجليزية[1] (وينظر كذلك: الرسم التوضيحي ١٩-١).

	أعضاء النطق	أمثلة
شفوي (BILABIAL)	الشفة العليا + الشفة السفلى	[p b m]
أسناني (DENTAL)	الأسنان + اللسان	[d ð]
شفوي أسناني (LABIO- DENTAL)	الشفة السفلى + الأسنان العليا	[f V]
لِثَويّ (ALVEOLAR)	الحافة المرتفعة للثة + اللسان	[t d s z r l n]
غاري لثوى -PALATO)	الحنك الصُّلْب مع الحافة	[ʃ ʒ t ʃ dʒ]

= اللسان : Tongue -
الأسنان : Teeth -
أصول الأسنان : Teeth ridge -
الحنك الصلب : Hard palate -
الحنك اللين : Soft palate -
الوتران الصوتيان : Vocal cords -

(١) وكذا يمكننا تقديم تحديد عام لمخارج الصوامت العربية على النحو التالي:

- الشفوية (انطباق الشفتين): الباء، والميم.
- الشفوية الأسنانية (الشفة السفلى + أطراف الثنايا العليا): الفاء.
- الأسنانية/ بين الأسنانية (طرف اللسان بين أطراف الثنايا العليا والثنايا السفلى): الثاء، والذال، والظاء.
- اللثوية (طرف اللسان + اللثة: التصاقًا بها، أو اقترابًا منها، أو طَرْقًا لها): التاء، والدال، والضاد، والطاء، واللام، والنون- الزاي، والسين، والصاد- الراء.
- الغارية (مقدم اللسان + غار الفم/ الحنك الصُّلْب): الجيم، والشين، والياء (الصامتة).
- الطَّبَقية (مؤخر اللسان + الطبق/ الحنك اللين): الكاف، والخاء، والغين، والواو (الصامتة).
- اللَّهَوية (أقصى اللسان+ اللَّهاة): القاف.
- الحَلْقية (تجويف الحلق): الحاء، والعين .
- الحنجرية (ما بين الوترين الصوتيين): الهمزة، والهاء [المترجم].

ALVOLAR)	المرتفعة للثة + اللسان	
غاري (PALATAL)	الحنك الصُّلْب + اللسان	[j]
طَبَقي (VELAR)	الحنك اللين + اللسان	[k g]
حنجري (GLOTTAL)	الوتران الصوتيان	[h ʔ]

طريقـــــة النطـــــق

تصف "طريقةُ النطق" نوعَ الاعتراض الناجم عن تضييق المسافة بين عـضوين مـن أعـضاء النطق، أو إغلاقها تمامًا، على نحو ما يعرضه الجدول الآتي (١٩ - ٢):

	حركة أعضاء النطق	أمثلة
وقفي(١) STOP أو انفجاري (PLOSIVE)	إغلاق تام	[p b t d k g]
مركب(٢) (AFFRICATE)	إغلاق ثم انفصال بطيء	[tʃ dʒ]
احتكاكي (FRICATIVE)	تضييق يفضي إلى احتكاك مسموع	[f v θ s z)
أنفي(١)	إغلاق تام للفم وتسرُّب للهواء	[m n ŋ]

(١) جمع بعض أئمتنا الأصوات الوقفية(أو "الشديدة" بلفظ سيبويه) في العربية، في عبارة: "أَجِدُكَ قَطَّبْتَ". أي الهمزة، والجيم، والدال... إلخ [قطّب الرجل: إذا جمع ما بين حاجبيه] وما عداها فأصوات احتكاكية (أو "رخوة" بلفظ سيبويه). هذا، مع ملاحظة أن الضاد في وصف أئمتنا صـوت احتكـاكي (رِخـو)، في حين أنها – في الأداء النطقي الفصيح المعاصر ممثلا في قراءة القرآن الكريم – صوت وقفي (شديد). وهي قضية صوتية محل خلاف كبير.[المترجم].

(٢) تصنَّف الجيم العربية الفصحى المعطشة لدى المحدثين، على أنها صوت مركَّـب؛ مـن حيـث إن انفـصال عضوي النطق المشاركين في النطق بها (وسط مقدَّم اللسان + ما فوقه من الحنك الأعلى) يـتم عـلى نحـو بطيء، لا على نحو مفاجئ، كما يحدث مع سائر الأصوات الوقفية (الانفجارية/ الـشديدة) الأخـرى؛ مما يتيح للهواء أن يُسرَّح ببطء محتكًا بالعضوين المتباعدين، فينتج صوت يجمـع بـين الانفجـار والاحتكـاك (مركب). (ينظر: د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة ص١٠٤، ود. أحمد مختار عمر: دراسة الـصوت اللغوي ص٣١٧). وأما "القول بأنها [أي: الجيم الفصحى] تبـدأ وكأنهـا دال، وتنتهـي بجـيم معطـشة، [فهو] غير صحيح بالمرة، ولا يتأتى إلا باشتراك طرف اللـسان في نطقهـا، في حـين أنـه لا عمـل لطـرف اللسان في نطق الجيم" (د.محمد حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية ص١٠٢). [المترجم].

	حركة أعضاء النطق	أمثلة
(NASAL)	من الأنف	
جانبي[٢] (LATERAL)	إغلاق في منتصف الفم وتسرُّب للهواء من جانبيه	[l]
(أصوات) تقريبية[٣] APPROXIMANT	تضييق طفيف لا يكفي لإحداث احتكاك	[w j r]

(الجدول ١٩- ٢)

تعيين السمات المميزة للصوامت

يمكننا، بعد، أن نصف أي صامت في اللغة الإنجليزية، وأن نعيّن سماته المميزة له (هويته)، في ضوء المصطلحات السابقة. فمثلا:

---

(١) تضم العربية صوتين أنفيين، هما: الميم، والنون. ويكسبهما مرور هواء النفس لدى النطق بهما غُنَّة، كما هو معروف مقرر. [المترجم].

(٢) تضم العربية – كذلك – صوتًا جانبيًا واحدًا، هو صوت اللام. وقد وُصِف هذا الصوت في تراثنا اللغوي العربي بصفة "الانحراف" مقصودًا بها (أ) انحراف اللسان، بمعنى تجافي جانبيه، دون طرفه، من أجل خروج الصوت. و(ب) خروج صوت الحرف (أي تكونه بالمرور) من جانبي اللسان اللذين تجافيا" (د.محمد حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية ص٦٦). فمفهوم "الجانبية" و"الانحراف" واحد، كما ترى. [المترجم].

(٣) ممن جرى قلمه بهذه الترجمة لمصطلح approximant د. سمير استيتية (ينظر كتابه: الأصوات اللغوية ص١٦٣. وينظر كذلك: عبد الفتاح إبراهيم: مدخل في الصوتيات ص٦٦). وترجمه د. رمزي بعلبكي بـ"لا ممتد احتكاكي"(ينظر: معجم المصطلحات اللغوية ص٥٤). ويُستعمل هذا المصطلح لتسوير إحدى كيفيات النطق. وهي تلك التي يقترب فيها عضو من أعضاء النطق بعضو آخر، اقترابًا يضيِّق المسافة بينهما، ولكنه تضييق لا يكفي لإحداث احتكاك مسموع. وتتحقق هذه الكيفية لدى نطق الصوائت وبعض الصوامت مما ذكرته مؤلفة كتابنا.

ينظر: Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, p. 24 ولكن المصطلح غلب على الصوامت خاصة.

ينظر: Roach, English Phonetics and Phonology, p.62. [المترجم].

[s]: صامت، احتكاكي، لِثَويّ، مهموس.

[b]: صامت، وَقْفي (انفجاري)، شفوي، مجهور.

[tʃ]: صامت، مركّب، غاري لثوى، مهموس.

وكذا يمكننا أن نعرض هذه المعلومات، عرضًا رائقًا مفيدًا، في جدول يلخص السمات الرئيسية لصوامت اللغة الإنجليزية، كما يلي (الجدول ١٩ - ٣):

	شفوي	شفوي أسناني	أسناني	لثوى	غاري لثوى	غاري	طبقي	حنجري
مهموس وقفي مجهور	P b		t d				K g	ʔ
مهموس مركب مجهور						tʃ dʒ		
مهموس احتكاكي مجهور		f V	θ ð	s z	ʃ ʒ			h
أنفي	m		n				ŋ	
جانبي			l					
(أصـــــوات) تقريبية	(w)			r		j	w	

(الجدول ١٩ - ٣)

ولاحظ - أيها القارئ - أن الصوت w قد ورد ذكره مرتين: مرّةً بوصفه صوتًا طبقيًا velar، وأخرى (بين قوسين) بوصفه صوتًا شفويًا. وتفسير ذلك هو أن الصوت w يصنَّف - من وجهة نظر الدرس الصوتي - على أنه صوت تقريبي شفوي - غاري **labial- velar approximant**، يشترك في إصداره موضعان من مواضع النطق.

ولا تقدّم المعلوماتُ الواردة بالجدول السابق ألبتَّةَ وصفًا صوتيًا كاملا، بل هي تمثّل الحدَّ الأدنى الضروري للتمييز بين "فونيات" اللغة الإنجليزية التي تصنّف - من الناحية النطقية - على أنها من "الصوامت". ولاحظْ كذلك - أيها القارئ- أنه قد يحدث أحيانًا اختلافٌ يسير بين الدارسين، بشأن الكيفية المناسبة اللازمة لوصف أصوات بعينها.

ملاحظات

تتمثل المصطلحاتُ الصوتية الشائعة الأخرى - وكذا الرموز المستعملة أحيانًا في وصف الصوامت - في الآتي:

١- الصفيري **sibilant**. وهو مصطلح صوتي معروف، يُستعمل للإشارة إلى الأصوات الهسيسية **hissing** والأصوات الهشيشية **hushing** مثل: [ʒ ʃ z s][1].

٢- المائع **liquid**[2]. وهو مصطلح صوتي معروف، يُستعمل وصفًا لكلٍّ من الصوتين [l] و [r].

٣- شِبْه الصائت[3] **semi- vowel**. وهو مصطلح صوتي آخر يُستعمل للإشارة إلى كل من الصوتين [j] و [w].

---

(١) توصف أصوات الزاي والسين والصاد- وحدها- في التراث اللغوي العربي بالأصوات "الصفيرية"؛ تنويهًا بصوت الصفير الذي يصحب النطق بها؛ نظرًا لضيق منفذ خروج كل منها. وأما "الشين"، فيوصف في ذلك التراث بـ"التفشّي". "وهو الانتشار والانبثاث.و المراد هنا انتشار خروج هواء النفس - في نطق الشين - بين اللسان والحنك؛ بسبب انبساط مقدَّم اللسان عند النطق بهذا الحرف" (د. محمد حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية ص٦٦، ٦٨). [المترجم].

(٢) يمثل الوصف liquid (مصطلحًا) انطباعيًا غير فني، يُستعمل لوصف صوامت بعينها؛ تنويهًا بما يتسم به النطق بهذه الصوامت من تدفق سَلِسٍ انسيابي، لا يصحبه احتكاك كبير، مُشْبهة - بذلك - الصوائت . ينظر: Akmajian (et el), Linguistics, p. 78.

وفي تراثنا اللغوي وُصفت أصوات اللام، والراء، والنون (وأُلحقتْ بها الفاء، والباء، والميم) بـ "الذلاقة" تنويهًا بالخفة والسلاسة في نطقها (ينظر: د. محمد حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية ص٦٥). وقد جمع بعض أئمتنا هذه الأصوات الستة في عبارة "مُرْ بنَفْلٍ". [المترجم].

٤- الاستمراري غير الاحتكاكي frictionless- continuant . وهو مصطلح صوتي جرى استعماله قديمًا، ثم غلب على الدرس الصوتي المعاصر استعمالُ مصطلح pproximant بدلا منه.

٥- (الصوتان) الأنفيان المقطعيان syllabic nasals. يوظَّف هذا المصطلح للإشارة إلى (الصوامت) الأنفية التي يكوّن كلٌ منها مقطعًا كاملا، كما في نُطق الكلمتين madam، و garden، أحيانًا، على النحو الآتي: [mædm̩]، و[gɑ:dn̩]. وكذا قد تشكّل الأصوات المائعة مقاطع كاملة، كما في كلمة funnel [fʌnl̩]، وكذا كلمة ladder [lædr̩] المستعملة في الإنجليزية الأمريكية.

صوائت اللغة الإنجليزية

الأصوات التي من نوع "الصوائت"، هي الأصوات التي تعتمد في تكوّنها- في المقام الأول- على الوضعيات المختلفة للسان داخل الفم. كما تتميز بأنها أصوات مجهورة voiced عادة.

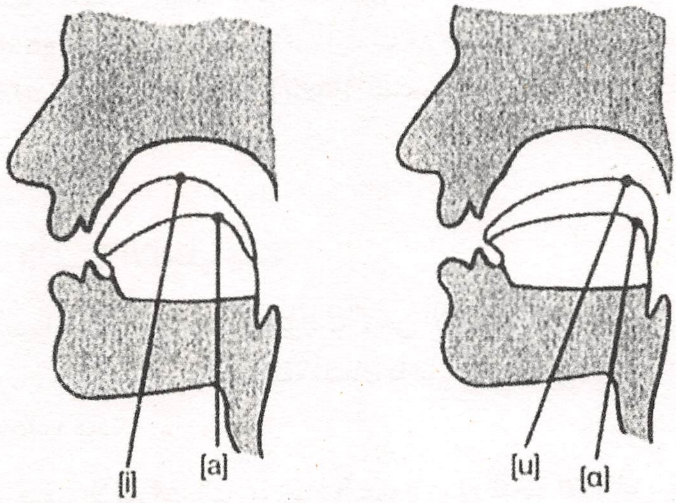
وتوصف الأصوات التي من نوع الصوائت في اللغة الإنجليزية، على نحو أقرب للأفهام وفقًا لمتغيرين اثنين، هما:

- درجة ارتفاع اللسان.
- جزء اللسان الذي يجرى رفعه، أو خفضه، حال النطق بالصائت.

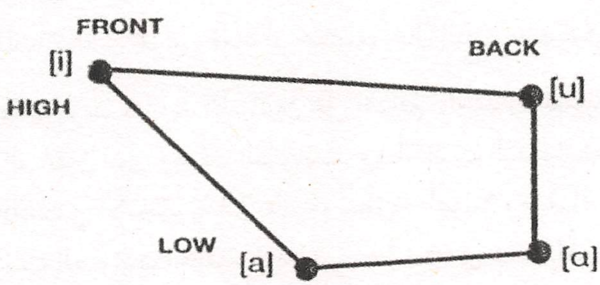
هذا، وقد جرت كتاباتُ اللسانيين على إضافة "استدارة الشفتين" متغيرًا ثالثًا، إلى المتغيرين السابقين لدى وصف الصوائت. ولما كانت الصوائت الأمامية front والمركزية central في الإنجليزية البريطانية، تُنطَق – أصلا وطبعًا- بدون استدارة الشفتين، وكانت الصوائت الخلفية back فيما عدا (ɑ:) في هذه اللغة، تنطق – أصلا وطبعًا- باستدارة الشفتين، فقد أُلغي متغير "استدارة الشفتين" لدى وصف

(١) أو: نصف الصائت، أو: نصف الصامت... [المترجم].

الصوائت ها هنا. بيد أننا يجب أن نلاحظ - في المقابل - أن هذا المتغير يغدو متغيرًا مهمًا، حين نشتغل بوصف صوائت اللغتين: الفرنسية، والألمانية، مثلا. وتُعرض الصوائت عادةً في صورة رسم تخطيطي، يمثّل الحدود الممكنة لها في اللغات الإنسانية. ويُنجَز هذا الرسم التخطيطي برسم أربع نقاط حدودية (ينظر الرسمان ١٩ - ٢، ١٩ - ٣).



(الرسم التوضيحي ١٩-٢)

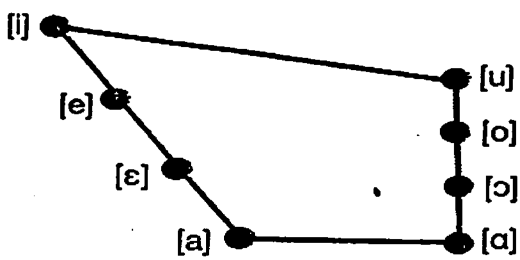


(الرسم التوضيحي ١٩-٣)

فالصائت [i] يُظهر اللسانَ في أعلى ارتفاع له. وأقصى نقطة ارتفاع له تقع في مقدَّمه.
والصائت [a] يُظهر اللسانَ في أسفل وضع له. وأقصى نقطة سُفول له تقع في مقدَّمه.
والصائت [u] يُظهر اللسانَ في أعلى ارتفاع له. وأقصى نقطة ارتفاع له تقع في مؤخَّره.
والصائت [ɑ] يُظهر اللسانَ في أسفل وضع له. وأقصى نقطة سُفول له تقع في مؤخَّره.

وبين هذه النقاط الأربع "الحدودية"، يقع الصائتان [e] و [ɛ] في موقع وسط بين الصائتين [i] و [a]. كما يقع الصائتان [o] و [ɔ] في موقع وسط بين الصائتين [u] و [ɑ] .

ويُعزى إلى "دانيال جونز"[1] Danial Jones تسمية هذه النقاط (=الصوائت) الثماني السابقة بـ cardinal vowels (الصوائت المعيارية)، فضلا عن أنه هو الذي ابتكر هذا النظامَ برُمَّته. وغدا في وسع الباحثين أن يعرضوا صوائت أية لغة على هذا الشكل الرباعي الأضلاع (الرسم التوضيحي ١٩- ٤).



(الرسم التوضيحي ١٩-٤)

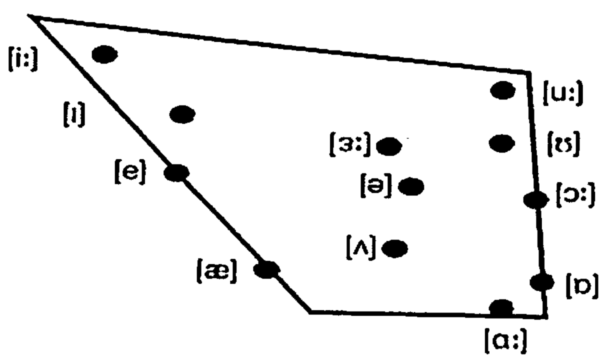
وتنقسم صوائت اللغة الإنجليزية إلى النوعين الآتيين:

(١) دانيال جونز (١٨٨١- ١٩٦٧م): عالم أصوات بريطاني معروف. شغل منصب رئيس الجمعية الصوتية العالمية International Phonetic Association في المدة (١٩٥٠- ١٩٦٧م). من مؤلفاته: Outline of English Phonetics (موجز علم أصوات الإنجليزية) (١٩١٦م). كما أعد المعجم المسمى بـ English Pronouncing Dictionary (١٩١٧م). وقد طبع مرارًا. [المترجم].

- صوائت محضة pure، أو ثابتة، نسبيًا. كالصوائت الى تشتمل عليها الكلمات: set ، sat و ، sit .

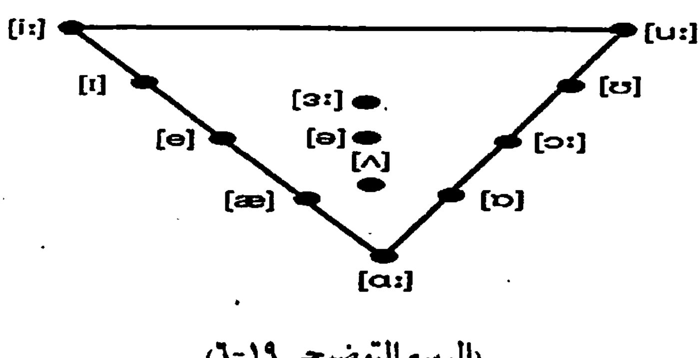
- صوائت مزدوجة diphthongs، أو انزلاقية gliding. كالصوائت التي تشتمل عليها الكلمات: boat، و bite ، وboil، حيث تتغير وضعية اللسان حالَ النطق بأي من هذه الصوائت.

ويسهل علينا نسبيًا وضعُ "الصوائت المحضة" على المخطَّط الرباعي الخاص بـ"الصوائت المعيارية" (بيد أنني ألفت إلى أن تحديد مواضع هذه الصوائت هو تحديد تقريبي؛ نظرًا للتنوع الهائل الحاصل في صوائت الإنجليزية البريطانية). هذا، ويدل وضع نقطتين إلى جوار الصائت على الطول، مثل [u:].



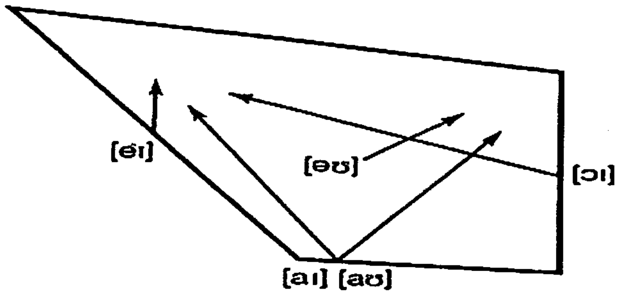
(الرسم التوضيحي ١٩-٥)

ودونك – بعد– مخططًا توضيحيًا آخر، أقل دقة، ولكنه مفيد:

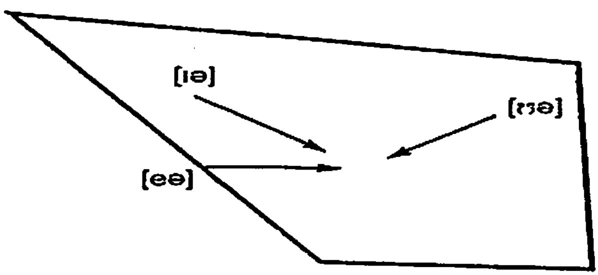


(الرسم التوضيحي ١٩-٦)

وأما الصوائت المزدوجة diphthongs، فيمكن عرضها عبر سهام تربط بين وضعيات اللسان المختلفة:



(الرسم التوضيحي ١٩-٧)



(الرسم التوضيحي ١٩-٨)

فهرس المصادر الواردة في هوامش الترجمة

أولا: المصادر العربية والمترجمة:

- آدي شير: الألفاظ الفارسية المعرّبة، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
- د.إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٨م.
- د. أحمد مختار عمر:
  - دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦م.
  - العربية الصحيحة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٨م.
  - اللغة واختلاف الجنسين، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- أوستين (جون): نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- إفيتش (ميلكا): اتجاهات البحث اللساني، ترجمة د. سعد عبد العزيز مصلوح، ود. وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة بمصر (المشروع القومي للترجمة)، ١٩٩٦م.
- باديس لهويمل: مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)، ٢٠١٤م.
- بليك (وليام): أغنيات البراءة والتجربة، ترجمة حاتم الجوهري، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة آفاق عالمية- المائة كتاب)، ٢٠١٣م. (قدّم للترجمة د. ماهر شفيق فريد).
- تشومسكي (نعوم):
  - معرفة اللغة، ترجمة د. محيي الدين حميدي، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
  - جوانب من نظرية النحو، ترجمة د.مرتضى جواد باقر، مطبوعات جامعة البصرة، ١٩٨٥م.

- د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٩٠م.
- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل): فقه اللغة وسر العربية، تحقيق د. خالد فهمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): الحيوان، تحقيق الشيخ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد): المعرَّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، حقق كلماته بإرجاعها إلى أصولها د.ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- حافظ إسماعيل علوي (تنسيق وتقديم): التداوليات (علم استعمال اللغة)، عالم الكتب الحديث، إربد،٢٠١٤م.
- خالد بن سعود بن فارس العصيمي: القرارات النحوية والتصريفية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: جمعًا ودراسة وتقويمًا، دار التدمرية، الرياض، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- د. داود عبده: دراسات في علم اللغة النفسي، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٤م.
- دوكرو (أوزالد)، وشافار (جان – ماري) (إشراف): المعجم الموسوعي الجديد في علوم اللغة، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة بتونس، دار سيناترا، ٢٠١٠م.
- رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة.
- الرُّمّاني (أبو الحسن على بن عيسى): الألفاظ المترادفة المتقاربة المعني، تحقيق د.فتح الله صالح المصري، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- د. رمزي منير بعلبكي: معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م.
- الزَّبيدي (محمد مرتضي): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق نخبة من العلماء، ضمن سلسلة التراث العربي التي تصدرها وزارة الإعلام بالكويت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

• د. سمير شريف استيتية:
- الأصوات اللغوية (رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية)، دار وائل للنشر، عمّان، ٢٠٠٣م.
- اللسانيات (المجال، والوظيفة، والمنهج)، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٥م.
• طالب هاشم الطبطبائي: نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٤م.
• د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.
• عبد الفتاح إبراهيم: مدخل في الصوتيات، دار الزهراء للنشر، تونس، (دون تاريخ).
• د. عبد القادر الفاسي الفهري:
- البناء الموازي (نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة)، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.
- اللسانيات واللغة العربية (نماذج تركيبية ودلالية)، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
• د. عبد الكريم محمد حسن جبل:
- الأصوات الصفيرية في القراءات القرآنية: إبدالها وإشمامها (دراسة صوتية)، مجلة الدراسات الشرقية، العدد الثامن والثلاثون، ٢٠٠٧م.
- تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى (دراسة تحليلية استقرائية للجذور الثلاثية)، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٩م.
- العلل الاشتقاقية لألفاظ الشجاعة والجبن: دراسة دلالية تحليلية، مجلة كلية دار العلوم (جامعة القاهرة)، العدد رقم (٣٤)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
• د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٧م.
• د. على حلمي موسى، ود. عبد الصبور شاهين: دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس (باستخدام الكومبيوتر)، مطبوعات جامعة الكويت.
• ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا): مقاييس اللغة، تحقيق الشيخ عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٦٦هـ.

- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): عيون الأخبار، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٣م.
- كليبر (جورج): علم دلالة الأنموذج (الفئات والمعنى المعجمي)، ترجمة ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٣م.
- د. كمال بشر: علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- كمال بكداش: علم النفس ومسائل اللغة، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢م.
- مارشال (جوردن): موسوعة علم الاجتماع، راجعه وقدم له وشارك في ترجمته د. محمد محمود الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومي للترجمة)، ٢٠٠٠م.
- د. مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م.
- د. محمد البطل: تحليل الخطاب والترجمة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ٢٠١٠م.
- د. محمد حسن جبل:
  - المختصر في أصوات اللغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، السادسة (٢٠١٠م).
  - المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٢م.
- د. محمد حسن عبد العزيز:
  - سوسير رائد علم اللغة الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠م.
  - في تطور اللغة العربية (بحوث مجمعية في الأصول والألفاظ والأساليب)، مكتبة الآداب، القاهرة،٢٠٠٧م.
- د. محمد عناني:
  - فن الترجمة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، ٢٠٠٤م.
  - المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- محمد غاليم: في التصور القالبي، ضمن "أبحاث لسانية"، المجلد الثاني، العدد الثاني، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، ١٩٩٧م.

- د. محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ٢٠٠٢م.
- د. محيي الدين حميدي: الألسنية الحديثة واللغة العربية (دراسة تحليلية تطبيقية لنظرية الحكم النحوي والربط على اللغة العربية)، كتاب الرياض، ١٩٩٧م.
- د. مرتضى جواد باقر: مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، دار الشروق، عمّان، ٢٠٠٢م.
- د. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م.
- د. مصطفى غلفان (بمشاركة د. أحمد الملاخ، ود. حافظ إسماعيلي علوي): اللسانيات التوليدية (من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة)، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٠م.
- د. منصف عاشور: البرنامج الادنوي (المقدمة)، ضمن كتاب: "إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين"، بإشراف د.عز الدين مجدوب، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، ٢٠١٢م.
- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري): لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف المصرية.
- مونان (جورج): علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة د. نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي بالجمهورية العربية السورية، سلسلة الكتب العلمية (٤١).
- نوفو (فرانك): قاموس علوم اللغة، ترجمة صالح الماجري، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٢م.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

- **Coates, Jennifer: Women, Men and Language, 3rd edition, London, Longman, 2004.**
- **Crystal, David:**
  - **A Dictionary of Linguistics and Phonetics, Blackwell Publishers, 1997.**

- The Cambridge Encyclopedia of Language, Cambridge, Cambridge University Press, , 1987.

- Dalby, Andrew: Dictionary of Languages, London, A & C Black, 2004.
- Gair, James W.: Charles Francis Hocket: A Biographical Memoir, National Academic of Science, Washington, 2006.
- Hartmann, R. R. K & Stork, F. C.: Dictionary of Language and Linguistics, London. Applied Science Publishers LTD, , 1976.
- Honrby, A. S. (ed.): Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current English, Oxford, Oxford University Press, 1985.
- Horrocks, Geoffrey: Grenerative Grammar, Longman, London & New York, 1987.
- Hurford, James & Heaskey, Brendon: Semantics: a coursebook, Cambridge, Cambridge University Press, 1987.
- Jackson, Howard: Words and Their Meaning, London & New York, 1988l.
- Lyons, John: Introduction to Theoretical Linguistics, Cambridge, Cambridge University Press, 1975.
- Magnusson, Magnus (ed.): Chambers Biographical Dictionary, Chambers, Edinburgh, 1993.
- Mayor, Michael (ed.): Macmillan English Dictionary for Advanced Learners, Macmillan Publishers Limited, 2005.
- Mugglestone, Lynda (ed.): The Oxford History of English, Oxford, Oxford University Press, 2006.
- Onions, C. T. (ed.): The Oxford Dictionary of English Etymology, Oxford, Oxford University Press, 1966.
- Palmer, Frank:
  - Grammar, Benguin Books LTD, England, 1984.

- Semantics, Cambridge, Cambridge University Press, 1993.

- Riley, Kathryn & Parker, Frank: English Grammar, Boston, Allyn and Bacon, 1998.
- Roach, Pe.er: English Phonetics and Phonology, Cambridge, Cambridge University Press, 2002.
- Romaine, Suzanne: Language in Society (An Introduction to Sociolinguistics), Oxford, Oxford University Press, 2000.
- Taylor, Insup: Psycholinguistics: Learning and Using Language, London Prentice- Hall International. Inc, 1990.
- The Encyclopedia Americana, Grolier Incorporated, 1984.
- The New Encyclopedia Britannica, Encyclopedia Britannica Inc., 2003.
- Trask R. L: The Dictionary of Historical and Comparative Linguistics, Fitzroy Searborn Publishers, Chicago- London, 2000.

مسرد هجائي (إنجليزي - عربي) بمحتويات الكتاب[1]

(١) تصرفتُ في هذا المسرد تصرفًا جِدّ يسير، بنقل بعض المسائل الفرعية التى أوردتها المؤلفة تحت المداخل الرئيسية للمسرد، إلى مواضعها المناسبة لها هجائيًا من هذا المسرد؛ اجتزاءً بالفهرس التحليلي الوافي الذي صنعته المؤلفة لموضوعات الكتاب، ومسائله، وصدرت به الكتاب.[المترجم].

المؤلفة فى سطور:

جين إتشسن

تعمل "جِين إتْشِسُون" Jean Aitchison (١٩٣٨- ....) حاليًا أستاذة (متفرغة emeritus) للغة والاتصال، بكلية اللغة الإنجليزية وآدابها، بجامعة "أكسفورد"، وزميلة كلية "وِستر" Worcester College بالجامعة نفسها. وتشمل اهتماماتُها البحثية: اللسانيات التاريخية الاجتماعية (وصف التغير اللغوى، والبحث في أسبابه، وكيفية حدوثه.... إلخ)، واللغة والعقل، واللغة والإعلام. ومن مؤلفاتها الأخرى:

- The Articulate Mammal: An Introduction to Psycholinguistics (2011).

(الثديي الناطق: مقدمة إلى اللسانيات النفسية)

- Language Change: Progress or Decay? (2012).

(تغير اللغة: ارتقاء أم اضمحلال؟)

- Words in Mind: An Introduction to the Mental Lexicon (2003).

(الكلمات في العقل: مقدمة إلى المعجم الذهني)

- New Media Language (edited with Diana. M. Lewis) (2003).

(لغة وسائل الإعلام الحديثة)

هذا إلى عشرات البحوث والمقالات المتخصصة والعامة .

المترجم فى سطور:

عبد الكريم محمد حسن جبل

- أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب (جامعة طنطا).
- درَّس علوم اللغة العربية بعدد من الجامعات المصرية والعربية والأوربية والآسيوية.
- شارك في عدد من المؤتمراتَ المحلية والإقليمية والدولية.

من أعماله:

١- في مجال التأليف:

- في علم الدلالة (دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٥م.
- المخالفة بين الأبنية للتفريق بين المعاني أصلٌ من أصول العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٥م.
- نحو درس استقرائي لصيغ العربية ودلالاتها، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٥م.
- اللغة والمخ: دراسة في اللسانيات العصبية، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية، العدد ٥٧، ٢٠٠٧م.
- الدلالة المحورية في معجم مقاييس اللغة لابن فارس، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م،.

٢- في مجال التحقيق:

- تحقيق الجزء الثاني عشر من كتاب شرح "السيرافي" لكتاب "سيبويه" ، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٩م.

٣- في مجال الترجمة:

- علم الدلالة: ترجمة الفصل السادس من كتاب **Contemporary Linguistics** الذي حرره **William O'Grady** بمجلة "علوم اللغة"، المجلد التاسع، رقم ٣٥، ٢٠٠٦م.

الإشراف الفنـــــي: حـــــسن كامـــــل